تأليف
محمد إلهامي
باحث في التاريخ والحضارة الإسلامية

تقديم
د. مازن مطبقاني

نحو تأصيل إسلامي
لعلم الاستغراب





نحو تأصيل إسلامي

لعلم الاستغراب





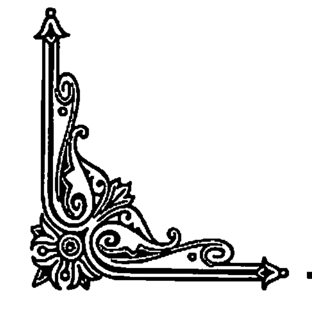
تأليف

محمد الهاشمي

باحث في التاريخ والحضارة الإسلامية

تقديم

د. مازن مطبقاني



دار التقوى

محفوظة
جميع الحقوق

اسم الكتاب : نحو تأصيل إسلامي لعلم الاستغراب
تأليف : محمد إلهامي
القطع : ١٧ × ٢٤ سم
عدد الصفحات : ٤٠٠ صفحة
سنة الطبع : ١٤٣٦هـ / ٢٠١٥م (طبعة جديدة)
الناشر : دار التقوى للطبع والنشر والتوزيع
طباعة : دار التقوى للطبع والنشر والتوزيع

الكتب والدراسات التي تصدرها الدار
تعبر عن آراء واجتهادات أصحابها

رقم الإيداع القانوني
2015/14890
الترقيم الدولي: 978-977-429-289-9

دار التقوى
للطبع والنشر والتوزيع

٨ ش البيطار - خلف الجامع الأزهر
ت: ٢٥١٤١٧٠٤ / ٤٤٧١٥٥٠٦ ٠٠٢٠٢/ ٠١٠٠١٥٩٢٢٧١
E-mail: dar-altakoa@hotmail.com
altakoabook@hotmail.com

إهداء

إلى روح أخى الشهيد أبى حمزة

عبد الرحمن فرج

من شهداء الثورة المصرية

فلقد كان قبل موته بشهور يؤسِّس عملًا لدراسة الاستغراب وتيسيره للشباب الإسلامى ويرى ذلك من ضرورات المرحلة. وقد انتدبنى للمحاضرة فى فصله الأول عن «الاستعمار الأوروبى لأفريقيا.. الوقائع والدلالات». ثم لم تمض مائة يوم حتى وقعت أحداث ٣٠/ ٦/ ٢٠١٣

فلكى لا يموت الحلم..

ولكى تبقى ذكرى الشهيد..

ولكى لا يُقال فرطوا فى أحلام إخوانهم من بعدهم..

كان هذا البحث.. فلعله أن يجعلنى من بين من يشفع فيهم يوم القيامة.

رحم الله أخى.. فلقد كان من خير الناس وأطهرهم وأبذلهم للمعروف وأسرعهم إلى العمل وأبطأهم فى الجدل!

المحتوى

مقدمة د. مازن مطبقاني

كتاب تمنيت لو كتبته، ولكن شاء الله أن يكون السبق لأخي الدكتور محمد إلهامي الذي أشعر بتقصيري عن معرفته قبل أن يغزونا تويتر (التغريد) ولكن عذري أنني طلّقت التاريخ وطلّقني حين رأيت أنه لا يدخل قسم التاريخ إلّا النطيحة والمتردية والذي لا يجد قبولاً في مكان آخر ، والأمر الآخر أنني عشت سنوات في قسم التاريخ أعاني من النظرة المادية لأن معظم أساتذتي ممن تخرج في الجامعات الأجنبية في أمريكا أو بريطانيا أو غيرها عدا أستاذي الدكتور جمال عبد الهادي مسعود يحفظه الله الذي كان مختلفاً وجعلنا نشعر أن الإسلام يحكم على التاريخ كما يحكم على العلوم كلها وأن له منهج مميز في دراسته، وعزفت عن التاريخ وبخاصة المعاصر لأن الخطوط الحمراء أحياناً تفوق الخطوط الأخرى فلا «ينفع تكلم بحث لا نفاد له» كما قال عمر بن الخطاب ﵁.

توجهت إلى الاستشراق وعشت سنوات أرى الجهود الكبيرة جدًّا في الاهتمام بالعالم العربي بل رأيت مكتبات في جامعات أمريكية وبريطانية تتوفر على كتب ومجلات ووثائق لا توجد في عالمنا العربي. لفت هذا انتباهي إلى أننا ينبغي أن ندرسهم وأكّد ذلك لي أكثر من موقف أو مرجع ففي كتاب رودي بارت عن الدراسات العربية والإسلامية تحدث مستشرق إلى باحث مسلم كانا يحضران مؤتمراً فقال له نحن ندرسكم فلماذا لا يكون عندكم دراسات للغرب؟

وفي المرة الثانية كان جون اسبوزيتو يحاضر في الجنادرية فقال: لدي عشرات الكتب والمقالات عن الإسلام والمسلمين فكم من المسلمين من لديه اهتمام حقيقي بالنصرانية أو بالنصارى؟

وربما لفت انتباهي لدراسة الغرب أنني كنت طالباً في البعثة الدراسية في أمريكا في الفترة من ١٣٨٨-١٣٩٣هـ(١٩٦٨-١٩٧٣م) وسكنت مع أسرتين إحداهما كانت أسرة منصِّر عاش في إيران أكثر من عشر سنوات والأسرة الثانية عَالِم في المحافظة على البيئة، وقرأت بعض كتابات إيرك فروم Erich Fromm وشاهدته على التلفاز فعرفت أننا بحاجة لمعرفتهم معرفة وثيقة ولكن أنَّي لي في تلك السن أن أعرف الطريق إلى هذه الدراسة.

وها أنا اليوم أقرأ كتاباً كاملاً في التأصيل الإسلامي لعلم الاستغراب، وأعجبني تعليق الدكتور عز الدين عمر موسى على محاضرتي عن إنشاء الدراسات الإقليمية في الجامعات السعودية: «لقد كنّا أُمة ذات توق معرفي وحُب للعلم فنشأت لدينا اهتمامات بالعالم كلّه حتى عهد صلاح الدين الأيوبي الذي كتب وزيره كتاب «الاعتبار» ولما خفت التوق المعرفي أو أصبح لدينا كبت معرفي وجهل وتجهيل جهلنا أنفسنا ولم نحاول أن نعرف غيرنا.

هذا الكتاب جاء ليس ليملأ فراغاً وهي عبارة لا أحبها وإنما جاء لينبه ويبصّر بالطريق الذي ينبغي أن نسلكه لدراسة الغرب وبالتالي دراسة العالم فمن قال إننا بحاجة لدراسة الغرب ولسنا بحاجة لدراسة الهند أو الصين أو كوريا أو ماليزيا أو تركيا؟

نعم نحن بحاجة لكل هذه الدراسات التي اهتمت بها دول العالم أجمع فقد رصدت أكثر من عشرين مركزًا في الصين للدراسات الأمريكية.

والكتاب رائع رائع ولا أريد أن أضيف ما يمكن أن يعكّر صفو القارئ وهو يمخر عبابه ويعب من أطايبه ولكني أكثر من ذلك أرجو أن يصل إلى أيدي المسؤولين لعلهم يتبنوا مثل هذه الدراسات أو يتنبه له أصحاب المال المخلصين لدعم هذه الدراسات

ولا بد أن يصحب دراسة الغرب حركة ترجمة واسعة لما أصدر بعض عقلاء الغرب وحكمائه منذ إريك فروم في القرن الماضي إلى فوكوياما المعاصر إلى جون هيور وغيرهم وهم ليسوا قلة فهم المنذرين للغرب من الانحدار والتفسخ والانهيار، كما أن من الخطوات العملية أن نتعلم من تجارب الأمم الأخرى في دراسة الغرب وفي الدراسات الإقليمية حتى تكون بدايتنا على أسس علمية منطقية.

أسأل الله أن يوفّق المؤلف، ويتقبل جهده، ويجعله في موازين حسناته .

والحمد لله رب العالمين.

د. مازن مطبقاني

٢٠١٥/٢/١٦

❁ ❁ ❁

مقدمة

بسم الله، والحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله ﷺ.

هل من الضروري أن يكون ثمة شرق وغرب؟! ولم يتوجب علينا أن يكون لنا «استغراب» كما كان لهم «استشراق»؟!

وإذا كنا من موقعنا الشرقي نشعر أن الاستشراق لم يكن نزيهًا ولا أمينًا، فلم ينبغي علينا أن نزيد الطين بلة باستغراب مقابل؟!

ألا يكون الأحسن أن نأخذ خير ما في الشرق وخير ما في الغرب فنجمعهما لصالح خير الإنسانية؟ ثم نستعين به على ما في الشرق من شر وما في الغرب من شر فيكون ذلك أنفع للبشر وأبعد عن تقسيمهم إلى شرق وغرب لا تنقطع العداوة بينهما؟!

هكذا باغتني صديق منذ عرف أني أعمل على بحث في موضوع «الاستغراب».

ثم طفق يقول: وما الغرب وما الشرق؟ ألم تسمع قول فوكو «إن البشر هُم من يصنعون تاريخهم»؟ فلماذا ينبغي أن نبقى أسرى لتقسيمات السابقين، إذا كان بالإمكان أن نعيد القسمة إلى ما هو خير وشر في القديم وفي الحديث، فنأخذ خير ما في الأصالة والقديم مع خير ما في المعاصرة والحديث، فإن الحضارة الإنسانية واحدة، ومثلما كان لهم سهم في تكون حضارتنا فإن لنا سهمًا في تكون حضارتهم - هذا إذا أصررت على قسمة الشرق والغرب!- فهل يليق بنا أن نُسلِّم لهم بحضارتهم ونحن شركاء فيها فنحاربهم ونحن في الحقيقة نحارب بعضًا منا يسكن في حضارتهم؟!

وقد رأيت أن هذه الأسئلة تمثل المدخل الأنسب للموضوع..

ذلك أنه ينبغي أن تسعى الإنسانية لمزيد من الوحدة والسلام لا لمزيد من التفرق الذي يثمر الحروب، وينبغي على الإنسانية أن تستحضر خير ما فيها شرقا وغربا، تاريخا وحاضرا، لصناعة مستقبل أفضل للجميع!

والحقيقة أن هذه الرؤية مسكونة في أعماقها برؤية غربية، تلك الرؤية التي ترى أن التاريخ يتطور للأمام؛ فالحاضر خير من الماضي والمستقبل خير من الحاضر، وهي تلك الرؤية التي ترى في الاختلاف والتنوع مدخلًا طبيعيًا وحتميًا نحو الحرب والنزاع، ومن ثم ينبغي إغلاق هذا المدخل بسور الوحدة ليتم السلام، بل تلك الرؤية هي التي تتوقع أن يكون «الاستغراب» هو ثأر الشرق من الغرب! والسيف المشهور على لسان المستغرب الذي يصيح في فم الحرب الضروس: يا لثارات المشرق!!

ومن هنا يجب أن نتوقف فنعالج هذه المسلَّمات قبل الإجابة عما أنتجته من أسئلة:

فإن قسمة الناس إلى أمم لم يصنعها السابقون الأولون فمن ثَمَّ يكون تقليدهم جمود ومَعَرَّة، بل هي قسمة إلهية في عقيدتنا، ثم إن هذه القسمة ليست مدخلًا للتنازع والحروب بل هي مجعولة للتكامل والتعاضد، ثم إنه ليس لأحد -بقسمة الأرض أو العرق أو اللون أو اللغة- فضل على أحد فيعطيه ذلك الحق في قهر غيره والسطو على نفسه وعلى ما بيده.

وكل هذا قد قيل في آية واحدة ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٞ ١٣﴾ [الحجرات: ١٣].

كما أن الحلم الذي يراود خيال الفلاسفة والشعراء على السواء، حلم توحد الإنسانية على خير ما في الماضي والحاضر وخير ما في الشرق والغرب، إنما هو

متحقق في الإسلام وحده؛ إذ الأُمة الإسلامية تتجاوز كل حواجز الاختلاف التي يظنونها مُفضيةً إلى التنازع والتقاتل؛ فرابطة الدين تجمعها وتتفوق على روابط اللون والعرق والأرض واللغة والجغرافيا والتاريخ، فكل من أسلم لله إنما هو فرد في هذه الأمة سواء كان في الشرق أو في الغرب، وهذا هو الاجتماع على «الفكرة، القيمة، المطلق...»، فالاجتماع على الدين هو في حقيقته اجتماع على خير ما في الإنسانية شرقها وغربها ماضيها وحاضرها.

ومن هنا فإن «الاستغراب» الذي ننادي به ليس ثأر الشرق من الغرب، بل هو – إن أصررنا على كونه ثأرًا – ثأر الخير من الشر، يطلب ما لدى الغرب من الخير بقدر ما ينبذ ما في الشرق من الشر، ويبتغي فهم الغرب كمقدمة لبذل الخير له ودعوته إليه.

إلا أن تواضع الناس على مصطلحات تحمل دلالات جغرافية ثقافية قد يُلزم باستعمال لفظ «الاستغراب»، مع كامل الوعي بأن ما نطرحه من فكر إنما يتجاوز حواجز الجغرافيا والثقافة، وإن لم ينسَ كونها حقائق واقعية لا يمكن تجاهلها، فيسلم بهذا من الأَسْرَيْن: أسر الواقع، وأسر الخيال!

إن «الاستغراب» الإسلامي ليس توجها نحو الغرب، بل هو توجه نحو الجميع غربًا وشرقًا، صحيحٌ أن الغرب الآن هو العدو القائم المهيمن، وهو ما يجعله أولى بالنظر والبحث والدرس، إلا أن رسالة الإسلام العالمية لا ترى في باقي الأنحاء إلا أقواما يجب التوجه إليهم بالفهم والدعوة كذلك، فهي ليست دعوة للغرب وحده!



لقد انهار حلم لطالما راود خيال الكثيرين على اختلاف نظراتهم: الحكماء العقلاء الفلاسفة ومعهم الشعراء العاطفيون الخياليون ومعهم السياسيون المعرفون

بالانتهازية إلى جانب الأتقياء الزاهدين، حلم الكثيرون من هؤلاء بعالم واحد، وأغراهم التقدم في وسائل الاتصال والمواصلات بأن الأمر ممكن، وقريب، ويلوح في الأفق ولا يحتاج إلا لبذل بعض الجهد.

كان الظن بأن أساس المشكلة سوء تفاهم ناتج عن الجهل وضعف التواصل، وحيث إن هذا السبب على وشك النهاية فلا بد أننا سنصل عند نهايته إلى بداية الحلم السعيد!

ومن المدهش أنه في اللحظة التي انهار فيها الاتحاد السوفيتي ولم يعد في العالم إلا قطب واحد هو أمريكا، حدث ما لم يكن متوقعا، وخرج من قلب القطب المنتصر من يتحدث عن أن الحلم السعيد قد تحقق ولكن «لنا نحن.. وحدنا»!!

كان هذا فوكوياما، أعلن أننا وصلنا إلى نهاية التاريخ، تلك النقطة التي تمثل هوسا غربيا حقيقيا ينتجه فلاسفتهم كل فترة[1]، وأن الليبرالية هي ذروة مسيرة الإنسان، وأن العالم سينقسم إلى قسمين «عالم ما بعد التاريخ» الذي يسكنه «إنسان ما بعد التاريخ»، و«عالم التاريخ» الذي يسكنه «إنسان التاريخ»، ووضع فوكوياما حدودا صارمة تضمن أن يتمتع إنسان ما بعد التاريخ بثروات إنسان ما قبل التاريخ دون أن يستطيع هذا الأخير مضايقة الأول في أرضه أو تهديده بسلاح ما، وأعلن أنه يجب التعامل بالقوة مع عالم وإنسان التاريخ.

تبخر حلم العالم الواحد والسلام العالمي والثقافة الواحدة وكافة مظاهر السعادة، هكذا في لحظة! وأشد بؤسًا من هذا الحلم الضائع أن فوكوياما تأمل في حال

(١) بخلاف كل ما كتبه الغربيون في المدينة الفاضلة من أحلام منذ أفلاطون (أقلهم خيالا) وحتى توماس مور (أكثرهم خيالا)، فإنه حتى هيجل وكَانْت كانَا في ذات حالة فوكوياما هذه في أجواء الثورة الفرنسية، كذلك وبدرجة أقل قليلا بعد انتهاء الحرب العالمية الأولى ثم الثانية، يتحدثون عن دولة واحدة وسلام عالمي.. ولنا نحن فقط! أيضا!!

ما بعد التاريخ فوجده مأساويًا كئيبًا!! لماذا يا ابن فوكوياما؟! لأن كل شيء موجود ومتوفر ومن ثم فلا منافسة ولا إبداع ولا كفاح ولا شيئًا مما يجعل للحياة طعمًا!

يا له من حلم جميل، اتضح أنه أقبح من كل قبيح!!

لكن فصول القصة لم تنتهِ بعد، فقد تصدى للرد عليه مُنظّر آخر شهير، هو صمويل هنتنجتون، بكتابه الأشهر «صدام الحضارات»، فدعاه لأن يكون واقعيا وعقلانيا وأن يبصر أن العالم ينقسم إلى حضارات، كل قوم يعكفون على هويتهم التي تميزهم وينفخون فيها الروح والحياة ويتمسكون بها وينسجون حولها أحلامهم وآمالهم، ومِن ثَمَّ فيجب علينا أن نحدد من نحن لنحدد من الذين ينبغي أن نكرههم ونعاديهم ونحاربهم!

وأجرى هنتنجتون قسمة حضارية جديدة جمع بها الغرب في وحدة واحدة استثنى منها السلافيين في شرق أوروبا، وحزم أمره ونصب معسكراته وأخذ يبدي توصياته بشأن ما سيكون عليه الحال في الملحمة الكبرى الموعودة: صدام الحضارات!

هكذا بدت لحظة الحلم الذي انتظره الناس طويلًا حينما تحقق!



لقد أطال هنتنجتون في إثبات أن البشر لا يفكرون بشكل عالمي، بل يفكرون بشكل أكثر خصوصية، يفكرون كأمم متميزة لا كأمة إنسانية واحدة، وكلامه هذا حق، إلا أن الشيء الثابت عنده وعند غيره أن هذا الاختلاف سيؤدي إلى الحرب حتما وقولا واحدا.

فأما تمايُز الناس إلى أمم فهو حق، وأما أن الاختلاف الرئيسي بينهم هو «ثقافي» فهذا حق أيضًا.

وكل ذلك عندنا حقيقة إلهية، نأخذها من قول ربنا: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ [آل عمران: ١١٠]، ففي هذه الآية معنى تمايز البشر إلى أمم، ومعنى تفاضل بعض الأمم على بعض، ثم معنى أن أُمة الإسلام هي أفضل هذه الأُمم لما تقوم به من خير لباقي الأُمم، ومعنى أن التقسيم الصادق للبشر إنما هو بالنظر إلى أديانهم.

إلا أن المسارعة إلى دفع هذا الاختلاف إلى الحرب هو المثير للتأمل!

ففي الإسلام لا يكون الاختلاف موجبًا للقتال، بل القتال مكروه في فِطرة الناس، ولا يؤمر به إلا لدفع باطل بإقامة حق، ولئن كان الصراع بين الحق والباطل مستمرًا فإن هذا يقع على جهة الإرادة الكونية لا الإرادة الشرعية، ثم إن الإسلام إذ يقاتل لا تكون النتيجة أن يتخذ ذلك سبيلًا لقهر المغلوبين وإدخالهم فيه.

بينما يطرح الفكر الغربي مسألة الحرب كضرورة حتى في لحظة النصر، فما إن سقط الخطر الأحمر حتى بحثوا عن خطر جديد: الخطر الأخضر!

وحيث إننا نحن هذا الخطر الأخطر، فما يبدو أن ثمة خيارًا أمامنا، بل حال أخي العرب الآن كحال نصر بن سيار إذ يحرض ويقول:

أبلغ ربيعة من مرو وإخوتهم ... فليغضبوا قبل ألا ينفع الغضب
ولينصبوا الحرب إن القوم قد نصبوا ... حربا تُحَرَّق في حافاتها الحطب
مَن كان يسألني عن أصل دينهمُ ... فإن دينهم أن يُقتل العرب

ولئن كنا سنغضب وننصب الحرب، فإننا قبل ذلك وبعده أهل دين ورسالة ودعوة، فليست تجزئنا الحرب وحدها أمام الله تعالى، بل لا يجزئنا إلا أن ندعوهم إلى الخير، فإن أبوا تعاونًا معهم على الخير وكف الشر، فإن أبوا إلا الحرب فما حيلة المضطر إلا ركوبها!

إلا أن كل هذه الأبواب: الدعوة، والتعاون، والحرب، تستلزم العلم!

فالعلم قبل القول والعمل؛ إذ لا يستغني عن العلم صاحب دعوة، ولا داعية تعاون، ولا نذير حرب.

فما كان من توفيق فمن الله وحده، وما كان من خطأ أو سهو أو نسيان فمني ومن الشيطان، والله ورسوله منه براء.

وأسأل الله تعالى أن يرزقنا الإخلاص في القول والعمل وفي السر والعلن.

وأن يعلِّمنا ما ينفعنا، وأن ينفعنا بما علَّمنا، وأن يزيدنا علمًا.

محمد إلهامي

١١/١٠/٢٠١٤



منهج البحث

يقول إدوارد سعيد عن الاستشراق: «غني عن القول إن تحديد المجال الدراسي نادرًا ما يتسم بالبساطة التي يزعمها حتى أشد الملتزمين به... كما أن المجال قد يتعرض لدرجة من التغيير الشامل -حتى مجالات البحث التقليدية، مثل فقه اللغة أو التاريخ أو اللاهوت- بحيث يصبح في عداد المحال تقريبًا وضع تعريف يصلح لجميع الأغراض»[1].

على أنه قال هذا وهو يصف علمًا شاع وذاع واستقرت له مؤسسات ونتجت عنه مئات الآلاف من الدراسات، فكيف بمن يحاول ضبط موضوع علم لم يبدأ بعد؟!

لقد كان الحرص الأول في هذا البحث منصبًا على أمرين؛

الأول: تحرير معنى «العلم» وكيف أنه يكتسب معنى فوق دلالته المطلقة في التصور الإسلامي.

والثاني: تحرير معنى «الاستغراب» ونقله من الدلالة على معنى جغرافي ثقافي إلى المعنى -كما هو في التصور الإسلامي- المتسع للنشاط الإنساني بغير تصنيف أرضي.

ولذلك بدأنا البحث بتمهيد نبين فيه ضرورة التفريق بين استعمال كلمة الاستغراب والاستشراق بالمعنى الجغرافي أو بالمعنى الثقافي.

وذكرنا لماذا اخترنا المعنى الثقافي والحضاري لكلمة «الاستغراب»، وكيف أن استعمالنا لمصطلح «الاستغراب» إنما هو لضرورة الواقع وكجزء واحد من مجال

---

(١) إدوارد سعيد: الاستشراق ص١١٠.

دعوتنا الممتد شرقًا وغربًا، وهذا مربط فرس في موضوع البحث ترتب عليه أمورًا في النظرة والدراسة(١).

وقد قسمت البحث إلى تمهيد وأربعة أبواب على هذا النحو:

يشتمل التمهيد على تحرير مصطلح الاستغراب وذكر تاريخ وتطور دلالته، ويلقي النظر على الدراسات السابقة في موضوع البحث، ثم يتحدث عما يجب أن يوجد قبل الشروع في الاستغراب.

ويتحدث الباب الأول عن «جذور الاستغراب»، وهو رصد لعلاقة المسلمين بالغرب منذ بداية ظهور الإسلام وحتى اللحظة الحالية، وهو منقسم إلى فصلين؛ الأول عن التاريخ السياسي الذي هو خلاصة تاريخ الأمم، والثاني عن التاريخ الحضاري ونوافذ الاحتكاك الإسلامي الغربي، وما لدينا من تراث في هذا الشأن يمثل جذور موضوع الاستغراب.

ويتحدث الباب الثاني عن الاستشراق فيستعرض نشأته وتطوره وما بقي منه، كما يلقي الضوء على إنجازاته ومساوئه، وما يمكن أن نستفيده من تجربة الاستشراق.

ويتعرض الباب الثالث لطلائع الاستغراب في التاريخ الحديث، من هم؟ ومتى بدأ ذلك؟ وماذا كان موقفهم من الغرب وكيف تفاعلوا معه؟ وما الذي أعاق هذه المجهودات عن أن تصل لثمرة ناضجة بعد؟ كما يستعرض الباب أغراضنا من الاستغراب وإلام نهدف من تأسيس هذا العلم؟

ويحاول الباب الرابع أن يتلمس البداية لتأسيس علم الاستغراب، فيتعرض إلى الأصول التي يجب ترسيخها والبناء عليها.

---

(١) أبرز مثال على ذلك أن المنطقة الواحدة قد تكون شرقا أو غربا بحسب من يهيمن عليها، فمثلا: الأندلس أو صقلية، هي في جزء من الشرق إن كانت تحت حكم المسلمين وتنبض بحضارتهم، وهي هي ذاتها تكون جزءا من الغرب في غير هذا الوقت.

ثـم يتعـرض إلـى البنـاء علـى هـذه الأصـول وإلـى مـا أسـميناه «معـالم الطريـق»، والمتمثلة في ما هي المجالات والأولويات التي يُبدأ بها، وما الذي نملكه من الفرص ونقاط القوة للشروع في الاستغراب؟ وما هـي الـصعوبات والمحاذير والعوائق التي تواجهنا وكيف نستطيع التغلب عليها.

وقد وضعت بعد كل باب خلاصة ما جاء فيه في صفحة أو صفحتين على الأكثر؛ لمزيد من إحكام الفكرة وضبطها وجمع أطرافها وإبرازها واضحة وموجزة.

تركـزت صعوبة البحـث في اتـساع أطرافـه، وفي كونـه غيـر مـسبوق، وفي احتياجـه لطيـف واسـع مـن القـراءة في موضـوعات تتباعـد طـولًا وعرضًـا: في الزمـان والمجـال كليهما، ثم في تعدد اللغات المطلوبة لإحكام المباحـث (فقـد كـان حقـه إجادة لغـات كالفارسية والهندية والتركية بجانـب العربيـة والإنجليزيـة، لتقيـيم جـذور الاسـتغراب وطلائعه الحديثة تقييمًا منضبطًا).

وفي الاضطرار إلى اللجوء إلى عموميات وتعميمات لا يتسع المقام للتوسـع في نقاشها، ولا يتفق أهل التخصص علـى كثيـر منهـا؛ فمـساحة الذاتيـة تأخـذ مـساحة قـد يُرى أنها جاوزت فيها قدرها، سواء في النقل والاختيار أو في الاستخلاص والنتائج.

كذلك فقد كانت ظروفي الشخصية من عوامل الصعوبة، إذ اضطررت منـذ وقـوع الانقلاب في مصر إلى الخروج منها، ثم ألزمتني الضرورات إلى التنقـل عـبر أكثـر مـن بلد، وفي كل مرة كنت أفقد مكتبتي، وكثيرًا من مصادر المعلومات، حتى لـم يـسعفني -إلى حد ما- إلا المكتبة الإلكترونية وشبكة الانترنت.

وللأسف الشديد فإن المحتوى العربي على الانترنت مـا زال فقيـرًا، واضـطررت أحيانًا إلى النقل عن المصدر الواحد من أكثر من طبعـة، وقـد سـجلت في الحاشـية مـا يميز بين الطبعتين، ثم وضعت تفاصيل كل منهما في قائمة المراجع.

إلا أن الخسارة كانت في فقد الكثير من المصادر التي كان ينبغي الاطلاع عليها، كما أن الظروف أخذت كثيرًا من الوقت والفراغ الذهني.. فالحمد لله على كل حال.

ولطبيعة الموضوع فقد تنوع منهج البحث بين الوصفي والتحليلي والمقارن بحسب العنصر المدروس، وفي بعض الأحيان كان لا بد من الانتقاء والاختيار من مساحة واسعة.

وقد اقتصرت في الاستدلال على الأحاديث الصحيحة، ولم ألجأ لغيرها إلا نادرًا: موضعًا أو موضعين على الأكثر، وفي هذين الموضعين كان ذكر هذه الأحاديث الضعيفة للاستئناس ولها شواهد صحيحة.

فإن كان الحديث قد رواه البخاري أو مسلم اقتصرت على ذكر الحديث فيهما، وإن لم يروياه اهتممت ببيان درجة صحته من خلال تعليقات الشيخ الألباني على أصحاب السُّنن، وفي كتبه الأخرى، وتعليقات الشيخ شعيب الأرناؤوط على مسند الإمام أحمد، فإذا ذكرت تصحيح الألباني أو شعيب ولم أذكر كتابًا فهو تعليق الألباني على من روى الحديث من أصحاب السُّنن وتعليق شعيب على أحمد، وإلا ذكرت اسم الكتاب.

ووضعت الاقتباسات النصية بين مزدوجين على هذه الهيئة «اقتباس» ووضعت في الحاشية توثيقه، فإن لم أضع المزدوجين فقد تصرفت في الصياغة بالمعنى ثم وضعت التوثيق في الحاشية، فإن كان المعنى من عندي وأردت الإحالة للتوسع في الموضوع أو ضرب المثال عليه قلتُ: انظر كذا وكذا.

وقد نقلت عن الكتب الأصلية مباشرة إلا في موضع أو موضعين أعوزني النقل لقوته وقيمته ولم أستطع العثور على المصدر الأصلي فنقلت عن المصدر الوسيط وذكرته لأداء الأمانة وتحميل صاحب النقل عهدته.

وثمّة أمور هي من الشهرة بمكان لا يُحتاج معه ذكر المصادر كما في سرد موجز تاريخ العلاقة السياسية بين الإسلام والغرب، ففي رأينا أن شفع هذا بمصادر هو تزيد وتكلف، كتكلف الدليل على النهار!

وربما يبدو أني أكثرت في النقل عن الغربيين، وإنما كان هذا متى كان الاقتباس عن الغربيين أقوى في الدلالة، سواء كان ذلك على مذهب «وشهد شاهد من أهلها» أو على مذهب «أهل مكة أدرَى بشِعَابها»، أي سواء كان ذلك في حق الإسلام والمسلمين أو في حق الغرب والغربيين، فمتى كان النقل عنهم أقوى في الدلالة نقلنا عنهم.

ولم يزل البحث يصيبه التغيير والتعديل مع تطور الفكرة وظهور الجديد، ولو زاد الوقت لزاد التغيير فيه، كما قال العماد الأصفهاني: «إني رأيت أنه لا يكتب إنسان كتابا في يومه إلا قال في غدِه: لو غير هذا لكان أحسن، ولو زيد كذا لكان يستحسن، ولو قدّم هذا لكان أفضل، ولو ترك هذا لكان أجمل .. وهذا من أعظم العبر، وهو دليل على استيلاء النقص على جملة البشر»[1].

وهذا مصداق قول الله تبارك وتعالى ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ ۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴾ [النساء: ٨٢].



(١) القنوجي: أبجد العلوم ١/ ٧٠.

تمهيد

ليس «علم الاستغراب» فكرة جديدة، بل هي فكرة قديمة أثارها الاحتكاك بالغرب خصوصًا في حقبة هيمنته الأخيرة التي تمتد إلى قرنين من الزمان، وحين انطلقت هذه الفكرة لأول مرة فإنما انطلقت من التأصيل الإسلامي بالأساس، ففي ذلك الوقت لم يكن في بلادنا مناهج تعلن القطيعة مع الأديان أو مع الإسلام.

إنما الجديد هو محاولة التأسيس لهذا العلم بنقله من مساحة الأمنيات والرغبات والأحلام إلى مساحة المشروع، أو كما يقول علماء الإدارة تحويل الرؤية إلى استراتيجية، ثم إلى أهداف، ثم إلى إجراءات.

ومن هنا فهذا البحث إنما يقع في مرحلة التحويل من الرؤية إلى الاستراتيجية.

ويتطلب هذا النظر في بعض أمور قبل الدخول إلى الموضوع، أهمها -في موضوعنا هذا- مسألة المصطلح وتطور معناه، وصدق دلالاته على المعنى المطلوب، ثم الدراسات السابقة التي تناولت الموضوع وما انتهت إليه فيه.

وحيث نتحدث عن تأصيل إسلامي لعلم يُرجى تأسيسه، فينبغي التوقف عند التصور الإسلامي للعلم نفسه، وأثر هذا التصور على موضوع علم الاستغراب.

لهذا نجعل هذا التمهيد في هذه الثلاثة:

- **حول مصطلح «الاستغراب».**
- **الدراسات السابقة.**
- **الاستغراب الذي نريد.**

حول مصطلح «الاستغراب»

ينتمي مصطلح «الاستغراب» إلى فئة الكلمات التي تستعمل في العلوم الإنسانية ولا تعني بالضبط معناها اللغوي، وإنما هو مصطلح متولد من تفاعل وتطور تاريخي ثقافي وحضاري، ولهذا يتوجب علينا أن نلقي الضوء حول ما نعنيه بكلمة «الاستغراب» بدقة، وذلك من خلال أمرين:

- **الأول: تطور دلالة المصطلح**
- **الثاني: بطلان المقياس الجغرافي/ الثقافي.**



تطور دلالة المصطلح

ظلت كلمة «الاستغراب» تستعمل بمعناها اللغوي المباشر حتى الربع الأول من القرن العشرين، وهو المعنى الذي يدور حول الدهشة والحيرة من غرابة شيء ما، وأصل الغرب في اللغة البُعْد، ومنه جاء معنى المبالغة حين يقال أغرب في الضحك أو استغرب ضاحكًا أي بالغ فيه(١).

ثم زاد إلى دلالتها معنى جديد، وهو التعبير عن الافتتان بالغرب وحضارته ومتابعة الغربيين في أنماط النظر والفكر والتصورات.

وأقدم ما وجدناه من استعمال لفظ «الاستغراب» بهذا المعنى كان عند أديب العرب مصطفى صادق الرافعي في كتابه تاريخ آداب العرب(٢) في أوائل القرن العشرين، فقد صدر هذا الكتاب (١٩١١م).

ثم عند د. زكي مبارك في أواخر الثلاثينيات في مجلة الرسالة، فقد كتب ضمن قصته عن «ليلى المريضة في العراق» .

هذه العبارة: «وأخذت ليلى تقلب الجرائد بحضور السيدة نجلاء فرأت في السياسة الأسبوعية مقالة في رثاء أستاذ مستشرق اسمه بول كازانوفا كتبها أستاذ مستغرب اسمه طه حسين. وتدخل الشيخ دعّاس ليشرح المراد من الاستغراب والاستشراق»(٣).

---

(١) ابن منظور: لسان العرب ١/ ٦٤٢، الفيروز آبادي: القاموس المحيط ص١٥٤، الزبيدي: تاج العروس ٣/ ٤٧٤.

(٢) مصطفى صادق الرافعي: تاريخ آداب العرب ١/ ١٨.

(٣) مجلة الرسالة، العدد ٢٤٠، بتاريخ ٧/ ٢/ ١٩٣٨م.

وأكمل القصة في العدد التالي فقال: «أفاض الشيخ دعاس في شرح الاستشراق والاستغراب ففهمنا أن المستشرق هو الذي يدّعي علم الشرق، والمستغرب هو الذي يدّعى علم الغرب»[١].

ومنذ ذلك الوقت انتشر هذا الاستعمال، حتى لنجده عنوانًا لرسالة كتبها الشاعر علي سرطاوي من العراق ونشرت في مجلة الرسالة المصرية، عنوانها «المستغربون»، حمل فيها حملة شديدة على المنبهرين بالغرب، وعرَّض فيها بطه حسين وأمثاله[٢].

ثم اضطرد استعمال اللفظ بهذا المعنى في كتابات المصلحين الإسلاميين منذ أوائل الخمسينيات، نذكر منهم: الشيخ البشير الإبراهيمي في مذكرة (بتاريخ ٢٠ مارس ١٩٥٣م) عَرَض فيها جهود جمعية العلماء الجزائريين، قال: «لولا هذه الجمعية لضاع على العرب نصف عددهم، وهو ثلاثون مليونًا هم سكّان المغرب العربي، وجرفهم تيّار الاستغراب والبربرة، ولولا هذه الجمعية لضاع على المسلمين هذا العدد من الملايين»[٣].

ومنهم الأديب الكبير شيخ العربية أبو فهر محمود شاكر في مقاله «وهذه هي أخطارها» (بتاريخ يناير ١٩٦٥م) ضمن ردوده على لويس عوض في مجلة الرسالة[٤]، والشيخ مناع القطان في «تاريخ التشريع الإسلامي»[٥]، وعبد الرحمن حبنكة الميداني في «أجنحة المكر الثلاثة»[٦] وقد صدرت طبعته الأولى (١٩٧٥م) وأصله حلقات إذاعية بثت أواخر الستينات، والشيخ محمد الغزالي في «ظلام من

(١) مجلة الرسالة، العدد ٢٤١، بتاريخ ١٤/ ٢/ ١٩٣٨م.

(٢) مجلة الرسالة، العدد ٨٣١، بتاريخ ٦/ ٦/ ١٩٤٩م.

(٣) محمد البشير الإبراهيمي: آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي ٤/ ١٦١.

(٤) انظر المقال في كتابه: أباطيل وأسمار ١/ ١٧٧ وما بعدها.

(٥) مناع القطان: تاريخ التشريع الإسلامي، ص٣٩٩.

(٦) عبد الرحمن حبنكة الميداني: أجنحة المكر الثلاثة ص١٣٧.

الغرب»[١] وقد صدرت طبعته الأولى (١٩٧٩م)، والشيخ محمد قطب في «مذاهب فكرية معاصرة»[٢] وقد صدرت طبعته الأولى (١٩٨٣م)، وشاعت الكلمة والوصف في كتابات المفكر المجاهد الشهيد عبدالله عزام في الثمانينات[٣]، وللشيخ الأصولي د. عبد العظيم الديب فصل في كتابه «منهج الغربيين في الكتابة عن التاريخ الإسلامي» (أكتوبر ١٩٩٠م) عنونه بقوله: إلى المستغربين[٤]، واستعملها كذلك العلامة القرضاوي في العديد من كتبه[٥].

وقد استعملها المترجمون أيضًا بهذا المعنى، نذكر منهم د. محمد عبد الهادي أبو ريدة حين ترجم كتاب «وجهة العالم الإسلامي» للمستشرقيْن: هاملتون جيب ولويس ماسينيون[٦] وكان ذلك عام ١٩٣٤م، والأديب الكبير عباس العقاد حين ترجم مقتبسات من بحوث غربية ونشرها في كتابه «ما يقال عن الإسلام»، وكان ذلك عام ١٩٦٤م[٧]، ومحمد كاظم السباق حين ترجم كتاب «الحجاب» لأبي الأعلى المودودي[٨].

هذا وإن كانت الغلبة في التعبير عن هذا المعنى قد حازتها ألفاظ: التغريب، التغرب، التفرنج ونحوها.

---

(١) محمد الغزالي: ظلام من الغرب ص١٤٨.

(٢) محمد قطب: مذاهب فكرية معاصرة ص٥٨٠.

(٣) من هذه الكتب: عشاق الحور، خضم المعركة، كلمات من النار، خط التحول التاريخي.

(٤) د. عبد العظيم الديب: المنهج في كتابات الغربيين عن التاريخ الإسلامي ص٣٦ وما بعدها.

(٥) من هذه الكتب: فتاوى معاصرة (الجزء الثاني)، فقه الأولويات، الثقافة العربية الإسلامية، الصحوة الإسلامية وهموم الوطن العربي والإسلامي، الإسلام والعلمانية، قضية تطبيق الشريعة.

(٦) جب وماسينيون: وجهة العالم الإسلامي ص٤٢، ٤٣.. وهنا أول ذكر للفظ الاستغراب، ولكنه ينتشر بعد هذا في الكتاب.

(٧) عباس العقاد: ما يقال عن الإسلام، ضمن «موسوعة العقاد الإسلامية» ٥/ ٣٣٧.

(٨) أبو الأعلى المودودي: الحجاب ص١١٩.

ثم أضيف لكلمة «الاستغراب» معنى آخر بكتابات حسن حنفي في الثمانينات، وهي الكتابات التي تُوِّجت بمؤلفه «مقدمة في علم الاستغراب» والصادر عام (١٩٩١م)، وهو معنى نقيض «الاستشراق» ويهدف إلى دراسة الغرب برؤية شرقية، وهذه الدعوة نفسها قديمة جدًّا لكنها لم تُسَمَّ بهذا الاسم قبل كتابات حنفي فيما نعلم، لكن هذا الاسم -لكونه مختصرًا وقريبًا من الظاهرة الثقافية الواسعة التأثير وهي ظاهرة الاستشراق- لاقَى قبولًا، وتلقفه بعد هذا عديد من المفكِّرين وإن خالفوا حسن حنفي في كل شيء تقريبًا إلا في ضرورة وحاجة الأُمة لدراسة الغرب برؤية ذاتية معتزة بنفسها، وسرى استعمال الكلمة في مؤتمرات علمية وندوات وبحوث ومقالات في الصحف والمجلات العلمية والجماهيرية. واليوم صارت الكلمة عَلَمًا على هذا المعنى في غالب الأحوال.

ولكن ثمة من لم يزل يستعمل «الاستغراب» بمعنى «التغرب أو التغريب»؛ من أولئك د. عبدالله الشارف في كتابه «أثر الاستغراب في التربية والتعليم بالمغرب»(١) وكتابه «الاستغراب في الفكر المغربي المعاصر»(٢)، ود. محمود خليف حضير الحياني في كتابه «الاستشراق والاستغراب»(٣)، ولا يزال لفظًا مستعملاً بهذا المعنى في بحوث علمية وفي الصحافة والإعلام، وإن كان الأشهر هو لفظ «التغريب» فيما أخذ لفظ «الاستغراب» معنى دراسة الغرب برؤية شرقية.

ونحن في هذا البحث سنجري بطبيعة الحال على استخدام الاستغراب بهذا المعنى المقصود من البحث وهو: دراسة الغرب برؤية ذاتية شرقية.

(١) د. عبد الله الشارف: أثر الاستغراب في التربية والتعليم بالمغرب، منشورات كلية الآداب بتطوان، ٢٠٠٠م.

(٢) د. عبد الله الشارف: الاستغراب في الفكر المغربي المعاصر، منشورات نادي الكتاب، تطوان، المغرب، الطبعة الأولى ٢٠٠٣.

(٣) د. محمود خليف حضير الحياني: الاستشراق والاستغراب ص٩.

بطلان المقياس الجغرافي/ الثقافي

لا تُطلق ألفاظ الشرق والغرب في بحوث العلوم الإنسانية إلا ويراد بها المعنى الثقافي الحضاري، ولا يخطر ببال أحد أن تكون تعبيرًا عن الاتجاه أو الموقع الجغرافي، فألفاظ الشرق والغرب وما يتفرع عنها من تصريفات تتضمن مدلولًا حضاريًا ثقافيًا يُفَرِّق بين حضارة الغرب -إن صحَّ أنها حضارة واحدة، وهو لا يصح- وما سواها من الحضارات التي لا يمكن اعتبارها حضارة واحدة بأي حال من الأحوال.

لكن الصراع القديم المستمر بين حضارة شرقية وأخرى غربية -بالمقياس الجغرافي- يمثل واحدًا من أهم معالم التاريخ الإنساني، إن لم يكن المَعْلَم الأهم، فلذلك جرت العادة على اختزال هذا في كلمات من قبيل صراع الشرق والغرب، وفي إطار هذا الصراع -الذي امتدت حدوده شرقًا وغربًا وشمالًا وجنوبًا بما قضى على كل مقياس جغرافي- اكتسبت الألفاظ هذه المدلولات الثقافية الحضارية.

وموجز هذا أنه «كان في العالم -منذ زمن قديم- قوتان تصطرعان وتتنازعان السيادة إحداهما في الشرق والأخرى في الغرب، تمثل ذلك في الصراع بين الفرس والروم، ثم في الصراع بين المسلمين والروم، ثم في الصراع بين المسلمين والصليبيين، ثم في الصراع بين العثمانيين والأوروبيين مدًّا وجزرًا، ثم كان آخر فصول هذه الملحمة الصلات بين الشرق ممثلا في آسيا وإفريقية، وبين الغرب ممثلاً في أوروبا وأمريكا»[1].

(١) محمد محمد حسين: الإسلام والحضارة الغربية ص٧.

وإن «لعبة مقابلة الغرب الفاضل بالشرق الأقل فضيلة، بدأت منذ اليونان القدماء، الذين استخدموا الغرب ليعني اليونان الحرة، واستخدموا الشرق ليعني الاستبداد الفارسي»(١).

وفيما بقي لفظ «الغرب» ثابتًا أول الأمر فقد «تعرضت لفظة (الشرق) في أعقاب الفتوحات الإسلامية لتغيير آخر في معناها أو إذا شئنا دقة أكثر؛ تعرضت لاتساع في نطاق مدلولها.

فقد انطلق الفاتحون في ذلك الوقت من شبه الجزيرة العربية لا ناحية الشمال والشرق فحسب، بل إلى ناحية الغرب كذلك، وزحفوا في غضون عشرات من السنين إلى مصر وشمال إفريقية حتى بلغوا المحيط الأطلسي، واستوطن الإسلام قطاع بلدان شمال إفريقية دِينًا، وتعرب السكان تدريجيًا، وهم الأقباط في مصر والبربر في غربها.

ومنذ ذلك الحين تعتبر مصر وبلدان شمال إفريقية ضمن الشرق، ويختص الاستشراق حتى بشمال غرب إفريقية الذي يسمى بالمغرب أي بلد غروب الشمس، وإن كان اسمه -الاستشراق- يفترض أنه يختص بالبلدان الشرقية دون غيرها، ومهما يكن من أمر فإن الاسم لا يبين بوضوح مستقيم المقصود منه بالضبط»(٢).

وعلى كل حال، فليس «استعمال كلمة الشرق في تاريخ الحضارة متفقًا مع معناها الجغرافي تمامًا، فإن بلدان الشرق الأدنى المتحضرة كان يجب تسميتها في روسيا بالجنوب، وكذلك إفريقية الشمالية التي تعد جزءًا من الشرق الإسلامي، جنوبية بالنسبة إلى أوروبا.

وابتدأ استعمال كلمة الشرق بمعنى البلاد المتحضرة مقابلًا للغرب في عصر الإمبراطورية الرومانية.

---

(١) ريتشارد كوك وكريس سميث: انتحار الغرب ص١٨.

(٢) رودي بارت: الدراسات العربية والإسلامية في الجامعات الألمانية ص١١، ١٢.

ولم يكن يوجد في نظر اليونان إلا الجنوب الحار المتحضر والشمال البارد موطن المتوحشين، وكانوا في تقسيمهم العالم إلى أقسامه المختلفة يسيرون على هذا الأساس نفسه، فيجعلون أوروبا شمالي آسيا وإفريقية معًا»[١].

ثم تغير مدلول كلمة الغرب كذلك، فصار يعني «البلدان التي استوطنها الأوربيون، والسكان فيها يشكلون أكثرية واضحة من شعب من سلالة أوروبية، والثقافات والأفكار مشتقة إلى حد كبير من أوروبا... باختصار: أمريكا الشمالية وأوروبا واستراليا»[٢].

واصطلاح الغرب نفسه بهذا المعنى «اصطلاح حديث جرينا فيه على ما اصطلح عليه الأوروبيون في عصور الاستعمار من تقسيم العالم إلى شرق وغرب، يعنون بالغرب أنفسهم، ويعنون بالشرق أهل آسيا وإفريقية الذين كانوا موضع استعبادهم واستغلالهم، وجرينا نحن على هذا الاستعمال، والكلمة وإن كانت حديثة اصطلاحيًا واستعمالًا فهي قديمة في مفهومها ودلالتها»[٣].

وقد «استخدم التعبير (الغرب، الحضارة الغربية) لأول مرة في الأزمنة الحديثة من الأمريكيين المحبين للإنجليز؛ ليؤكدوا اللغة المشتركة والحضارة المشتركة والمصالح المشتركة للولايات المتحدة والإمبراطورية البريطانية في السنوات التي سبقت الحرب العالمية الأولى»[٤]، وظل «طوال أكثر من مائة عام هو اللفظ المقبول عموما للثقافة وللواقع السياسي لأمريكا وأوروبا»[٥].

---

(١) ف بارتولد: تاريخ الحضارة الإسلامية ص٣٥.

(٢) ريتشارد كوك وكريس سميث: انتحار الغرب ص١٧.

(٣) محمد محمد حسين: الإسلام والحضارة الغربية ص٧.

(٤) ريتشارد كوك وكريس سميث: انتحار الغرب ص٤٢.

(٥) ريتشارد كوك وكريس سميث: انتحار الغرب ص١٨.

وإذن، فثمَّة اتفاق عام بين الجميع على أن لفظ الشرق والغرب في بحوث الحضارة والتاريخ ليس معبرًا عن حقيقة جغرافية.

إلا أن الخلاف يبرز عند تحويل هذا المعنى الثقافي الحضاري إلى حيز جغرافي، فيُنظر إلى الغرب على أنه كتلة جغرافية وثقافية، وينظر إلى الشرق على أنه كتلة جغرافية وثقافية، ثم يمضي في مسار البحث واضعًا الشرق أمام الغرب بهذا المفهوم.

وقد كان يمكن ألا نتعرض لهذا الأمر في سياق بحثنا هذا لأن الخلاف حوله ضعيف والحجة فيه شديدة التهافت، لولا أن الذي اعتمد هذه القسمة هو حسن حنفي الذي صك مصطلح «الاستغراب» ونَظَّر له في كتابه «مقدمة في علم الاستغراب».

وسيأتي معنا التعليق على الكتاب بعد قليل، لكن القصد أنه ليس من أحد ذي أهمية -في سياق بحثنا- قد تابعه على هذه الفكرة، بل سائر من كتب في هذا الشأن كان في العموم من الإسلاميين، وهم ينطلقون من رؤية إسلامية دينية، لا ترى أن الخلاف بين الشرق والغرب هو في كونهما كتلتين جغرافيتين ثقافيتين مختلفتين، بل الأمر على غير هذا تمامًا.

وموجز القول في هذه المسألة كالآتي:

لقد أنشأ الإسلام وضعًا جديدًا تمامًا، وقد انخلعت الأمة الإسلامية من إرثها القديم الذي لم يبقَ منه في أكثر الأحوال إلا شذرات غير مؤثرة، وصارت أُمة إسلامية بصيغة جديدة لم تعد تقتصر على العرب ولا على الشرق وحده، بل نستطيع القول إن الغرب -بالمقياس الجغرافي- كان أحسن استقبالًا للإسلام إلى الحد الذي تخلت شعوب الشام وشمال إفريقيا عن لغاتها وتعربت فيما ظلت اللغة الفارسية وما وراءها من لغات الشرق حية حتى الآن، وبهذا انتهى معنى كلمة «الشرق» بمدلولها الجغرافي لتصير دالة على الشعوب المسلمة والحضارة الإسلامية في معظم الأحوال، حتى إن

أمم الشرق البعيدة كالصين واليابان احتيج في وصفها لمزيد بيان فيُقال «الشرق الأقصى أو الأبعد»، ومن هنا فلا يجوز قياس الأمر جُغْرافيًا.

كذلك فإن النظرة الإسلامية نظرة دينية تقيس على الهداية والضلال لا على الشرق والغرب، فالجاهليات القديمة في الشرق أو في الغرب هي جاهليات، بل إن الغرب أقرب إلى الإسلام لأنهم من أهل الكتاب، ولقد كانت عاطفة المسلمين مع الروم ضد الفرس منذ الأيام الأولى للدعوة الإسلامية.

ومما يثبت خطأ النظرة الجغرافية أن الإسلام والمسيحية واليهودية جميعهم ولدوا في الشرق، فلو أنه مجرد تقسيم جغرافي لكان الصراع الحضاري القائم هو صراع «الأديان الثلاثة» في جانب مع الغرب «الملحد، الوثني، العلماني» في جانب آخر، لكن هذا ليس صحيحًا، بل لقد ساد الإسلام على الشرق، وسادت المسيحية على الغرب، ورأى الغربيون عبر تاريخهم الوسيط والحديث أنهم مكلفون بتحرير قبر المسيح (الموجود في الشرق) ولم يعتبروا أنه مجرد تراث شرقي قديم لا يعبر عنهم ولا يؤثر فيهم.

وأدلُّ من هذا على ما نقول: أن الجيوش الأوروبية «العلمانية» (زعموا!) حين انتصرت في الشام اعْتُبِر هذا النصر في أوروبا «نهاية الحملات الصليبية» وحظي القائد البريطاني (اللنبي) بالكثير من الألقاب الصليبية الفاخرة في الصحف والمطبوعات[١]، وحتى قبل سنين خلت كان زعيم أمريكا يدشن حربه على «الإرهاب» فانفلت لسانه وقال عنها «حملة صليبية»!

ولقد كانت هذه هي نظرة الشرق أيضًا للصراع القائم إلى قبل أن يهل علينا أمثال حسن حنفي، وذلك قبل أن يثمر الغزو الفكري ومؤسسات الاحتلال في بلادنا، ففي

---

(١) Stefan Goebel: The Great War and Medival Memory, p.115

ذلك الوقت كان تعريف المسألة الشرقية هو أنها «مسألة النزاع المستمر بين المسيحية والإسلام، أي مسألة حروب صليبية متقطعة بين الدولة القائمة بأمر الإسلام وبين الدول المسيحية»[1].

ولقد كان المكان الواحد يعتبر شرقًا إذا كان تحت حكم المسلمين، فإذا انتقل إلى حكم أوروبا صار من الغرب، وهذا واضح في المؤلفات التاريخية والحضارية لدى المسلمين والغربيين معًا، فمناطق الأندلس وصقلية وجنوب فرنسا وشرق أوروبا تُعَدُّ من الشرق إذا كانت من بلاد المسلمين، فإذا أزيح المسلمون عنها صارت من الغرب.

على أنه إن كان يستقيم للأوروبيين -بنوع من التجاوز والتنزل- أن يسموا دراستهم للشرق استشراقًا باعتباره يشملنا ويشمل معنا الهند والصين واليابان، فإن هذا «الاستشراق» لا يشابه ولا ينبغي أن يشابه «الاستغراب» الذي نقصده، فنحن قومٌ وسطٌ بأكثر من معنى بما فيه هذا المعنى الجغرافي، نحن مكلفون بأن ندعو شرقنا وغربنا وشمالنا وجنوبنا، وإذا كان العالم يصطلح على قول «الشرق» و«الغرب» وإذا اضطررنا لاستعمال اللفظ، فيجب أن ننتبه إلى تحرره لدينا من المعنى «الجغرافي» إلى المعنى «الثقافي»؛ فالإسلام هو المركز والمسلمون هم قلب العالم، ولئن كان استغراقنا الآن في «الاستغراب» فإنما هو لضغط الواقع؛ إذ الصراع القائم هو بيننا وبين الغرب بالمعنى الثقافي والجغرافي معًا، ولكننا مكلفون بدراسة ودعوة شرقنا وغربنا في كل وقت.

وهذه الدراسة تركز على الغرب بهذا المعنى الثقافي أولاً، وبهذا يتضح أننا نخالف قول من جعلوا الشرق «ككتلة جغرافية وثقافية وحضارية» في مقابل الغرب «ككتلة جغرافية وثقافية وحضارية»، فتلك قسمة لا يقرها الإسلام.

---

(١) مصطفى كامل باشا: المسألة الشرقية، ضمن «مصطفى كامل باشا في ٣٤ ربيعا» ٧/ ٣.

الدراسات السابقة

ذكرنا أن الدعوة إلى دراسة الغرب برؤية ذاتية (إسلامية، شرقية، عربية ... إلخ) هي دعوة قديمة، وأن تسميتها بالاستغراب هي تسمية حديثة ظهرت أول مرة في كتاب حسن حنفي «مقدمة في علم الاستغراب» الصادر ١٩٩١م.

لكن ورغم مرور نحو ربع القرن على صدور الكتاب إلا أن الدراسات التي كتبت في التأصيل لهذا العلم ورسم صورته تكاد تكون منعدمة، إذ لم يصدر غير هذا الكتاب فيما نعلم، وإن كتبت العديد من الأوراق البحثية ومباحث وفصول ضمن كتب أخرى مع العديد من المقالات المنشورة في مجلات علمية أو صحف سيارة.

وهذا ما وقفنا عليه من هذه الدراسات:

حسن حنفي
مقدمة في علم الاستغراب

يبلغ هذا الكتاب نحو تسعمائة صفحة، لكن الحديث عن «علم الاستغراب» فيه محصور في المائة الأولى، بينما كان باقي الكتاب استعراضًا لفلسفة الغرب ومراحلها وتطورها وأعلامها وإنتاجهم، وهذه الصفحات المائة كان يمكن كتابتها في نصف هذا العدد أو أقل، ففيها كثير من الإطناب والتكرار الذي يبلغ حد الإملال، حتى لم تكن ثمة فكرة مهمة إلا وقيلت أربع مرات بحد أدنى في صياغات مختلفة دون إضافة جديد.

والكتاب جزء من المشروع الفكري لحسن حنفي الذي سمَّاه «التراث والتجديد»[1]، وهو ذو ثلاث شُعب: الموقف من التراث، الموقف من الآخر (الغرب)، الموقف من الواقع.. فهو الكتاب المعبر عن الشُّعبة الثانية.

وخلاصة أفكاره هي:

١ - أن علم الاستغراب هو رد فعل على الاستشراق وعلى التغريب كليهما، فهو «الوجه الآخر والمقابل بل والنقيض من الاستشراق»[2]، وقد «نشأ في مواجهة

---

(١) صدر كتاب «التراث والتجديد» لأول مرة عام ١٩٨٠م، وأراده حسن حنفي أن يكون كمقدمة عامة لمشروعه، وحين تحدث عن «الموقف من الغرب» لم يستعمل لفظ «الاستغراب»، فهذه التسمية جديدة نشأت بعد عشر سنوات حين كتب كتاب «مقدمة في علم الاستغراب» باعتباره «البيان النظري» للشعبة الثانية من مشروعه كما أسماه. انظر: حسن حنفي: التراث والتجديد ص١٨٠ وما بعدها.

(٢) حسن حنفي: مقدمة في علم الاستغراب ص٢٩ (وانظر ص٤٩).

التغريب»[1] لأنه «رد فعل على التغريب ومحاولة انتشال الأنا الحضاري من الاغتراب في الآخر»[2].

٢- وانطلاقًا من هذا فإن علم الاستغراب هو: «إبداع الأنا (الشرق) في مقابل تقليد الآخر (الغرب)، وإمكانية تحويل الآخر إلى موضوع للعلم بدلًا من أن يكون مصدرا للعلم»[3]، فهو «الرد على المركزية الأوروبية»[4] حيث «يهدف إلى فك العقدة التاريخية المزدوجة بين الأنا والآخر، والجدل بين مركب النقص عند الأنا ومركب العظمة عند الآخر»[5]، وإلى «القضاء على أسطورة الثقافة العالمية[6]، والحضارة الممثلة للحضارات البشرية جميعا، مطبقا المنهج التاريخي الذي طالما طبقه الاستشراق على الحضارة الإسلامية، وكذلك منهج الأثر والتأثر، ومنهج التحليل ومنهج الإسقاط، التي طالما عانينا منها في دراسات المستشرقين الأوروبيين للحضارات اللا أوروبية»[7].

٣- علم الاستغراب هو تعبير عن نضوجنا الفكري والحضاري، فهو «نقل الموضوع من مستوى الانفعال إلى مستوى الفعل، ومن ردود الأفعال إلى التحليل العلمي الرصين»[8]، وناتج «ضرورة التحول من النقل إلى الإبداع»[9].

---

(١) حسن حنفي: مقدمة في علم الاستغراب ص٢٢.
(٢) حسن حنفي: مقدمة في علم الاستغراب ص٦٢، ٦٣. (وانظر: ص٣١، ٣٢).
(٣) حسن حنفي: مقدمة في علم الاستغراب ص٥.
(٤) حسن حنفي: مقدمة في علم الاستغراب ص١٩.
(٥) حسن حنفي: مقدمة في علم الاستغراب ص٢٩ (وانظر: ص٤٩)
(٦) بمعنى: الثقافة المهيمنة أو الحاكمة أو العليا.
(٧) حسن حنفي: مقدمة في علم الاستغراب ص١٩، ٣١ (وانظر: ص٣٦)
(٨) حسن حنفي: مقدمة في علم الاستغراب ص١٦.
(٩) حسن حنفي: مقدمة في علم الاستغراب ص١٩.

٤- ولا يقبل حسن حنفي أن يدخل في علم الاستغراب ما يكتبه الغربيون عن أنفسهم ولا ما يكتبه المتغربون منا عن الغرب، فالمقصود عنده هو «مادةٌ من جهد الأنا وإبداعه وليست من إفراز الآخر وقيئه»(١). (وتأمل في دلالة لفظ: قيئه).

ويعترف حسن حنفي بأن استقرار هذا العلم قد يحتاج إلى أجيال، وأنه قد لا يكون هو شخصيًا ممن سيدرك هذا، إذ هو من جيل يتم فيه التحول من القديم إلى الجديد، وتعبر فلسفات التاريخ فيه عن الوعي المكبوت، فهو يتطلع إلى تحول فلسفات التاريخ إلى علوم اجتماعية دقيقة(٢).

وفي ما يطرحه حسن حنفي عدد من الانتقادات -وهذا مع إعمال حسن الظن وانتهاج منهج الجمع بين أقواله وحمل متشابهها على صريحها بما يرفع كل وجه تناقض ممكن- أهمها:

١- أن رؤيته للشرق والغرب رؤية جغرافية خالصة: شرق وغرب، وهذا موضع افتراق كبير وأساس خاطئ منذ البداية؛ فهو يرى أن جذور تراثنا الإسلامي موجودة في حضارات الشرق القديم: مصر وكنعان وآشور وبابل وفارس والهند والصين، وأن التراث (الإسلامي) ورث هذه الحضارات وتمثلها، فالإسلام -كما يبدو من كلامه- هو «التطور» الأخير للتوحيد، وحضارات الشرق القديم جزء من مكوناتنا الحضارية، وتأثير الحضارات الشرقية في الغرب في حقبة ما قبل الإسلام هو جزء من علم الاستغراب(٣).

وهو قول باطل، وفيه الكثير من المغالطات الظاهرة؛ فلا يستطيع أحد أن يزعم أن الإسلام منذ ظهوره وحتى صدر الدولة الأموية قد تأثر بأفكار وعقائد حضارات

---

(١) حسن حنفي: مقدمة في علم الاستغراب ص٢٢.

(٢) حسن حنفي: مقدمة في علم الاستغراب ص٣٥.

(٣) حسن حنفي: مقدمة في علم الاستغراب ص٥٧.

أخرى، وهذا مما يتفق عليه المؤمنون وغيرهم، فأما المؤمنون فلإيمانهم بأنه وحيٌ مطلقٌ خالصٌ من كل نزعة أرضية، وأما غير المؤمنين فتلزمهم الحقائق التاريخية المعروفة التي تفيد بانقطاع العرب عن التأثر بالحضارات المعاصرة القريبة كفارس فضلًا عن المعاصرة البعيدة كالصين فضلًا عن الحضارات القديمة كبابل وآشور والفراعنة.

وقد سبق أن ذكرنا خطأ المقياس الجغرافي في تحديد الشرق والغرب في التمهيد لهذا البحث.

ولعل حسن حنفي لم يكن ليجد بديلًا عن المعنى الجغرافي لأنه يمثل -عنده- الحقيقة الصلبة غير القابلة للتغير بين الشرق والغرب مما يوفر مركزًا وأساسًا ومنطلقًا ثابتًا للفكر.

وذلك ما يضطر إليه أمثال حسن حنفي الذي يؤمن بأنه «لا يوجد مقياس صواب وخطأ نظري للحكم عليها بل لا يوجد إلَّا مقياس عملي»[1]، حتى إنه ليريد التخلي عن ألفاظ مثل: الله، الرسول، الدِّين، الإسلام، الجنة، الثواب، العقاب، المعجزة... إلخ؛ لأنه يراها قاصرة عن الدلالة على معنى واضح محدد[2]!! وهو في النهاية يعتبر «أن كلام الله هو في الحقيقة كلام الإنسان طبقًا لتجاربه وخبراته، فالوجود الإنساني الفردي والجماعي هو منشأ النص»[3].

فمثل هذا الفكر إذا أراد البحث عن ثابت لم يجد إلا ما يُرى ويُلمس ويُقاس، وفي مثل سياقنا هذا لن يجد إلا مقياس الجغرافيا ليصنع في ذهنه حدًّا واضحًا بين شرق وغرب.

---

(١) حسن حنفي: التراث والتجديد ص٢٢.

(٢) حسن حنفي: التراث والتجديد ص١٠٩ وما بعدها.

(٣) حسن حنفي: مقدمة في علم الاستغراب ص٨٦.

٢- أنه لم ينفلت من التبعية والتأثر بالغرب، فهذه الرؤية الجغرافية القومية هي في ذاتها أوضح تبعية وتأثر بالغرب الذي يحاول أن يفارقه ويقف على الضد منه[١]، فبرغم كل ما كتبه في نقد التغريب وتأثرنا به[٢]، إلا أن قاعدته التي بنى عليها كل رؤيته هي «الوطن» و«القومية»، وهذه الألفاظ التي تكثر في طرحه هي بالأصل مفاهيم غربية لم تكن ذات قداسة أو حدية ولم تكن مقياسًا أو معيارًا في تاريخنا، اللهم إلا منذ حل علينا الاحتلال.

ولا تقتصر هذه التبعية على هذا الأساس بل على آثاره مثل مناهج البحث والتحليل؛ فهو يريد للاستغراب أن يطبق على الغرب ذات «المنهج التاريخي الذي طالما طبقه الاستشراق على الحضارة الإسلامية، وكذلك منهج الأثر والتأثر، ومنهج التحليل ومنهج الإسقاط التي طالما عانينا منها في دراسات المستشرقين الأوروبيين للحضارات اللا أوروبية»[٣].

وهذا دليل واضح على أن منهج حسن حنفي متأثر بالغرب وإن كان في إطار الرد عليه، أي أنه يعتمد على ذات الأصول الغربية لمنهج البحث.

٣- ما وقع فيه من تناقض ظاهر واضطراب بيِّنٍ في التأسيس لعلم الاستغراب، ذلك أنه أسرف في الحديث عن كونه رد فعل على الاستشراق وعلى التغريب وكونه إنقاذا للذات من الهجمة الغربية (الاستشراق) ونتيجتها (التغريب)، ثم هو بعد ذلك يحاول تجميل الأمر فيصرح بأن الاستغراب علم «محايد» لا يدخل «كجزء من

---

(١) أفضل ما اطلعت عليه من وصف للقومية يمثل حقيقتها وخلاصتها هو وصف د. إسماعيل الفاروقي: «هي فيروس غربي حقير، يعيد داء الشعوبية إلى جسد الأمة القديم، الذي عانت منه الأمة وتصدت له على مدى تاريخها الطويل». انظر: التوحيد ص٢٩.

(٢) ص٢٢ وما بعدها.

(٣) حسن حنفي: مقدمة في علم الاستغراب ص١٩، ٣١.

أدبيات الشرق والغرب سواء من منظور الصراع والتقابل والتضاد أو من منظور التعاون والحوار والالتقاء... إنما يهدف هذا العلم الجديد إلى تحويل هذه المادة القديمة إلى إطار نظري محكم ومنطق حضاري دقيق[(١)]»[(٢)].

وأن علم «الاستغراب يقوم على أنا محايد لا يبغي السيطرة وإن بغى التحرر، ولا يريد تشويه ثقافات الآخر وإن أراد معرفة تكوينها وبنيتها، إن «أنا» الاستغراب أكثر نزاهة وموضوعية وحيادًا من «أنا» الاستشراق»[(٣)]، ويرى أن هدف التحرر هذا يعصم الاستغراب من أن يكون محملًا بأيديولوجية[(٤)].

وقد بدَا عُسْر مطلبه هذا واضحًا في كثير من عباراته هو، أبرزها التعبير الذي أوردناه قبل قليل والذي وصف فيه الإنتاج الغربي بأنه «إفراز الآخر وقيئه»، وهو نفسه لم يجد وسيلة لفض اشتباك عدم الوقوع في التعصب للشرق إلا بالإحالة على «وعي الباحث وأصالته»[(٥)]!!

وهذا ضابط يغني إيراده عن بيان تهافته.

---

(١) وتأمل هنا في ألفاظ «محكم» و«دقيق» التي تبين مدى تأثره بالغرب، ذلك أن الروح الغربية -منذ أرسطو صاحب «الحد الأرسطي» وحتى المادية المغرمة بالأرقام والإحصائيات- مهووسة بـ«السيطرة» على الإنسان، وتكون ذروة النجاح -في هذه النظرة- حين تصل العلوم الإنسانية إلى درجة العلوم التجريبية المادية البحتة في الانضباط والقياس والمعيارية.
هذا فضلاً عن كون «الحيادية» في العلوم الإنسانية هي نفسها من المفاهيم الغربية، ولا نبعد إن قلنا إنها من «الأوهام» الغربية؛ فالعلوم الإنسانية بل وفلسفات العلوم المادية ذاتها إنما هي انحيازات، لانطلاقها من الطبيعة الإنسانية التي لا تعرف الحيادية بمفهومها الغربي.

(٢) حسن حنفي: مقدمة في علم الاستغراب ص٢١.

(٣) حسن حنفي: مقدمة في علم الاستغراب ص٣٢.

(٤) حسن حنفي: مقدمة في علم الاستغراب ص٣١.

(٥) حسن حنفي: مقدمة في علم الاستغراب ص٣٣.

وفي رأينا أن كل كلامه عن الحياد إنما هو من قبيل تجميل الطرح لا أكثر.

٤ – أظهر حسن حنفي نفسه في كتابه هذا وكأنه أتى بما لم تستطعه الأوائل، مع أن الموضوع الذي يطرحه من حيث ذات الموضوع مطروق في كل كتابات المجدِّدين والمُصلِحين منذ قرنين من الزمان على الأقل.

فسؤال النهضة وسؤال المواجهة -اللذان طرحهما الصراع الغربي الإسلامي في العصر الحديث- هو المسيطر صراحة أو ضمنا على جُلّ الإنتاج الفكري الإسلامي (ولا نبالغ إن قلنا عليه كلِّه).

ولا يصحّ كونُه أتَى بجديدٍ إلا إذا اعتبرنا أنه لم يكن يرى إلا طبقة المثقفين المتغربين الذين يسيطرون على سوق الكتاب ومنافذ النشر، فهو لم يكد يرى في كتابه غيرهم[1].

وإن أشار إشارات عابرة إلى غيرهم فجعلهم «السلفيين التقليديين» الذين هم على غير معرفة بالغرب أصلًا، فلذلك كان يتحدث عن التغريب كأنما لم يسبقه أحد إلى هذه المعاني التي يطرحها.

ولهذا نجده يعتبر كل سابقيه من المصلحين متغربين.

فعنده أن كل حركة نهضة سابقة إنما جعلت الغرب قبلتها وإمامها منذ الطهطاوي والأفغاني وشبلي شميل، وأن الخلاف بين هذه المشاريع هو خلاف درجة لا خلاف نوع[2]، بما جعل الأمر وكأن حسن حنفي أول من يتنبه لضرورة الأصالة في الانطلاق!!

---

(١) وحتى هؤلاء، لا ندري هل نسي أن انفلت لسانه حين أقر بأن بعضهم سبقه إلى طرح هذه الفكرة وذكر منهم اسم أنور عبد الملك.

انظر: حسن حنفي: مقدمة في علم الاستغراب ص٦٢.

(٢) حسن حنفي: مقدمة في علم الاستغراب ص٦٤، ٦٨.

وإذا أعملنا غاية حُسن الظن فيما أورده من انتقادات عابرة، فالواقع أنه لم يفهم الأفغاني[١] ولا الطهطاوي[٢] ولا غيرهما[٣].

٥- وخلاصة مشروع حسن حنفي كله، ومنه هذا الكتاب، يمكن اختصارها في دعوته إلى «التحرر» من النموذجين: السلفي والتغريبي، وهو الأمر الذي تنبه له مبكرًا[٤] الأستاذ أنور الجندي رحمه الله، فقال بأنها «دعوى عريضة يحملها بعض المفكرين تحت اسم (الاستغراب) وهي التحرر من النموذجين السلفي والأوروبي جميعًا، وذلك في محاولة لوضع التراث الإسلامي في صف الفكر الغربي الوافد،

---

(١) على سبيل المثال: اعتبر حسن حنفي أن الأفغاني لم يستوعب أن «الدهرية» إنما هي موقف علمي لا موقفا أخلاقيا (ص٦٥) في حين أن الأفغاني كان أعمق وأوسع فهما، فهو لم يتحدث عن مجرد بطلان مذهب الدهريين (الماديين)، بل عن آثاره المدمرة على حياة الإنسان وأخلاقه، أو بتعبير الأفغاني نفسه «لا نتيجة لمقدماتهم سوى فساد المدنية» إذ «الكل عقيدة لوازم وخواص لا تزايلها»، فالمادية - كمذهب فكري، وموقف علمي - له آثار مدمرة أخلاقيا، وهو ما سعى الأفغاني لتبيينه فظن حسن حنفي أنه لم يستوعب!!

(انظر: جمال الدين الأفغاني: الرد على الدهريين، ضمن: الآثار الكاملة ٢/ ١٣٢، ١٤٧) ولئن ذهبنا وراء ظننا لقلنا إن حنفي هو الذي لم يقرأ من هذه الرسالة إلا أولها فقط.

(٢) للطهطاوي عبارات صريحة تخالف قول حسن حنفي هذا، منها مثلا: «ومن المعلوم أني لا أستحسن إلا ما لم يخالف نص الشريعة المحمدية»، وقوله عن باريس «وليل الكفر ليس له صباح». انظر: الأعمال الكاملة ٢/ ١٧، ١٨٧.

(٣) وقد قلنا هنا «لم يفهم» تعليقا على رأيه في دعوتهم الإصلاحية وجريا على ما التزمناه من إعمال أقصى درجات حسن الظن، لكن هذا لا ينفي أنه كذب وافترى على هؤلاء وغيرهم كذبا صريحا فجا فاحشا في غير هذا الموضع من كتبه، وفسر حركاتهم الإصلاحية وأفكارهم بما يناقض منطوق ومفهوم كلامهم وسيرتهم.

(٤) من المثير للإعجاب والإجلال هذه اليقظة المبكرة لدى الأستاذ أنور الجندي رحمه الله، فقد رصد هذه الدعوة من المقالات والإشارات المنثورة في الكتب الأخرى قبل أن تخرج صريحة واضحة في كتاب «مقدمة في علم الاستغراب» (١٩٩١م)، وكتب هذا الرد الذي ننقله في كتاب صدر (١٩٨٩م) أي قبل طرحها بهذا الوضوح بعامين!

والتخلص منها جميعًا لا يعني إلا التخلص من التراث الإسلامي وغلبة الفكر الغربي، فإذا سألت إلى أين بعد ذلك؟

لم يكن أمامنا إلا الحضارة الغربية المنهارة الغاربة التي لم تقم حتى اليوم أي قاعدة إنسانية حقيقية، وأخطر ما في هذه المحاولة الماكرة وضع التراث الإسلامي في صف الفكر الغربي المادي الوثني، الذي كشفت الأبحاث فساده واضطرابه وعدم قدرته على العطاء واستسلامه للأهواء والإباحيات والزيف، بينما ما يزال التراث الإسلامي يعطي المسلمين أضواء كاشفة للتعرف إلى طريقهم الرباني واستمداد هذا التراث أصلًا من مصدرين ثابتين ربانيين هما القرآن والسنة».

ثم خلص إلى أن «دعوة الاستغراب بهذه الصورة دعوة باطلة»، وأن الأمة «في حاجة إلى موقف حاسم يرد عنها عادية التغريب والاستغراب معًا ويعود بنا إلى الأصالة والمنابع: القرآن والسُّنة»[1].

وهذا الذي انتقدناه على حسن حنفي هو في أصول الموضوع ومسائله الكبرى، ولم نتعرض للخلاف حول التفاصيل والهوامش، وقد سلكنا في تقييم كلامه مسلك من يحاكم الكلام على أحسن وجوهه، وإلا فإن حسن حنفي له طوام مشهورة، وهذا معروف إلى حدٍّ يغني عن إيراد أدلته، كما أن المقام ليس بمقامه، وإذا وضعنا الإسلام في كفة والغرب في كفة فحسن حنفي في كفة الغرب بلا جدال.

وبعد مرور نحو ربع قرن على صدور الكتاب لم يصدر عن المؤلف -في حد ما نعلم- أي إضافة أو تغيير أو تطوير لرؤيته هذه، بل صدرت هذه المقدمة في كتاب مستقل بعد عشر سنوات بعنوان «ماذا يعني علم الاستغراب»[2].

---

(١) أنور الجندي: من اليقظة إلى الصحوة ص٥٢ وما بعدها.

(٢) صدر عن دار الهادي (شيعية) في بيروت، ٢٠٠١م.

وألقى محاضرة في المعهد العالمي للفكر الإسلامي (٢٠٠٩) بعد نحو عشرين سنة فكانت إعادة تأكيد على الأفكار، وهذا ما يجعل كتاب «مقدمة في علم الاستغراب» معبراً صادقًا عن فكر صاحبه حتى الآن.



محمود ماضي
جذور علم الاستغراب

صدر هذا الكتاب (١٩٩٦م)[١] بعد خمس سنوات من صدور كتاب حسن حنفي، وهو ليس كتابًا في هذا الموضوع، بل هو محاولة مدّ فكرة حسن حنفي إلى جذورها والتي يرى المؤلف أن كتاب ابن تيمية «الرد على المنطقيين» يمثل نموذجًا له، فهو في النهاية قراءة لمنهج ابن تيمية من خلال الإطار الذي وضعه علم الاستغراب.

يقول المؤلف بأن ابن تيمية كان من جذور علم الاستغراب وأن ردوده على المنطقيين كانت تتفق -إن لم تطابق- مع غايات علم الاستغراب؛ من تحجيم الآخر والتقليل من إرهابه ونقده.

ونحن نخالف المؤلف في هذا بشدة، فالفارق واضح بين دراسة الغرب (علم الاستغراب) وبين مواجهة التغريب، وهو المعنى الذي ربما قصد المؤلف إليه فخانته التسمية، فالمساحة بين مواجهة التغريب وردّ عاديته أوسع بكثير، بل ولا تتقاطع في كثير من المناطق مع مساحة دراسة الغرب.

وابن تيمية لم يكن يدرس بل كان ينفي عن الإسلام تأويلات واحتيالات وتحريفات المبطلين المتأثرين بالشرق أو بالغرب، ولم يحفل بدراسة الغرب ولا مذاهب فلسفته إلا بقدر هذه الضرورة.

---

(١) صدر عن دار الدعوة بالإسكندرية في مصر.

هذا بالإضافة إلى أننا لا نرى بأن «المنطقيين» في تاريخنا الحضاري كالمتغربين في واقعنا، وذلك أن المسلمين في انطلاقتهم الحضارية تأثر بعضهم بمنطق اليونان في محاولة لاستخراج وإحكام وضبط قواعد الاستدلال خصوصًا في علم أصول الفقه، أي أنه استعمال «وسيلة/ أداة» تبدو وكأنها ميراث إنساني محايد وغير مصبوغ بعقيدة مخالفة للإسلام، يؤكد هذا أنهم استعملوا «منطق» اليونان واطرحوا أساطيره وأدبه تماما، بينما المتغربون في عصرنا الحالي في وضع معاكس، فهم يعتنقون ما لدى الغرب من فلسفة وأدب ونظم بما تصدر عنه من نماذج معرفية وتصور كامل للكون والإنسان والحياة، ولا يكادون يحفلون بما لدى الغرب من جد واجتهاد وعمل والتزام.

حتى إن القارئ لهم ليشعر أن أُمتنا لم تتقدم إلا لأنها ترفض حرية الزي وحرية الجسد وحرية الردَّة، وأن حجاب الرأس يؤدي بتلقائية إلى حجاب العقل!! وها نحن في عصر الربيع العربي نرى المتغربين الرافعين شعار الليبرالية أحرص الناس على الاستبداد وأكثرهم دعمًا له، وأبعد الناس عن الخضوع والتسليم لإرادة الشعوب.

❁ ❁ ❁

د. مازن مطبقاني

ليس للدكتور مازن مطبقاني كتاب مفرد في شأن علم الاستغراب، لكنه من أكثر من اهتموا به في عالمنا الإسلامي، إن لم يكن أكثرهم على الإطلاق، حتى أكثر من حسن حنفي نفسه صاحب صيحة البدء إذا وافقنا على هذا.

وقد تناول د. مازن هذا الموضوع في عديد من كتبه.

ويسيطر على جانب ضخم من حواراته ومقالاته ومشروعاته التي لم يكتب لها النجاح بعد للأسف الشديد.

ومن أهم ما كتبه في هذا الشأن كتابه «الغرب من الداخل»[1]، وهو ثلاثة أقسام:

استعرض في القسم الأول موضوع علم الاستغراب تحت عنوان «المعرفة بالآخر».

ثم استعرض في القسم الثاني ظواهر اجتماعية غربية كجوانب سلبية.

واستعرض في القسم الثالث جوانب إيجابية في الغرب من خلال نماذج لمؤسسات بحثية مثل راند والمجتمع المفتوح ونماذج للتسهيل والتيسير في البحث العلمي.

فجعل القسمين الثاني والثالث كمثال تطبيقي سريع ومختصر على ضرورة دراسة الغرب المطروحة في القسم الأول.

---

(١) صدرت طبعته الأولى في السعودية (١٤١٨هـ = ١٩٩٧م)، وصدرت طبعته الثانية في السعودية (١٤٢٥هـ = ٢٠٠٥م)، وفي هذه الطبعة الثانية أضاف القسم الثالث من الكتاب.

وقد استثمر د. مازن رحلاته المتكررة إلى الغرب، سواء للدراسة أو للمؤتمرات العلمية، في رصد ومتابعة الدراسات الشرقية في الجامعات والمعاهد والمؤسسات العلمية الغربية، واستخرج من هذه الخبرة كثيرًا من الخطوات والإجراءات العملية لتنفيذها في خطة دراسة للغرب.

وفيما تلقى جهوده ترحيبًا من الباحثين والدارسين لم تحظ بمثل هذا من مؤسسات قادرة على تحويل هذه الخطط إلى عمل حقيقي.

ويتميز عمل د. مازن مطبقاني أنه يمثل «الاستغراب» الذي نريد ونقصد، وهو الذي يتأسس على وعي بالإسلام واعتزاز به وتشرب لقيمه، وينطلق من قواعد إسلامية سواء في النظرة الكلية أو في الغايات والأهداف أو في الإجراءات والوسائل.

ونحسب أنه لو كتب كل مشروعه في كتاب واحد مفصل، فلربما لم نحاول أن نخوض غمار هذا البحث.

❁ ❁ ❁

بوروما ومرجليت
الاستغراب

يقف البعض موقفًا سلبيًا من الدراسات الأجنبية، ويرى حسن حنفي أن موضوع الاستغراب لا ينبغي أن يُستمع فيه لرأي الغربيين ولا حتى لرأي المتغربين، يقول: «الشعور الأوروبي لا يُدرس إلا بشعور لا أوروبي، حتى يحدث التمايز بين الذات والموضوع، وكيف يستطيع الشعور الأوروبي أن يكون ذاتا لتأسيس هذا العلم، وهو نفسه موضوع العلم»[1]. وهو ما نخالف فيه، إذ إن حديث الغربي عن نفسه وتقييمه للغرب وأبحاثه عنه تمثل مادة قيّمة لا يمكن تجاوزها، بل يشبه هذا أن يكون كمن يريد الكتابة عن الشرق والإسلام دون أن يستفيد مما كتبه الشرقيون والمسلمون عن أنفسهم! وإنما المحذور منه هو استقبال كل ما كتبوه بالتسليم واعتناقه دون نظر عميق أو مجهود نقدي.

وفيما يخص الدراسات الأجنبية لم نجد إلا كتابًا واحدًا صغيرًا بهذا العنوان «الاستغراب: موجز تاريخ النزعة المعادية للغرب» لمؤلفيه: إيان بوروما وأفيشاي مرجليت، وهذا الثاني إسرائيلي وأستاذ فلسفة بالجامعة العبرية في القدس وحاصل على جائزة إسرائيل في الفلسفة، وصدر الكتاب لأول مرة بالإنجليزية في نيويورك عام ٢٠٠٤م[2]، ثم ترجمه ثائر ديب إلى العربية ونشر في السعودية عام ٢٠٠٨م.

---

(١) حسن حنفي: مقدمة في علم الاستغراب ص٨٥، ٨٦، ٩٥.

(٢) Avishai Margalit, Ian Buruma : Occidentalism, Penguin Books, New York, 2004.

وهذا الكتاب غربي المزاج والهوى إلى أبعد حد، وهو يتناول مفهوم الاستغراب بأنه «الحركة المعادية للغرب».

وخلاصته أن من يُعادون الغرب إنما يفعلون ذلك لأسباب خاصة بهم وليست كردود فعل على ما قد يكون الغرب اقترفه من جرائم وخطايا.

يقول المؤلفان: «ما ندعوه بالاستغراب هو تلك الصورة التي رسمها للغرب أعداؤه، وقد نزعوا عنه الطابع الإنساني»[1]، والاستغراب -بهذا المفهوم- هو خلاف ما نعنيه في بحثنا هذا بل يكاد يكون نقيضًا له!

وبأثر من هذه الرؤية يخلص المؤلفان إلى نتيجتين مهمتين:

الأولى: أنه لا علاقة بين جرائم الغرب وحركة العداء له، بل هذا العداء للغرب ليس إلا محاولة من الشرقيين ليبرروا بها لأنفسهم معاداة الغرب ورفضهم للعقل والحرية والمدنية واحترام المرأة، فهم في سبيلهم إلى هذا يحاولون الدفع عن أنفسهم بأنهم أفضل أخلاقًا وعفة وحشمة وأحسن تضحية وفداء وبذلًا لصالح المجموع على حساب الفرد وأنهم ذوو إيمان في مقابل ما لدى الغرب من إلحاد وكفر.

في حين أن حقيقة التهديد الذي يمثله الغرب لغيره -كما يراها المؤلفان- «لا ينجم عن كونه يوفِّر منظومة بديلة من القيم، أو سبيلا مختلفا إلى اليوتوبيا؛ بل ينجم عن أن وعوده بالراحة المادية والحرية الفردية وكرامة الحياة غير الاستثنائية تفضح كل المزاعم الطوباوية؛ فطبيعة الليبرالية الغربية اللا بطولية واللا طوباوية هي العدو الأكبر بالنسبة للجذريين [الأصوليين] المتدينين والملوك الكهنة وجماعات الساعين وراء الطهارة والخلاص البطولي»[2].

---

(١) بوروما ومرجليت: الاستغراب ص١٧.

(٢) بوروما ومرجليت: الاستغراب ص٨٥.

الثانية: أن الاستغراب -بمعنى: العداء للغرب- يشمل الغربيين الرافضين لقيم الغرب المادية، فأولئك هم من المستغربين، مثل اليساريين أو بتعبيره «المعادين الجذريين للرأسمالية»[١].

وأحيانا وَسَّعه ليشمل كل من يعتبر النمط الغربي نمطًا آليًا باردا بلا روح، ولو كان هذا الشعور نابعًا من اليهود الفقراء نحو اليهود الألمان[٢].

وبهذا يكون الاستغراب في أصله مذهب غربي كالماركسية والليبرالية، وهو دليل على أن «الغرب الذي كان مصدر التنوير وفروعه العلمانية، الليبرالية، غالبًا ما كان مصدر سمومه أيضًا»[٣]، وبهذا فإن أوائل المستغربين إنما هم أوربيون[٤].

ويرى المثال النموذجي لهؤلاء في عالم الاجتماع الألماني البارز زومبارت الذي كان يعادي قيم فرنسا وبريطانيا ويرى فيهما «تُجَّارا» -بكل ما في الكلمة من معان سلبية كالمادية والطمع والبخل- فيما يرى في بني قومه «أبطالًا» بكل ما في الكلمة من معاني التضحية والنبل[٥].

وهذه النتيجة الثانية تمثل موضع اتفاق بيننا وبينه، وذلك أنه جعل «الموقف الفكري» هو الفيصل في تحديد الاتجاه، لا مجرد «الموضع الجغرافي»، فالإنسان يختار الأول بينما لا يختار الثاني، وذلك الموقف منه هو الأصدق في التعبير عن البشر، فالحق أن الشرقي -بحكم الجغرافيا- يملك أن يكون مستشرقًا أو مستغربًا، كما أن الغربي -بحكم الجغرافيا- يملك أن يكون مستشرقًا أو مستغربًا.

---

(١) بوروما ومرجليت: الاستغراب ص١٦.

(٢) بوروما ومرجليت: الاستغراب ص٢١.

(٣) بوروما ومرجليت: الاستغراب ص١٨ (وانظر: ص٧٣، ٧٤)

(٤) بوروما ومرجليت: الاستغراب ص٣٤.

(٥) بوروما ومرجليت: الاستغراب ص٦٤ وما بعدها.

ومن مظاهر إخلاص الكتاب للرؤية الغربية أنه لا يحفل ولا يهتم بما يكنه الآخرون من نفور أو كراهية للغرب وقيمه، إنما يحفل ويهتم فيما لو حاول صاحب هذا النفور تحويل مشاعره إلى عمل «ثوري»، فذلك يعني أن الحالة «تتطور إلى مرض واضح مكتمل»(١).

۞ ۞ ۞

وخلاصة الدراسات السابقة أنه لم يكتب في علم الاستغراب، بمعنى دراسة الغرب برؤية ذاتية إسلامية، دراسة بعد، فيما تبدو ملامح الرؤية الذاتية في كتاب حسن حنفي، وملامح الرؤية الإسلامية في كتابات د. مازن مطبقاني. وذلك ما جعل موضوع البحث جديدًا من هذا الوجه.

۞ ۞ ۞

---

(١) بوروما ومرجليت: الاستغراب ص١٧.

الاستغراب الذي نريد

إن الاستغراب الذي نريد هو العلم الذي ينبني على أُسس إسلامية وينطلق من رؤية إسلامية، فالإسلام هو روح هذه الأُمة، لم تكن قبل الإسلام شيئًا وبغيره لا تكون شيئًا، والإسلام ليس مجرد اختيار يسعنا أن نختار غيره حين نحدد طريقنا الحضاري، بل هو تعريفنا وهويتنا وأصل وجودنا الحضاري قديمًا، ومبرر وجودنا الآن ومستقبلًا لنبلغ رسالته.

ولسنا نحاول هنا إثبات هذا، بل إنما نبيِّن ضرورة التأسيس عليه، فذلك البحث متوجه بالأساس إلى من يؤمن بالإسلام دينا، ويعتنقه عقيدة وحضارة، فأما من كان في شك منه دِينًا فمجاله كتب الأديان والعقائد، أو كان في شك منه حضارة فمجاله كتب التاريخ والحضارة والفكر، ولا يناسب أحدهما بحث في «التأصيل الإسلامي» للعلوم.

فإذا ذهبنا نلتمس نقاط الانطلاق في التأصيل الإسلامي لعلم الاستغراب، فأهم ما نجده -برأينا- أمران لا قيام لأي تأصيل إسلامي لأي علم إلا بهما:

- الأول: التميز الإسلامي
- الثاني: فلسفة وضوابط العلم في الإسلام

أولا: التميز الإسلامي

ونعني به يقين المسلم في أن الإسلام هو الدِّين الحق وأنه الحقيقة المطلقة وأنه المنهج الحق في تفسير هذا الكون، والحل الوحيد لمشكلاته، وأن ما عاداه باطل، حتى وإن لم يكن باطلًا من كل وجه، إذ ليس ثمة في الدنيا باطل خالص لا حق فيه!

هذا اليقين يورث المسلم أمرين:

الأول: الفخر والاعتزاز بدينه وأن يرى أنه أعظم نعمة من الله عليه، فعندها يكره أن يعود في الكفر أو يتلبس بباطل ككراهيته أن يُقذف في النار أو أن تمس النار منه بقدر ما تلبَّس من باطل.

والثاني: الشعور بالمسؤولية عن هذا الكون وهؤلاء البشر وحمل الرسالة التي تصلحهم وتصلح أحوالهم ليقوم بدوره المطلوب منه: الخلافة في الأرض وإعمارها وإصلاح أهلها.

وهنا ينبغي أن نلقي الضوء على بعض أمور لنضبط بها مفهوم التميز الإسلامي:

١ - الشعور بالتميز ضرورة لكل أمة وحضارة

لم تكن ثمة حضارة إلَّا إذا شعر أهلها بأنهم متميزون عن غيرهم، ومن ثَمَّ فعندهم ما يقدمونه للناس ويدعونهم إليه، وليس ثمة أمة إلا وتشعر بأن لها من الخصائص والمزايا ما تفوقت به على غيرها وما هو جدير بأن يرفعها فوق غيرها، حتى وإن كان هذا مجرد شعور لا يؤيده الواقع، وهذا الشعور هو في حقيقة الأمر سر سنة التدافع الإنساني، وهو مبرر وجود الأمم ومُحرك همتها وباعث نهضتها، فإذا

افتقدته أُمة ماتت ولو كانت في الذروة! أو ذابت في عدوها إن كانت مقهورة، وحتى في لحظة الذوبان هذه فإنما تستبدل نفسها وتغير هويتها إلى هوية تعطيها شعورًا بالتميز وتمنحها مبررًا للوجود! وصحيحٌ أن المغلوب مولع بتقليد الغالب، وأصحُّ منه أنه لم يفعل ذلك إلا تخلصًا من شعور الهزيمة والذلة والفشل والتماسًا لتعريف جديد أو هوية جديدة أو صيغة جديدة يجد فيها نفسه ذات تميز ورسالة.

ومن هنا نفهم ثلاثة أمور هي بمثابة الأصول التي لا ينبغي أن نغفلها بحال:

الأول: أن الأمم التي تَغْلِب إنما تَغْلِب بهذا الشعور بالتميز، فإن «جميع بناة الإمبراطورية كانوا ينظرون إلى أنفسهم كوكلاء للحضارة، وكنقيض لسدنة الثقافة المحلية المتخلفين، المؤمنين بالخرافات، وشبه الهمج»[1].

وبغض النظر عن هذه الألفاظ المُحقِّرة فإن المعنى ذاته صحيح، ولدينا من عبر عنه بخير من هذا فقال: «الله ابتعثنا والله جاء بنا لنخرج من شاء من عبادة العباد إلى عبادة الله، ومن ضيق الدنيا إلى سعتها، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام»[2].

ولهذا السبب كانت الحضارات الكبرى هي التي أُسِّست على أديان كما يقول المؤرخ البريطاني كريستوفر داوسن[3]، وذلك أن الشعور بالتميز يبلغ ذروته.

والثاني: أن الأمم التي تُغلب وتقاوم أيضًا إنما تقاوم بنفس هذا الشعور بالتميز، فهو خصيصة في الأمم الحية، ولقد شاع «في كل حضارة أنها تبدي نفورًا من اعتناق فكر ثقافي يطرح دعامة من دعائمها الراسخة للمناقشة، ولئن كان هذا النفور وذلك العداء الخفي نادرًا نسبيًّا فهو يؤدي دائما إلى صميم الحضارة... فليس هناك حضارة -كما قال مارسيل موس- جديرة باسم الحضارة ليس لها عادات الرفض والنفور من

---

(١) بوروما ومرجليت: الاستغراب ص٤٩.

(٢) الطبري: تاريخ الطبري ٢/ ٤٠١.

(٣) Christopher Dawson : The Dynamics Of World History, p.128

الإسهامات الدخيلة»[1]، ويحدث هذا حتى داخل السياق الحضاري نفسه، فحركات مواجهة العولمة والأمركة تنتشر في أوروبا نفسها، بل قد يتطرف بعضهم في هذا فيمنع شابا من وضع طبق هوائي فوق منزلة حفاظًا على «خصوصية الثقافة الألمانية»، وتستثني فرنسا القضايا الثقافية من معاهدة الجات لمقاومة مسلسلات هوليوود المختلفة عن ثقافة المجتمع الأوروبي[2].

والثالث: أن محاولة توحيد العالم في أمة واحدة عسكريًّا ليست بأفشل من توهم إمكانية توحيدها ثقافيًا وحضاريًا، فكما «وثّق العديد من العلماء، وكما بيّنت الأحداث الجيوسياسية عمليًا، فإن البشر لا يفكّرون عادة «تفكيرًا كوكبيًا»، وإن الثقافة المحلية، والقومية، والإقليمية، والتاريخ، والدِّين، والسياسات، ليست جاهزة كي تكنس إلى سلة النفايات التي سُميت «التاريخ»، وإن أولئك الذين تخيلوا غير ذلك يعانون الآن صدمات كريهة»[3].

وكيف تنجح محاولة كهذه وهي تخالف سُنة الله في خلقه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ﴾ [الحجرات: ١٣]؟!

وإذن، فنحن لا نبعد إذا قلنا إن الشعور بالتميز فطرة إنسانية، يبحث عنها الفرد كما تبحث عنها الأمة[4].

---

(١) فرناندو برودويل: تاريخ وقواعد الحضارات ص٢٤، ٢٥.

(٢) عاصم حمدان: الأعمال الكاملة ٤/ ٤١٨، وهو مقال بعنوان «الأوروبيون والخصوصية الثقافية» نشر في ٧/ ١٢/ ١٩٩٣.

(٣) ريتشارد كوك وكريس سميث: انتحار الغرب ص٤٩، ٥٠.

(٤) إن الإنجاز الأساسي لتوما الإكويني، والذي جعله مُعَظّمًا في الغرب حتى الآن، هو جهوده التي قامت على التوفيق بين المسيحية من جهة، وبين العلم والفلسفة من جهة، وكان العلم والفلسفة في عصره إنتاجا إسلاميا لا ينازعهم فيه غيرهم، فكان حريصًا على تخليص فلسفة أرسطو من كل الآثار الإسلامية -وبالأخص، شروح ابن رشد- ليردها إلى أرسطو «الغربي» خالصة من دون الناس، والأمر =

ويمكننا أن نضرب على هذا مثلًا مهمًا، وهو الحالة الأمريكية، فأمريكا استلهمت الجذور والثقافة الغربية وذلك أنها كانت تحتاج إلى تاريخ وجذور فهي امتداد من امتدادات «الحضارة الغربية»، فإذا كان الحديث عن الواقع أو المستقبل قالوا «الحضارة الأمريكية».

٢- التميز الإسلامي حقيقة لا ادعاء

إن حاجة الأُمم للشعور بالتميز أنبتت كثيرًا من الدعاوى والمزاعم والتي رسَّخت لنفسها بالأساطير والخرافات وما تيسر لها من حقائق ولو بتأويل وتكلف وتعسف، فمن الأُمم مَن آمن أنه «شعب الله المختار» أو أنهم من نسل آلهة الشمس أو أولاد تزاوج الأرض بالسماء أو المختصون بالعقل والحكمة أو أصحاب الدم النبيل ونحو ذلك من دعاوى.

وقد قصَّ الله علينا بعض هذا فقال تعالى: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ وَٱلنَّصَٰرَىٰ نَحْنُ أَبْنَٰٓؤُا۟ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥ﴾ [المائدة: ١٨].

ومن أطرف ما سمعته أن الهنود متعصبون جدًّا لكل ما هو هندي حتى إن بعض المدرسين يعلِّمون الأطفال أن أول من صعد القمر هندي اسمه «الذراع القوي»، فإذا روجع في هذا قال: إنما أترجم لهم اسم رائد الفضاء «آرمسترونج»[(١)].

= بقدر ما كان بالنسبة له «عملًا رساليًا في عصره» بقدر ما كان ضرورة قاهرة، فكما يقول مونتجمري وات: «الإنسان لا يمكنه أن يتحمل طويلا تناقضا جوهريا بين مفاهيمه الكونية وعقائده الدينية. ولهذا شرع علماء اللاهوت الأوروبيون في التوفيق بين النظرية المسيحية وهذا العلم الجديد» ثم ذكر جهد توما الإكويني ليخلص إلى النتيجة «وبهذا أمكن تبرير الزعم المسيحي بأن بوسع المسيحية أن تستهوي منطق الناس وعقولهم». مونتجمري وات: فضل الإسلام على الحضارة الغربية ص١٠٦، وانظر: رونالد سترومبرج: تاريخ الفكر الأوروبي الحديث ص١٩.

(١) سمعت هذا من د. دين محمد (سريلانكي) مدرس مادة الأديان الشرقية في كلية الدراسات الإسلامية بمؤسسة قطر.

بينما التميز الإسلامي حقيقة لا يتطرق إليها شك، وذلك أنه صادر عن الله رب العالمين، وهو الحق وقوله الحق، ومسطور في كتابه الكريم الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، وعلى لسان رسله وخيرهم محمد ﷺ.

قال تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا ﴾ [البقرة: ١٤٣].

وقال تعالى: ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ ﴾ [آل عمران: ١١٠].

وقال النبي ﷺ: «نحن الآخرون الأولون يوم القيامة ونحن أول من يدخل الجنة»[١]، وقال ﷺ: «وأنتم توفون سبعين أمة أنتم خيرها وأكرمها على الله تبارك وتعالى»[٢].

وثبت هذا في ما بقي من الحق في كتب الديانات التي نالها التحريف، ومنه ما جاء في سفر التكوين «فسمع الله صوت الغلام، ونادى ملاكُ الله هاجر من السماء، وقال لها: ما لك يا هاجر؟ لا تخافي، لأن الله قد سمع لصوت الغلام حيث هو. قومي احملي الغلام وشدي يدك به، لأني سأجعله أمة عظيمة»[٣].

ومنه ما جاء في كتب الديانات الهندية القديمة من أن أصحاب النبي الخاتم حمادون ومصلون، يلتزمون بالحمد والصلاة حتى أثناء الحروب، ويقاتلون بشجاعة بالغة، ويصلون ويتطهرون ويقاتلون من يلبس الحق بالباطل، ولا يأكلون إلا الحلال[٤].

ونطق به كثير من غير المسلمين من الباحثين، سواء منهم من شهد شهادة عامة أو من شهد على خُلُق بعينه أو صفة بعينها.

---

(١) البخاري (٨٣٦)، ومسلم (٨٥٥) واللفظ له.

(٢) أحمد (٢٠٠٢٩) والترمذي (٣٠٠١)، وابن ماجه (٤٢٨٨)، والحاكم (٦٩٨٧) وصححه ووافقه الذهبي، وحسنه الألباني وشعيب الأرناؤوط.

(٣) سفر التكوين ٢١/ ١٧، ١٨.

(٤) صفي الرحمن المباركفوري: وإنك لعلى خلق عظيم ١/ ٣٩٢، ٤٣٥، ٤٤٢، ٤٤٨، ٤٥٥، ٤٥٦.

ومن ذلك قول الكولونيل الإنجليزي رونالد بودلي: «كانوا كالغيث الذي يخصب المكان الذي ينزل فيه»(١).

وقول الفيلسوف الألماني همبولد: «والعرب كانوا ذوي نشاط منقطع النظير، وهذا النشاط هو آية دور ممتاز في تاريخ الدنيا»(٢).

وقول الفيلسوف الفرنسي جوستاف لوبون: «الحق أن الأُمم لم تعرف فاتحين متسامحين مثل العرب، ولا دِينًا مثل دِينهم»(٣).

وإن ما كتب في فضل الإسلام والمسلمين وحضارتهم يبلغ مجلدات، وكثير منها معروف ومشهور(٤). ففضل هذه الأُمة وتميزها حقيقة لا دعوى، قالها الله -ومن أصدق من الله قيلا؟!- ورسوله وكثير من غير المسلمين.

٣- التميز الإسلامي يُكتسب

إن أهم ما في التميز الإسلامي أنه يُكتسب، فلهذا هو أبعد ما يكون عن العرقية والعنصرية والطبقية وما إلى ذلك، وهذا نفسه هو من التميز الذي لم يوجد مثله في غير هذه الأمة(٥)، فهو تميز فريد، لا يُعطى لأحد لمجرد أصل الخِلقة أو اللون أو اللسان.

---

(١) ر. ف. بودلي: الرسول ص٣٤٠.

(٢) لويس سيديو: تاريخ العرب العام ص٣٣٢.

(٣) جوستاف لوبون: حضارة العرب ص٦٠٥.

(٤) راجع مثلا: د. محمد عمارة: الإسلام في عيون غربية، د. راغب السرجاني: وشهد شاهد من أهلها، د. عماد الدين خليل: قالوا عن الإسلام.

(٥) فحتى المسيحية -وهي من الأديان التبشيرية المتجاوزة للأعراق والفوارق- لم تنتصر على العنصرية الأوروبية، بل كان الأوروبيون يُغرون الأفارقة بالتنصر للحصول على التحرر، فإذا فعلوا قيل لهم «المسيحية تحرر الروح أما الجسد فيبقى في الرق تكفيرا عن الذنوب والخطايا التي ارتكبها الرجل الأسود». د. عبد العزيز الكحلوت: التنصير والاستعمار في إفريقيا ص٩، ١٠.

وهذا هو الفارق الضخم والأهم في الطرح الإسلامي لمسألة التميز، وهو ما يعصم من الوقوع في الاستعلاء والكبر والعنصرية.

فالإسلام رحمة للعالمين، وأخبر النبي ﷺ عن نفسه فقال: «**أُعطِيتُ خمسًا لم يعطهن أحد قبلي، كان كل نبي يُبْعَث إلى قومه خاصة وبُعِثْتُ إلى كل أحمر وأسود ... الحديث**»[(١)].

وأعلن ﷺ بوضوح في خطبة الوداع قائلًا: «**يا أيها الناس، ألا إن ربكم واحد، وإن أباكم واحد، ألا لا فضل لعربي على أعجمي، ولا لعجمي على عربي، ولا لأحمر على أسود، ولا أسود على أحمر إلا بالتقوى ...**»[(٢)].

ولهذا فإن خيرية الأُمة مشروطة بعمل، فكونها خير أُمة أُخرجت للناس مُفَسَّر بأنها تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر وتؤمن بالله، وكونها أُمة وسطًا مُفَسَّر بأنها آمنت بالله وبما أنزله في كتابه فشهدت بما آمنت على الأمم السابقة.

ولهذا قال عمر بن الخطاب: «مَن سرَّه أن يكون من هذه الأمة، فليؤد شرط الله منها»[(٣)].

ولئن كان الإسلام نزل على العرب ونزل القرآن بلسان عربي فإن هذا لا يحولهم إلى جنسٍ متميز من حيث كونهم عربا، بل من حيث حملهم للرسالة.

قال ابن تيمية: «كانوا (أي العرب) قبل الإسلام طبيعة قابلة للخير معطلة عن فعله، ليس عندهم علم منزل من السماء ولا شريعة موروثة من نبي... بمنزلة أرض جيدة في نفسها، لكن هي معطلة عن الحرث أو قد نبت فيها شجر العضاة والعوسج وصارت مأوى الخنازير والسباع، فإذا طهرت عن المؤذي من الشجر والدواب،

(١) البخاري (٣٢٨)، ومسلم (٥٢١) واللفظ له.

(٢) أحمد (٢٣٥٣٦) وصححه شعيب الأرناؤوط، والألباني في السلسلة الصحيحة (٢٧٠٠).

(٣) الطبري: تفسير الطبري ٧/ ١٠٢.

وازدرع فيها أفضل الحبوب والثمار، جاء فيها من الحرث ما لا يوصف مثله، فصار السابقون الأولون من المهاجرين والأنصار أفضل خلق الله بعد الأنبياء»(١).

على أنهم وإن كانوا طبيعة قابلة للخير في أنفسهم فإن هذا لا يرتبط بجنسهم، فإن «فضل الجنس لا يستلزم فضل الشخص، فربَّ حبشي أفضل عند الله من جمهور قريش، ورب أعجمي صدق رسول الله فيما أخبر وأطاعه فيما أمر وقام بالدِّين الحق أن يكون أفضل من جمهور العرب وقريش»(٢).

ثم إن تعريف العرب نفسه قد تعرض لتغيير، فقد اشتهر ما رُوِي عن النبي ﷺ: **«إن العربية ليست لأحدكم بأب ولا أُم، إنما هي لسان، فمن تكلم بالعربية فهو عربي»**(٣)، وهذا الحديث وإن كان ضعيفًا إلا أن معناه -كما قال ابن تيمية- «ليس ببعيد، بل هو صحيح من بعض الوجوه»(٤).

ولذلك فإن ما جاء في فضل العرب يثبت لمن تحدث بالعربية «وإن كان أصله فارسيًا، وينتفي عمن لم يكن كذلك وإن كان أصله هاشميًا»(٥).

ولقد تحولت هذه المبادئ إلى حقيقة عبر تاريخ الإسلام، يشهد لهذا المستشرق فيليب حِتي إذ يقول: «الحق أنَّ الإسلام قد وُفِّق أكثر من أديان العالم جميعًا إلى القضاء على فوارق الجنس واللون والقومية، وخاصة بين أبنائه، ولا شك في أن الاجتماع في موسم الحج له الفضل الأكبر في تحقيق هذه الغاية»(٦).

---

(١) ابن تيمية: اقتضاء الصراط المستقيم ١/ ٤٤٧، ٤٤٨.

(٢) ابن تيمية: اقتضاء الصراط المستقيم ١/ ٤٥٣.

(٣) ابن عساكر: تاريخ دمشق ٢١/ ٤٠٧، وانظر: الألباني: السلسلة الضعيفة (٩٢٦).

(٤) ابن تيمية: اقتضاء الصراط المستقيم ١/ ٤٦١.

(٥) ابن تيمية: اقتضاء الصراط المستقيم ١/ ٤٥٦.

(٦) فيليب حتي: العرب تاريخ موجز ص٦٠.

وإذن، فالتميز الإسلامي عقيدة عند المسلم، وفائدته في سياق بحثنا هذا هو كونه يؤسس للقاعدة الأصيلة التي يتطلبها علم الاستغراب، وهي قاعدة الانطلاق في دراسة الغرب من رؤية ذاتية لا تأثر فيها بالغرب نفسه، فهذه «الذاتية» و«الاستقلالية» لا يمكن تحقيقها بمعزل عن هذا الشعور بالاختلاف والتميز في نفس الباحث والدارس.

ثم إن كون هذا التميز الإسلامي يمثل «حقيقة» وليس مجرد دعوى، يجعل وضع المعايير والضوابط أقرب إلى الحق المطلق.

ونقول «أقرب» لأن الجهد البشري في البحث هو اجتهاد معرض للصواب والخطأ، ففيه من الحق الأساس الرباني وفيه من الخطأ بقدر ما في الباحث من بشرية غير معصومة من الزلل.

كذلك فإن كون هذا التميز الإسلامي غير محصور بعرق أو لون أو لغة يجعل رؤية البحث أوسع وأثرى وأرحب، وهو بهذا يشمل حتى الغربيين أنفسهم (بالمعنى الجغرافي والثقافي)، إذ أساس الانطلاق ليس رؤية جغرافية أو أرضية وإنما رؤية إسلامية تعلو على هذه الخلافات الأرضية وتتأسس على قيم ومنطلقات ربانية مُتَجاوِزة.

وسيبدو مزيد من وضوح هذه الأفكار إذ نتحدث عن «فلسفة وضوابط العلم في الإسلام» باعتباره أول وأهم تطبيقاتها.

ثانيا: فلسفة العلم في الإسلام

إن الإسلامَ تصورٌ شاملٌ للكون والحياة والإنسان، ومن خلال هذا التصور (العقيدة) تنبثق الطريقة التي يجب على المسلم أن يمضي بها في الحياة لأداء دوره المطلوب.

ومن بديهيات التصور الإسلامي أن هذا الكون وما فيه ومن فيه إنما هم مخلوقات الله عز وجل، وأن هذا الكون لا يستقيم على منهج سوى منهج الله عز وجل، فإن كان ثمة انحراف ذاق الناس سوء أثره بقدر ما اقترفوه لعلهم يعقلون فيرجعون ﴿ ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ [الروم: ٤١].

لهذا فإن الافتراق الأول والأكبر بين الإسلام وبين المناهج المادية هو في «مصدر العلم»، فبينما تقصره المناهج المادية على الكون وما تُدركه الحواس، فإن العلم في الإسلام له مصدران: الوحي والكون.

فالوحي هو ما لا طاقة للإنسان بأن يصل إليه بمجرد العقل وفيه الإجابة عن الأسئلة الكبرى وتحديد للغايات والطرائق المسلوكة الموصلة إليها.

والكون هو موضع التأمل والتدبر والتعلم والعمل.

ومِن ثَمَّ فإن إسلامية العلوم «إنما تعني إيجاد علاقة بينها وبين السُّنن الإلهية التي جاء بها الوحي في الكون والإنسان والاجتماع، وكذلك توظيف هذه العلوم والمعارف -عن طريق أسلمة فلسفتها- لتحقيق المقاصد والغايات الشرعية التي حددها الوحي»(١).

هذا الافتراق في التصور (العقيدة) يؤدي إلى افتراق في كل شيء بعده، فلو ضربنا مثلا بعلم الاقتصاد، وكيف يؤثر «التصور» في التفسير ومِن ثَمَّ في إيجاد الحلول، فسنجد أنه:

طبقا للرؤية المادية: فالاقتصاد هو العلم الذي يحاول التوفيق بين الموارد المحدودة في الكون والحاجات غير المحدودة للإنسان، ومن ثَمَّ لا يبعد أن تجد بين

---

(١) د. محمد عمارة: إسلامية المعرفة ماذا تعني ص١٢.

الماديين واحدًا مثل مالثوس يقول إن الحروب والنزاعات إنما هي «حلول» تعيد الطبيعة بها تنظيم نفسها ومواردها، وإن الجوع والمرض والموت إنما هي «موانع إيجابية» في مقابل «الموانع السلبية» التي هي تأخير الزواج والشذوذ الجنسي، وهو ما أعطى -بشكل عملي- مبررًا قويًا لكثير من الحروب وعمليات الإبادة، حيث اعتبر بعض القادة الغربيين في كثير من حروبهم أن هذا قدر محتوم؛ لأن الطبيعة تعيد تنظيم نفسها.

كذلك اقترح مالثوس أن أجرة العامل يجب ألا تتجاوز حد الكفاف كي لا يتكاثر كما يحلو له، واقترح أن لا تنفق الدولة على العاطلين لئلا يشجعهم ذلك على الكسل وعلى إنجاب أبناء يزيدون من «الأفواه» أكثر من زيادة «الطعام»، واقترح أيضًا وقف الإعانات عن الفقراء، ووضع العوائق أمام الزواج المبكر لخفض نسبة المواليد.

وكانت مثل هذه الاقتراحات مبررات ذهبية للبرلمان البريطاني ليبرر تخفيض إعانات الفقراء وإعانات البطالة وإعانات المرضى والمحتاجين، ولأصحاب المصانع للحفاظ على حد أدنى للأجور، لقد تلقوا آراء مالثوس كما يقول ول ديورانت: «كوحي إلهي مقدس»[1]. بينما الأساس الإسلامي لعلم الاقتصاد قائم على أن الله عليم خبير حكيم، لم يكن ليخلق خلقًا ثم لا يجعل لهم رزقًا، كما أن الله هو الرزاق، وأن كل دابة في الأرض إنما على الله رزقها، وأنه ما يظهر من فساد في الموارد فإنه بما صنعت أيدي البشر، وأن السماوات والأرض مكنوزة بالثروات ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَـٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ وَلَـٰكِن كَذَّبُوا۟ فَأَخَذْنَـٰهُم بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٩٦﴾﴾ [الأعراف: ٩٦].

---

(١) ول ديورانت: قصة الحضارة ٤٢/٢٥١ - ٢٥٣، ٤٢/٣٨١ - ٣٨٩، وانظر: رونالد سترومبرج: تاريخ الفكر الأوروبي الحديث ص٣٣٨، رشيد الحمد ومحمد سعيد صباريني: البيئة ومشكلاتها ص١١٢، جان ماري بيلت: عودة الوفاق بين الإنسان والطبيعة ص٢٧.

ومِن ثَمَّ يكون الحل في الضرب على أيدي ذوي الأطماع والمفسدين والساثرين في الناس بما يضخم ثرواتهم على حساب مصالح البشر، فيقف الإسلام ضد الربا والغش والاحتكار والتطفيف، ويفرض الزكاة ويحث على الصدقة ويصنع مؤسسات التكافل والوقف، ولا يمكن أن يصدر عن عالم مسلم مثل الذي صدر عن مالثوس أو فرانسيس بيلاس(١) وأمثالهما.

فبأثر من الخلاف في التصور يكون الخلاف في البحث عن الحلول وإدارة وتنظيم المؤسسات ووسائل الرقابة وأدوات العقاب.

إذن فالتصور الإسلامي للعلم، أو «فلسفة العلم في الإسلام»، تجعل العلم مؤسسا على تصور كوني شامل، يحدد أهدافه وغاياته، وضوابطه وقيوده، وبالإجمال فإن:

- غاية الغايات عبادة الله وإرضاؤه عبر القيام بواجب الاستخلاف في الأرض بإصلاحها وإعمارها ﴿هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾ [هود: ٦١] وإنقاذ الإنسانية والارتقاء بها ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ [الأنفال: ٢٤]، وما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب.

- وأهم الضوابط والقيود هو الالتزام بأوامر الله ورسوله، فلا يُسلك إلى الغاية العظيمة طريق الشر والسوء، ولا تنتهك الأخلاق في سبيل المنفعة، ولا يُقصد إلى الهدف بمنهج وأسلوب يخالف ما أنزله الله في كتابه وقرره رسول الله في سنته ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ﴾ [آل عمران: ٣١].

---

(١) فرانسيس بيلاس: مصلح (!) اجتماعي إنجليزي، محسوب على الليبرالية المتطرفة (!)، ورغم هذا دعم قانون الفقراء (١٨٣٤م)، ومن أقواله: «إن توفير المزيد من الخدمات الاجتماعية للفقراء من العمال سيشجعهم على الإهمال والكسل، وسينتهي بالمشروعات القائمة إلى الخراب». رونالد سترومبرج: تاريخ الفكر الأوروبي الحديث ص٣٣٨.

هذه الغاية الكبرى وهذا الضابط الأهم قد جمعتهما آية في كتاب الله تعالى: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا ﴿١١٠﴾﴾ [الكهف: ١١٠].

هذا هو الإجمال، فإذا شئنا أن نتلمس ملامح «فلسفة العلم في الإسلام» بنوع من التفصيل، لنفهم مواضع تميزه وافتراقه عن المناهج والفلسفات الأخرى وآثار ذلك على طبيعة العلم، فيمكن أن نستخلص ذلك من ثلاث آيات[1]:

أولا: ﴿ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ﴾ [البقرة: ٣١].

ومن هذه الآية نفهم أن:

١- العلم أساس للدِّين والدنيا، فأول ما حدث في حياة الإنسان أن علمه الله، وبغير العلم لا يكون الإنسان مؤهلاً للاستخلاف في الأرض.

بل «لا بد أن نضيف هنا حقيقة أخرى في غاية الأهمية، تلك هي أن كلمة «العلم» وردت في القرآن الكريم مرارًا كمصطلح على «الدِّين» نفسه الذي علمه الله لأنبيائه عليهم السلام (وذلك) في مقابلة الأهواء والظنون البشرية، ومن ثم يغدو العلم والدين سواء في لغة القرآن»[2].

فالعلم مطلوب لتحقيق مصالح الإنسان ومنفعته.

---

(١) هذه الملامح مستفادة من مؤلفات عديدة اهتمت ببحث «إسلامية المعرفة» و«تميز الحضارة الإسلامية» و«التوحيد» برؤية معاصرة، وأخذت منها ما له ارتباط ظاهر بموضوع بحثنا هذا، ولمن أراد الاستزادة فعليه بمؤلفات: سيد قطب ومحمد قطب ويوسف القرضاوي وإسماعيل راجي الفاروقي وأنور الجندي ومحمد عمارة وعماد الدين خليل وطه جابر علواني، وبإصدارات المعهد العالمي للفكر الإسلامي، وخصوصا مجلة إسلامية المعرفة.

وكل هذه المؤلفات تدور في هذا الموضوع حول معاني واحدة وإن كانت بأساليب وصيغ ومداخل متعددة، وضعت هذه المعاني تحت ثلاث آيات لتكون أسهل في الانضباط والاسترجاع والمذاكرة.

(٢) د. عماد الدين خليل: حول تشكيل العقل المسلم ص٧٦.

٢- مصدر العلم هو الله، وموضوع هذا العلوم هو خَلْقُه: الإنسان أو الكون، ومن ثَمَّ فإنه لن يتعارض موضوع العلم مع الدِّين أبدًا، وأي تعارض ظاهري مرده إلى سوء فهم الدِّين أو سوء تحقيق وتحرير الموضوع العلمي.

٣- العلم منحة من الله، فهو نعمة تستوجب الشكر، ﴿وَعَلَّمْنَٰهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ لِتُحْصِنَكُم مِّنۢ بَأْسِكُمْ ۖ فَهَلْ أَنتُمْ شَٰكِرُونَ﴾ [الأنبياء: ٨٠]، ومن شُكرها أن تُبذل في مرضاة الله وإصلاح الأرض والقيام بواجب الاستخلاف، وأن لا تستعمل فيما هو محرم أو باطل أو إفساد في الأرض.

٤- وحيث إن العلم منحة من الله ونعمة، فإن كل ازدياد منه موجب لمزيد من الشكر والامتنان، لا كما اعتقد اليونان في أسطورة برومثيوس[1] التي تجعل العلم شيئا انتُزِع من الآلهة على غير رغبتها، لأنه أداة السيطرة، ولذا فإن كل ازدياد في العلم هو خصم وانتزاع من الآلهة وإضافة في رصيد الإنسان الذي يطمح أن يمتلك العلم فيمتلك السيطرة فيصير بنفسه إلها.

وهذا ما قاله جوليان هكسلي بوضوح: «الإنسان كان يخضع لله في عصر الجهل والعجز، أما الآن وقد تعلم وسيطر على البيئة فقد آن له أن يحمل على عاتق نفسه ما كان من قبل في عصر الجهل والعجز يلقيه على عاتق الله، ومن ثم يصبح هو الله»[2].

فهذا الفارق الكبير بين الرؤيتين يجعل كل ازدياد في العلم -في التصور الإسلامي- موجبًا للخضوع والخشية والامتنان: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟﴾ [فاطر: ٢٨].

---

(١) تقول الأسطورة عن برومثيوس «سارق النار»: استطاع برومثيوس سرقة النار المقدسة من الآلهة (التي هي العلم والمعرفة والنور) وأعطاها للإنسان، فأغضب هذا الآلهة التي تريد احتكار العلم لنفسها لتستمر سيطرتها على الإنسان، فانتقمت من برومثيوس ثم ألقت في الأرض الشرور.

(٢) محمد قطب: واقعنا المعاصر ص٨٩.

بينما كل ازدياد في العلم -في التصور الغربي- موجب لمزيد من الكبر والغرور والتحدي واللامبالاة وحب السيطرة لدى الإنسان.

٥- العلم للعمل، فلقد علم الله الأسماء لآدم ليقوم بواجب الخلافة في الأرض، ولهذا فالعلم -في الرؤية الإسلامية- مهتم بالعمل والتطبيق، وحائد عن الإسراف والإغراق في التنظير وما لا ينبني عليه عمل، وهذه هي حقيقة المسألة التي افترق فيها المسلمون عن اليونان؛ فأسس المسلمون المنهج العملي التجريبي وانطلقوا من الجزئيات ليُحكموا الكليات بالتجربة والقياس والبرهان، بينما أسرف اليونان في النظر والتأمل والتنظير، وحاولوا الوصول من الكليات (المجهولة) إلى الجزئيات فتخبطوا كثيرًا [1].

وقد ورد كثيرًا النهي عن التعلق بالظنون والأوهام والحث على طلب البراهين والدلائل والحقائق:

﴿قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَآ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ﴾ [الأنعام: ١٤٨].

﴿وَمَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِى مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا﴾ [النجم: ٢٨].

﴿هَاتُوا۟ بُرْهَـٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ﴾ [البقرة: ١١١].

٦- العلم -بما أنه صادر عن الله، ويُتَقَرَّب به إلى الله، ويحاسب الله عليه- هو مظنة الإخلاص والعدل وتحري الحق والإنصاف، وهذا كله ضد الهوى والظلم والانحراف، فيتحقق بذلك البصر المطلوب والبحث المتجرد، فاتباع الهوى مذموم وهو طريق الضلال ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَـٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَـٰوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ ٱللَّهِ﴾ [الجاثية: ٢٣].

---

(١) أنور الجندي: معلمة الإسلام ١/ ٣٥٥ وما بعدها.

وهذا هو مفتاح القضية الكبرى التي تمثل مشكلة عويصة، وهي استخدام العلم لخدمة الغرض المسبق، ولَيّ حقائق العلوم أو طمسها لتحقيق الغرض، وتلك مشكلة ما زالت بغير حل، ولا يُتوقع أن يكون لها حل مهما حاولت العلوم وضع الشروط والضوابط المنهجية لعملية البحث (خصوصًا في العلوم الإنسانية)، إذ مجالها النفس والعقل، وكل بحث يمكن للباحث أن يُزينه بطلاء يبدو علميًا منهجيًا، وكلما كان متقنا لصنعته كلما كانت زخرفته أحكم.

ثانيا: ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلۡعِلۡمِ إِلَّا قَلِيلٗا﴾ [الإسراء: ٨٥]

ومن هذه الآية نفهم أن:

٧- العلم ليس منحصرًا في المادة وما تدركه الحواس وحدها، فمجال الروح مما لا يحيط الإنسان به، إلا أنه لا يمكن نفي وجوده أو تجاهله، والإنسان يُحاسب على أعمال غير مادية؛ مثل النية يترتب عليها أمور غير ظاهرة مثل العُجب أو الإخلاص، وقد قال ربنا جل وعلا: ﴿وَلَا تَقۡفُ مَا لَيۡسَ لَكَ بِهِۦ عِلۡمٌۚ إِنَّ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡبَصَرَ وَٱلۡفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنۡهُ مَسۡـُٔولٗا﴾ [الإسراء: ٣٦].

فأضاف الفؤاد إلى الحواس، فهو يدرك ما ليس بمادي والحواس تدرك هو ما هو مادي، وهكذا «جعل القرآن الكريم سُبُل العلم والمعرفة متعدية للسبل الحسية»[١].

٨- العلم عملية مستمرة، ومساحة واسعة تنادي على الإنسان أن يبذل فيها جهده ويكتشف منها المزيد والجديد، والمسلم حين يستعصي عليه أمر في العلم يلجأ إلى الله ويضرع إليه أن يهديه إليه ويكشفه له.

ثالثا: ﴿وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢١٦]

ومن هذه الآية نفهم أن:

---

(١) د. محمد عمارة: إسلامية المعرفة ماذا تعني ص٦٠، ٦١.

٩- الخضوع لأوامر الله فيما أحل وحرَّم واجب وضرورة، وقد حرم الله علينا علوما بعينها؛ مثل السِّحر لما يسببه من ضرر وتفريق بين الناس، وحرم علينا استعمال العلوم في تزيين الحرام؛ كاستعمال الفصاحة والبلاغة في تزيين الباطل، وكاستعمال علوم التصوير والإضاءة والإخراج في خدمة الإباحية.

١٠- ضرورة التحرر والانعتاق من التقليد؛ إذ كل البشر معرضون للجهل والخطأ والضلال، ويبقى الله وحده مصدر العلم الحق، ولذا أنكر الله على من جاءهم العلم من عنده فتركوه وتمسكوا بتراث آبائهم وقالوا ﴿إِنَّا وَجَدْنَا ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقْتَدُونَ ﴿٢٣﴾ ۞ قَٰلَ أَوَلَوْ جِئْتُكُم بِأَهْدَىٰ مِمَّا وَجَدتُّمْ عَلَيْهِ ءَابَآءَكُمْ ۖ قَالُوٓا۟ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٢٤﴾ فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ﴾ [الزخرف: ٢٣ - ٢٥].

١١- ويترتب على هذا أن العلوم -خصوصًا العلوم الاجتماعية- هي علوم معيارية لا وضعية، بمعنى أنها تدرس ما يجب أن يكون وكيف نصل إليه، لا ما قد كان أو ما هو كائن مكتفية بتفسيره، وهذا لا يكون إلا في حالة وجود وحي، أي وجود علم فوقي معصوم من الخطأ.

ولذا لا تجد أبدًا -في الحضارة الإسلامية- من بحث في علم الاجتماع أو التاريخ أو السياسة إلا وبحثه يهدف إلى الوصول إلى «المعيارية» أي النموذج الذي أمر الله به.

بينما منذ طلق الغرب الدِّين بزغ لديه فكرة دراسة العلوم على منهج وضعي لا يهتم إلا بتفسير ورصد ما قد كان وما هو كائن، ولذا ظهرت أمثلة شنيعة من علوم تنفي الأخلاق وتمجد القسوة وتؤيد إهلاك الضعفاء والفقراء والمعوقين.

١٢- وحيث كان الوحي ضرورة لا غنى عنها، كان تضييع الدين مُفسدًا مُهلكًا، ولذا فنحن إذ ندرس مجتمعات تضيع الدِّين أو تعتنق أديانًا فاسدة فنحن منشغلون -بطبيعة الحال- بتلمس هذا الفساد ومظاهره وتبيان علاجه، ونحن -بما نملك من

اليقين من ضرورة الدِّين- أقرب لأن نفهم من أين فسد حال هؤلاء ومن أين يمكن إصلاح ما فسد..

لذا فنحن لا ندرس الغرب أو الشرق أو أي جاهلية من موقف اللا موقف كحال المتفحص، بل من موقف الطبيب الذي يبحث عن الخلل ويجتهد في إدراكه بدقة ثم يجتهد في علاجه بدقة، ومن ضرورات موقف الطبيب أن يبصر ويكتشف كذلك مواضع الصحة والقوة والتميز في الحالة التي أمامه.

١٣- وهذا يحدد أولوياتنا في الدراسة، فالعلوم الاجتماعية «هي المعنية أولا بعملية إسلامية المعرفة، بحيث تستحق أن تُمنح الأولوية بسبب من ارتباطها الوثيق بالمنظور الفكري والأخلاقي، وبسبب من أنها إلى حد كبير كانت ولا تزال بمثابة البوابات أو القنوات الكبرى التي تسرب منها الخلل والتضارب والفوضى وثنائية التوجيه وضيق الخناق على المعطيات الإسلامية»[(١)].

فهذه ثلاثة عشر ملمحًا من «فلسفة العلم في الإسلام»، هي التي تحكم الحركة العلمية الإسلامية، وتحكم الباحثين المسلمين في الانطلاق والنظر، تضبط أهدافهم كما تضبط سلوكهم فيه، فينبغي أن تكون أمام عين كل دارس وباحث.



(١) د. عماد الدين خليل: مدخل إلى إسلامية المعرفة ص٢١.

خلاصة التمهيد

قبل منتصف القرن العشرين تطورت دلالة لفظ الاستغراب من معناها اللغوي المرادف للدهشة، لتكون معبرة عن المنبهرين بالغرب على حساب انتمائهم الإسلامي، وبعد نصف قرن وقبل نهاية القرن العشرين جاء كتاب حسن حنفي «مقدمة في علم الاستغراب» ليأخذ اللفظ تطورًا دلاليًا آخر ويصير بمعنى «دراسة الغرب برؤية ذاتية».

بينما اشتهر لفظ «التغريب» للتعبير عن الانبهار بالغرب، وإن كان البعض ما يزال يستعمل لفظ الاستغراب ومشتقاته بمعنى التغريب.

ومن المؤسف أنه لم تصدر حتى الآن دراسات في التأصيل الإسلامي لعلم الاستغراب؛ فكتاب حسن حنفي لا ينطلق منطلقًا إسلاميًا بل هو أقرب للتعبير الجغرافي الثقافي عن الشرق والغرب، وكتاب حسن حنفي عليه الكثير من المؤاخذات فضلا عن أفكاره هو التي لا تجعله محسوبًا على الرؤية الإسلامية بحال من الأحوال.

أما الرؤية الإسلامية لعلم الاستغراب فما زالت منثورة كأفكار وفقرات في كتب ودراسات ومقالات، وأغزر ما تكون على هذه الصورة عند الدكتور مازن مطبقاني الذي نسأل الله أن تكلل جهوده بالنجاح في هذا المضمار.

وظهرت هذه الرؤية الإسلامية كحاشية على دراسة محمود ماضي عن كتاب ابن تيمية «نقض المنطق»، والكتاب الوحيد الذي وجدناه باللغة الأجنبية لم يقصد الاستغراب بالمعنى الذي نقصده في بحثنا هذا وإنما اعتبره «النزعة العدائية للغرب»،

فهو خارج السياق وإن لم يخلُ من فوائد عديدة باعتباره يحلل مشاعر الشرق ضد الغرب من منظور مؤمن تماما بسيادة الغرب وتفوقه.

أما الاستغراب الذي نريد، وهو دراسة الغرب من منطلق إسلامي، فلا بد أن يتوافر فيه أمران قبل الانطلاق:

الأول: هو الإيمان بالتميز الإسلامي، وهو تميز مؤسَّس على ما يملك من الحقيقة المطلقة والعلم الإلهي، وهو تميز شهد له حتى غير المسلمين.

وأهم ما يميزه أنه تميز لا عنصرية ولا عرقية فيه، وإنما هو إيمان مفتوح لكل أحد، وحتى اللغة التي احتوت معانيه إنما هي لسان لا قومية عرقية، فمن تكلم بالعربية فهو عربي.

الثاني: هو تشرب فلسفة العلم في الإسلام، وهي الفلسفة المستقاة من العقيدة، والتي تحكم الأهداف والغايات كما تضع الضوابط والقيود لموضوع العلم ومجاله.

۞ ۞ ۞

الباب الأول

جذور وثمار

أنتجت العلاقة الطويلة بين الإسلام والغرب ثمارًا كثيرة، هذه الثمار بالنسبة لموضوع الاستغراب بمثابة البذور أو بمثابة الجذور، فالاستغراب -من حيث هو تعرف على الغرب ودراسة له- ليس موضوعًا طارئًا كما نؤكد ونكرر.

ونحن وإن كنا نشرع الآن في علم الاستغراب من موقع الضعف والهزيمة، فعلينا أن نفهم كيف قام أجدادنا بالتعامل مع هذا الغرب وقت أن كان الحال معكوسًا، فكانوا هم في عز ورفعة، وكان الغرب يرسف في القيود ويغشاه الظلام.

ثم إن انطلاقتنا الأولى، التي كانت إسلامية خالصة، ترشدنا إلى حل إشكالات عديدة قد تقابلنا في المسيرة الحديثة، وهذا من واقع قرب العهد بالنبوة والسلف الصالح، وهم خير القرون، وإن كان هذا لا يحملنا على التقيد بها تقيد المقلد، فكل ما هو غير الوحي مجال أخذ ورد.

ثم إنه من البديهي الذي لا يحتاج إلى إثبات أنه لا يمكن لنا ولا للغرب -حتى لو تصورنا إمكانية وقوع هذه الإرادة- أن نبدأ من الصفر ونتجاهل ذلك التاريخ الطويل الذي صنعنا وصنعهم على السواء.

وكما لا يملك الإنسان أن ينقطع عن زمانه ومكانه وبيئته وجذوره، فلا يمكن أن يجري هذا للأمم التي يكتسب تراثها رسوخًا مضاعفًا من حيث تحوله إلى عقل جمعي وثقافة مترسخة تجري من الأمة مجرى الدم من العروق.

وقد جعلنا هذا الباب لمطالعة هذه الجذور في العلاقة بين الإسلام والغرب، وثمارها التي هي بمثابة جذور للاستغراب، وجعلناه في فصلين:

- الفصل الأول: تاريخ ملتهب
- الفصل الثاني: جذور الاستغراب

❁ ❁ ❁

الفصل الأول

تاريخ ملتهب

حيث كان الإسلام رسالة عالمية تهدف إلى تحرير الإنسان من استعباد الملوك وسطوة الكُهَّان وقهر المترفين، كان طبيعيًّا أن تواجه الممالك والإمبراطوريات التي فسدت وتبغي الفساد في الأرض، إذ الباطل لا يطيق مجرد وجود الحق، والباطل دائمًا أسبق إلى مواجهة الحق وإنشاب الصراع معه. فهؤلاء قوم شعيب عليه السلام لم يطيقوا العيش معه: ﴿وَإِن كَانَ طَآئِفَةٌ مِّنكُمْ ءَامَنُواْ بِٱلَّذِىٓ أُرْسِلْتُ بِهِۦ وَطَآئِفَةٌ لَّمْ يُؤْمِنُواْ فَٱصْبِرُواْ حَتَّىٰ يَحْكُمَ ٱللَّهُ بَيْنَنَا ۚ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿٨٧﴾ قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُواْ مِن قَوْمِهِۦ لَنُخْرِجَنَّكَ يَٰشُعَيْبُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا﴾ [الأعراف: ٨٧،٨٨]، وقبلهم كان جواب قوم لوط: ﴿أَخْرِجُوهُم مِّن قَرْيَتِكُمْ ۖ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ﴾ [الأعراف: ٨٢].

وقد كانت مملكة الروم إحدى الممالك الكبرى في العالم، وعلى حدود التماس مع أرض الإسلام، فكان لابد من هذا الشوط من معركة الحق والباطل، وهو الشوط الذي يستمر إلى لحظتنا هذه، وسيستمر حتى قيام الساعة كما جاء في أحاديث النبي ﷺ عن فتن آخر الزمان.

نستعرض موجزًا مختصرا لهذا التاريخ في هذه المباحث:

- المبحث الأول: الصدمة الأولى
- المبحث الثاني: الحرب المقدسة
- المبحث الثالث: ضربة قاصمة
- المبحث الرابع: الهيمنة الغربية

المبحث الأول

الصدمة الأولى

احتوت رسائل رسول الله ﷺ التي أرسلها إلى الملوك بعد صُلح الحديبية رسالة إلى هرقل قيصر الروم، حملها سفيره دحية الكلبي، وقد هيأ الله لقيصر وفدًا من قريش على رأسه أبو سفيان، فحاورهم واستيقن من صدق الرسالة وعرف أن صاحبها نبي آخر الزمان، وتوقع أنه سيحوز منه هذا المُلك، ولكنه آثر الدنيا والمُلك[١].

ثم كانت غزوة مؤتة أول ما وقع من الصراع بين الدولة الإسلامية والروم البيزنطيين، وقد كانت «أكبر لقاء مثخن، وأعظم حرب دامية خاضها المسلمون في حياة رسول الله ﷺ»[٢].

وهي -من وجهة النظر العسكرية- تعتبر هزيمة للمسلمين وانسحابًا لهم، ولكن بالتعمق في التفاصيل فإنها بمثابة رسالة عسكرية في غاية القوة للدولة الرومية وللأعراب المنضوين تحت لوائها ولعامة العرب، إذ استطاع جيش المسلمين الصغير (ثلاثة آلاف مقاتل) أن يتصدى ويثخن في جيش التحالف الرومي العربي العرمرم (مائتي ألف مقاتل) ثم ينسحب إلى المدينة ولا يجرؤ الروم على تتبعه!

ثم بعد عام وشهرين وقعت غزوة تبوك، ضد ذات الحلف الرومي العربي ولكن في منطقة تبوك وهي أقرب إلى المدينة من مؤتة، وعلى رغم الظروف العصيبة للمسلمين حينئذ إلا أنهم أخرجوا أكبر جيش في تاريخهم (ثلاثين ألفًا) غير أنه لم يقع

---

(١) البخاري (٧)، د. أكرم العمري: السيرة النبوية الصحيحة ٢/ ٤٥٤ وما بعدها.

(٢) المباركفوري: الرحيق المختوم ص٣٢٦.

قتال، بل تفرق الروم والعرب ولم يجسروا على المواجهة.

وقد مات النبي ﷺ وهو يجهز جيشًا آخر لغزو الروم بقيادة أسامة بن زيد، فأنفذه بعده أبو بكر الصديق رضي الله عنه، وأصر على إنفاذه رغم اضطراب الجزيرة العربية عليه، فكان اتباعه لأمر النبي ﷺ مما ألقى المهابة من المسلمين في صدور العرب، ثم انشغل المسلمون بما وقع في الجزيرة العربية بعضا من الوقت، ثم بدأت الفتوحات الإسلامية الكبرى.

انطلقت الفتوحات تجاه فارس والروم في ذات الوقت، وبينما كان قتال الفرس أشد وأشرس كانت جبهتهم تنهار أمام المسلمين أسرع، فيما أبطأت الفتوحات في جبهة الروم حتى حوَّل الصديق جزءًا من الجيش الإسلامي في الجبهة الفارسية إلى جبهة الروم بقيادة خالد بن الوليد، ثم وقعت المعركتان الكبريان في جبهتي فارس والروم في ذات الوقت تقريبًا، فكانت القادسية على جبهة الفرس (شعبان ١٥هـ) واليرموك على جبهة الروم (رجب ١٥هـ).

وما يهمنا في هذا السياق هي جبهة الروم التي تلقت الصدمة الأولى الكبرى منذ عهد أبي بكر الصديق، فخسرت تباعًا معاركها الكبرى في أجنادين واليرموك، وتساقطت عواصم الشام الرومية القدس ودمشق وأنطاكية، ثم جاء عهد عمر بن الخطاب فخسر الروم أملاكهم في مصر والشمال الإفريقي كذلك، ثم جاء عهد عثمان بن عفان فخسروا جزائر في البحر المتوسط أهمها جزيرة قبرص.

ثم تراجعت الفتوحات حين وقعت الفتنة بين المسلمين أواخر عهد عثمان وطوال عهد علي، حتى اجتمع المسلمون في عام الجماعة، وبدأت الدولة الأموية، أو لنقل: العاصفة الأموية التي هبت على دولة الروم البيزنطيين فزلزلتها، ففضلًا عن الاستنزاف المستمر لقوى الروم، فتح المسلمون عددا من الجزر أهمها رودس وصقلية وهددوا جزيرة كريت، وصارت الغزوات برية وبحرية، والأهم من ذلك بل

المفاجأة غير المتوقعة أنهم هددوا عاصمة الدولة ذاتها: القسطنطينية، وذلك أكثر من مرة (٤٩هـ) فانطلق الجيش الإسلامي إلى القسطنطينية وظل يحاصرها لسبع سنوات (٥٤ - ٦٠هـ)، لكن المدينة العتيقة استطاعت الصمود هذه المرة.

ولما مات معاوية ودخل المسلمون في فتنة أخرى اضطر عبد الملك بن مروان أن يتنازل ويصالحهم على أموال يدفعها لهم، فلما استقرت له الأمور فيما بعد، استأنف هو وأولاده من بعده تهديد الدولة البيزنطية وعاصمتها أكثر من مرة، وبدَا وكأن شمس الروم البيزنطيين توشك على الغروب.

ثم إن عصر الأمويين حمل عنصرا جديدا في عهد الوليد بن عبد الملك؛ إذ فتح المسلمون الأندلس وتوغلوا في جنوب فرنسا، وكادوا أن يصلوا إلى باريس لولا أن هُزِمت جيوشهم في معركة شارل مارتل (بلاط الشهداء)، وهي المعركة التي نجهل حتى الآن كيف وقعت هزيمتها لانعدام المصادر التي فصَّلت هذا الأمر.

وبالجملة، فكأن الأمويين كانوا كالجسم الذي يحيط بذراعيه كل مساحة الغرب المعروف ويوشك أن يحتويه ويضمه إليه.

إلا أن الدولة الأموية ضعفت قبل أن تحقق هذه المُنى الواسعة، وورثتها الدولة العباسية التي انتقلت عاصمتها إلى الشرق مما أثر بالضعف على الفتوحات في جبهة الروم، وفي ذات الوقت انفصلت الأندلس بقيادة بقية الأمويين عبد الرحمن بن معاوية الداخل، فتجمدت فتوحات المسلمين على الجبهتين، وتحولت إلى الضربات المستمرة والاستنزاف المستمر وإلقاء الهيبة في قلوب الروم، ونستطيع القول بأنه قد استقرت الحدود بين الدولة الإسلامية وبين الروم في ذلك الوقت على الجبهتين: العباسيين والبيزنطيين، والأندلس وبلاد الغال (فرنسا)، وإن لم يخل الأمر من غارات متبادلة وحملات غير مستقرة وتوغلات بعضها خطير، وفي كل هذا كانت اليد العليا -في الأغلب- للمسلمين.

في المشرق ظل وضع التفوق العسكري للمسلمين طوال العصر العباسي الأول، وصدرا من العصر العباسي الثاني، وحتى لما ضعفت الخلافة العباسية في بغداد قامت الدولة الطولونية ثم الإخشيدية (وكلاهما في مصر والشام) ثم الحمدانية (في الشام) بواجب جهاد الروم، إلا أنه دائر في مجال الاستنزاف والغارات ولم يحقق تقدمًا حقيقيًا في أرض الروم، وبقدر ما عجز الروم عن استغلال ضعف الخلافة العباسية في ذلك الوقت في تحقيق تقدم على حساب الدولة الإسلامية، بقدر ما عجزت الخلافة العباسية عن تحقيق تقدم مثله، إذ كان كل طرف منشغلاً بما يهدده؛ كتمردات الزنج والصفاريين والقرامطة بالنسبة للعباسيين، وتمردات البلغار والأرمن والنزاعات الداخلية في بلاط القسطنطينية.

ثم انقلب الحال مع الربع الأول من القرن الرابع الهجري، إذ زاد ضعف الخلافة العباسية وسيطر عليها البويهيون، وبرز في الدولة البيزنطية أباطرة أقوياء -أهمهم نقفور فوكاس- استطاعوا تحقيق تقدم مفاجئ وخطير داخل الأراضي الإسلامية، وهزموا الحمدانيين في الشام، واستولوا على مدن الثغور، بل على عاصمة الجهاد في الثغور «طرسوس»، واجتاحوا حتى حلب عاصمة سيف الدولة الحمداني وأنطاكية التي هي أحصن مدن الشام، ثم حالت الاضطرابات في بلاط بيزنطة دون استكمال هذا التقدم إلى أخطر من ذلك، حتى جاءت العاصفة السلجوقية.

انبعثت الدولة السلجوقية من الشرق، ثم تقدمت بسرعة كبيرة تجاه الغرب فأزالت الدول التي في طريقها، بما فيها البويهيين، وسيطر السلاجقة على الخلافة العباسية ذاتها، وانطلقوا غربًا وشمالاً، واقتحموا بلاد الروم، وأنزلوا بهم إحدى الهزائم التاريخية الساحقة في موقعة ملاذ كرد (٤٦٣هـ) التي قضت على كل أمل في التوسع داخل الأراضي الإسلامية بل وأعادت في أذهان البيزنطيين ذكر العاصفة الأموية والتهديد الوجودي، وكانت اندفاعة الدولة السلجوقية من القوة بحيث إنها

لما انقسمت على نفسها كان قسم منهم عُرِف بـ«سلاجقة الروم» قد استولى على نصف آسيا الصغرى.

وما إن ضعف سلاجقة الروم وتفرقوا حتى كانت أوروبا الكاثوليكية تتمخض عن واحد من أهم حوادث التاريخ وأكثرها شهرة: الحروب الصليبية.

لكن، وقبل أن ندلف إلى الحروب الصليبية، نتوقف عند علاقة المسلمين بالشطر الغربي من أوروبا، من جهتي الغرب والجنوب.

أما في الغرب فقد مَثَّلت جبال البرنييه (وتسمى البرانس) ذات الحد الطبيعي الفاصل الذي مثلته جبال طوروس بين المسلمين والروم، لكن الجزء الصغير في شمال غرب الجزيرة الإيبرية الذي لم -يفتحه المسلمون أول أمرهم- مثَّل جبهة الغرب في الصراع الإسلامي الغربي، إذ ظل هذا الجزء يكبر رويدًا رويدًا -وبالذات في لحظات الضعف والتمزق الأندلسي- حتى تحول إلى مملكة ليون، ثم صار يشمل كل الجزء الشمالي من الجزيرة، ورغم أنه انقسم على نفسه إلى ممالك كثيرة، ورغم أن فترات القوة الإسلامية -وذروتها في القرن الرابع الهجري- أعادت كل هذه الأجزاء إلى الانكماش الجغرافي والضعف السياسي، إلا أن النظرة العامة لمسيرة التاريخ تشهد بأن هذا الجزء صار يتسع رويدًا رويدًا حتى تحول إلى خطر حقيقي وتهديد وجودي في منتصف القرن الخامس الهجري.

وقد كانت الأندلس حينئذ في عصر ملوك الطوائف، واستطاعوا إسقاط أول عاصمة كبرى للمسلمين (طليطلة ٤٧٨هـ)، لولا أن جاء المدد من المرابطين بالمغرب فأوقف هذا التقدم الإسباني لقرن على الأقل.

وأما في الجنوب فقد تضافرت عدة عوامل على دخول المسلمين على خط الصراع بين والي صقلية والإمبراطور الروماني، التجأ على إثرها قائد الأسطول الصقلي إلى الأغالبة (الذين كانوا يحكمون إفريقية -تونس- آنذاك).

وآل هذا إلى أن يفتح المسلمون صقلية (٢١٢هـ)، واستمر حكمهم لها أكثر من قرنين من الزمان (حتى ٤٨٤هـ)، وشهدوا في بعض الأوقات تفوقًا وقوة هددوا بها أملاك البابوية في إيطاليا حتى لقد كانت لهم حملة على روما ذاتها (٢٣٢هـ)، إلا أن توسعهم في الأراضي الإيطالية لم يكن مستقرًّا، ثم جاءت عاصفة النورمان التي دخلت أول الأمر على خط الصراع الأوروبي الداخلي ثم تكونت لهم مملكة استولت -ضمن ما استولت- على صقلية وأنهت الحكم الإسلامي فيها.

هذا هو مجمل ما يمكن أن نسميه «الصدمة الأولى» في الصراع بين المسلمين والغرب، والذي امتد نحو خمسة قرون، منذ البعثة وحتى نهاية القرن الخامس الهجري، وهو مجرد إشارات إلى الأحداث الكبرى فحسب، وقد بدًا فيه هذا الاكتساح الواسع من المسلمين للأراضي التي استولى عليها الروم من قبلهم، وأثمرت هذه الصدمة الإسلامية أوضاعًا وحدودًا سياسية واجتماعية ودينية استحال تغييرها.



المبحث الثاني

الحرب المقدسة

تبدأ مرحلة جديدة منذ نهاية القرن الرابع وأوائل القرن الخامس الهجري، حتى منتصف القرن السابع الهجري، ونستطيع أن نقول بأنها مرحلة الحروب الصليبية التي حققت إنجازات مهمة وغير متوقعة كذلك في الجهات الثلاث: الشرقية والجنوبية والغربية، إلا أن أوسعها نجاحًا كانت في الجهة الغربية حيث سقطت حواضر الأندلس ولم يبق منها سوى جزء صغير في الجنوب هو مملكة غرناطة، بينما كان أقلها نجاحًا في الجبهة الجنوبية إذ لم يستطع الروم الاستقرار في جزء من الشمال الإفريقي، بينما كانت الجبهة الأكثر شراسة واشتعالًا وأهمية والتهابًا هي جبهة الشام التي شهدت أشهر حدث في التاريخ: الحروب الصليبية.

فأما في الجهة الغربية حيث الأندلس، فقد أوقف المرابطون زحف ألفونسو السادس وأوقعوا به هزيمة ساحقة في سهل الزلاقة (٤٧٩هـ) محطمين بذلك كل آماله في «حرب الاسترداد»، غير أنهم عجزوا عن استرداد طليطلة -في وسط شبه الجزيرة الإيبرية- واحتفظت سرقسطة -في الشمال الشرقي- بنوع من الاستقلال الذاتي عن دولة المرابطين، ثم لم يستقم أمر الأندلس تحت ظل ملوك الطوائف فضم المرابطون الأندلس إليهم، وعاد التوحد بين الأندلس والمغرب مرة أخرى.

ثم لما ضعف المرابطون ورثهم الموحدون في المغرب والأندلس، وكانت لهم معركة أخرى جليلة مع الإسبان هي معركة الأرك (٥٩١هـ) انتصروا فيها نصرًا تاريخيًا يشبه الزلاقة، إلا أنه لم تمر نحو عشرين سنة إلا ونزلت بهم هزيمة تاريخية أقسى في معركة العقاب كانت نذير نهاية دولة الموحدين، والتي كان سقوطها سببًا مباشرًا في سقوط

حواضر الأندلس الزاهرة مثل قرطبة وأشبيلية وما حولهما شرقًا وغربًا حتى لم يبق للمسلمين في شبه الجزيرة إلا غرناطة في الجزء الجنوبي، وقد عمل انقسام الغربيين إلى ثلاث ممالك على إطالة عمر غرناطة لثلاثة قرون أخرى. وبهذا فقد الإسلام قطعة غالية من أرضه وواحدة من أزهي وأنضر درر حضارته.

وأما في الجهة الجنوبية فقد أدى سقوط صقلية بأيدي النورمان مع ضعف العبيديين (الفاطميين) في الشمال الإفريقي إلى محاولات نورمانية متكررة لاحتلال ساحل إفريقية (تونس)، نجحت خلال نصف القرن السادس الهجري الأول في الاستيلاء على مدينة «المهدية» من بني زيري والسيطرة على الساحل الممتد من طرابلس إلى تونس وبعض موانئ برقة وتهديد القيروان، لكن توقف هذا التوسع مع وفاة روجر الثاني، ثم جاءت دولة الموحدين فاستردت هذه المدن وطهرت الساحل الشمالي من النورمان، فعاد البحر ليكون حدًّا بين المسلمين والروم.

ونعود إلى الجبهة الأكثر اشتعالًا والتهابًا والأشرس قتالًا واشتباكًا، إلى الشام حيث الحملات الصليبية، فلقد أشعل البابا أوربان الثاني من فرنسا شرارة حملة صليبية لكنها لم تقتصر على واحدة بل وصلت إلى ثماني حملات كبرى هاجمت المشرق إلا واحدة هاجمت إفريقية (تونس) وأدرجناها ضمن الحملات الصليبية على المشرق للارتباط بها.

زعم أوربان أن المسلمين يقتلون الحجاج النصارى إلى القدس ويعتدون على المقدسات المسيحية في الشرق، وكان نداؤه بتجهيز جيش كبير لغزو الشرق أمرًا اجتمعت له عدد من العوامل فبلغ غايته.

من هذه العوامل ما حققه الإسبان من انتصارات على الأندلسيين والنورمان على المسلمين، وكذلك استغاثة البيزنطيين بالبابوية -رغم الخلافات العميقة- أمام انتصارات السلاجقة، واستيلاء سلاجقة الروم على نصف آسيا الصغرى، كذلك فإن

حالة الفقر في أوروبا والأوضاع الاجتماعية أفرزت طبقات ساخطة وتسعى لتحسين وضعها، فكان كل ذلك مما وفَّر للدعوة الصليبية رجالًا وأوضاعًا تلبي حاجتها.

انطلقت إلى الشرق ثماني حملات: الأولى والثانية والثالثة والسادسة إلى الشام، والرابعة إلى بيزنطة، والخامسة والسابعة إلى مصر، والثامنة إلى إفريقية.

استطاعت الحملة الأولى تغيير أوضاع الشرق وتلقى المسلمون هزيمة تاريخية قاسية فقدوا فيها كل الساحل الشرقي بالإضافة إلى فقدانهم بيت المقدس، وهو أول مُقدَّس يفقده المسلمون في تاريخهم، وأنشأت الحملة الأولى أربع ممالك صليبية في الشرق هي: الرها، أنطاكية، طرابلس، بيت المقدس.

وكان المسلمون في ذلك الوقت من الضعف والتفرق في حال مزرية، فالشام منقسم على نفسه، وقد ضعفت الخلافة في بغداد، وسلاجقة الروم في الشمال، والعبيديون في مصر، واستغرق وقت إخراج حركة جهادية قوية نحو أربعين عاما، حتى ظهر عماد الدين زنكي الذي وحد الموصل وحلب وكاد أن يوحد معهم دمشق، والأهم من هذا أنه استطاع تحرير إمارة الرها.

على إثر هذا النصر تحركت حملة صليبية ثانية إلى الشام، وأرادت أن تسيطر على دمشق -التي كانت في علاقة تحالف ومهادنة مع الصليبيين- فتكسب بذلك أكثر من مكسب: تضرب الحركة الجهادية الزنكية وتسبقها إلى دمشق، ثم تأخذ لملوكها وأمرائها إمارات وممالك جديدة، وتستأثر بخيرات هذه الأرض دون من سبقوهم من الصليبيين.

وبسبب من هذا الطمع والاختلاف بين الأمراء هُزِمت الحملة بمقاومة عسكرية من دمشق -التي اضطرت للتحول من موقع الخيانة إلى موقع الجهاد- ومعها حلب وبإسناد من مقاومة شعبية باسلة حتى فشلت وعادت خائبة.

وفيما حاول الصليبيون في المشرق -من بعدها- الاعتماد على أنفسهم أو حتى الدخول في حلف مع بيزنطة للسيطرة على مصر التي وصل العبيديون فيها إلى حال شديد من الضعف، استطاع نور الدين بن عماد الدين زنكي من خلال قواده العسكريين من أسرة أيوب أن يسبقهم إلى مصر، وكان المصريون عاملًا حاسمًا في الانحياز نحو نور الدين، حتى استطاع قائده صلاح الدين الأيوبي الكردي توحيد مصر مع الشام وإلغاء الخلافة العبيدية (الفاطمية) والاندراج تحت الخلافة العباسية التي لم تكن أكثر من اسم وشرعية في ذلك الوقت.

وبهذا أنجز نور الدين إنجازيْن كبيريْن: توحيد الشام، ثم توحيد الشام ومصر، مع ما أثخن في الصليبيين وأوقع بهم من انتصارات مؤثرة وإن لم تكن فاصلة.

وفيما مات نور الدين قبل استكمال أحلامه في التحرير فقد استكمل قائده صلاح الدين هذا الطريق، واستطاع أن يستدرك الاضطرابات التي وقعت في الشام بعد موت نور الدين وأن يبني على ما سبق من إنجازات ثم يأتي بالنصر الحاسم في موقعة حطين التي استرد المسلمون على إثرها درة مقدساتهم: بيت المقدس.

كان لسقوط بيت المقدس دوي هائل في أوروبا جاءت على إثره الحملة الصليبية الثالثة التي حملت زعماء أوروبا الكبار: ريتشارد قلب الأسد ملك إنجلترا، وفيليب أغسطس ملك فرنسا، وفريدريك بربروسا ملك ألمانيا.

فأما جيش ألمانيا فلم يصل إلى الشرق إلا وهو في أضعف حالاته بسبب ما مرَّ به من مآسٍ على يد البيزنطيين وما نزل به من أمراض وأوبئة وكروب.

وأما جيشًا فرنسا وإنجلترا فقد استطاعًا استعادة ما استرده صلاح الدِّين من الساحل، وعجزًا عن استعادة بيت المقدس، وانتهى الأمر بصُلح الرملة الذي يعد تراجعًا عن انتصارات صلاح الدين لكنه يعد هزيمة بالنسبة لحملة صليبية بهذه الضخامة.

توفي صلاح الدين بعد بضعة أشهر من صُلح الرملة، ودخل الأيوبيون بعده في نزاعات داخلية أتاحت فرصة ثمينة للصليبيين في البقاء وتحسين أوضاعهم، كما أنعم الله على المسلمين بأن تنحرف الحملة الصليبية الرابعة عن هدفها، فبدلًا من توجهها نحو القدس اتجهت -لأسباب أهمها مالية- نحو أملاك الدولة البيزنطية، فانتهى الحال أن توجهت نحو القسطنطينية ودخلتها وأنشأت فيها حكمًا لاتينيًا، وكفى الله المسلمين القتال وهم في هذه الحال القبيحة، وإلا لتوقعنا أن تكتسح هذه الحملة الشام بكل سهولة، كيف وهي التي لم تصمد أمامها القسطنطينية ذاتها!

انتقلت القوة السياسية في عهد الأيوبيين من الشام إلى مصر، فكان أن فكرت الحملة الصليبية السادسة في غزو مصر لإنهاء القوة السياسية والاستفادة من القوة الاقتصادية فمصر بطبيعة الحال أثرى وأغنى بكثير من الشام، فتوجهت الحملة إلى دمياط وهناك وجدت مقاومة شديدة فضربت حصارا طويلا استمر عامًا ونصف حتى اقتحمتها، ثم توجهت إلى المنصورة، وهناك استطاع المصريون إنزال هزيمة فادحة بالحملة الصليبية التي عادت مدحورة وانتهى أمرها بالفشل الذريع.

ثم كانت الحملة الصليبية السادسة هي أغرب الحملات، وهي وحدها دليل على أن السياسة الفاسدة أضر على المسلمين من أعدائهم.

فهذا الملك الكامل الأيوبي كان قد عرض التنازل عن بيت المقدس للصليبيين في الحملة الخامسة مقابل جلائهم عن دمياط لكن قائد الحملة رفض ذلك وظن أنه قادر على احتلال القاهرة، والحمد لله أنه رفض فانتهى حاله إلى الهزيمة، إلا أن هذا الكامل ظل على سياسته القبيحة هذه، حتى فعل هذه الفضيحة: لقد استعان الكامل بالملك فريدريك الثاني -الألماني، المحب للعلوم العربية، الذي اتخذ صقلية عاصمة حكمه- على خصمه الملك المعظم الأيوبي، وأعطاه وعدًا بأن يسلمه القدس في مقابل ذلك، ثم ما لبث الحال أن تغير بموت المعظم ولم يعد الكامل في حاجة

لحلف فريدريك، إلا أنه وَفَّى له بالوعد وأعطاه القدس بغير مقابل إلا ما بينهما من صحبة ومودة، هذا برغم أن فريدريك كان منبوذًا من الكنيسة وفي أضعف حالاته بل وعرض الصليبيون على الكامل أن يحاربوا فريدريك فرفض! واستطاع فريدريك بجيش هزيل بلغ في بعض المصادر ٦٠٠ جندي فقط أن يحقق ما عجز عنه ريتشارد قلب الأسد بجيوش أوروبا، وما ذلك إلا لفساد السياسة[1]، ثم استعاد الملك الصالح الأيوبي -بعد أن انقلب على ابن الكامل- القدس مرة أخرى مستعينًا بالخوارزميين الفارين من وجه الزحف المغولي.

وقد حاول ملك فرنسا لويس التاسع أن يستفيد من ظروف الحملتين السابقتين، فوضع خطته بحيث يهاجم دمياط مستغلًا النزاع الأيوبي الداخلي ثم يستبدل بها بيت المقدس من خلال التفاوض مع الصالح الأيوبي، واستطاع بعد قتال عنيف أن يستولي على دمياط ثم تقدم إلى المنصورة، ولكن المقاومة الشعبية المصرية أنهكت جيشه الصليبي في حروب عصابات استنزافية مؤثرة، حتى استطاع جيش الصالح الأيوبي بقيادة ابنه توران شاه (وكان الصالح قد مات وكتمت امرأته شجرة الدر خبر الوفاة) أن يستعيد دمياط ويأسر لويس التاسع في هزيمة تاريخية قاسية.

حاول لويس التاسع أن يعيد الكرة لكن هذه المرة في تونس التي ظن سهولة أخذها، فَدَشَّن إليها الحملة الصليبية الثامنة، وإذ به يفاجأ هناك بمقاومة باسلة من دولة الحفصيين بقيادة سلطانهم المستنصر بالله، ثم لم يلبث غير شهر حتى مات وعاد جنوده برفاته إلى فرنسا.

---

(١) جدير بالذكر هنا أن فريدريك هذا هو الذي أباد من بقي من المسلمين في صقلية بلا رحمة، ولم تُجدِ معه نفعا رسائل الكامل التي حاول بها إيقاف هذه المذبحة بين المسلمين (ابن نظيف الحموي: التاريخ المنصوري ص١٩٤)، وجدير بالذكر أيضا أن الكامل كان قد عهد إلى المؤذنين في القدس ألا يصعدوا المنابر ولا يؤذنوا في الحرم مراعاة لصديقه فريدريك. (المقريزي: السلوك ١/ ٣٥٤).

ثم صُفِّي الوجود الصليبي في الشام والمشرق تدريجيًا في عهود المماليك ثم العثمانيين الذين كانوا أصحاب الضربة القاصمة.



المبحث الثالث

ضربة قاصمة

كانت المرحلة الأولى هي مرحلة الصدمة التي انتصر فيها المسلمون انتصارًا كاسحًا على الغرب، حتى امتد سلطانهم المستقر إلى مشارف آسيا الصغرى وكل الشمال الإفريقي والأندلس.

وكانت المرحلة الثانية هي مرحلة الحروب المقدسة التي كانت خلاصتها قدرة المسلمين على امتصاص الضربة الرومية واستطاعتهم استنقاذ البلاد كلها، فيما عدا الأندلس التي لم يبق منها إلا الجزء الجنوبي.

أما هذه المرحلة الثالثة فنستطيع أن نقول إنها تنتهي بالتعادل، إذ اختلف فيها الجانبان ضربتين كانت كل منهما قاصمة للآخر، فأما المسلمون فقد استطاعوا فتح القسطنطينية وإزالة الإمبراطورية البيزنطية العتيقة من الوجود، فسقطت أمامهم عاصمة الأرثوذكسية بعد تسعة قرون من الصراع المستمر، وانساحوا في شرق أوروبا حتى دكوا أسوار القسطنطينية وكانوا على وشك إسقاط روما عاصمة الكاثوليكية أيضا. وأما الغربيون فقد استطاعوا الاستيلاء على الأندلس كلها وهددوا السواحل المغربية وشمال إفريقيا والتفوا حول العالم الإسلامي باكتشافهم طريق رأس الرجاء الصالح واحتلوا السواحل الغربية لإفريقيا ومناطق واسعة فيها، ووصلوا حتى الهند واحتلوا أجزاء جنوبية في اليمن وبحر العرب والهند والشرق الأقصى، وكل هذه مناطق إسلامية، ودارت حروب بين الجانبين تعد الأقوى والأكثر شراسة والأوسع أرضا. وكان لكل هذا التغير -فضلا عن اكتشاف الغربيين وسيطرتهم على العالم الجديد: الأمريكتين- آثار بعيدة.

ونبدأ بضربة العثمانيين:

لقد مهدت دولة السلاجقة وتوسعاتها في آسيا الصغرى الطريق لظهور الدولة العثمانية، فلكم اقترب سلاجقة الروم من القسطنطينية ذاتها، بل إن عاصمتهم كانت نيقية إلى الجنوب من القسطنطينية، ثم إنهم حتى لما هُزِموا تراجعوا إلى قونية وما هي ببعيدة عن القسطنطينية، ثم ساهمت عوامل كثيرة في ضعف البيزنطيين منها نزاعاتهم الداخلية ومنها الحملة الصليبية الرابعة، وقد أدى كل هذا إلى قوة سلاجقة الروم في آسيا الصغرى.

استقر أمر الأتراك العثمانيين في الحدود الغربية لسلاجقة الروم، على خط التماس مع الدولة البيزنطية، وكان أصلهم من أقصى المشرق وبالتحديد من التركستان ولكن رحلتهم في النزوح بدأت منذ الاجتياح المغولي للشرق، وقد ظهروا على مسرح الأحداث في آسيا الصغرى بجهاد جدهم عثمان الذي استولى على بعض القلاع البيزنطية فكافأه السلطان علاء الدين الثالث السلجوقي بأن رفعه لمرتبة الأمراء، وبهذا احتضن السلاجقة من سيرثون أرضهم وجهادهم عند شيخوختهم وضعفهم.

ويعد عثمان -مؤسِّس الدولة- أول عشرة سلاطين عِظَامٍ أقاموا مجد الدولة العثمانية العريقة، لكن أهمهم على الإطلاق ثلاثة:

١ - السلطان محمد الثاني بن مراد الثاني الذي لقب بالفاتح للفتح العظيم الذي أنجزه بفتح القسطنطينية وإسقاط عاصمة الأرثوذكسية التي كانت أخطر عدو للإسلام على مر تاريخه، وهو الحلم الذي راود الفاتحين قبله وعجزوا عن تحقيقه، ويعد فتح القسطنطينية حدثًا عالميًا يؤرخ به الغرب لانتهاء العصور الوسيطة وبداية عصور النهضة لديهم، كما يعد أعظم إنجازات الدولة العثمانية عبر تاريخها بل هو الإنجاز الذي يُعرفون به.

وللفاتح توسعات أخرى كبيرة في شرق أوروبا وبلاد الصرب والبوسنة واليونان والسواحل الشمالية للبحر الأسود.

٢- السلطان سليم الأول، وهو حفيد محمد الفاتح، وهو صاحب التوسعات الكبرى في الدولة العثمانية، فلقد ضم إليها الشام ومصر وأجزاء من العراق، وأوقف التهديد الصفوي بهزيمة تاريخية (تشالديران)، وأنهى دولة المماليك بهزيمتين في مرج دابق (على أطراف آسيا الصغرى) ثم الريدانية (على أبواب القاهرة) وأخذ الخليفة العباسي منها إلى اسطنبول، وهناك أجبره على خلع نفسه والتنازل له عن الخلافة.

وبهذا أضيفت للعثمانيين موارد وخزائن مصر والشام مما ضاعف من قوتها الاقتصادية، ثم كان انتقال الخلافة إليها مما جعل كثيرًا من البلاد تدخل في طاعتها وإن بعدت عنها جغرافيًا.

٣- السلطان سليمان القانوني وهو ابن سليم، وقد أعاد التوجه نحو الغرب، وهو صاحب أكبر التوسعات الغربية فقد استطاع فتح بلجراد، وحاصر فيينا مرتين، وكان من القوة والمهابة وعلو الهمة بحيث كان عصره هو ذروة الدولة العثمانية.

وقد خاضت الدولة العثمانية حروبًا واسعة في البحر، ضد أساطيل البندقية والبابوية والإسبان والبرتغال، وامتدت هذه الحروب في أربعة بحار: المتوسط بامتداده حتى أقصى الشمال الإفريقي، وقد كان وقتئذ يعاني نتائج سقوط الأندلس وتهجير المسلمين ومحاولات الإسبان غزو المغرب والجزائر، والبحر الأحمر والخليج العربي وبحر الهند.

وكان هذا مجهودًا رهيبًا وباسلًا تواجه به الدولة وحدها أوروبا كلها، فنحسب أن لو كانت للمسلمين دولة قوية أخرى حملت بعض هذا العبء لكنا نكتب تاريخًا آخر، ولكن لم يكن سوى العثمانيين وقد قاموا بواجب كبير لكن لم يكن بالإمكان أن يستمر طويلًا.

دخلت الدولة العثمانية في مرحلة جمود كبيرة ثم أصابها الضعف الذي هو سُنة الدول، ولم يفرز العالم الإسلامي بديلًا لها على عكس الحال في أوروبا التي أسعفها القدر بإمكانيات واسعة متجددة ثم بدول تحمل الراية كلما ضعف خط المواجهة، فاستمرت في القوة فمالت الكفة نحوها، فكان أن جاءت ضربة الغربيين.

لئن انهزمت أوروبا هزائم قبيحة في الشرق فلقد كانت تسترد عافيتها في الغرب، فقد استطاع الإسبان طرد المسلمين من الأندلس نهائيًا، وقاموا بإبادة كاملة ومطاردة وحشية لكل شيء إسلامي، ثم انفتحت لهم كنوز الدنيا حين وصلوا إلى العالم الجديد (الأمريكتين) الغني بالذهب والفضة.

وحين وصلوا إلى الهند ومناطق الشرق بالالتفاف حول إفريقيا من طريق رأس الرجاء الصالح فانفتحت أمامهم تلك البلاد التي كانت في عمومها ضعيفة من طريق لا يواجهون فيها القوى الإسلامية الكبرى في مصر والشام وآسيا الصغرى، فاستولوا على مناطق واسعة من سواحل إفريقيا الغربية والجنوبية والشرقية وكذلك السواحل الجنوبية الغربية والجنوبية من آسيا، ولم يجدوا مدافعًا قويًا يمكنه وقف زحفهم.

وهنا تلقى العالم الإسلامي ضربتين: عسكرية باحتلال هذه البلاد، واقتصادية باكتشاف طريق لا يقع في نفوذه بين الشرق والغرب، فزاد ضعف المماليك في مصر، ولم يستطع الأسطول العثماني رغم كل محاولاته تغيير الواقع في هذه البحار البعيدة عنه.

ولما ضعف الإسبان والبرتغاليون والهولنديون برز الإنجليز والفرنسيون وحملوا الراية وأكملوا المسيرة.

وفي ذلك الوقت ولدت أوروبا -التي تعيش مخاض نهضتها منذ قرون- مولودها الأثير: الثورة الصناعية، تلك التي غيرت موازين القوى وأهم من ذلك غيرت معايير القوى.

لقد صنعت الثورة الصناعية فارقًا واسعًا في التقدم، وكان مرور الزمن يضيف فوارق أخرى، فالزمن يمضي والفارق يتسع، والعين ترى والحروب تصدق ذلك ولا تكذبه، وبينما يستهلك هذا التقدم طاقة أوروبا في العموم كان العالم الإسلامي وعلى رأسه دولة آل عثمان تستنزف طاقتها في الخلافات الداخلية وتتراجع عسكريًا وحضاريًا، خصوصًا وقد برز من خلفها عدو شرس جديد هو روسيا التي عدت نفسها وريثة الأرثوذكسية وصارت تضغط على الدولة العثمانية التي أضيف لها بهذا واجب جهادي جديد في الشرق والشمال.

ومِن ثَمَّ أخذت الدولة العثمانية تتحول من الرجل القوي المرهوب إلى طرف عادي أمكن هزيمته غير مرة، وصار يدخل في تحالفات لتوزيع المجهود وتحييد الأعداء من بعد ما كان يقهر الأحلاف ولا يبالي!

وإذن فقد تراكمت في أوروبا الثروات الاقتصادية الأمريكية -وهي في غاية الوفرة- والإفريقية والآسيوية، ومعها الثروات البشرية -إذ قامت أوروبا بثاني أبشع حركاتها التاريخية[1] وهي حركة استعباد الأفارقة والهنود، والتهجير الجماعي القسري للخدمة، وهي الجريمة التي ذهب ضحيتها عشرات الملايين منهم- ومعها عصر الثورة الصناعية وما أنتجته من تنظيمات إدارية وعلوم وثروات جديدة. وكل هذا عاد بالقوة على التفوق العسكري الغربي.

وكان التفوق العسكري، ومن ورائه التفوق العلمي والإداري والاقتصادي، مغريا للضعفاء كما هي السنة الجارية التي تشهد بأن المغلوب مولع بتقليد الغالب، فبدأت حركة التطلع إلى ما عند الغرب تسري في الدولة العثمانية التي تعاني سوء أحوالها العسكرية والإدارية والعلمية والاقتصادية.

---

(١) باعتبار أن الجريمة الأولى هي: محاكم التفتيش وإبادة أقوام بعد التنقيب ومطاردة ما في صدورهم.

لقد ظلت القوة العسكرية العثمانية تسند الدولة وتؤخر انهيارها، ولم يشعر العثمانيون في آسيا الصغرى ولا المسلمون في قلب العالم الإسلامي في مصر والشام بمدى التحول التاريخي الذي يجري، بل إن مؤرخ العثمانيين ابن إياس وفي لقطة تاريخية معبرة عن الغفلة لم يهتدِ كيف توصل النصارى إلى الشرق عبر رأس الرجاء الصالح رغم أن الجغرافيين المسلمين هُم أول مَن رسموا خرائط الطريق[1]، وذلك أن غالب السواحل التي استولى عليها الغربيون كانت بعيدة واستيلاءهم عليها غير مؤثر كثيرا في الظاهر. حتى جاءت الواقعة:

لقد استطاع نابليون الفرنسي النزول بمصر واحتلال القاهرة وتوغل فيها ثم مضى نحو الشام، وأخذت المسلمين الصدمة الكبرى من انتصار النصارى، ومن عجز الخلافة العثمانية عن دفع هذه النازلة.

وهنا بدأ العصر الجديد: عصر الهيمنة الغربية.



(١) قال ابن إياس في تفسير وصول الفرنج إلى بلاد الهند: «وسبب هذه الحادثة أن الفرنج تحيلوا حتى فتحوا السدّ الذي صنعه الإسكندر بن فلبس الرومي، وكان هذا نقبا في جبل بين بحر الصين وبحر الروم فلا زالوا الفرنج يعبثون في ذلك النقب مدة سنين حتى انفتح وصارت تدخل منه المراكب إلى بحر الحجاز». ابن إياس: بدائع الزهور ٤/ ١٠٩.

المبحث الرابع
الهيمنة الغربية

كانت الحملة الفرنسية على مصر والشام المظهر العملي لحجم التفوق الغربي على المسلمين، ونرى صدمة المسلمين في كلمة الجبرتي الذي اعتبر أن ما حدث هو «اختلال الزمن وانعكاس المطبوع وانقلاب الموضوع»[1].

وصحيحٌ أن الحملة الفرنسية لم تكمل ثلاث سنوات حتى رجعت خائبة؛ لكن الصحيح أيضا أن ذلك كان بتحالف عثماني إنجليزي روسي.

كانت الدولة العثمانية في أواخر القرن الثامن عشر قد أعلنت عمليًّا أنها ضعفت، وقد شهد عام ١٧٧٥م واقعة هي الأولى من نوعها إذ دفعت الدولة جزية وتعويضًا حربيا للروس، وبدأت حركة الأخذ عن أوروبا وتقليدها في النظم والتعليم والإداريات مع بداية القرن التاسع عشر في عهد السلطان محمود الثاني، ومن هنا بدأت طلائع الهيمنة الغربية الناعمة.

وفي ذات هذا الوقت كان محمد علي باشا في مصر يؤسس لنفسه مملكة ضخمة يستعين فيها بالغربيين استعانة كاملة، وكان من القوة وعلو الهمة والإصرار حدًّ أن صار أقوى من الدولة العثمانية ذاتها، فاحتاج حلفًا غربيًا لتحطيمه وتحجيمه عسكريًّا، فيما ظل إرثه التغريبي في مصر -اقتصاديًا وإداريًّا وتعليميًّا- قائمًا، ولئن حافظ محمد علي على استقلاله فلقد كان خلفاؤه من الضعف والإسراف والانبهار بالغرب حدًّا وصل إلى تسليم البلاد عمليًّا للأجانب قبل أن يكتمل ذلك بالاحتلال الإنجليزي لمصر (١٨٨٢م).

---

(١) الجبرتي: عجائب الآثار ٢/ ١٧٩.

وإلى ذلك الوقت كان الفارق قد اتسع بين المسلمين والغرب في كل شيء، وأصبح الاستعمار سياسة ثابتة للغربيين، حتى لقد احتاجوا إلى مؤتمرات لتقسيم مناطق النفوذ فيما بينهم، فاحتلوا كل إفريقيا ومعظم آسيا إما عسكريًّا وإما بالهيمنة الاقتصادية أو السياسية، وحافظوا على بقاء الدولة العثمانية في حال «الرجل المريض» لكي لا يثير تقسيم أملاكه حروبًا فيما بينهم، حتى جاءت اللحظة الحاسمة في الحرب العالمية الأولى التي انتهت بهزيمة الدولة العثمانية وحليفتها ألمانيا، وقُسِّمت أملاك الرجل المريض بين المحتلين، ودخلت الجيوش البريطانية والفرنسية في الشام، وجرى التقسيم المشهور لهذه المناطق طبقًا لاتفاقية سايكس بيكو.

كانت الكارثة الكبرى التي تقع لأول مرة هي إلغاء الخلافة الإسلامية (١٩٢٤م) ودخول تركيا في العلمانية بالحديد والنار الذي استعمله أتاتورك؛ إذ شنَّ هذا الرجل حملة ولا أشرس ولا أقسى على الإسلام والمسلمين في تركيا، مدعومًا -في الحقيقة، وبعض الظاهر- بكل القوى التي تناصب الإسلام -وحاملي رايته العثمانيين- العداء، وصار المسلمون للمرة الأولى في تاريخهم بلا خلافة ولا دولة قوية.

وكان الانسياح الغربي في بلاد المسلمين نتيجة طبيعية لكل هذا، ورسَّخ الاحتلال الغربي وجوده في بلاد المسلمين، وبرغم ما أبداه المسلمون من بسالة وما أشعلوه من حركات جهاد ومقاومة واسعة إلا أن فارق القوى كان عصيًّا على الردم، وبقي الاحتلال في بلادنا حتى منتصف القرن العشرين بشكله المباشر.

ومع تصاعد المقاومة والجهاد وتغير موازين القوى العالمية، رحل الاحتلال بشكله التقليدي ولكن بعد أن ترك في مواقع السلطة رجاله الذين رباهم على عينه وصنعهم بيده، وترك مؤسسات ونظمًا وأنماطًا راسخة عمل رجاله على بقائها وتنميتها واستمرارها والحرب على من يرفضها، وقد قام رجال الغرب بما لم يستطع

الغرب ذاته أن يقوم به من تسخير للبلاد والعباد لمصلحة الغرب حتى كانوا أشد على أهلهم من المحتل نفسه.

واستثني من هذه السياسة الغربية إسرائيل، الدولة اليهودية التي أنشأها الغرب في الشرق لتكون معسكرًا حربيًا متقدمًا لهم وممثلًا لمصالحهم وشوكة في الجسد الإسلامي.

فهذا هو ما بقي من إرث الاستعمار الفعلي في بلاد المسلمين، مع مناطق متفرقة ومحدودة من بلاد أخرى. وصار شكل الاحتلال الواقع هو الهيمنة السياسية الاقتصادية والنفوذ الكامل في البلاد الإسلامية.

لكن لم تمض ثلاثة عقود أو أربعة عقود حتى عاد الاحتلال بوجهه مرة أخرى فسقطت كابول وبغداد، ونزلت الجيوش الأمريكية في البلاد الإسلامية، لكن هذا لم يكن الوضع الأخطر وإن كان الأوضح والأظهر.

الوضع الأخطر هو هذه السيطرة الكاملة التي هي احتلال حقيقي ولكنه خفي، فيكاد يكون كل شيء خاضعًا للغرب أو يوشك على الخضوع بما في ذلك مناهج التعليم ووسائل الإعلام بل حتى قوانين الأحوال الشخصية.

وقد نظم الغرب نفسه بحيث أسس لمؤسسات كبرى تنظم أدق الأعمال وتحكم عليها؛ مثل صندوق النقد الدولي والبنك الدولي ومنظمة الثقافة العالمية ومنظمة الصحة العالمية ومؤسسات حقوق الإنسان وهيئات مقياس الجودة «الأيزو»، فضلًا عن اتفاقيات سياسية واقتصادية تتحكم في أسعار النفط والغاز وفي حرية انتقال البضائع وفي نسبة الاستيراد والتصنيع، وتصدر كل هذه المنظمات والهيئات تقارير دورية تنبني عليها آثار بعيدة، إذ يكاد يكون مآل عملها هو تصنيف الدول إلى دول مطيعة وخاضعة ودول تحتاج إلى ضبط.

وأخطر ما أسفرت عنه هذه القرون من الاحتلال والهيمنة لم يكن مجرد الإخضاع العسكري المُذِلّ، بل محاولة تغيير الهوية وإلحاق المسلمين بالغرب ليكونوا ذيولا له في كل شيء، حتى في معتقداتهم وأفكارهم.

والحق أن الاحتلال الغربي لم يكن تقليديًا هذه المرة، بل تسلح بجيش من الباحثين والمستشرقين الذين نزلوا قبيل الجيوش ومعها وبقوا بعدها يفحصون عالمنا ويدرسونه وينتجون فيه الأبحاث والدراسات، حتى صارت لهم مادة ضخمة قوية استعان بها الاحتلال في كل مراحله: التهيئة للغزو، ترسيخ الغزو، إكمال رسالة الغزو بعد خروجه.

وصحيح أن بلادنا عملت بسنة المغلوب المولع بتقليد الغالب فكان فيها من يستدعي المحتل ومن يؤيده إذا حلَّ ومن يظل على عهده إذا رحل، إلا أن هذه السنة دعمتها الجيوش والأموال والإمكانيات الوافرة والمؤسسات والنظم التي تقسم الناس بين مؤيد للغرب فيرقى، ومعارض له ولثقافته فيبقى على حاله.

لقد انقلب الحال بين الهجمتين الغربيتين؛ فالهجمة الأولى التي هي الحملات الصليبية وإن هزمت المسلمين عسكريًا إلا أنها هُزِمت أمامهم حضاريًّا، ولم تَسْرِ في الأمة لوثة غربية، بل سرت في الغربيين لوثة شرقية. بينما في هذه الهجمة الأخيرة هُزِمت الأُمة عسكريًّا وحضاريًّا، وهذا أمر مشهود مُعترف به بغض النظر عمن استلذ هذه الهزيمة ورضي بالغرب بديلا أو اعترف بهذا ليجد سبيلًا لهضمه واستيعابه ودفعه.

بدا الفارق واضحًا بين العصور في كل المجالات، فمن ذلك -مثلا- أنه:

١- بينما كان ابن تيمية يصف واقع عصره بقوله: «ليس عند أهل الكتاب فضيلة علمية وعملية إلا وأُمة محمد -صلى الله عليه وسلم- أكمل منهم فيها.

فأما العلوم: فهم أحذق -في جميع العلوم- من جميع الأمم حتى العلوم التي ليست بنبوية، ولا أخروية، كعلم الطب -مثلًا- والحساب، ونحو ذلك، هم أحذق فيها من الأمتين، ومصنفاتهم فيها أكمل من مصنفات الأمتين، بل أحسن علمًا وبيانًا لها من الأولين الذين كانت هي غاية علمهم»[(١)].

كان الطهطاوي بعده بأربعة قرون يقول بعد تعداده لأنواع العلوم: «فإذا نظرت بعين الحقيقة رأيت سائر هذه العلوم المعروفة معرفة تامة لهؤلاء الإفرنج ناقصة أو مجهولة بالكلية عندنا»[(٢)].

٢- وبعد ثمانية قرون من قول ابن حزم: «إن أحدًا من أئمة المسلمين المستحقِّين لاسم الإمامة بالعلم لم ينكروا تكوير الأرض، ولا يُحفَظ لأحدٍ منهم في دفعه كلمة، بل البراهين من القرآن والسُّنة قد جاءت بتكويرها»[(٣)].

كان بين علماء المسلمين نزاع حول الأرض، هل هي كروية أم منبسطة، فقائل بهذا وقائل بذاك وبينهما نزاعات[(٤)].

٣- ومثلما امتدح حتى من يكره منهم المسلمين رزانتهم وعاداتهم في الطعام والشراب واعترف -رغم كراهته للمسلمين- بتفوقهم الواضح على المسيحيين[(٥)]،

(١) ابن تيمية: الجواب الصحيح ٦/ ٢٣.

(٢) الطهطاوي: تخليص الإبريز، ضمن «الأعمال الكاملة» ٢/ ٣٢.

(٣) ابن حزم: الفصل في الملل والأهواء والنحل ٢/ ٧٨. وينبغي التنبه إلى أننا نقلنا القول الذي يصرح «باتفاق العلماء» على هذا، بينما اكتشاف المسلمين لكروية الأرض يسبق ابن حزم بنحو قرنين، فأول من قال بكروية الأرض هو الفيلسوف أبو يوسف الكندي (ت: نحو ٢٦٠هـ) في رسالته «العالم وكل ما فيه كري الشكل»، ثم الجغرافي المؤرخ ابن خرداذبه (ت ٢٧٢هـ) في «المسالك والممالك» ثم ابن رسته (ت ٢٩٢ هـ) في «الأعلاق النفيسة»، ثم أبو عبيدة الفلكي الأندلسي (ت ٢٩٥ هـ).

(٤) الطهطاوي: تخليص الإبريز، ضمن «الأعمال الكاملة» ٢/ ٦٥، ٦٦.

(٥) توماس أرنولد: الدعوة إلى الإسلام ص٤٦٧.

امتدح رجال منا بعد سبعة قرون آداب الطعام لدى الفرنسيين وتفوقهم فيها على المسلمين وإن كرهوا ذلك أيضًا (١).

٤- ومثلما تعجب الغربيون من نشاط المسلمين حتى قال هبمولد: «والعرب كانوا ذوي نشاط منقطع النظير، وهذا النشاط هو آية دور ممتاز في تاريخ الدنيا»(٢).

وحتى قال ألفريد جيوم: «في خلال القرون الأربعة لسيادة الإسلام وجدت روح البحث الديني والفلسفي في كل مراكز العلم، وإن لون الطابع الذي تميز به العقل الشرقي وسحره ما زال باقيًا متسكعًا في كتابات ذلك العصر، الذي كان كل تاجر فيه شاعرا، وليس كل شاعر تاجرًا»(٣).

وقد وصفت زيجريد هونكه شعب الأندلس بأنه شعب من الشعراء(٤)، انقلب الحال وصرنا نمدح نشاطهم وفنونهم حتى قال أحمد زكي عن الإيطاليين: «ولا بِدع إذا قلت في هذا المقام إن كل طلياني لا بد أن يُخلق نابغا بالطبع في الرسم والتصوير والنقش والنحت والتعمير، أو التحبير والتحرير، أو الموسيقى والأغاني ونظم القريض والمعاني»(٥).

وصار كل صاحب رحلة إلى بلاد الغرب يصف حاله بنحو هذه العبارات: «ويعلم الله أني مع كثرة ما شاهدت في تلك البلاد من الغرائب وأدركت فيها من الرغائب كنت أبدًا مُنَغَّص العيش مُكَدَّره، كمن فقد وَطَرَه ولزمته معسرة، لا يروقني نضار ولا نضرة، ولا نعمة ولا مسرة، ولا طرب ولا لهو، ولا حسن ولا زهو، لما أني

(١) الطهطاوي: تخليص الإبريز، ضمن «الأعمال الكاملة» ٢/ ٦٦، ٦٧، ١٣٨.

(٢) لويس سيديو: تاريخ العرب العام ص٣٣٢.

(٣) ألفريد جيوم: الفلسفة وعلم الكلام، ضمن «تراث الإسلام» بإشراف توماس أرنولد، ص٤٠٠.

(٤) زيجريد هونكه: شمس العرب تسطع على الغرب ص٥٠٣.

(٥) أحمد زكي: السفر إلى المؤتمر ص٤٩.

كنت دائم التفكر في خلو بلادنا بما عندهم من التمدن، والبراعة والتفنن، ثم تعرض لي عوارض من السلوان، بأن أهل بلادنا قد اختُصُّوا بأخلاق حسان، وكرم يغطي العيوب ويستر من شان، ولا سيما الغيرة على الحُرَم، وصون العِرض عما من هذا الصوب يُذَمّ، ثم أعود إلى التفكر في المصالح المدنية، والأسباب المعاشية، وانتشار المعارف العمومية، وإلى إتقان الصنائع، وتعميم الفوائد والمنافع، فيجفل ذلك السلوان، وأعود إلى الأشجان»[(١)].

ولا يعني هذا اختفاء العلوم عند المسلمين في ذلك الوقت، بل كان منهم حُذَّاق مهرة، غير أنهم افتقدوا النظام الذي يستفيد من هذه العلوم ويُخرجه «من القوة إلى الفعل» بحسب تعبير الجبرتي الذي تحدث عن علماء وقته وقدوم الغربيين ليتعلموا على أيديهم علوم الهندسة والكيمياء وغيرهما[(٢)].

وكذلك نجد لدى رفاعة الطهطاوي علمًا دقيقًا بالجغرافيا ومواقع البلدان والأقاليم وما كان يسمى أيامهم علم الهيئة، الذي يبحث في الأرض ودورانها وتغير الفصول عليها وتقسيمها بخطوط الطول والعرض والفوارق في التوقيتات بين البلاد[(٣)].

لكن يجب ألا نختم هذا المبحث دون أن نؤكد على أن مظاهر التغرب التي عمت العالم الإسلامي لم تكن إلا بأثر الضغط العنيف لأنظمة الحكم الموالية للغرب، بينما ظل اعتناق الشعوب لمبادئ التغرب ومظاهره ينعم بالفشل الذريع،

---

(١) أحمد فارس الشدياق: الواسطة إلى معرفة مالطة وكشف المخبا عن فنون أوربا ص٢، ٣. (ط تونس القديمة) وانظر مثل ذلك عند: الطهطاوي: تخليص الإبريز، ضمن «الأعمال الكاملة» ٢/ ١٧، خير الدين التونسي: أقوم المسالك ص٦.

(٢) الجبرتي: عجائب الآثار ١/ ٤٦١.

(٣) الطهطاوي: تخليص الإبريز، ضمن «الأعمال الكاملة» ٢/ ٣٥ وما بعدها، ٧٨ وما بعدها.

لا سيما إذا قارنًّا المجهود المبذول بالنتائج المتحققة، ولا تكاد ترى اعتناقًا حقيقيًا للتغريب إلا في طبقة ضئيلة، هي الطبقة المترفة المرتبطة بدوائر السلطة والمال، والتي هي جزء -ونتيجة أيضًا- من أنظمة الحكم ذاتها. وهذه نقطة تفوق كاملة للمسلمين؛ إذ منذ أن بسط سيادته على الشعوب دخلوا فيه أفواجا ومن دون إكراه، بينما لم تفلح كافة أنواع الغزو الفكري بالخداع والغزو العسكري بالقهر في أن تؤثر تأثيرًا كبيرًا على خريطة اعتناق الأديان. وفي نهاية هذا القرن العشرين -أي بعد قرنين من المجهود التغريبي الرهيب- أقر صمويل هنتنجتون بأن حلم تغريب المسلمين مستحيل وبأنهم لن يتغربوا[1].

وفي كل الأحوال فإن تغير الزمان وانقلاب الأحوال من سُنن الله في كونه، قال تعالى: ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ﴾ [آل عمران: ١٤٠].

ونحن بعد هذا على وعد بأن يسود الإسلام وينتصر، وأن يبلغ المشرق والمغرب، وألا يترك نوره بيت مدر ولا وَبَر ولا حَجَر إلا دخله، وأن ﴿ٱلْعَٰقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [هود: ٤٩].

۞ ۞ ۞

(١) هنتنجتون: صدام الحضارات ص١٦٦، ١٦٨.

الفصل الثاني

جذور الاستغراب

لا ريب أن التاريخ أوسع من مجرد التاريخ السياسي، كما لا ريب أن التاريخ السياسي أوسع من تاريخ الحروب، ولكن الحقيقة التي لا فكاك منها أن تاريخ الحروب هو خلاصة التاريخ السياسي، وأن التاريخ السياسي هو خلاصة التاريخ كله، ولا يسع أحدًا يريد دراسة العلاقة بين أمتين إلا أن يبدأ بتاريخ الحروب هذا، فإن شاء اكتفى فيخرج حينئذ بحصيلة نافعة وصادقة وكافية أيضًا، وإن شاء استزاد فكان أحسن وأنفع.

في الحروب يضع كل فريق خلاصة نفسه، العلوم والفنون والأفكار والاختراعات وتدابير السياسة ونتائج البحوث، والحروب ليست اشتباك السلاح وحده بل قبلها وبعدها وحولها اصطراع العقائد والفلسفات والأساطير والقيم والأخلاق، حتى العلاقات السياسية هي في التحليل الأخير صيغة حربية تعبر عن موازين القوى ومساحات النفوذ وآفاق الرغائب والمطامح والمطامع، وحتى العلوم -بشقيها الإنساني والتطبيقي- ما لم يكن لها إسهام ملموس في رفعة ومجد الأُمة لم يكن لها فائدة عملية بل ربما كانت وبالًا على الأمة ذاتها إذا اتجهت للترف والتفاهات دون الغايات والمهمات.

وإذن، فقد أثمر هذا التاريخ الطويل بين المسلمين والغرب حروبًا لا تنقطع، ومع ذلك فقد أثمر مساحات أخرى من التعارف والتأثير والتأثر، وبمثل ما كانت الحروب دافعًا لمعرفة المزيد عن هذا الخصم، بمثل ما كان تطور العلوم نافعًا في إدارة هذه العلاقات والحروب، إن على مستوى الملوك والساسة أو على مستوى العلماء وطلبة العلم أو حتى على مستوى العامة.

ومع هذا فقد كانت مساحة التعارف الإسلامي على الغرب أوسع بكثير من مساحة الحروب وما أثمرته، فالإسلام من حيث هو رسالة عالمية يحفز أهله على العلم وعلى الدعوة، وقد وضع القرآن الكريم والسنة النبوية أصول التعارف على الآخر ومعلومات غزيرة عن بعضه -كاليهود والنصارى- فكان هذا أساسًا انطلق منه المسلمون في اتجاهات شتى.

ونحن حين نسعى في التأصيل الإسلامي لعلم الاستغراب فيجب علينا أن نقلب في هذه المعرفة القديمة بالغرب، والتي تمثل بذورًا وجذورًا للاستغراب الذي نريده، وحينئذ سنجد لدينا تراثًا ضخمًا ومتشعبًا ومهمًا، وهو تراث نافع على الجهتين: جهة علمنا بأصولنا ومدى ما بلغه أجدادنا من المعرفة وقيمة ما حصلوه ومقدار ما فاتهم وما أخطأوا فيه، وجهة علمنا بأصول الغرب وجذوره، فمما لا شك فيه أن الغرب الحديث عرف نفسه من خلال تراثنا نحن، ويشهد بهذا كثير منهم[1]، حتى إن أسوأهم حالا -وهو من يعتبر المسلمين مجرد سعاة بريد احتفظوا بعلوم اليونان والأقدمين ولم يضيفوا شيئا- إنما يشهد بقيمة التراث الإسلامي في معرفة جذور الغرب ذاته.

في هذا الفصل نلقي ضوءا على مساحات التعرف الإسلامي على الغرب، عبر هذه المباحث:

- المبحث الأول: الحروب
- المبحث الثاني: السفارات
- المبحث الثالث: الرحلات
- المبحث الرابع: البحث العلمي

---

(١) يقول لويس سيديو بأن المعلومات التي قدمها العرب عن العصور الوسطى «لا تُقَدَّر بثمن». لويس سيديو: تاريخ العرب العام، ص٤٢٥.

المبحث الأول:

الحروب

لقد نشبت بين المسلمين والروم آلاف المعارك ما بين صغيرة وكبيرة، وكل معركة منها كانت تسفر عن مزيد علم لدى كل طرف بالآخر، لا سيما ما تسفر عنه من الاستيلاء على مدن تحتوي على نُظُم إدارية وترتيبات معاشية وإمكانيات اقتصادية وعلمية فضلًا عن الشعوب وأحوالها وعاداتها وتقاليدها، كذلك تسفر الحروب عن أسرى لدَى كل طرف يقضي الواحد منهم أزمانا قد تطول في بلاد العدو فيتعرف فيها على أحوالهم وعوائدهم ونظمهم وقد يجيد لغتهم في بعض الأحيان.

وتبدو هذه الخبرة مبكرًا في قول المحارب الفاتح الكبير عمرو بن العاص ﷺ حين بلغه ما يرويه المستورد القرشي ﷺ عن النبي ﷺ أنه قال: «تقوم الساعة والروم أكثر الناس». فقال له عمرو: أبصر ما تقول. قال: أقول ما سمعت من رسول الله ﷺ، قال: لئن قلت ذلك إن فيهم لخصالًا أربعًا: إنهم لأحلم الناس عند فتنة، وأسرعهم إفاقة بعد مصيبة، وأوشكهم كرة بعد فرة، وخيرهم لمسكين ويتيم وضعيف، وخامسة حسنة وجميلة: وأمنعهم من ظُلم الملوك[1]. وفيما نعلم فإنه ليس ثمة ما يمكن أن يشكل هذه الخبرة لدَى عمرو إلا معارك الشام ومصر.

ثم تظهر هذه الخبرة في اتخاذ إجراءات جديدة مؤثرة، فقد انزعج عمر بن الخطاب ﷺ حين علم أن معاوية بن أبي سفيان ﷺ، وهو الوالي على الشام، يركب في موكب وله حاجب على بابه، غير أن معاوية اعتذر له قائلا: «يا أمير المؤمنين، إنا بأرض عدونا قريب منها، وله علينا عيون ذاكية، فأردتُّ أن يروا للإسلام عزًّا».

---

(١) مسلم (٢٨٩٨).

فهنا أدرك معاوية أن بساطة العرب وتبسطهم لا تصلح في أرض كانت حتى وقت قريب تحت حُكم الروم، بل لا بد أن يكون للوالي مشهد عزٍّ كالموكب والحاجب، فإن الرعية قد اعتادت أن يكون ملوكها في مواكب وحراسات ودون الوصول إليهم أبواب وحُجَّاب وإلا سقط من نظرهم هيبة الوالي، وهو الأمر الذي لم يكن بالوسع تجاهله.

فقال عمر: «إن هذا لكيد رجل لبيب أو خدعة رجل أريب»[1].

لقد اقتضت الحروب معرفة الكثير عن العدو، وقد احتاج المعتصم في إحدى غزواته معرفة إيرادات الدولة البيزنطية، فأمده بها بسيل الخرشني مسؤول الخزانة[2] إذ بلغت نحو ثلاثة ملايين دينار، فكتب المعتصم إلى الإمبراطور البيزنطي: «سألت صاحبك عن خراج أرضك فذكر أنه كذا وكذا، وأخسُّ ناحية في مملكتي خراجها أكثر من خراج أرضك، فكيف تنابذني؟»[3].

ومن أمثلة ما استفادت به الدولة الإسلامية في حروبها التحالف مع أتباع المذهب البوليصي الذين يسكنون جنوب الأناضول، والذين يعانون من الاضطهاد الديني للدولة البيزنطية، ويطلق عليهم أحيانًا في مصادرنا «البيالقة» وأحيانًا «الصقالبة»، وكان لهؤلاء جهد مهم في الحجز بين القوات البيزنطية والإسلامية زمن الخلافة العباسية لفترة من الوقت، بل لقد قاموا أحيانًا بتهديد القسطنطينية ذاتها، وكانت الخلافة قد تعهدت بالإنفاق عليهم وضمان رواتبهم في مقابل حماية بعض الثغور في منطقة الحدود، وظلوا يمثلون فائدة حربية كبرى حتى دب الضعف في جسد الخلافة

---

(١) البلاذري: أنساب الأشراف ٥/ ١٤٧، والطبري: تاريخ الطبري ٣/ ٢٦٥.

(٢) أغلب الظن أنه انتهز فرصة وجود الجيش الإسلامي فأسلم وانحاز إليهم، أو هو على الأقل سالمهم وخرج ليعقد صلحًا يتجنب به حرب المسلمين على مدينته «خرشنة».

(٣) ابن الفقيه: البلدان ص٣٩٢.

وخسرت -بسبب سُوء صنيع بعض الولاة- هذا التحالف المهم، ودفعت ثمنًا باهظًا[١].

كما اقتضت الحروب كذلك ترتيب أوضاع التعامل مع الغربيين الذين يتّجرون في بلاد المسلمين، فهذا صلاح الدين -كما يبدو من رسالته للخليفة- يعد من إنجازاته ترتيب أوضاع التجار الأوروبيين «البنادقة والبياشنة والجنوية» في المشرق، بحيث لا يتحول نشاطهم التجاري إلى ما يضر بالمسلمين اقتصاديًا أو عسكريًا[٢].

واقتضت الحروب أيضًا متابعة التحولات الفكرية والسياسية لدى الخصوم، فقد «حرصت الدولة العثمانية على متابعة الخلافات الدينية والمذهبية في أوروبا عن كثب، وراقبت النزاعات والحروب الداخلية والخارجية والتنافس على العروش فيما بين الدول الغربية نفسها، وسعت لاستغلال ذلك في دبلوماسيتها؛ فقد ظاهرت البروتستانتية على الكاثوليكية، إذ كانت ترى أن إنجلترا البروتستانتية هي المسيحية الحقيقية وليست إسبانيا الكاثوليكية، وأنها الأقرب إلى الإسلام، وبنت علاقاتها الدبلوماسية على هذا الأساس.

وفعلت الشيء نفسه مع المصلح الديني مارتن لوثر عندما أيدته في حركته الدينية ضد العالم الكاثوليكي. كما ترصدت بعناية النزاعات على العرش في أوروبا، وراقبت علاقات المودة أو العداوة فيما بين الدول المسيحية، وحاولت استخدامها لصالحها.

---

(١) محمد إلهامي: رحلة الخلافة العباسية ٢/ ١٠٣، ١٠٩. وانظر أطراف قصتهم ببعض تفصيل في: قدامة ابن جعفر: الخراج وصناعة الكتابة ص١٨٧، الطبري: تاريخ الطبري ٥/ ٥١٣، المسعودي: مروج الذهب ٢/ ٥٨٣، المسعودي: التنبيه والإشراف ص١٣٠، ١٥٥، وابن الأثير: الكامل في التاريخ ٦/ ٢٧٢، فتحي عثمان: الحدود الإسلامية البيزنطية ٢/ ٢٢١، ٢٢٢، ٣/ ٣١٨، د. فاروق عمر فوزي: الخلافة العباسية ٢/ ٧١، د. سهيل زكار في الموسوعة الشاملة للحروب الصليبية ٣/ ٢١٥.

(٢) ابن أبي شامة: عيون الروضتين ٢/ ٣٦٤.

غير أن هذا الأمر كان يجد المقابل بعينه؛ فقد دأب الأوربيون والأمريكيون على استغلال مسألة وراثة العرش في الدولة العثمانية، ودعموا الخلافات الدينية والمذهبية في أراضيها»[١].

وما إن دخل محمد الفاتح القسطنطينية ونظر في آثارها وعمرانها حتى رغب في معرفة الكثير عنها وعمن بناها وعمن حل بها من الشعوب وتاريخهم، فجمع عددًا من الرهبان وغيرهم من الروم والفرنجة، واستقى منهم ما استطاعوا من معلومات من كتبهم التاريخية والمعارف التي حازوها[٢].

ومن خلال الحروب استطاع جغرافي وبحار عظيم مثل بيري ريس أن يضع كتابه المهم «كتاب بحرية»، الذي يعد معجمًا محيطًا لأخبار البحر المتوسط وجغرافيته وجغرافية البلاد الواقعة حوله وغير ذلك من المعلومات الدقيقة التي جعلت هذا الكتاب دليلًا للبحرية العثمانية وذروة في علم الخرائط والجغرافيا الإسلامية. لم يكن بيري ريس ليستطيع أن يضع كتابًا كهذا لولا أنه كان قائدًا من قادة الأسطول العثماني ثم قائده العام[٣].

ولوجود التهديد الحربي اضطر حاجي خليفة (ويُدعى أيضًا كاتب جلبي) أن يكتب كتابه «إرشاد الحيران إلى تاريخ اليونان والرومان والنصارى»، وكتب في مقدمته أن الدافع له هو أن عدد المسيحيين صار كبيرًا، ولم يعودوا يسكنون أرضهم التي سكنوها من قبل فحسب، بل وصلت أساطيلهم إلى البحار الشرقية والغربية وصاروا أسيادًا لعدد من الدول.

---

(١) محمد إبشيرلي: نظم الدولة العثمانية، ضمن «الدولة العثمانية تاريخ وحضارة» بإشراف: أكمل الدين إحسان أوغلو ١/ ٢٢٦.

(٢) برنارد لويس: اكتشاف المسلمين لأوروبا ص١٧٣.

(٣) محمد إلهامي ومحمد شعبان: بيري ريس ص١٠٧ وما بعدها.

وهم وإن كانوا لم يستطيعوا تهديد الدولة العثمانية لقوتها[١] إلا أنهم يمثلون خطرًا متفاقمًا، ولهذا «فقد كان من الضروري التزود بمزيد من المعرفة والمعلومات، حتى لا تكون الشعوب الإسلامية غير عارفة بجيرانها الذين يناصبونها العداء، وكذلك حتى تكون الشعوب الإسلامية في مقدورها أن تنهض من نومها، وأن تستيقظ من سباتها الذي سمح بالفعل لهؤلاء الملعونين بأن يستولوا على دول معينة من أيدي المسلمين، ومن هنا أحالوا الأراضي الإسلامية إلى مواطن للكفر»[٢].

وعلى ضفاف الحروب نبتت مصادر أخرى لمعرفة المسلمين بالغرب، عبر: الأسرى، والجواسيس، وما نشأ من علاقات بين الأطراف في فترات السِّلم والهُدنة.

١- الأسرى

لقد نتج عن الحروب أسرى من الجانبين، فكان هؤلاء بابا من أبواب المعرفة الواسعة بالغرب، سواء من أولئك الذين أسرهم المسلمون فعاشوا حينًا في الأسر أو ظلوا عبيدًا أو إماء، أو أولئك الذين أسرهم الروم فقضوا وقتًا لدَى الروم ثم عادوا بحصيلة معلومات حسب ما أتيح لهم.

ولقد تمتع بعض المسلمين أحيانًا بأوضاع خاصة في الأسر، فقد ورد أن مَسلمة بن عبد الملك في إحدى غزواته اشترط على ملك الروم بناء قصر قريب من قصره ينزل به وجهاء الأسرى المسلمين فيكونوا تحت رعاية الملك نفسه، فكان لهم تنزه وتعهد ومنزلة حسنة، وكانت لهم فرصة اطلاع ممتازة على أحوال الروم وعاداتهم[٣].

(١) كُتِب هذا الكتاب عام ١٦٥٥، وقت أن كانت اليد العليا لا تزال للعثمانيين.

(٢) برنارد لويس: اكتشاف المسلمين لأوروبا ص١٤٥.

(٣) المقدسي: أحسن التقاسيم ص١٤٧، ١٤٨.

وقد قدَّم بعض هؤلاء الأسرى أحيانًا خدمات لا تقدر بثمن للمسلمين، منهم هذا الأسير الذي أجبر على التنصر في بلاد الروم فما إن جاء جيش المعتصم في فتح عمورية حتى هرب إليهم ودلَّهم على النقاط الضعيفة في سورها؛ فكان بذلك سببًا مباشرًا في واحد من أعظم الفتوحات[١].

وكان مسلم بن أبي مسلم الجرمي، وهو من رواة الحديث، وهو ثقة[٢]، قد اكتسب علمًا واسعًا بالروم وأحوالهم من وجوده في طرسوس -أهم مدن الثغور في العصر العباسي- ثم من خلال أسرِه بعد موقعة زبطرة (٢٢٣هـ) والذي استمر ثماني سنوات حتى خرج (٢٣١هـ).

فكان مسلمٌ «ذا محل في الثغور ومعرفة بأهل الروم وأرضها، وله مصنفات في أخبار الروم وملوكهم وذوي المراتب منهم، وبلادهم وطرقها ومسالكها، وأوقات الغزو إليها والغارات عليها، ومن جاورهم من الممالك من برجان والأبر (الجلالقة) والبرغر (البلغار) والصقالبة والخزر وغيرهم»[٣]، ونقل عنه ابن خرداذبة تفاصيل إدارية وجغرافية عن بلاد الروم[٤].

وفي عصر العثمانيين أسرت النمسا عثمان أغا ذا الأصل البلغاري في إحدى المعارك، وظل عثمان في أسره أحد عشر عامًا حصل فيها علمًا كثيرًا باللغة الألمانية، فأضيفت إلى حصيلته العربية والبلغارية فاستفيد منه بعدئذ في أعمال الترجمة لدى السلطان[٥].

---

(١) الطبري: تاريخ الطبري ٥/ ٢٣٩، ٢٤٠.

(٢) الخطيب البغدادي: تاريخ بغداد ١٣/ ١٠٠.

(٣) المسعودي: التنبيه والإشراف ص١٦٢.

(٤) ابن خرداذبه: المسالك والممالك ص٢٤، ٢٥.

(٥) برنارد لويس: اكتشاف المسلمين لأوروبا ص٩٢.

٢- الجواسيس

لا ريب أننا فقدنا الكثير من معلومات أجدادنا عن الغرب، ليس فقط ضمن التراث الذي ضاع أو فُقِد، بل أيضًا لطبيعة بعض هذه المعلومات، فتقارير العيون والجواسيس لا تعيش أكثر من سنين معدودة ولا يتاح الاطلاع عليها إلا في الأروقة الضيقة السرية للسلطة، وهذه التقارير هي في العادة أدق ما يُكتب عن الخصوم.

غير أننا لا نعدم شذرات أفلتت من تاريخ هؤلاء وأوضاعهم، فمن ذلك رواية متأخرة تصف أسيرًا مسلمًا أهين في قصر إمبراطور الروم فنُقِل ذلك إلى معاوية ﵁ فاحتال معاوية في فك الأسير حتى تم له ذلك، ثم كلَّف تاجرًا فاحتال حتى أنشأ علاقة قوية بمَن أهان هذا المسلم من حاشية الإمبراطور، ووضع معه خطة لاختطافه من القسطنطينية حتى دمشق، وقد نجحت العملية وأتى معاوية بالأسير المحرر الذي أُهين ليقتص مِن الذي أهانه، ثم أعاده إلى حدود دولة الروم(١).

وبعض المؤرِّخين يرى أن رحلة ابن حوقل، وهي من أكثر ما وصلنا من الرحلات تفصيلًا ودقة، إنما هي تقرير كتبه لصالح العبيديين (الفاطميين)؛ إذ كانوا يرغبون في معرفة الأراضي التي يتطلعون لحكمها(٢).

٣- علاقات في الهدنة

ونشأت في ظل الحروب علاقات متفاوتة في قوتها بين الجانبين، إن على مستوى الملوك أو على مستوى الفرسان والعوام، فكم تكرر أن هرب أمير مسلم إلى الروم أو أمير رومي إلى المسلمين.

---

(١) النويري: نهاية الأرب ٦/ ١٨٧.

(٢) د. حسين مؤنس: تاريخ الجغرافيا والجغرافيين ص١٠. وهو يتابع في هذا رأي المستشرق الهولندي رينهارت دوزي.

فقد لجأ ورد الرومي إلى عضد الدولة البويهي بعد فشل انقلابه العسكري في بيزنطة[١]، وأجار بنو ذي النون -ملوك طليطلة، في الأندلس- ألفونسو السادس المطارد من قِبل أخيه الملك، واستطاع ألفونسو من ملجئه إدارة انقلاب على أخيه وتولى حكم ليون، ثم كان على يديه سقوط طليطلة نفسها بعد أعوام[٢].

وقد بلغت بعض العلاقات من القوة أن عرض فارس فرنجي على صديقه الفارس المسلم أسامة بن منقذ أن يرسل معه ابنه لبلاد الفرنج فيعلمه هناك الحكمة والفروسية، وكانوا يمكنونه من الصلاة في المسجد الأقصى، وأنقذوه من فارس ضربه حين رآه يتوجه إلى القبلة، واعتذروا له عن هذه الجلافة بأنه قدم حديثًا من بلاد الفرنجة[٣]. كما نشأت علاقات لا يمكن حصرها بين من تعلموا علوم المشرق وعادوا بها إلى الغرب، وبقدر ما أفادوا من الشرق بقدر ما كانوا من مصادر معرفة المشارقة بالغربيين.



(١) ابن الأثير: الكامل في التاريخ ٧/ ٣٨٦، ٣٨٧.

(٢) محمد عبد الله عنان: دولة الإسلام في الأندلس ٣/ ٣٩١.

(٣) أسامة بن منقذ: الاعتبار ص١٣٢، ١٣٤.

المبحث الثاني:

السفارات

وهي الوجه الآخر للعلاقات الحربية بين البلدين، وكانت السفارات تاريخيًا أكثر من مجرد وفد يرسله الخليفة، بل كان يحرص صاحب السلطان على أن يرسل الهدايا والطرائف التي تختص بها بلاده، وأحسن ما توصلت إليه صناعاتهم من أدوات وآلات، كما كان يحرص صاحب السلطان إذا استقبل سفيرًا أن يكون مجلسه في النهاية من الفخامة والأبهة والزينة ليقع في قلب السفراء مدى عظمته، فيحقق بالرهبة والهيبة ما يحتاجه في ميدان الحرب والتفاوض.

وفي كثير من السفارات الواردة إلينا في كتب التاريخ كانت تجري بين الوفد وبين البلاط مساجلات دينية وعلمية وأدبية كذلك، فلهذا اقتضت السفارات وجود معرفة بهذه الأُمم ولهذا كان السفراء ممن لهم باع في العلوم والفنون والآداب، ومِن ثَمَّ وفرت السفارات والعلاقات السياسية مساحة واسعة للمعرفة بالغرب لدى المسلمين. ولئن كان كثير من أنباء هذه السفارات لم يصلنا -سواء لأنه لم يكتب لينشر على الناس، أو كتب وفُقِد- فإنه يكفينا في هذا المقام -الذي نرصد فيه معرفة المسلمين بالغرب- أن نعرف أنها أضافت في حينها معلومات وافرة عن الغربيين ونظمهم وأحوالهم في بلاطهم وكثير من عاداتهم.

وأول ما جاء في هذا الباب وفود النبي ﷺ بعد صلح الحديبية، فكان منها إرساله دحية الكلبي إلى هرقل ملك الروم، وحاطب بن أبي بلتعة إلى المقوقس صاحب مصر، وكان ذلك عام (٧هـ)، وحين عرف النبي ﷺ أن الروم «لا يقرؤون كتابًا إلا مختومًا، فاتخذ النبي ﷺ خاتمًا من فضة، ونقشه: محمد رسول الله»[١].

---

(١) البخاري (٥٥٣٧).

ومما يلفت النظر في رسائل النبي ﷺ إلى هرقل والمقوقس ما ذكره فيها من أنه «عبد الله ورسوله»، ووضعه لآية ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْاْ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ...﴾ [آل عمران: ٦٤].

بينما خلت من ذلك رسائله إلى كسرى وملوك العرب المشركين، وهذا يشير إلى ما تحتمه السفارات من المعرفة المسبقة.

وليس أدلّ على ذلك من قوله ﷺ في رسالته لهرقل «فإن تولَّيتَ فإنما عليك إثم الأريسيين»[١]؛ وقد توقف الشُّرَّاح عند هذه الكلمة طويلا واختلفوا هل أراد بها: الفلاحين وعموم أهل الروم، أم هو يقصد أتباع آريوس الذي نادى بالتوحيد ورفض بنوة المسيح، خصوصًا وأن هذه الكلمة لم ترد في رسائله إلى غيره من الملوك، وقد رجَّح هذا بعض العلماء[٢]، واستدلوا بأن الأريسيين كانوا أغلبية في مصر باختفاء هذه الكلمة من رسالة النبي إلى المقوقس[٣].

وفي عصر الخلافة الراشدة وخلال الفتوحات جرت كثير من السفارات بين المعسكرات، وكانت مهماتها تنحصر في الغالب في الاتفاق على إنهاء القتال، وجرت في هذه السفارات نقاشات وأسئلة متبادلة انصبت على اختلاف الدين وعلى أحكام القتال، واطلع كل فريق على ما لدَى الآخر من رسوم وأحوال.

ومن أشهر هذه السفارات سفارة عبادة بن الصامت إلى المقوقس في فتوح مصر[٤].

---

(١) البخاري (٧)، مسلم (١٧٧٣).

(٢) الندوي: السيرة النبوية ص٣٠٤ وما بعدها، واستدل على ذلك بأن له سابقة في هذا التفسير جاءت عند: الطحاوي: شرح مشكل الآثار ٥/ ٢٢٩، النووي: شرح صحيح مسلم ١٢/ ١٠٩.

(٣) فاضل سليمان: أقباط مسلمون قبل محمد ﷺ ص١٢٠، ١٢١.

(٤) ابن عبد الحكم: فتوح مصر وأخبارها ص٧٥.

والهداية التي روي أن أم كلثوم بنت علي بن أبي طالب وهي زوجة عمر بن الخطاب أرسلتها إلى إمبراطورة الروم فأرسلت إليها الإمبراطورة هدية فاخرة فلم يسمح عمر لها إلا بأخذ المثل وردَّ الهدية إلى بيت المال(١).

ولكن هذا دليل على تكرر المراسلات بين عمر وأباطرة الروم وإن كنا لا نعرف عنها شيئًا(٢).

وفي عصر الأمويين زادت وتيرة السفارات مع الفتوح أو مع الاضطرار، فلقد اضطر معاوية في عصر الفتنة أن يصالح ملك الروم على مالٍ ورهائن متبادلة بينهما(٣).

وفي أوقات أخرى سجلت كتب الأدب رسائل متبادلة بين معاوية وملك الروم، يسأل فيها ملك الروم مسائل دينية كأحب الكلام إلى الله وما المكان الذي لن تشرق الشمس عليه إلا مرة واحدة وما القبر الذي تحرك بصاحبه(٤).

ونحن وإن كنا نشك في أن هذه الروايات موضوعة(٥) إلا أنها دليل على وجود رسائل وسفارات متبادلة بين الدولتين.

---

(١) الطبري: تاريخ الطبري ٢/ ٦٠١.

(٢) وردت روايات يسأل فيها إمبراطور الروم عُمَرًا عن الحكمة أو يقول: املأ لي من كل شيء في هذه القارورة، وأمورا أخرى، وقد أوردها الطبري بغير إسناد، ولكن لغتها وأسلوبها يغلب عليها تفلسف المتأخرين مما يجعلنا نجزم باختلاقها ووضعها على عمر.

(٣) البلاذري: فتوح البلدان ١/ ١٩٠.

(٤) ابن قتيبة: عيون الأخبار ١/ ٢٩٧، وعند الطبري ٢/ ٦٠١ نسبت هذه القصة إلى رسائل بين عمر وملك الروم.

(٥) هذه الرواية مثلا يظهر فيها غرض إثبات جهل معاوية والعلم الذي اختصه الله بآل البيت، إذ إن من أنقذه بالإجابات هو عبد الله بن عباس ﵄، فهذه الرواية وأمثالها كثير مبثوثة في المصادر التاريخية والأدبية التي كتبت في القرن الثالث الهجري، وقد تعرضت لهذا الموضوع في كتابي: رحلة الخلافة العباسية ١/ ٧٧ وما بعدها.

كذلك اضطر عبد الملك بن مروان أن يهادن الروم ليتفرغ لحروب العراق والحجاز قبل أن يستقر له الملك، ثم عادت السفارات في ظل الفتوحات لتكون أقرب إلى بعثات التفاوض حول اتفاقية التسليم أو شروط إنهاء القتال، أو سفارات لتبادل الأسرى.

ونرى في بعض هذه السفارات ما يشير إلى معرفة قوية بأحوال الخصوم.

وقد سجَّل المؤرِّخون مديحًا عظيمًا لإمبراطور الروم في حق عمر بن عبدالعزيز وزهده(١).

فلما استقرت حدود الدولة الإسلامية بعد زمن توقف الفتوحات في أواخر العصر الأموي، واستقرت على معارك استنزاف وتوغلات غير حاسمة في العصر العباسي.

استمرت السفارات في أداء مهمتها لعقد الاتفاقيات وإنهاء القتال، وإن لم تخلُ من مكرمات ملكية مثل ما جرى بين نقفور إمبراطور الروم وهارون الرشيد؛ إذ ما إن انتهت الحروب بينهما بنصر الرشيد حتى أرسل نقفور يرجو رد أسيرة كان قد خطبها لابنه، فأرسلها الرشيد في الزينة والطيب ومعها أنواع من التحف، فردَّ نقفور بهدية نفيسة: أموال وثياب وطيور وحيوانات(٢).

إلا أن الملفت للنظر منذ هذا الزمن هو زيادة مساحة الشؤون السياسية والعلمية في السفارات حينئذ، فقد نجم شأن المسلمين وصاروا كعبة العلوم والمعارف.

وقد اشتهر عدد من هذه السفارات منها:

---

(١) المسعودي: مروج الذهب ٢/ ١٧٠، ١٧١. (ط الشركة العالمية للكتاب)، ابن عبد الحكم: سيرة عمر بن عبد العزيز ص١٤٨، ١٤٩.

(٢) الطبري: تاريخ الطبري ٤/ ٦٧٧.

سفارة هارون الرشيد وهديته «الساعة العجيبة» إلى شارلمان ملك الفرنجة إلا أن التحقيق العلمي لا يستطيع الجزم بصحتها[١].

ومنها ما رُوِيَ عن سفارة سلام الترجمان من الخليفة العباسي الواثق بالله إلى ملك أرمينية ومنه إلى ملك الخزر لتسهيل مهمة سلام الترجمان لارتياد ما يُظن أنه سد يأجوج ومأجوج[٢].

وفي حالة أخرى أرسل الواثق ليستطلع ما يُظن أنه الرقيم حيث كهف أهل الكهف[٣].

ومنها سفارة ابن فضلان إلى بلاد الصقالبة والتي جاءت بطلب من ملك الصقالبة للخليفة العباسي المقتدر بالله أن يرسل إليه من يعرفه شرائع الإسلام، فزار ابن فضلان بلاد الترك والصقالبة والروس والخزر، وسجل كل ذلك في رسالته المشهورة[٤].

ومنها سفارة القاضي أبي بكر الباقلاني عن عضد الدولة البويهي إلى ملك الروم، وقد جرى فيها سجال طويل في مسائل الدين بين الإسلام والنصرانية ومعجزات الأنبياء والقول في عيسى ابن مريم عليه السلام وغيرها[٥].

---

(١) د. عبد العزيز الدوري: العصر العباسي الأول ص١١٦ وما بعدها، د. فاروق عمر فوزي: الخلافة العباسية ١/ ٣٤٨ وما بعدها.

(٢) ابن خرداذبه: المسالك والممالك ص١٦١، ١٦٢، الإدريسي: نزهة المشتاق ٢/ ٩٤٣ وما بعدها.

(٣) ابن خرداذبه: المسالك والممالك ص٢٥.

(٤) ابن فضلان: رسالة ابن فضلان ص٧٥ وما بعدها.

(٥) النباهي: تاريخ قضاة الأندلس ص٣٧ وما بعدها. وقد نقل المؤرخون أجزاء منها حسب مناهجهم في التفصيل أو الإيجاز، ثم جمعها ورتبها الأستاذ محمد عبد العزيز الخضيري في كتاب أسماه «المناظرة العجيبة»، وصدر عن دار الوطن.

ومنها ما كان بين الملك الكامل الأيوبي وفريدريك الأكبر الألماني ملك صقلية من رسائل متبادلة يسأل فيها الملك الألماني العالِم الذي أحب علوم العرب وشغف بها فيجمع لها الكامل أهل العلم فيجيبون عنها[١].

وأما مرحلة الحروب الصليبية فلم يكن يكافئ كثرة المعارك فيها إلا كثرة السفارات التي تثمر معاهدات هدنة قصيرة أو طويلة بحسب الأحوال، فإن تعددت الأطراف -إذا دخل إمبراطور بيزنطة على خط الصراع، أو جاءت حملة جديدة، أو انشق أمير صليبي أو مسلم- كان ثمة سفارات أخرى سرية وعلنية لترتيب الأوضاع، وعقد ما يستجد من تحالفات ومعاهدات.

ولم يختلف حال السفارات كثيرًا في عهد المماليك، إلا أنه كان أقل من عصر الحروب الصليبية، فقد تمكن المماليك من تطهير الساحل الشامي وانتهت الحملات الصليبية إلى الفشل، ومن ثَمَّ كان تواصلهم الأهم مع أوروبا مقتصرًا على بلاد آسيا الوسطى -التي صارت في ذلك الوقت مسلمة في غالبها، ومن ثَمَّ فلا تُعتبر من الغرب حينئذ[٢]- ومن خلفهم من بلاد البلغار والصرب، والجمهوريات الجنوبية كجنوة والبندقية، وجرت لهم مراسلات مع الإسبان أيضًا.

ومَن يطالع كتاب القلقشندي «صبح الأعشى» -وقد عمل لعشر سنوات كاتبًا في بلاط السلطان الظاهر برقوق- يجد مادة مهمة في مكاتبات السلاطين المماليك مع هذه البلاد ومعلومات قيمة عنها وعن ملوكها وتبدل أحوالها وما يترتب على هذا من ألقاب وآداب الرسائل والمخاطبة[٣].

---

(١) المقريزي: السلوك ١/ ٣٥٤، ماكس مايرهوف: العلوم والطب، ضمن «تراث الإسلام» (بإشراف توماس أرنولد) ص٤٩٢، زيجريد هونكه: شمس العرب تسطع على الغرب ص٤٣١ وما بعدها.

(٢) وهذا حسب المنهج الذي اتخذناه لأنفسنا وقدمناه في «منهج البحث».

(٣) القلقشندي: صبح الأعشى ٨/ ١١ وما بعدها.

وكتاب القلقشندي هو خلاصة ما كتب قبله في هذا الباب[١].

ومن طرائف ما وقع في مراسلات المماليك والإسبان أن المراسلات كانت مستمرة بينهما مع ما يعرفه كل طرف من عداوة الآخر له، فأرسل ملك الإسبان مرة هدية: سيفًا ونعشًا، فكان ظاهرها الهدية وباطنها التهديد، فرُدَّ عليه بهدية أخرى: حبل وحجر أسود، ظاهرها الهدية أيضًا وباطنها تشبيهه بالكلب إما أن يُربط بالحبل أو يُضرب بالحجر[٢].

ونرى من بين أعضاء السفارات في هذا العصر نجومًا لامعة بحجم ابن واصل وابن خلدون.

لكن الزيادة في العلاقات انتقلت إلى الدولة العثمانية التي افتتحت جبهة أخرى مع البيزنطيين وفي شرق أوروبا، حتى أنها لما قضت على الدولة البيزنطية استكملت المسير نحو ممالك أوروبا، ثم ظهر لها في الشمال الروس.

وقد تطورت العلاقات السياسية عبر القرون حتى صارت السفارات العلمية بعثات علمية حين أيقن العثمانيون بأنهم في حاجة إلى التعلم من أوروبا.

فمنذ أواخر القرن السادس عشر «صار عُرفًا عند سفراء تركيا إلى أوروبا أن يكتبوا تقارير مفصلة عند عودتهم إلى بلادهم يصفون ما شاهدوه، وما قاموا به من أعمال»[٣].

---

(١) من أهم ما كتب قبل القلقشندي ونجد فيه مادة قيمة في أحوال الممالك، كتاب «التعريف بالمصطلح الشريف» لابن فضل الله العمري (ت ٧٤٩هـ)، وقد أضاف عليه ابن ناظر الجيش (ت ٧٨٦هـ) إضافات بعده في كتابه «تثقيف التعريف بالمصطلح الشريف»، وكثيرا ما يعتمد القلقشندي على كتاب التثقيف هذا.

(٢) القلقشندي: صبح الأعشى ٨/ ٣٥، ٣٦.

(٣) برنارد لويس: اكتشاف المسلمين لأوروبا ص١٢٨.

وبعدها صار ثمة سفراء دائمون وبعثات أجنبية متبادلة بين الدول تقوم على رعاية الأجانب المقيمين في الدولة وتسعى للحفاظ على ما لهم من امتيازات - أُخِذت بالرضا أو بالحرب- كما تسعى لانتزاع امتيازات جديدة، ومن ثَمَّ فإن أخبار السفارات في العصر العثماني هي أغزر ما لدينا من مواد في هذا المجال.

وفي الجناح الغربي للعالم الإسلامي كانت للأندلس علاقات سياسية أيضًا بما جاورها من ممالك أوروبا حتى أقصى الشرق الأوروبي: القسطنطينية، وقد حاول الإمبراطور البيزنطي تيوفيلوس (توفلس) مواجهة الغزوات العباسية في أرضه بفتح قنوات اتصال سياسية مع أمير الأندلس عبد الرحمن الأوسط، فأرسل إليه بسفارة (٨٤٠م) تحمل الهدايا والمودة وطلب التحالف على العباسيين، وعاد السفير البيزنطي ومعه يحيى بن الحكم الغزال سفيرًا من قرطبة، ومعه خطاب ودِّي فيه ردٌّ سياسي يؤكد الصداقة بينهما والعداوة للعباسيين ولكن لا ينبني عليه عمل ضدهم، غير أن الغزال استطاع النفاذ إلى قلب الإمبراطور وزوجته وولده ميخائيل فكانت بينه وبينهم منادمات وصحبة سجل بعضها في شعره(١).

ثم كانت للغزال سفارة أخرى (نحو ٨٤٥م) إلى الدانمارك(٢) تؤكد عهد الصلح الذي طلبه ملكهم هوريك من عبد الرحمن الأوسط، ووقع السفير ذات الموقع الحسن بما له من مواهب الجمال وحسن البيان والتصرف، وكانت له مساجلات وجدالات مع علماء القوم وفرسانهم، ولكن الذي اشتهر أكثر هو ما انعقد بينه وبين ملكتهم من صلة وإعجاب، وكيف أن هذا لم يكن مشينًا في ثقافتهم وعاداتهم(٣).

---

(١) المقري: نفح الطيب ٢/ ٢٥٨، محمد عبد الله عنان: دولة الإسلام في الأندلس ١/ ٢٨٢ وما بعدها.

(٢) وكانت عاصمة النورمان الذين كان يسميهم المسلمون بالمجوس، وقد بلغ ملكهم حينها الدانمارك وما حولها من الجزر، وقسماً من إسكندناوة وألمانيا الشمالية.

(٣) ابن دحية: المطرب في أشعار أهل المغرب ص١٣٨ وما بعدها.

وقد تكررت سفارات الأندلس مع ملوك أوروبا، وحاولت الإمبراطورية مرة ثانية التحالف مع الأندلس -ربما ضد العبيديين هذه المرة- ووفدت سفارات فرنسية وألمانية، وكان ملك ألمانيا زعيم النصرانية في أوروبا مثلما كان الناصر زعيم الإسلام، وجرى بينهما حديث في السياسة وفي الدِّين كذلك، وكان سفير الأندلس إلى ألمانيا أسقفًا مسيحيًا، وقد نقل السفير للناصر معلومات مهمة عن ألمانيا ونظام الحكم فيها[1].

وبعد سقوط الأندلس نشأت صلات سياسية بين ملوك المغرب وملوك أوروبا، وقد سجل أفوقاي الأندلسي في رحلته مهمته التي كلفه بها السلطان السعدي الناصر زيدان، وكانت سفارة منه إلى ملك فرنسا لإصلاح أوضاع المسلمين المهجرين من الأندلس.

وروى كذلك عن سفارة متبادلة بين سلطان المغرب وملك هولندا للتحالف على إسبانيا، وكانت هولندا قد دخلت في البروتستانتية وخلعت الحكم الإسباني[2].

ومن عجيب ما يذكره أن العلاقات العثمانية الإسبانية كانت منهارة لسببين: غدر الإسبان بالمسلمين الأندلسيين، وغدر الإسبان بملك المكسيك مُتَشُمَه[3]، مما يعني سعة اطلاع العثمانيين بما يحدث في أقصى الغرب عند المكسيك، ولهم هناك صلات ينبني على الاعتداء عليها عداوات في أوروبا.

ومن يطالع كتب التاريخ يرى كثيرا من السفارات لا يهتم المؤرِّخون فيها بسبب السفارة ونتائجها قدر ما يهتمون بما كان فيها من سجالات علمية وأدبية وإفحامات

(١) محمد عبد الله عنان: دولة الإسلام في الأندلس ١/ ٤٥٦ وما بعدها.

(٢) أفوقاي الأندلسي: رحلة أفوقاي الأندلسي ص٥٢، ٥٣، ٧٠، ٧٧، ١١٤.

(٣) أفوقاي الأندلسي: رحلة أفوقاي الأندلسي ص١٠١.

وردود على البديهة ومعلومات عن عادات الروم وطباعهم ورسومهم ونحو ذلك، بل لا نبعد أن نقول إن أغلب ما نعرفه من أخبار السفارات هو ما كانت فيه هذه الأمور[١].

وأغلب الظن أن هذا كان مقصودًا؛ فالسلطة بطبيعة الحال لا تشيع ما يجري في أروقتها بينما لا بأس لديها بانتشار وتسرب ما هو خارج العلاقة السياسية.

ونجد هذا صريحًا واضحًا لدى سفراء الدولة العثمانية الذين كانوا مكلفين بتسجيل «مشاهداتهم على الطرق التي مروا منها في رحلاتهم والأماكن التي زاروها وعظمة المراسم التي جرت في الاجتماعات التي شاركوا فيها» وكذلك «مظاهر التقدم والعمار فيما حولهم».

بينما لم يُعرف «ما كان يدور بينهم وبين الآخرين من اتصالات ومباحثات يمكن أن تلقي الضوء على تاريخ الدبلوماسية العثمانية، إذ كانوا يعتبرون ذلك سرًّا من أسرار الدولة»[٢].

ومن أعجب ما نستفيده في أمر السفارات أن وجود السفارات الدائمة في أول أمرها لم يكن تعبيرا عن قوة الصداقة كما يتبادر إلى أذهاننا الآن، بل هو يعبر عن الذِّلة، فالطرف الأضعف هو الحريص على وجود سفارة دائمة له عند الطرف الأقوى بينما لا يحفل الأقوى بذلك، بهذا فسَّر أفوقاي الأندلسي وجود سفراء أوروبيين دائمين لدى العثمانيين بينما لم يهتم العثمانيون بإيجاد سفارات لهم في بلاد أوروبا[٣].

---

(١) انظر مثلا: أبو يعلى الفراء: رسل الملوك ومن يصلح للرسالة والسفارة.

(٢) محمد إبشيرلي: نظم الدولة العثمانية، ضمن «الدولة العثمانية تاريخ وحضارة» بإشراف: أكمل الدين إحسان أوغلو ١/ ٢٣٤، ٢٣٥.

(٣) أفوقاي الأندلسي: رحلة أفوقاي الأندلسي ص١٠١.

ومما يدخل في باب السفارات -بنوع من التكلف- هو زواج الخلفاء والسلاطين من بنات خصومهم الغربيين، فهي علاقات سياسية في النهاية، وقد أمدت قصور الحكم بمعرفة دقيقة عن بلاد الزوجة، وإن كان يصعب علينا بطبيعة الحال العثور على هذه المعارف.

وفي المجمل فلقد كانت السفارات أكثر من الحروب، فهي ترافق الحروب لإنهائها وحصد نتائجها، كما أنها تنفرد بنفسها في مسائل سياسية ودعوية وعلمية وعلاقات تحالف وتعاون مؤقت أو طويل. فكانت بهذا مصدرًا غزيرًا من مصادر معرفة المسلمين بالغرب.



المبحث الثالث:

الرحلات

وصل المسلمون بجهادهم في جبهة الروم إلى غالب الأراضي التي كانوا قد استولوا عليها في المشرق، وواصلوا جهادهم ففتحوا غير قليل من أراضي الروم شرقًا وغربًا، فالأراضي التي لم تصلها جيوش المسلمين أبدًا هي الجزء الأقل من أرض الروم، إذا ما استبعدنا العالم الجديد الذي لم يكن معروفًا آنذاك.

هذه الأجزاء التي لم يصلها مجاهدون وصلها رحالة مسلمون ممن حُبِّب إليهم السفر والترحال، أو حملهم على ذلك التجارة أو السفارة أو ما سوى ذلك من الأغراض.

ونستطيع أن نقول بمجموع ما وصل إلينا من أخبار الرحلات والمؤلفات فيها إن المسلمين قد شملوا برحلاتهم بلاد أوروبا، فعرفوها بالعيان والمشاهدة لا بمجرد النقل والسماع، ويمكن أن نقسم الرحلات إلى نوعين:

الرحلات الفردية التي قام بها رحالة شغوف وسجلها في كتاب.

والرحلات الجماعية التي يقوم بها التجار أو المهجرين واللاجئين وأشباههم.

١ - الرحلات الفردية

تتميز الرحلات الفردية بأن أغراضها علمية وأن صاحبها كان حريصًا على تسجيلها، ولذلك اهتم بالتقاط ما شاهده فيها، فهو عين فاحصة منتبهة، وقد اختلفت مناهج الرحالة في تسجيل مشاهداتهم، فمنهم من اهتم بالجغرافيا، ومنهم من اهتم بالناس وأحوالهم وعوائدهم، ومنهم من اهتم بالسياسة والملوك، وربما مرَّ بالبلد الواحد أكثر من رحالة في أكثر من زمن وكان لكل منهم عين ومنهج.

فكانت الصورة المنقولة تتمتع بقدر معقول من الشمول، وهذا كله بخلاف ما ضاع من تراثنا في هذا الجانب.

وأقدم من نعرفه ممن سجل رحلته إلى بلاد الروم هو ابن فضلان[١] الذي ذهب رسولًا من الخليفة المقتدر إلى ملك الصقالبة بطلب من هذا الأخير، فقد طلب من يعرفهم الإسلام ووعد بأن يبني مسجدًا كبيرًا ومنبرًا لدعوة قومه[٢].

وشملت رحلات المسعودي -وقد نشأ في بغداد، وتوفي في مصر منتصف القرن الرابع الهجري- بعض أنحاء الغرب، نستشف ذلك من كلامه المنثور فيما بقي لنا من مؤلفاته -مثل مروج الذهب- لا سيما حديثه عن بحر الروم -الذي صرح أنه ركبه- وما يقع عليه من البلاد الرومية.

وكانت له محاورات مع المجاهدين البحريين والتجار الذين يقطعون البحر وسجل عنهم معلومات عن البحر ومعالمه[٣].

وشملت رحلة ابن حوقل -وكانت في منتصف القرن الرابع الهجر- نابولي وصقلية، وكانت صقلية تحت حكم المسلمين حينئذ، ووصف كثيرًا من مشاهد وجزر بحر الروم وأحوال بعض أهلها، وسجل ما سمعه من ذوي الأعمار والترحال في بلاد الروم[٤].

---

(١) عاش بين النصف الثاني من القرن الثالث الهجري والنصف الأول من القرن الرابع الهجري.

(٢) كان البلغار في ذلك العصر يسكنون قريبا من قازان إلى الشمال من بحر الخزر، ثم تحركوا شرقًا حتى كانوا في القرن الثامن الهجري قد صاروا إلى شمال البحر الأسود، كما يصف ابن بطوطة، ولم يكونوا قد استقروا بعد في وطنهم المعروف باسمهم اليوم، وهم في الأصل ترك مسلمون في غالبيتهم، ثم تحولوا إلى النصرانية في مسيرهم نحو بلادهم الحالية. د. حسين مؤنس: ابن بطوطة ورحلاته ص١٢، ١٣.

(٣) المسعودي: مروج الذهب ١/ ١٠٨، ١١٨ وما بعدها (ط دار الفكر).

(٤) ابن حوقل: صورة الأرض ١/ ١١٨ وما بعدها، ١٩٠ وما بعدها.

وبدأ الإدريسي رحلاته مبكرًا، فقد ولد بالمغرب ودرس بالأندلس، وشملت رحلته فرنسا وإنجلترا[(١)] وآسيا الصغرى وبلاد اليونان، ثم حط رحاله واستقر في صقلية تحت حكم النورمان، وكان بلاطهم عربي السمت والرسوم إذ كان العهد قريبًا بالحكم الإسلامي للجزيرة، وهناك وضع كتابه الشهير الذائع الصيت «نزهة المشتاق في اختراق الآفاق» ورسم أول خريطة للأرض، وقد استفاد الإدريسي أيما استفادة من موقعه إلى جوار الملك، إذ كان يجمع علم من ارتحلوا إلى الملك من النصارى في أوروبا، وعلم من أرسلهم الملك إلى أطراف الأرض ليجمعوا علمها، فكانت حصيلة الإدريسي من هذه الرحلات شيئًا عظيمًا لم يتيسر لغيره.

وشملت رحلة أبي حامد الغرناطي -والتي سماها «تحفة الأصحاب ونخبة الأعجاب»، وكانت في مطلع القرن السادس الهجري- جزءًا من البحر الأسود (بحر الخزر)، وتوغل في بلاد البلغار على ضفاف نهر الفولجا وبلاد الصقالبة وإقليم باشغرد (بين البلغار والقسطنطينية)[(٢)].

وشملت رحلة ابن جبير الأندلسي -وكانت في أواخر القرن السادس الهجري- عكا وصورًا، وكانتا تحت حكم الصليبيين، وصقلية وكانت تحت حكم النورمان[(٣)].

وارتحل الهروي -وأصله من هراة، ووُلِد بالموصل- في أواخر القرن السادس الهجري إلى ما استطاع من بلاد المشرق والمغرب، فبلغت رحلته في أرض الروم

---

(١) ذهاب الإدريسي إلى إنجلترا وفرنسا إنما هو استنتاج لبعض الباحثين دفعهم إليه أن الوصف المذكور لهذه المناطق من الدقة بحيث لا يمكن إلا أن يكون نتيجة مشاهدة ومعاينة، ويرى آخرون أن هذا لا يصلح دليلا. انظر: د. حسين مؤنس: تاريخ الجغرافيا والجغرافيين ص١٧٠.

(٢) Le Tuhfat al – Albab de Abu Hamid al – Andalusi Al – Gharnati, etided d'apres les mss. 2167, 2138, 2170de la Bibliotheque National et le Ms. D'alger, par Gabriel Ferrand. Jornal Asiatique, Juillet Septembre1925.p.112 – 120.

(٣) ابن جبير: رحلة ابن جبير ص٢٧٦ وما بعدها، ص٢٩٤ وما بعدها.

جزيرتي صقلية وقبرص، والقسطنطينية وسالونيك وآسيا الصغرى، وسجل رحلته في كتابه «الإشارات إلى معرفة الزيارات»؛ حيث جمع فيه ما علق بذهنه من المشاهدات بعد أن ضاعت كتبه التي سجل فيها رحلته مفصلة، فبعضها غرق وبعضها نهبه جنود صليبيون أوقعوا به جنوب فلسطين في أيام الحملة الصليبية السادسة[١].

وأما شيخ الرحَّالة ابن بطوطة فقد كانت معظم رحلته في ديار المسلمين وبلاد الشرق، إلا أنه أصاب من الغرب شيئًا حسنًا، فقد دخل إلى آسيا الصغرى وصعد إلى بلاد القرم وذهب إلى آزاق (أزوف الآن) وبلاد البلغار وزار القسطنطينية، وأمدنا في كل ذلك بمعلومات قيمة.

ومما يمكن إدراجه في الرحلات الفردية التي مثلت مصدرًا من مصادر معرفة المسلمين بالغرب: رحلات طلبة العلم الأوروبيين إلى بلاد المسلمين للتعلم، سواء في الأندلس أو المغرب أو المشرق، فقد كان هؤلاء ممن نقلوا الكثير من أحوال بلادهم وعوائدها إلى المسلمين.

٢- الرحلات الجماعية

وأبرز ما في الرحلات الجماعية: الرحلات التجارية وحركات النزوح واللجوء. ولقد كانت هذه الرحلات الجماعية أنشط وأكبر مساحات الاحتكاك بالغرب والمعرفة به لكثرة أهلها، إلا أن أخبارها لم تسجل بل كانت قيمتها وقتية.

فبرغم أن حركة التجارة هي الحركة الأوسع في التعرف على الغرب، وبرغم أن التجار هم من أنشط فئات الناس وأذكاهم، إلا أن التجار ليست لهم سجلات يدونون فيها معارفهم، بل حظهم من الحياة ما يقيم تجارتهم، فعلمهم مقصور عليهم وعلى أزمانهم ولا يفيد الناس منه كثيرًا، اللهم إلا من كان منهم مهتمًا بالعلم أو له باع فيه.

---

(١) الهروي: الإشارات إلى معرفة الزيارات ص٥٣ وما بعدها.

وقد كان التجار المسلمون من النشاط بحيث فاق كثيرًا نشاط غيرهم، فحتى عام ١٩١٤م أحصيت ٢٠٠ قطعة من العملة البيزنطية في السويد مقابل ٣٨٠٠٠ قطعة من العملة العربية عثر عليها هناك[١]، ولقد أنعشت حركة التجارة حركة الترجمة حتى لقد كان العثمانيون يأخذون ضريبة على المترجمين تسمى «ترجمانية»[٢].

ومن حُسن الحظ أن الزمن قد حفظ لنا قطعًا مهمة من تراث بعض التجَّار، مثل إبراهيم بن يعقوب الطرطوشي، وهو تاجر أندلسي كان يعمل في جلب الرقيق الأبيض من أوروبا إلى الأندلس، وله كتاب مفقود لم يبق منه إلا ما نقله عنه مؤلفون آخرون كالبكري في المسالك والممالك والحميري في الروض المعطار.

وما بقي من رحلته يفيدنا في أنه ذهب إلى ألمانيا وبلاد الصقالبة ووصل حتى شرق أوروبا وعبر البحر الأدرياتي وزار براج والتقى بالملك أوتو الكبير -إمبراطور الإمبراطورية الرومانية المقدسة- والتقى عنده بسفراء من ملك البلغار، وفي ألمانيا التقى بتجار عرب قادمين من بلاد المجر يحملون الدقيق والقصدير والفراء، وزار كذلك بلاد الخزر.

ويشير د. حسين مؤنس إلى معلومة بالغة الأهمية في سياقنا هذا، وهي أن الطرطوشي لم يذكر أن أهل بلاد الخزر في ذلك الوقت كانوا يهودا برغم أن كتاب اليهود يطيلون الحديث عن دخول الخزر في اليهودية وانتشارها فيهم حينئذ، وقد انتفع المستشرقون بهذه القطعة ذات الأهمية الكبيرة في تاريخ الروس القدامى وأحوالهم، وهي من أهم ما وُجِد في المصادر الإسلامية عن وسط أوروبا وشرقها.

---

(١) د. عثمان بن جمعة ضميرية: السفارة والسفراء في الإسلام ص١٧، ١٨. وهو ينقل عن: د. محمد حميد الله: دولة الإسلام والعالم.

(٢) برنارد لويس: اكتشاف المسلمين لأوروبا ص٩٢.

ويتوقع برنارد لويس أن رحلته كانت من الأندلس إلى فرنسا ثم هولندا ثم شمال ألمانيا وبوهيميا وبولندا، وأن عودته ربما كانت عن طريق شمال إيطاليا[(١)].

وفيما نزعم فإن حركة المهجرين هي ثاني أوسع الحركات في التعرف على الغرب بعد حركة التجارة، وكثيرًا ما أسفرت الحروب المستمرة على أطراف العالم الإسلامي وفي أعماقه أحيانًا عن حركات نزوح واسعة بفعل مذابح الروم أو استيلائهم على البلد.

ثم لقد ألقت الأندلس إلى المغرب بطوفان من أبنائها خلال أربعة قرون منذ بدأ تساقط حواضر الأندلس، وحتى الموجة الكبرى مع سقوط غرناطة ومحاكم التفتيش ثم قرار الطرد والتهجير. كذلك فقد ألقت كافة الأراضي التي كانت تحت سلطان العثمانيين إلى ما جاورها من بلاد المسلمين طوفانًا أكبر عبر ثلاثة قرون منذ بدأ الضعف يدب في أوصال الدولة العثمانية وتتساقط حواضرها أمام الروس أو الأوروبيين، وقد عانى المسلمون مثلما عانى إخوانهم قبلهم في الأندلس من المذابح وعمليات الإبادة ومحاكم تفتيش جديدة.

ولم يكن المهجرون في هذه الأحوال من المسلمين فحسب، بل كثيرًا ما استقبلت الدولة العثمانية الهاربين من الاضطهاد الديني الأوروبي، وقد فرَّ كثير من يهود الأندلس إلى الدولة العثمانية.

كما فرَّ كثير من المسيحيين البروتستانت والموحِّدين إلى الدولة العثمانية، كذلك فرَّ القوزاق من اضطهاد الكنيسة الأرثوذكسية الروسية إلى الدولة العثمانية أيضًا[(٢)].

---

(١) د. حسن مؤنس: تاريخ الجغرافية والجغرافيين في الأندلس ص٧٦ وما بعدها، برنارد لويس: اكتشاف المسلمين لأوروبا ص١١١.

(٢) توماس أرنولد: الدعوة إلى الإسلام ص١٨١، ١٨٢.

إلا أن المهاجرين -كالتجار- لا يسجلون لنا معارفهم سوى من كان منهم من أهل العلم، بل سوى من يهتم بمثل هذا من أهل العلم، غير أن كل هذه الحركة مثلت -في وقتها- إضافات ضخمة للعالم الإسلامي عن الغرب وأحواله ولغاته وثقافته.

ومما يمكن إدراجه في الرحلات الجماعية كذلك: رحلات الغربيين للحج إلى بيت المقدس، وقد كانت هذه مزية للتعرف عليهم وليس للغربيين مثلها، إذ ليس في بلادهم ما يحج إليه المسلمون، وقد تمتعت ديار المسلمين بالأمن وحماية الأماكن المقدسة والإحسان إلى عموم الذميين والمستأمنين، مما جعل رحلة حجهم إلى بيت المقدس رحلة آمنة وحدثا يتمتع بالاستقرار في غالب الأحوال، وهو حدث مستمر لا ينقطع بسلم أو بحرب، فمن هنا كانت رحلة الحج مصدرًا متجددًا من مصادر معرفة المسلمين بأهل الغرب.

❁ ❁ ❁

المبحث الرابع
البحث العلمي

كان لا بد لمن حملوا لواء الحضارة ودبت فيهم روح طلب العلم أن يحوزوا علوم من فاتهم، وقد ضرب المسلمون المثل الأعلى في النشاط العلمي، وساحوا في أودية المعرفة ينهلون منها ما استطاعوا، فحصَّلوا من علوم الأولين ومعارفهم ما لو لم يحصلوه لكان مصيره الضياع والنسيان، ثم هضموه واستوعبوه، ثم صحَّحوه وأضافوا إليه، فطوروا علومًا كانت قد جمدت وابتكروا علومًا لم تكن قد وُجِدت، وقدموا للعالم نموذجًا لخير أُمة أُخرِجَت للناس.

والمقام لا يتسع ولا حتى لنبذات في سياق التعرف العلمي على الغرب من قِبَل المسلمين، فنحن نكتفي بمجرد الإشارة الخاطفة.

ما إن تم الاستقرار السياسي للمسلمين في أرض الشام حتى بدأوا في ترجمة ونقل العلوم، وكان النقل الأول على يد الأمير الأموي خالد بن يزيد لاعتنائه بعلوم الطب والكيمياء؛ فأحضر جماعة من اليونانيين لنقل الكتب من اليونانية والقبطية إلى العربية، فترجموا كتبًا في الطب والكيمياء والحروب والآلات والصناعات، وكان أول من أعطى أجورًا للمترجمين وقرب إليه أهل الصناعات، واهتم بجمع كتب العلوم وأنشأ لها دارًا في دمشق، فكانت تلك الدار أول مجمع للكتب العلمية[١].

واستمرت حركة الترجمة والتعلم طوال العصر الأموي، منها ما كان بأمر من الخلفاء كمروان بن الحكم وعمر بن عبد العزيز، ومنها ما كان بأمر من حاشيتهم كسالم كاتب هشام بن عبد الملك، خصوصًا بعد حركة التعريب الكبرى التي أمر بها

---

(١) ابن النديم: الفهرست ص٣٠٠، محمد كرد علي: خطط الشام ٤/ ١٩ وما بعدها.

عبد الملك بن مروان[1]، ومنها ما انطلق به أهل الشغف من العلوم حتى لقد بلغ نشاط الترجمة والتعلم حدا يفوق التصور، فقد أفادت رواية أن عدد الأطباء بالنسبة للناس بلغوا واحدًا لكل ٥٣٤ فردًا، وهي نسبة لا توجد في أي بلد متقدم الآن[2].

ثم كانت الثورة الكبرى في عصر الدولة العباسية، فقد وضع المنصور بذور نهضة علمية راسخة، فهو أول خليفة يهتم بالعلوم على قدر واسع، وقد «كان مع براعته في الفقه كَلِفا في علم الفلسفة وخاصة علم النجوم»[3]، وهو «أول خليفة تُرجمت له الكتب السريانية والأعجمية... وكتب اليونان»[4].

وخصص المنصور لهذه الترجمات وغيرها من المخطوطات خزانات في قصر الخلافة في بغداد، حتى ضاق عنها على سعته[5].

ثم تمم المأمون ما بدأه جده المنصور. فأقبل على طلب العلم في مواضعه وداخل ملوك الروم، وسألهم صلتهم بما لديهم من كتب الفلسفة وغيرها من «مُختار العلوم القديمة المخزونة». وحين وافق ملك الروم كلف المأمون لجنة من المشرفين على بيت الحكمة وأهل العلم بالذهاب وتخير المفيد من هذه الكنوز، ثم اختار مهرة التراجمة وكلفهم إحكام ترجمتها، فترجمت له على غاية ما أمكن، ثم حرض الناس على قراءتها ورغبهم في تعليمها[6].

---

(١) ابن النديم: الفهرست ص١٤٩، ٤٠١.

(٢) د. علي الصلابي: الدولة الأموية ١/ ٢٥٣، ويعتمد في هذا على رواية تفيد أن ابن زياد حين طُعن جمع مائة وخمسين طبيبًا في البصرة التي كان عدد سكانها حينئذ ثمانين ألفًا.

(٣) ابن العبري: تاريخ مختصر الدول ص٢٣٥.

(٤) الذهبي: تاريخ الإسلام ٢٤/ ١٨.

(٥) د. خضر أحمد عطا الله: بيت الحكمة في عصر العباسيين ص٢٨، ٢٩.

(٦) ابن النديم: الفهرست ص٣٠١، وابن العبري: تاريخ مختصر الدول ص٢٣٥، ٢٣٦.

وقد شملت هذه السفارات الهند والصين، بالإضافة إلى ما كان تحت سلطة الخلافة من تراث اليونانيين في الشام ومصر وكل التراث الفارسي.

وبهذا تطور بيت الحكمة في عهد المأمون حتى أصبح مؤسسة علمية من الطراز الممتاز همها ترقية البحث والدرس والتجرد للدراسات العليا، ويمكننا القول إن هذه المؤسسة «بيت الحكمة» قد أصبحت زمن المأمون أكاديمية بالمعنى العلمي الدقيق للكلمة؛ فيها أماكن للدرس وأماكن لخزن الكتب، وأماكن لنقلها، وأماكن للتأليف، إلى جانب المرصد الفلكي الذي مارسته[١].

ودامت أعمال الترجمة المخصبة المثمرة، مائة وخمسين عامًا فيما بعد، تحيل كل ما يقع تحت أيديها من تراث ترى فيها نفعا إلى لسان العرب في سائر العلوم والفنون، «وبعد مائة عام من حركة المأمون كانت معظم الكتب اليونانية القديمة في علوم الرياضة، والفلك، والطب قد ترجمت إلى اللغة العربية»[٢]، وبهذا كان حجم المادة المترجمة «كافيًا لإعطاء القارئ المسلم نظرة شاملة ورؤية كاملة للفلسفة اليونانية القديمة والطب والعلم»[٣].

وكان راتب المترجم من أعلى الرواتب في وظائف الدولة، فكان حنين بن إسحاق ومجموعته يحصلون على خمسمائة دينار في الشهر، هذا بخلاف ما يعطيه عقب كل ترجمة، وهي مكافأة هائلة: وزن الكتاب ذهبًا[٤]! ولا ريب أن هذه مبالغة ولكنها تعبير عن حفاوة المأمون بعمل المترجمين!

---

(١) د. خضر أحمد عطا الله: بيت الحكمة في عصر العباسيين ص٢٩.

(٢) ول ديورانت: قصة الحضارة ١٣/ ١٧٨ وما بعدها.

(٣) برنارد لويس: اكتشاف المسلمين لأوروبا ص٩٠.

(٤) ابن أبي أصيبعة: عيون الأنباء ٢/ ١٣٣، والقفطي: إخبار العلماء ص٣١، والزركلي: الأعلام ٢/ ٢٨٧.

ولئن كان الانقسام السياسي من عوامل الضعف، فلقد كان من وجه آخر من عوامل التنافس، وبذلك استفادت الساحة الحضارية من الإمارات والممالك المستقلة؛ ففي الأندلس غربًا كانت تجري عمليات ترجمة منفصلة عما كان في المشرق.

ولقد استطاع عبد الرحمن الناصر في الأندلس بما له من علاقات طيبة مع القسطنطينية أن يستجلب مترجمين من اللغة اليونانية إلى اللاتينية، إذ لم يكن في الأندلس من يحسن اللغة اليونانية، فجعلهم يعلمون بعض عبيده هذه اللغة ليتمكنوا من نقل ما هو باليونانية إلى اللاتينية ثم العربية أو إلى العربية مباشرة، وكان من فوائد ذلك إكمال ترجمة كتاب الحشائش لديسقوريدس والذي لم يكمل المشارقة ترجمته[١].

ومما لا بد من قوله في شأن الترجمة إنها كانت انتقائية تستهدف ما هو مفيد، وتلك سجية الواثق بنفسه الذي يمارس الاختيار والانتقاء طبقًا لنموذجه المعرفي، لا الذي ينهمر منبهرًا على ما لدى غيره لا يفرق بين ما ينفع وما لا ينفع، وأهم ما لم يترجم -مثلا- الأساطير والآداب اليونانية، فقد كانت مناقضة للعقيدة الإسلامية بحديثها السخيف عن صراع الآلهة وتعددها، وهذا قول الإسلاميين[٢]، أو هي على الأقل لم تكن ذات نفع علمي، وهذا قول الآخرين[٣].

وقبل أن تنتهي مرحلة الترجمة كانت مراحل التصحيح والإضافة والابتكار قد بدأت حتى ازدهرت وآتت ثمارها، ومن الحقائق التي ينبغي التنبه لها والاعتراف بها ضمن أسباب تخلفنا وضعفنا هو إهمال الترجمة في عصور ضعفنا وانحطاطنا، ولقد

---

(١) ابن أبي أصيبعة: عيون الأنباء ٣/ ٢٢٤، ٢٢٥.

(٢) محمد قطب: واقعنا المعاصر ص٩٧.

(٣) برنارد لويس: اكتشاف المسلمين لأوروبا ص٨٨.

عانت الدولة العثمانية معاناة شديدة إذ صار أمر الترجمة متروكًا لغير المسلمين حتى صار منهم من يطلع على كل المكاتبات ويرسلها إلى خصوم الدولة، وجرت في هذا قصص مريرة قبل أن ينتبه السلاطين لخطورة الأمر، ومن أسفٍ أنهم انتبهوا بعد أن ضاع وقت لا يُعوض[(١)].

وما يهمنا في سياقنا الآن أن هذه الحركة الواسعة من الترجمة، أثمرت تعرفًا على الغرب في مجالات علمية عدة، ثم أثمرت الحركة العلمية للحضارة الإسلامية فروعًا جديدة في المجالات القائمة كما ابتكرت مجالات علوم جديدة.

١ - الجغرافيا

ففي الجغرافيا نجد ذكرا للغرب (الروم) منذ أقدم الكتب التي وصلت إلينا في هذا المجال، فهذا ابن خرداذبه (ت نحو ٢٨٠هـ) -وكان عاملًا على البريد، ووضع كتابه كدليل لهذه الخدمة- يذكر وصفًا لبلاد الروم ومسافات طرقها المشهورة وبعض تراتيبها الإدارية ومواردها الاقتصادية ورسوم البلاط البيزنطي وملابس الإمبراطور، وأشهر جزر البحر المتوسط، ووصل إلى وصف روما وعمارتها وبلاد الفرنج (فرنسا)، حتى يصل إلى شمال شبه الجزيرة الإيبرية ويسمي قومها «الأبر» الذين يعرفون في الكتابات الإسلامية بالجلالقة[(٢)].

ثم تتراكم المعرفة فتزيد وتتعمق تدريجيًا، فنجد ابن رسته (ت نحو ٣٠٠هـ) يتحدث عن جزر بريطانيا التي تقع في المحيط إلى الشمال من بلاد الإفرنج[(٣)]، ثم يأتي المسعودي (ت ٣٤٦هـ) بأول إشارة عن وجود أمريكا خلف المحيط وكيف أن

---

(١) محمد إيشيرلي: نظم الدولة العثمانية، ضمن «الدولة العثمانية تاريخ وحضارة» بإشراف: أكمل الدين إحسان أوغلو ١/ ٢٣٦ وما بعدها.

(٢) ابن خرداذبه: المسالك والممالك ص١٠٩ وما بعدها.

(٣) ابن رسته: الأعلاق النفيسة ٧/ ٨٥.

بعض الأندلسيين غامروا وركبوا البحر فعانوا أهوال الذهاب والإياب واكتشفوا أرضًا خلف المحيط[١].

ويزيد في التفاصيل التي تصف الغرب عن سابقيه، ويتحدث عن الخلاف الفرنجي الإسباني وعن عاصمة الفرنجة بريزة (باريس) واجتماعهم على ملك واحد، بخلاف الجلالقة الذين وإن كانوا أشد من الفرنجة إلا أنهم قبائل مفترقة[٢].

ثم تتوسع مؤلفات الجغرافيا وتزيد التفاصيل والضبط والتصحيح مع مرور الزمن، حتى تبلغ آفاقا جديدة مع الإدريسي صاحب أول خريطة للعالم، وتبدو فيها أوروبا المعروفة لنا بدقة مدهشة بالنسبة إلى زمنهم.

ثم تبلغ المعرفة بالغرب سعة وعمقا وغزارة جديدة مع ياقوت الحموي في موسوعته «معجم البلدان»، وفيها قام بعمل نقدي ممتاز لروايات من سبقوه حتى وإن أثبتها، وأحيانًا لم يتسع نقده لإيرادها كلها فاختصرها أو أعرض عنها[٣].

وما يزال النشاط العلمي مستمرًا حتى يُختتم بكتاب «بحرية» وخرائط العالم الجديد للبحار وقائد الأسطول العثماني والجغرافي بيري ريس، وهي الإنتاجات التي بلغت حدًّا مذهلًا في دقتها.

حتى إن خرائط العالم الجديد تمثل إلى اللحظة لغزًا علميًا لا يُدرى كيف توصل إليه، مما دفع بعض المؤلفين إلى تفسيرات غير علمية تفترض الحصول على هذه المعلومات من أطباق طائرة وكائنات من الفضاء[٤].

---

(١) المسعودي: مروج الذهب ١/ ١١٩.

(٢) المسعودي: مروج الذهب ٢/ ٣٤ وما بعدها.

(٣) انظر نقده لروايات ابن الفقيه عن مدينة روما. ياقوت الحموي: معجم البلدان ٣/ ١٠٣، ١٠٤.

(٤) محمد إلهامي ومحمد شعبان: بيري ريس ص١٢٨ وما بعدها.

٢- التاريخ

وقد احتوت كتب الجغرافيا والبلدان والرحلات ما هو من شأن التاريخ، كما انفردت كتب التاريخ بما هو من شأنها وإن لم تخلُ من الجغرافيا كذلك، وصار من عادة التأليف في الموسوعات التاريخية أن تبدأ بتاريخ العالم قبل الإسلام؛ فيمرّ المؤرخ على قصص ملوك اليونان -وأشهرهم الإسكندر المقدوني- ثم قصة عيسى عليه السلام ثم سيرة ملوك الروم.

وفرق المسلمون مبكرًا بين أجناس الروم، ونقلنا فيما سبق نصوصًا تذكر الصقالبة والبلغار والأبر.

ومع الحروب الصليبية بدأ يظهر التفريق واضحًا في الكتابات الإسلامية بين «الفرنج» والإنجليز؛ فقيل عنهم: الإنكتار، الإنكلتير.

ويشيع في الكتابات الأندلسية الفصل بين الفرنجة والألمان (اللّمان، اللومان)، والفصل بين هؤلاء وأهل الشمال (النورمان، الفايكنج)، وإن كان الجميع مشمولًا بلفظ الفرنج إذا المؤرِّخ لم يُفصل.

ويعتبر جامع التواريخ الذي ألفه رشيد الدين الهمداني للسلطان المغولي قازان خان، أدق ما كتب في تاريخ أوروبا، وهو عمل كبير شمل ضمن ما شمل تاريخ أوروبا، ولم يكتف بالمصادر وحدها بل استدعى من علماء الأقطار من أخذ منهم تواريخ أنحائهم، ويتوقع برنارد لويس أن يكون من ساعدوه إيطاليون لأن المنقول عن أوروبا يشبه معارف الإيطاليين[1].

ويشير ابن خلدون إلى النهضة الأوروبية التي بدأت في عصره من إيطاليا، وذلك في القرن الرابع عشر الميلادي، يقول:

---

(١) برنارد لويس: اكتشاف المسلمين لأوروبا ص١٦٦، ١٦٧.

«بلغنا لهذا العهد أن هذه العلوم الفلسفية ببلاد الإفرنجة من أرض رومة وما إليها من العدوة الشمالية نافقة الأسواق، وأن رسومها هناك متجددة ومجالس تعليمها متعددة ودواوينها جامعة متوفرة وطلبتها متكثرة»(١).

٣- مقارنة الأديان

وحيث إن الغرب في ذلك الزمان كان بين نصراني ووثني، فلقد كانت المعرفة به حاضرة في ساحة مقارنة الأديان، وهي واحدة من أشد ساحات الاحتكاك بين المسلمين والغربيين سواء في المناطق التي فتحها المسلمون أو فيما جرى من مساجلات علمية.

ومن آثار ذلك أن كانت معرفة المسلمين بالنصرانية ومذاهبها من أدق ما كان لهم من معارف في سائر المجالات إن لم يكن الأدق والأفضل على الإطلاق، ومما هو متكرر في أقوال العلماء الاندهاش من كون هؤلاء الغربيين مع ما لهم من العلوم والمعارف والفنون يعتنقون هذه الأفكار السخيفة.

وللجاحظ كلمة جامعة تُجمل الموقف الإسلامي من الغربيين إنصافًا واستفظاعًا ودقة استيعاب، يقول بعد ثناء على ما لديهم من العلوم والذكاء والحكمة:

«ثم هُم -مع ذلك أجمع- يرون أن الآلهة ثلاثة بطن اثنان وظهر واحد، كما لا بد للمصباح من الدهن، والفتيلة، والوعاء، فكذلك جوهر الآلهة، فزعموا أن مخلوقًا استحال خالقًا، وأن عبدًا تحوَّل ربًّا، وأن حديثًا انقلب قديمًا، إلا أنه قد قتل وصلب بعد هذا، وفُقِدَ، وجُعِل على رأسه أكاليل الشوك، ثم أحيَا نفسه بعد موته، وإنما أمكن عبيده مِن أخذه وأسره، وسلَّطهم على قتله وصلبه، ليواسي أنبياءه بنفسه، وليتحبب إليهم بالتشبه بهم، ولأن يستصغروا جميع ما صنع بهم، ولئلا يعجبوا بأعمالهم فيستكثرونها لربهم، فكان

---

(١) ابن خلدون: تاريخ ابن خلدون ١/ ٤٨١.

عذرهم أعظم من جرمهم... فلولا أنا رأينا بأعيننا، وسمعنا بآذاننا، لما صدقنا ولا قبلنا أن قومًا متكلمين، وأطباء ومنجمين، ودُهاة وحُسَّابًا، وكَتَبَة وحُذَّاق كل صنعة، يقولون في إنسان رأوه يأكل ويشرب، ويبول وينجو، ويجوع ويعطش، ويكتسي ويعري، ويزيد وينقص، ثم يقتل بزعمهم ويُصلب: إنه ربٌّ خالق، وإله رازق، وقديم غير مُحدَث، يميت الأحياء ويحيي الموتى، وإن شاء خلق أضعافًا للدنيا، ثم يفخرون بقتله وصلبه، كما يفخر اليهود بقتله وصلبه»[١].

وعصر الجاحظ هو العصر الذي وصلتنا منه أول رسائل مكتوبة متبادلة[٢]، وهي الرسالة الشهيرة بين عبدالله بن إسماعيل الهاشمي وعبدالمسيح بن إسحاق الكندي، والتي اختلف حول صحتها كلها أو حول صحة أطرافها[٣].

وفي كل الأحوال فإن عصر المأمون المشتهر بالمساجلات الفكرية لا يبعد أن يحدث فيه مثل هذا.

وبعد حوالي قرن من وفاة الجاحظ بدأ ظهور المؤلفات المتخصصة في مقارنة الأديان، من بعد ما كانت رسائل وموضوعات ضمن مؤلفات أكبر، ويعد كتاب «الإعلام بمناقب الإسلام» لأبي الحسن محمد بن يوسف العامري (٣٨١هـ) «أول أثر فكري عثرنا عليه في مقارنة الأديان»[٤].

ثم تزيد الكتب المتخصصة في مقارنة الأديان، ونرى بذور الموسوعات والموسوعات

---

(١) نشوان بن سعيد: الحور العين ص٢٢٧، ٢٢٨. وهو ينقل عن كتاب الأخبار للجاحظ وهو مفقود. وهذا المعنى نفسه، وأحيانا بالألفاظ نفسها، متكرر في كتب الملل والنحل، انظر: ابن حزم: الفصل في الملل والأهواء والنحل ١/ ٤٨، ابن تيمية: الجواب الصحيح ٤/ ٤٤٨.

(٢) وذكرت بعض كتب الفهارس بعض ما لم يصل إلينا مثل رسالة «الرد على النصارى» لبشر بن المعتمر الهلالي (ت ٢١٠هـ)، «والرد على النصارى» للقحطبي. انظر: ابن النديم: الفهرست ص١٩٧، ٤١٥.

(٣) كارل بروكلمان: تاريخ الأدب العربي ٤/ ٣٥ وما بعدها.

(٤) د. محمد عمارة: إسلامية المعرفة ماذا تعني؟ ص٧١.

عند الشهرستاني في «الملل والنحل» وابن حزم في «الفِصَل في الملل والأهواء والنحل».

حتى نصل إلى موسوعة ابن تيمية في الرد على النصارى وحدهم وهي كتابه «الجواب الصحيح لمن بدَّل دِين المسيح» والمطبوع في ست مجلدات.

وقد جمع بعض الباحثين قائمة ما نعرفه مما كُتِب في الرد على أهل الكتاب، فبلغت الردود على اليهود ٤٤ كتابا ورسالة، وبلغت الردود على النصارى ١٢٤ كتابًا ورسالة، وبلغت الردود على اليهود والنصارى معًا ٢٦ كتابًا ورسالة، وبلغت الردود على الفِرق والنِّحل والمذاهب والتي تضمنت الرد على اليهود والنصارى ١٨ كتابًا ورسالة(١).

٤ - الفلسفة

ولئن كانت ساحة مقارنة الأديان تشعل الحدود الإسلامية الغربية، فلقد كانت ساحة الفلسفة تشعل القلب الإسلامي، وذلك أن اختلاط الفلسفة اليونانية بالعلوم - وخصوصا الطب- جعل ترجمات الكتب العملية تحمل في بطنها الفلسفة اليونانية معها، وقد أعجب كثير من المسلمين بالمنطق اليوناني كـ«وسيلة علمية» أو «معيار علمي» يضبط التفكير ويساعد في تصور المسألة العلمية وتقسيمها.

وثار الجدل المشهور حول احتياج المسلمين لهذه الوسيلة اليونانية، وما إذا كانت حقًّا مجرد وسيلة معيارية محايدة تستخدم لخدمة علوم الشريعة، أم هي جزء من فلسفة لا تنفك عنها ومن ثَمَّ تحتوي على ما يخالف الشريعة وينبغي نبذه؟!

ومن هنا انقسمت الساحة الإسلامية إلى ثلاثة اتجاهات كبرى عُرفوا بهذه الألقاب:

▪ **الأصوليون**: وهم الذين رأوا أن الإسلام مستغنٍ بنفسه عن غيره، وأن الشريعة تحتوي في نصوصها ما يبني منطقها الخاص المكتمل الذي لا تحتاج معه لفلسفة

---

(١) خالد بن علي مفلاس: إنتاج ما صنفه المسلمون في مجادلة أهل الكتاب، مجلة آفاق الثقافة والتراث، مركز جمعة الماجد، دبي، العدد ٧٠، رجب ١٤٣١هـ، يونيو ٢٠١٠.

اليونان أو منطق أرسطو، ونُقل عنهم الكثير في «ذم عِلم الكلام» و«ذم المنطق» ونحو هذا، وأبرز من يمثلهم الإمام الشافعي وابن تيمية.

▪ والكلاميون: وهم الذين رأوا أنه يمكن استعمال الفلسفة وعلم الكلام في نصرة الشريعة، ما دام القائم بهذه العملية من أهل العلم الراسخين الذين يستطيعون التمييز بين الغث والثمين ولا تذهلهم معرفتهم بالفلسفة عن قواعد الشريعة، ونُقِل عنهم الكثير في «إلجام العوام عن علم الكلام»، ورفع التناقض بين الفلسفة والشريعة وإثبات «ما بين الشريعة والحكمة من الاتصال»، وأبرز من يمثل هؤلاء هم الإمام الغزالي والباقلاني وابن رشد.

▪ والفلاسفة: وهم أولئك الذين توفروا على منطق أرسطو وفلسفة اليونان بالشرح والتحليل ونصرة آرائهم والإضافة إليها والدفاع عنها، وأبرز من يمثلهم: الكندي والفارابي وابن سينا.

وكان بين هذه الاتجاهات الثلاثة سجال واسع وجدل قوي، وصدرت فيه مؤلفات غزيرة من أشهرها: «تهافت الفلاسفة» للغزالي، و«تهافت التهافت» لابن رشد، و«درء التعارض بين العقل والنقل» لابن تيمية، و«ترجيح أساليب القرآن على قوانين المبتدعة واليونان» لابن الوزير اليمني، و«مصارعة الفلاسفة» للشهرستاني، وغيرها كثير.

والشاهد أن كل هذا السجال الفكري احتاج إلى بحث وتفتيش واستيعاب لما وفد من هذه الفلسفة، ومقارنتها بما لدى المسلمين، لكي يثمر هذا موقفًا واتجاهًا.

٥- العمارة والفنون:

إذ ما إن بدأ المسلمون في صناعة العمران حتى كان المثال القائم بين أيديهم هو تراث وآثار الفرس والروم، وفيما يخص الروم، فلقد استعان المسلمون بأهل الصنائع والفنون في إنشاء آثارهم المعمارية الأولى مثل مسجد قبة الصخرة والجامع الأموي في دمشق.

وقد راسل الوليد بن عبد الملك إمبراطور الروم ليبعث إليه بمائتين من الصُنَّاع حين عزم على بناء جامع دمشق[١].

كما أهدى إمبراطور الروم إلى عبد الرحمن الناصر أمير الأندلس حوضًا فسيحًا منقوشًا بالذهب[٢].

وأخبار الهدايا بين الملوك كثيرة وشيقة حتى ما يُدرى أهي من مبالغات الرواة أم من تفنن الملوك في عروشهم.

وعدَّد الجاحظ ما يجلبه المسلمون من الروم فكان منها: «الأقفال المحكمة واللورا[٣] ومهندسو الماء وعلماء الحراثة والأكارة وبناة الرخام»[٤].

وحُمِلت في بعض الحروب آثار إلى بلاد المسلمين، كأثر من آثار النصر، وهو أيضا دليل على الإعجاب والفخامة، منه ذلك الباب الكبير الذي أخذه المعتصم من عمورية حين فتحها ووضعه في قصر الخلافة ببغداد[٥].

٦- خصائص الشعوب

لقد كتب المسلمون أيضًا في «خصائص الشعوب» الذي يسمَّى في العلوم الحديثة «الشخصية الإقليمية» أو «الأنثروبولوجيا الاجتماعية»، وحفل الغرب (الروم) بكثير من الأوصاف التي انتشرت في كتب الجغرافيا والبلدان والتاريخ.

وتورد رواية متقدمة عن طبائع الشعوب أن الحجَّاج سأل فروخ زادان عن أهل الأمصار، فسأله عن أهل الشام فقال: «نزلوا بحضرة الروم فأخذوا من ترفهم

(١) ابن عساكر: تاريخ دمشق ٢/ ٢٥٨.

(٢) المقري: نفخ الطيب ١/ ٥٢٧.

(٣) لم أهتدِ إلى معناها، ولم أجدها فيما أعرف من كتب المعاجم.

(٤) الجاحظ: التبصرة بالتجارة ص٢٦.

(٥) الخطيب البغدادي: تاريخ بغداد ٣/ ٣٤٤.

وصناعتهم وشجاعتهم»[١]، وثمة رواية متأخرة تنحو إلى الذم فتقول: «جاور أهل الشام الروم، فأخذوا عنهم اللؤم وقلة الغيرة»[٢].

ويصف إسماعيل بن عبد الله الشعوب لأبي جعفر فيقول عن الروم إنهم «أهل كتاب وتدين»[٣].

وتصف رواية منسوبة لابن عباس الروم بالنجابة، بل بأنهم حازوا تسعة أعشارها «قسمت عشرة أجزاء فتسعة منها في الروم وواحدة في سائر الناس»[٤].

كما وصفوا في مقام آخر بالبخل فقيل: «أربعة لا تعرف في أربعة: السّخاء في الروم، والوفاء في التّرك، والشجاعة في القبط، والغمّ في الزّنج»[٥].

ويشيع في المؤلفات وصف الروم تميزهم في «العلوم والآداب والفلسفة والأحكام والهندسة والحذق بالأبنية والمصانع والقلاع»[٦].

وتكرر كثيرًا الثناء على مهارتهم في الرسوم والتماثيل، أحيانا بنفس العبارات، حتى قيل: «وهم الغايات في التصوير، يُصور مُصورهم الإنسان حتى لا يغادر شيئا، ثم لا يرضى بذلك حتى يصوره شابًا، وإن شاء كهلًا، وإن شاء شيخًا، ثم لا يرضى بذلك حتى يصوره باكيًا أو ضاحكًا، ثم لا يرضى بذلك حتى يجعله جميلًا ناعمًا عتيقًا، ثم لا يرضى بذلك حتى يفصل بين ضحك السامت، وضحك الخجل، وبين المبتسم والمستعبر، وبين ضحك السرور وضحك الهازئ، وضحك المتهدد، فيركب صورة في صورة، وصورة في صورة، وصورة في

(١) ابن الفقيه: البلدان ص١٦٤.

(٢) النويري: نهاية الأرب ١/ ٢٩٥.

(٣) الطبري: تاريخ الطبري ٤/ ٥٢٢.

(٤) النويري: نهاية الأرب ١/ ٢٩٣.

(٥) النويري: نهاية الأرب ١/ ٢٩٤.

(٦) ابن الفقيه: البلدان ص٥١٢.

صورة؛ ثم لهم في البناء ما ليس لغيرهم، ومن الخطر والنجر والصناعة ما ليس لسواهم»[١].

وكثيرًا ما فسَّر المؤلفون خصائص هذه الشعوب بما هم فيه من مناخ وأرض، واعتبروا أن من كان قريبًا من الشمال حيث شدة البرد أو من خط الاستواء حيث شدة الحر لم يكن لهم نصيب في العلوم أو الحضارة، ومن أهم ما ظهر من مؤلفات في هذا المجال كتاب «طبقات الأمم» لصاعد الأندلسي، وهو محاولة رائدة وإن كانت قاصرة[٢].

وقد قسم الأُمم إلى قسمين: الأمم التي اهتمت بالعلوم والفنون، والأمم التي لم تهتم بالعلوم والفنون.

فمن اهتموا بالعلوم: الهند والفرس والكلدان واليونان والروم والقبط (أهل مصر) والعرب وبنو إسرائيل. وتحدث عنهم، ثم تحدث ببعض التقدير عن الصينيين والترك وإن لم يكن لهم باع في العلوم لما للصينيين من مهارة في الصناعات اليدوية التي تحتاج صبرًا ومثابرة، ولِما للترك من فروسية وإتقان لآلات الحرب.

وأما الباقون فيقول صاعد الأندلسي: «وأما سائر هذه الطبقة التي لم تُعن بالعلوم، فإفراط بعد الشمس عن مسامته رؤوسهم، بَرَّد هواءهم وكَثَّف جَوَّهم، فصارت لذلك أمزجتهم باردة وأخلاطهم فجة، فعَظُمت أبدانهم وابيضَّت ألوانهم، وانسدلت شعورهم، فعدموا بهذه دقة الأفهام وثقوب الخواطر، وغلب عليهم الجهل والبلادة، وفشا فيهم العمَى والغباوة كالصقالبة والبرغر ومن اتصل بهم. ومن كان منهم ساكنًا قريبًا من خط معادلة النهار وخلقه إلى نهاية المعمور في الجنوب فطول مقارنة الشمس لِسَمْت رؤوسهم أسْخَنَ هواءهم وسخف جوهم، فصارت لذلك أمزجتهم حارة وأخلاطهم محرقة، فاسودت ألوانهم وتفلفلت شعورهم، فعدموا بهذا رجاحة الأحلام وثبوت البصائر وغلب عليهم الطيش وفشا فيهم النوك[٣] والجهل مثل مَن

(١) نشوان بن سعيد: الحور العين ص٢٢٧، ٢٢٨. وهو ينقل عن كتاب الأخبار للجاحظ وهو مفقود.

(٢) في مسألة تأثير الجغرافيا على شخصية الإقليم وسكانه، انظر مقدمة د. جمال حمدان لكتابه «شخصية مصر»، فقد حشد كثيرا من الأدلة وأقوال الجغرافيين والفلاسفة حول هذا الموضوع.

(٣) النوك: الحمق.

كان مِن السودان ساكنًا بأقصى بلاد الحبشة والنوبة والزنج وغيرها»[١].

وقد ظل هذا التفسير قائمًا حتى بعد صاعد بأربعة قرون، فنحن نقرأه مرة أخرى عند ابن خلدون.



وفي النهاية فقد وُجِّه نقد متكرر، لا سيما من قِبَل المستشرقين، لما حصله المسلمون من المعرفة عن الغرب ومدى ما كانت عليه من شمول ودقة، وهو نقد ليس هذا مقام تتبعه، ولكن خلاصة ما نرى في هذا الموضوع، أن المسلمين حصلوا أقصى ما كان ممكنًا لهم تحصيله في ظل الإمكانات المتاحة في ذلك الوقت، وفي ظل كون البلاد محل البحث تعاني حالة مؤسفة من التخلف وضياع التراث وقلة العلم والعلماء، ثم هي مع ذلك متباعدة الديار قاسية المناخ لا ترحب بالغريب.

ولو أردنا المقارنة بالحركة العلمية الغربية في بلاد الشرق فالواقع أنهم لم يحصلوا شيئًا كثيرًا ولا دقيقًا عن بلاد إفريقيا وآسيا إلَّا في ظل الجيوش والاستعمار، وما زالت توجه انتقادات مؤثرة للترجمات والبحوث الغربية عن التراث الصيني[٢] والهندي والإفريقي، فإذا تجاوزنا عن فارق الزمان والإمكانيات ووجود تراث ضخم -وهو أمر لا يجوز إهماله- لم يبق لنا إلا أن نقارن بين معرفة المسلمين بالبلاد التي وصلتها جيوشهم وفتحوها، وبين هذه المعرفة الغربية، وحينئذ سنبصر أن معرفة المسلمين بما سيطروا عليه من بلاد كانت وافرة ودقيقة.

---

(١) صاعد الأندلسي: طبقات الأمم ص٨، ٩.

(٢) سمعت بنفسي من الأستاذ الدكتور دين محمد، المتخصص في الديانات الشرقية بجامعة قطر، وهو سريلانكي، أن وصف كونفوشيوس بـ«الحكيم» إنما هو من أثر الخطأ الغربي في ترجمة الكلمة الصينية والتي تعني على وجه الدقة «مَن يتلقى الوحي مِن الله»، فعرفته الشعوب غير الصينية بأنه مجرد فيلسوف حكيم من أثر هذا الخطأ بينما أتباعه يرون فيها «رسولا».

خلاصة الباب الأول:

لا بد لمن يدخل إلى علم الاستغراب من أن تكون له معرفة قوية بما كان من تاريخ بين المسلمين والغرب عبر العصور، إذ بدون هذه المعرفة لا يمكن تصور مسائل هذا العلم على وجهها، فإن ما نشأ واستمر واستقر عبر خمسة عشر قرنًا هو بمثابة الجذور التي آتت أكلها، فلا يمكن فهم الثمرة أو يتسنى فحصها إذا جُهلت البذرة والجذور.

ويمكن القول بأن العلاقة بين الإسلام والغرب تنقسم إلى قسمين: التاريخ السياسي الملتهب، والتاريخ الحضاري الذي هو انعكاس لهذا الالتهاب لكنه أرحب وأشمل وأوسع منه، وإذا كان التاريخ السياسي يمثل رأس الحربة فيه، فالتاريخ الحضاري يمثل السلم والحرب معًا، ويمثل أيضًا -وهذا ما يهمنا في سياق هذا البحث- جذورا لعلم الاستغراب الذي نؤصل له.

ويمكن اختصار التاريخ السياسي في أربعة مراحل:

١ - **الصدمة الأولى:** التي اكتسح فيها الإسلام الأرض التي استولى عليها الروم فاتحًا، فاعتنقته القلوب والعقول، وخسر الغرب إلى الأبد مناطق الشام والشمال الإفريقي. وخسروا في هذه الصدمة أجزاء من آسيا الصغرى والأندلس وجنوب فرنسا وبعضا من جنوب إيطاليا.

٢ - **الحرب المقدسة:** فما إن دالت الأيام على دولة الخلافة بالضعف حتى كانت عوامل كثيرة تتجمع في الغرب ليشن ثماني حملات صليبية، فيدخل الشرق والغرب في واحدة من أطول الحروب في التاريخ، ثم ينتهي الحال بتحرر الأرض الإسلامية.

٣- **الضربة القاصمة:** فلقد سدد كل منهما ضربة للآخر، فتح المسلمون

القسطنطينية وأزالوا عاصمة الأرثوذكسية، بينما استطاع الكاثوليك طرد المسلمين من الأندلس والتفوا حول العالم الإسلامي واستولوا على أطرافه، وهددوا قلبه غير مرة.

٤- **الهيمنة الغربية**: وفيها استطاع الغرب الدخول إلى قلب العالم الإسلامي، وضعفت دولة الخلافة حتى سقطت، وهيمن الغرب على العالم الإسلامي وصنعوا أنظمة حكم على قالبهم تحمل الناس قهرًا وقسرًا على اتباع غير دينهم، وكانت هزيمة من نوع جديد: غربيون من بني جلدتنا يتكلمون بألسنتنا ويحتلوننا لصالح عدونا التاريخي.

وأما التاريخ الحضاري فيمثل جذورا لعلم الاستغراب، ففي ظلال التاريخ السياسي والحروب نشأت الكثير من العلاقات بين المسلمين والغرب التي تعرف بها المسلمون على الغرب، فقد حاز المسلمون معرفة واسعة من خلال ساحات كثيرة نشير منها إلى أربعة:

١- **الحروب**: والتي اقتضت معرفة بالخصم قبل وأثناء وبعد الحروب، وأسفرت عن فتوحات وانكسارات وأسرى، ومناطق جديدة تُحكم أو تُترك، فكانت لها امتدادات واسعة للمعرفة.

٢- **السفارات**: والتي هي في أحد وجوهها من نتائج الحروب، لكنها تعبر عن حال السلم، فالسفارات أكثر من الحروب، فهي دائما معها وربما افترقت عنها، وقد كان بين المسلمين والغرب سفارات علمية وعلاقات سياسية عادت بالكثير من المعرفة.

٣- **الرحلات**: سواء منها ما كان بدافع العلم والشغف بالاطلاع، أو ما كان منها بدافع التجارة والتكسب، أو ما كان منها قسرًا مثل حالات المهاجرين والنازحين، فكل هذه كانت موارد معرفة بالغرب عن قرب ومعاينة ومعايشة.

٤ - **البحث العلمي**: وذلك أن المسلمين بدأوا في حركة نشاط علمي كبرى منذ استقروا سياسيًا، فترجموا سائر ما رأوا أنه مفيد من تراث الأقدمين، ومنهم اليونان والرومان، ثم انطلقوا هم يذرعون ساحات العلم جيئة وذهابًا، فتعرفوا على الغرب عبر الكثير من العلوم منها: الجغرافيا والتاريخ، واشتبكوا مع هذا التراث في ساحات مثل مقارنة الأديان والفلسفة، وابتكروا علومًا جديدة مثل خصائص الشعوب وفيه أيضًا صاغوا معارفهم عن الغرب في نظريات رائدة وإن كانت قاصرة.



الباب الثاني

خلاصة الاستشراق

«لو خرج مذيع الأخبار على الناس ذات يوم ليقول في نشرته إن كوبا جردت جيشًا لتحارب أمريكا وروسيا، وإنها انتصرت على الاثنين، وإنها نشرت علمًا وحضارة وعقيدة بلغت بها تخوم الصين.. لقلنا ونحن نستمع إلى هذه الأخبار: هذا رجل أصابته لوثة؛ فكيف تخرج شراذم ذليلة قليلة من بلد صغير مثل كوبا فتنتصر على الشرق الروسي والغرب الأمريكي وتصنع حضارة تغير بها العالم.. هذا مستحيل.. هذا رجل مجنون.

ولكن هذا المستحيل هو الذي حدث بالضبط حينما خرج من الجزيرة العربية الفقيرة المتخلفة جيش يحمل راية لا إله إلا الله، فانتصر على الروم والفرس، وبلغ تخوم الصين شرقًا، وشواطئ الأطلسي غربًا، واندفع شمالًا حتى أسوار فيينا، واندفع جنوبًا حتى السودان والحبشة، ونشر حضارة غيرت وجه العالم. تلك هي الظاهرة الإسلامية التي أصابت العالم بالذهول والارتجاج.. وتلك الظاهرة المذهلة كانت وراء حملة الاستشراق التي حدثت في أوروبا وأمريكا وروسيا واليابان وفي كل مكان فيه إنسان يفكر»[١].

في هذا الباب نوجز خلاصة هذه الظاهرة في فصلين:

- الفصل الأول: رحلة الاستشراق
- الفصل الثاني: حصاد الاستشراق

---

(١) د. أحمد سمايلوفيتش: فلسفة الاستشراق ص٣. (مقدمة د. مصطفى محمود).

الفصل الأول

رحلة الاستشراق

يدور تعريف الاستشراق حول معنى «طلب علوم الشرق وآدابهم»، ومِن ثَمَّ فإن المستشرق هو «عالم متمكن من المعارف الخاصة بالشرق ولغاته وآدابه»[(١)]. وهو حركة لبست ثوب العلم منذ بدايتها وإن اختلف حول مدى تحقق أو صحة هذه «العلمية»، إلا أنها ظاهرة علمية تثمر خلاصاتها في كتب وأبحاث ودراسات، ويتناولها من يمارسون البحث والدرس والتأليف.

إلا أن هذا التعريف «الموضوعي المحايد» لا يعبر عما خلف هذه الظاهرة «العلمية» من أغراض أوقفت لأجلها مؤسسات وصروح علمية وسياسية واقتصادية أيضا. ولعل هذا ما دفع إدوارد سعيد لصياغة تعريف آخر ينظر إلى الاستشراق «بصفته المؤسسة الجماعية للتعامل مع الشرق، والتعامل معه معناه التحدث عنه، واعتماد آراء معينة عنه، ووصفه، وتدريسه للطلاب، وتسوية الأوضاع فيه، والسيطرة عليه: وباختصار بصفة الاستشراق أسلوبًا غربيًا للهيمنة على الشرق وإعادة بنائه والتسلط عليه»[(٢)].

---

(١) انظر في تعريفات الاستشراق وتحليلها ونقاشها:
د. أحمد سمايلوفيتش: فلسفة الاستشراق ص٢٢ وما بعدها، د. محمد إبراهيم الفيومي: الاستشراق في ميزان الفكر الإسلامي ص٩ وما بعدها، د. أحمد عبد الرحيم السايح: الاستشراق في ميزان نقد الفكر الإسلامي ص٩ وما بعدها، د. إسحاق السعدي: تميز الأمة الإسلامية وموقف المستشرقين منه ١/ ١٧٦ وما بعدها.

(٢) إدوارد سعيد: الاستشراق ص٤٥، ٤٦.

لقد ولد الاستشراق ونما كما ينمو الكائن الحي، ثم نضج واستوى على سوقه وصارت له صروح علمية فاخرة، ثم يختلف الناس في حاله الآن: هل مات وانتهى؟ أم هو في شيخوخته ولم يعد قادرًا على أداء دوره الذي كان يؤديه في الشباب؟ أم أنه تطور واستحال إلى صيغ أخرى ليواكب تغيرات العصر؟

فذلك هو ما نستعرضه في هذا الفصل عبر هذه المباحث:

- **المبحث الأول: ولادة الاستشراق**
- **المبحث الثاني: نضوج الاستشراق**
- **المبحث الثالث: ما بعد الاستشراق**



المبحث الأول

ولادة الاستشراق

لقد ولد الاستشراق في عهد التفوق الإسلامي الكاسح: عسكريًا وسياسيًا وحضاريًا، ومن ثم فهو أحد صور الاستجابة الغربية للتحدي الإسلامي[1].

وقد جاءت بداية هذه الاستجابة من الإمبراطورية الرومانية الشرقية التي طرحت أول صف من النصارى يردون على الإسلام ويكتبون في «إبطاله» وجدال أهله، فيما كانت الإمبراطورية الرومانية الغربية حينئذ في وضع مثير للشفقة تضرب الفوضى في أطنابها ولا يستقر لها حال في قوة ولا في حضارة، حتى جاءها بعد نحو قرنين شارلمان الكبير الذي اعتبر بطلا رغم أنه لم يستعِد سوى نصف ما كان للإمبراطورية الرومانية الغربية بل أقل، وبعد مذابح هائلة من أبرز مذابح التاريخ الإنساني!

إلا أن التآكل المستمر للإمبراطورية البيزنطية تحت الفتوح الإسلامية حتى سقوطها النهائي على يد العثمانيين حال دون نمو هذه الظاهرة، فيما مثّل التوقف الإسلامي عند حدود فرنسا، ثم ظهور وحدة أوروبية غربية، فرصة لظهور ونمو هذه الحركة في أوروبا، وهذا ما جعل الاستشراق يأخذ اسمه ذا الإيحاء «الجغرافي».

---

(١) أقدم من يمكن تصنيفهم كمستشرقين، وذلك قبل ظهور الاستشراق كحركة، كانوا قساوسة درسوا في الشرق، ويشار عادة إلى الراهب الفرنسي جربرت دي أورلياك (Gerbert d`Aurillac) الذي صار البابا عام (٩٩٩م) وتلقب بسلفستر الثاني (Pope Sylvester II)، وقد طلب علوم العرب في الأندلس والمغرب. كما يشار إلى الراهب بطرس المبجل أو المحترم، وكذلك الراهب جيرار دي كريمون (الكريموني). انظر: د. عبد الرحمن بدوي: موسوعة المستشرقين ص١١٠، ١٧٨، د. عبد الرحمن حبنكة الميداني: أجنحة المكر الثلاثة ص١٢٢ وما بعدها، يوهان فوك: تاريخ حركة الاستشراق ص١٥ وما بعدها.
Bulletin of the British Association of Orientalists, vol11, p41.

وتكاد تتفق المراجع على أن أوروبا عرفت نفسها وشَكَّلَتْ روحها وصنعت ذاتيتها في الحروب الصليبية، فلقد «تمخض عن ازدياد الرخاء والحيوية في أوروبا الغربية خلال القرن الحادي عشر عن ظهور الحركة الصليبية، وكيف وُجِّهت هذه الحركة بصفة أساسية ضد المسلمين. ولا شك أن هذه الحيوية ذاتها هي صاحبة الفضل في إقدام المثقفين الأوربيين في القرن الثاني عشر على دراسة علوم العرب وفلسفتهم»[١].

«لقد أعطت تجربة الحروب الصليبية أوروبا وعيها الثقافي وكذلك وَهَبَتْها وحدتها. ولكن هذه التجربة نفسها كان مقضيًا عليها منذ ذلك الحين فصاعدًا بأن تهيئ اللون المزيف الذي كان على الإسلام أن يبدو لأعين الغربيين به... لأنه إذا كان للدعوة إلى حملة صليبية أن تحتفظ بصحتها فقد كان من الواجب والضروري أن يوسم نبي المسلمين بعدو المسيح وأن يصور دينه بأكلح العبارات كينبوع للفسق والفجور والانحراف عن الحق.

وفي أيام الحروب الصليبية ذاتها تخللت العقل الأوروبي وبقيت فيه تلك الفكرة المضحكة القائلة بأن الإسلام إنما كان دينا يدعو إلى عبادة الشهوة وإلى القوة الوحشية»[٢].

«وقد ازداد سوء الفهم منذ ذلك الحين، حتى إن لفظة «محمد» أصبحت بمعنى الكفر بالله. وتطورت «المحمدية» في أذهان معاصري شكسبير حتى أصبحت بمعنى أيّة ديانة مزيفة. وعلى الأخص الديانة التي تعبد الأصنام»[٣].

---

(١) مونتجمري وات: فضل الإسلام على الحضارة الغربية ص٩٨.

(٢) محمد أسد: الطريق إلى الإسلام ص١٩.

(٣) ر. ف. بودلي: الرسول حياة محمد ص١٣.

و«كانت تماثيله (محمد ﷺ) -حسب أقوالهم- تصنع من مواد غنية وذات أحجام هائلة»[١].

ويحدثنا السفير والرحّالة المغربي أفوقاي الأندلسي في سفارته إلى بلاد فرنسا وهولندا[٢] عن بعض هذه الأكاذيب.

فمن ذلك أن بعضهم فهم أن الإسلام يجيز الزنا والسرقة من حديث أبي الدرداء أنه سأل النبي ﷺ «هل يسرق المؤمن؟ قال: قد يكون ذلك، قال: هل يزني المؤمن؟ قال: بلى وإن كره أبو الدرداء، قال: هل يكذب المؤمن؟ قال: إنما يفتري الكذب من لا يؤمن»[٣]!!.

وفهم بعض علمائهم أن الإسلام يجيز اللواط من قوله تعالى: ﴿نِسَآؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ فَأْتُوا۟ حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ﴾ [البقرة: ٢٢٣].

ومِن علمائهم مَن كان يظن أن المسلمين يزورون مكة ليروا نبيهم في الهواء في وسط حلقة حديدية موضوعة في نقطة اتزان وسط قبة حجر مغناطيسي فيحسب المسلمون أن نبيهم معلق في الهواء وأنها من معجزاته[٤].

وفي هذه الفترة كانت الصورة تقول بأن محمدًا كان ساحرًا دبر المعجزات ليخدع بها العرب السذج، ومنها أن ثورًا أبيض نشر الرعب بين العرب ثم ظهر وبين قرنيه

---

(١) مكسيم رودنسون: الصورة الغربية والدراسات الغربية والإسلامية، ضمن «تراث الإسلام» بإشراف شاخت وبوزورث ص٨١.

(٢) وكانت هذه السفارة بين عامي (١٠٢٠ - ١٠٢٢هـ = ١٦١١ - ١٦١٣م).

(٣) حديث موضوع، انظر: السلسلة الضعيفة للألباني ١٢/ ٢٩، ٣٠ (تحت الحديث ٥٥٢١)، وروي المعنى من طريق آخر مرسلًا ضعيفًا عند المنذري في الترغيب والترهيب. وإنما نقلناه هنا لضرورة السياق.

(٤) أفوقاي الأندلسي: رحلة أفوقاي الأندلسي ص٤٩، ٥٣، ٨٠.

كتاب هو ذلك القرآن، كما أنه استطاع أن يدرب حمامة بيضاء على التقاط «البازلاء» من فوق أذنيه بما أوحى للناس أن روح القدس يوحي إليه، وأنه كان يعاني من الصرع (والصرع في هذه الأيام يعني أن الجن يسكنه)، وأنه اجتذب الناس بإرضائه لغرائزهم وإطلاق شهواتهم في الزنا والشذوذ، ثم إن راهبًا مبتدعًا ضالًّا طرد من البلاد المسيحية فذهب إلى بلاد العرب وقابل محمدًا ولقنه الأصول المشوهة للديانة المسيحية، وأن الإسلام لم ينتشر إلَّا بالسيف، وأن المسيحيين لم يسمح لهم بحرية في الإمبراطورية الإسلامية، وأن محمدًا مات بأن هجم عليه قطيع من الخنازير أثناء نوبة من نوبات اتصاله بالجن فمزقوه إربًا[1].

يرى المستشرق الألماني رود بارت أن المشكلة لم تكن في نقص المعلومات، بل يؤكد أن «العلماء ورجال اللاهوت في العصر الوسيط كانوا يتصلون بالمصادر الأولى في تعرفهم على الإسلام، وكانوا يتصلون بها على نطاق واسع، ولكن كل محاولة لتقييم هذه المصادر على نحو موضوعي نوعًا ما، كانت تصطدم بحكم سابق يتمثل في أن هذا الدِّين المعادي للنصرانية لا يمكن أن يكون فيه خير. وهكذا كان الناس لا يولون تصديقهم إلا لتلك المعلومات التي تتفق مع هذا الرأي المتخذ من قبل، وكانوا يتلقفون كل الأخبار التي تلوح لهم مسيئة إلى النبي العربي وإلى دين الإسلام»[2].

إذن فحقيقة الأمر لم يكن سوء فهم بقدر ما كان هدفًا وطموحًا، فلقد «زادت الثقافة الأوروبية من قوتها ودعمت هويتها من خلال وضعها لذاتها في مقابل الشرق باعتبارها ذاتا بديلة أو حتى دفينة»[3].

---

(١) كارين أرمسترونج: سيرة النبي محمد ص٤٠، ٤١.

(٢) رودي بارت: الدراسات العربية الإسلامية ص٩، ١٠.

(٣) إدوارد سعيد: الاستشراق ص٤٦.

إذ «لم يحدث قبل ظهور الاتحاد السوفيتي أن واجه الغرب تحديًا مستمرًا من دولة أو من منهج فكري يوازي التحدي الذي واجهه من الإسلام»(١).

ولذلك، فمنذ القرن الثاني عشر الميلادي وحتى القرن الثامن عشر الميلادي ستعيش أوروبا ستة قرون في مرحلة «شيطنة العدو» الذي هو المسلمون.

ستة قرون أثرها لا يزال قائمًا! في هذه الستة كانت الروح العدائية تحتاج إلى أن ترسم الصورة البشعة لهذا الشيطان الذي تحاربه في الشرق (الحروب الصليبية) وفي الغرب (الأندلس) خصوصًا بعد أن انتصر عليها في الشرق فطردها من بلاد الشام، وانتصرت عليه في الغرب حين أخرجته من الأندلس، ولكنه لم يكن انتصارًا كاملًا، إذ قبل سقوط غرناطة -آخر الممالك الأندلسية- بأربعين سنة كانت جيوش العثمانيين قد دخلت القسطنطينية عاصمة الدولة البيزنطية ومدينة قسطنطين وحاضرة القياصرة. ومن بعد هذه اللحظات توالى تعاظم العثمانيين قرنًا آخر على الأقل، ثم ثباتهم على هذا التفوق سنين أخرى.

فكان «من المحال على المسيحيين الغربيين، بسبب هذا الخوف، أن يلتزموا العقلانية أو الموضوعية إزاء العقيدة الإسلامية»(٢).

ومن خلال استعراض المستشرق الفرنسي مكسيم رودنسون لتطور الصورة الإسلامية في الدراسات الغربية نستطيع أن نَعُدَّ الصور الإيجابية عَدًّا ضمن التاريخ الأوروبي.

وسنجد من سطوة الأفكار ما يحمل أصحابها على الاستدراك دائما، فمن أولئك -مثلا- الطبيب اليهودي الإسباني بيتر ألفونسي (بدرو دي ألفونسو) الذي اعتنق المسيحية في أوائل القرن الثاني عشر (١١٠٦م)؛ فقد كان «صاحب أول صورة

(١) كارين أرمسترونج: سيرة النبي محمد ص١٧، ١٨.

(٢) كارين أرمسترونج: سيرة النبي محمد ص١٨.

إيجابية عن الإسلام»، وكان طبيبًا للملك هنري الأول، المعروف بعدائه للإسلام، وكان يصف الإسلام باعتباره العقيدة المقبولة لمن لم يسبق له الالتزام بالعقيدة الحقيقية «المسيحية»، ويرجع رودنسون هذه النظرة الإيجابية إلى أنه طبيب يتعامل مع فضاء العلم الذي كان يؤخذ حينها على يد المسلمين، كما أنه إسباني فهو الأقرب إلى الصورة الحقيقية لهم.

وفي منتصف القرن الثاني عشر كتب المؤرخ أوتو فرايزنج بحثًا ينكر فيه أن المسلمين يعبدون الأصنام، وقال «من المعروف أن جميع أبناء الشرق يعبدون الله وحده، ويعترفون بشريعة العهد القديم، وشعيرة الطهارة، بل إنهم لا يهاجمون المسيح ولا الرسل، ولا يُقصيهم عن الخلاص إلَّا شيء واحد، ألا وهو إنكارهم أن المسيح عيسى هو الله أو ابن الله، وتبجيلهم الغاوي محمدًا باعتباره نبيا عظيمًا للرب الأعلى»!!



المبحث الثاني

نضوج الاستشراق

بدأ نضوج الاستشراق في اللحظة التي تحول فيها من مجهودات فردية إلى عمل مؤسسي، تلك اللحظة كانت مجمع فيينا الذي يعتبره عامة الباحثين في الاستشراق البداية الحقيقية للاستشراق، كان ذلك في مطلع القرن الرابع عشر (١٣١١ – ١٣١٢) واتخذ مجلس الكنائس قرارًا «بإنشاء سلسلة من كراسي الأستاذية للغات العربية واليونانية والعبرية والسريانية في باريس وأكسفورد وبولونيا وأفينيون وسالامانكا»[١]، وكان بطل هذه اللحظة هو البابا إكليمنص الخامس[٢].

ولذا فقليلًا ما ينتبه الباحثون إلى بطل آخر سبقه بربع قرن، وهو البابا هونوريوس الرابع الذي أنشأ أول معهد لدراسة اللغات الشرقية في جامعة فرنسا أواخر القرن الثالث عشر الميلادي (١٢٨٥م).

ومثلما كانت فرنسا صاحبة السبق في إنشاء كراسي للغات الشرقية، فقد سبقت إلى إنشاء كراسي للغة العربية على وجه الخصوص، لم يسبقها بذلك إلَّا إسبانيا التي أنشأت كرسيا للغة العربية بعد مجمع فيينا في سالامانكا، أما فرنسا فقد أنشأ الملك فرانسوا الأول كرسيًّا للغة العربية والعبرية في مدرسة ريمس عام (١٥١٩م)، وأنشأ الملك هنري الثالث كرسيًّا للغة العربية عام (١٥٨٧م)، ثم تبعتها بريطانيا بعد أكثر من قرن، إذ أنشئ أول كرسي للغة العربية في جامعة كمبريدج (١٦٣٣م) بتوصية من

---

(١) إدوارد سعيد: الاستشراق ص١١٠.

(٢) ومن الضروري هنا أن نلفت النظر إلى أن هذا البابا هو الذي أعلن أن «وجود مسلم في الأراضي المسيحية هو إهانة لله»!! لكي نتفهم دوافع الاستشراق. كارين أرمسترونج: سيرة النبي محمد ص٤٣.

كبير الأساقفة لود (Loud)[١]، ثم بعد ثلاث سنوات أنشئ أول كرسي للغة العربية في جامعة أكسفورد (١٦٣٦م).

في هذه الفترة لحق الإيطاليون بركب اللغات الشرقية؛ ففي القرن السابع عشر كلف مجمع نشر الإيمان الهبنات تأسيس مراكز اللغات الشرقية في روما، ثم قرر المجمع تدريس العربية والسريانية والعبرية في البندقية، وغيرها إذا وجد من يعلمها. وأنشأ الكاردينال مديتشي مدرسة للغات الشرقية ومكتبة في فلورنسا، والكاردينال بورميو مدرسة للغات الشرقية في ميلانو. بينما كان الإسبان في تلك الفترة قد أنشأوا خمسًا وعشرين كرسيًّا للغات الشرقية!

وفي مطلع القرن الثامن عشر زادت إنجلترا كرسيين للغة العربية في جامعتي أكسفورد وكمبريدج، وفي ذات الوقت كانت فرنسا تدعم تشكيل بعثات من الطلاب الفرنسيين لدراسة اللغات الشرقية، ثم لم ينتهِ القرن حتى أنشأت في فرنسا المدرسة الوطنية للغات الشرقية الحية في باريس عام (١٧٩٥م) للسفراء والقناصل وكبار التجار ذوي العلاقات مع الشرق، وفي ذات الوقت كانت معرفة اللغة العربية من مؤهلات ترقي الموظفين في إسبانيا على عهد الملك كارلوس الثالث الذي وسع المكتبة الملكية ونظم مكتبة دير الأسكوريال.

وفي منتصف القرن الثامن عشر لحق الألمان بالركب، وكانوا قد بدأوا في تدريس اللغات الشرقية خلال القرن السادس عشر، لكن المحاولة الأولى لتدريس اللغة العربية كمادة مستقلة كانت بعد هذا التاريخ بقرنين من الزمان على يد المستشرق الألماني الشهير جوهان رايسكه. فيما لم يلحق الإيطاليون بركب تدريس اللغة العربية

---

(١) ولود هذا هو لود فيجو مراش مؤلف كتاب «عالم النص القرآني» الذي يؤرخ د. عبد الرحمن بدوي به أنه كان أول دراسة غربية جادة عن القرآن الكريم تعتمد على مصادر إسلامية، وإن امتلأ بالتشويه والأخطاء، وقد اقتفى من بعده أثره فيه. د. عبد الرحمن بدوي: دفاع عن القرآن ص٦.

حتى أواخر القرن التاسع عشر، حين تحول المعهد الذي أنشأه الأب ريبا آعد الصيني إلى معهد شرقي في أواخر القرن التاسع عشر (١٨٨٨م)، وفيه كرسي للغة العربية ولهجاتها، والبربرية، والتركية، والفارسية، والألبانية، وغيرها.

ثم ظهر في القرن التاسع عشر بطل جديد في عالم الاستشراق، ذلك هو المستشرق الفرنسي الأشهر سلفستر دو ساسي، والذي ازدهرت على يديه المدرسة الوطنية للغات الشرقية في باريس، والذي يتردد اسمه بين المستشرقين حتى الآن بإجلال كبير، ويُعدُّ تلاميذه الألمان هم آباء الاستشراق الألماني، لا سيما هاينريش فلايشر (١٨٠١ - ١٨٨٨م) الذي يعد المؤسس الفعلي للدراسات العربية في ألمانيا، وأستاذ الجيل الثاني من المستشرقين الألمان، الذين تخرجوا من معهد اللغات الشرقية، الذي تم تأسيسه في عام (١٨٨٧م) في برلين، ثم حل محله معهد اللغات الشرقية في بون.

ثم بدأ عصر الاستعمار منذ منتصف القرن التاسع عشر، فازدهرت معه حركة الاستشراق التي تلقت دعمًا قويًا من السلطات، ونشطت حركة الدراسات العلمية والميدانية وشراء وسرقة ونقل المخطوطات من البلاد الإسلامية، ومن ثم ترجمتها ودراستها وفهرستها وتحقيقها والتعليق عليها، والاستفادة منها، كما ازدهرت حركة الرحالة المستشرقين إلى الشرق وحركة الابتعاث كمدرسين في المدارس العليا وأساتذة في الجامعات، وهذا كله بخلاف الخبراء الذين صحبوا جيوش الاحتلال والخبراء الذين دعموا الحكومات المحلية المرتبطة بالاحتلال، وسائر البعثات السياسية المقيمة بصفة دائمة أو مؤقتة، فقد كانت كل هذه الأنشطة تستلزم المزيد من خبراء الشرق، ومن ثم زادت الحركة الاستشراقية نشاطا من حيث الأقسام والمعاهد والجامعات والجمعيات العلمية والمؤتمرات الدورية والإصدارات المختلفة، حتى أصبح تتبع حركة الاستشراق نفسها أمرا يحتاج دراسات مطولة وجهد بحثي كبير.

وقد بدأ هذا الازدهار في بريطانيا وفرنسا بالأساس، ثم في إسبانيا التي نشطت فيها حركة الدراسات العربية منذ منتصف القرن التاسع عشر، بينما نشط الاستشراق الإيطالي أوائل القرن العشرين مع بداية دخولهم على خط الاستعمار إذ أنشئ المعهد الإيطالي لإفريقيا عام (١٩٠٦م)، ونشط الاستشراق الألماني عقب الحرب العالمية الثانية.

والآن لا تكاد توجد جامعة شبه معروفة إلا ولها نصيب من كلية أو معهد أو قسم يدرس الاستشراق، ولا توجد مكتبة شبه معروفة إلا ولها نصيب من المخطوطات الإسلامية فضلًا عن الدراسات الاستشراقية.

وأما الاستشراق الأمريكي فقد بدأ من منتصف القرن التاسع عشر فقط، ولكنه الآن أكبر وأخطر وأقوى استشراق في العالم كله، وترصد له الأموال والميزانيات الضخمة، وتعتبر الجامعات الأمريكية والمراكز البحثية الأمريكية هي الأقوى والأغنى على مستوى العالم.

ويمكن أن نرجع الاهتمام البحثي بالشرق إلى عام (١٨٤٢م)، حين تأسست الجمعية الشرقية الأمريكية، والتي بدأ إنتاجها في العام التالي من خلال نشر ترجمات أو وضع دراسات عن الشرق، ولكن التطور الكبير لحركة الاستشراق الأمريكي يمكن إدراكها من بعد منتصف القرن العشرين في الفترة التي تلت الحرب العالمية الثانية. واليوم تعد جامعة هارفارد أكبر الجامعات الأمريكية التي تعني بدراسة الشرق ولغاته وتاريخ شعوبه، ومنذ بدأت جامعة برنستون بتعليم اللغات والآداب الشرقية منذ عام (١٩٣٥م) وهي تعتبر «عش الاستشراق» وأهم مراكزه في العالم، ولا ينقص ذلك من جهد باقي الجامعات في الاستشراق مثل: جامعة كولومبيا، وجامعة بنسلفانيا، وجامعة ميتشجين، وجامعة كاليفورنيا، وجامعة بوسطن، وجامعة شيكاغو... إلخ.

وهذا بخلاف الجامعات والمعاهد التي تعمل في العالم الإسلامي وعلى رأسها الجامعة الأمريكية في القاهرة، والجامعة الأمريكية في بيروت، وكذلك المعاهد البحثية المنتشرة في العالم الإسلامي، سواء منها ما يعمل بالاسم الصريح أو يضع له اسمًا محليًّا(١).

وبعد هذا كله يعد من العبث السؤال عن ارتباط الاستشراق بالحكومات الغربية، وكيف أنه يعمل في خدمة مصالحهم قبل أن يعمل في خدمة العلم متحليًا بالأمانة

---

(١) انظر:

* في تاريخ وتطور الدراسات الشرقية في الغرب بشكل عام: عبد الرحمن حبنكة الميداني: أجنحة المكر الثلاثة ص١٢٢ وما بعدها، الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب المعاصرة ٢/ ٦٨٧ وما بعدها. مكسيم رودنسون: الصورة العربية والدراسات الغربية الإسلامية، ضمن «تراث الإسلام» بإشراف شاخت وبوزوروث ١/ ٢٩ وما بعدها.

* في تاريخ وتطور الاستشراق البريطاني: نجيب العقيقي: المستشرقون ٢/ ٧ وما بعدها.

C. E. Butterworth, B. A. Kessel: The Introduction of Arabic Philosophy IntoEurope, p. 65 – 82.

* في تاريخ وتطور الاستشراق الفرنسي: نجيب العقيقي: المستشرقون، ١/ ١٣٨ وما بعدها، يوهان فوك: تاريخ حركة الاستشراق ص٧٨ وما بعدها، ٢٠٧ وما بعدها.

* في تاريخ وتطور الاسشتراق الألماني: نجيب العقيقي: المستشرقون، ٢/ ٣٤٠ وما بعدها، صلاح الدين المنجد: المستشرقون الألمان ص٧ – ١٣، يوهان فوك: تاريخ حركة الاستشراق ص٥٥ وما بعدها، ٩٤ وما بعدها، ٣٤١ وما بعدها.

* في تاريخ وتطور الاستشراق الإيطالي: نجيب العقيقي: المستشرقون ١/ ٤٠٥ وما بعدها، يوهان فوك: تاريخ حركة الاستشراق ص٤٥ وما بعدها، ٧٨ وما بعدها.

* في تاريخ وتطور الاستشراق الإسباني: نجيب العقيقي: المستشرقون ٢/ ١٧٣ وما بعدها، يوهان فوك: تاريخ حركة الاستشراق ص٢٧٧ وما بعدها.

C. E. Butterworth, B. A. Kessel: The Introduction of Arabic Philosophy IntoEurope, p. 7 – 30.

* في تاريخ وتطور الاستشراق الأمريكي: نجيب العقيقي: المستشرقون ٣/ ١٢٠ وما بعدها، د. مازن مطبقاني: بحوث في الاستشراق الأمريكي المعاصر ص٥١ وما بعدها.

العلمية، إلا أن الباحثين المسلمين يصرون على ذكر الدلائل والتصريحات على هذا الارتباط في معرض تفسير السؤال المتبادر إلى الذهن: إذا كان الاستشراق عملًا علميًا، وإذا كان المستشرقون قد استطاعوا الوصول إلى المصادر الأصلية ولم يعودوا يعانون صعوبة التواصل مع المسلمين، فلماذا لم تتحسن صورة الإسلام في الغرب؟! ولماذا خرجت أغلب الكتابات الاستشراقية تنقل صورة شائهة عن المسلمين؟!

وجدنا في نص قديم يرجع إلى الربع الأول من القرن السابع عشر أن من بين علماء النصارى في فرنسا من يعلن «المسلمون أعطاهم الله عقولًا وافرة»[(١)]، إلا أن هذا إنما كان في سياق مجادلة، ثم هو بعد ذلك لم يتردد ولم يتسرب إلى العامة أبدًا، بل هو لم ينتشر بين العلماء والمستشرقين، وسيلاحظ «أي باحث موضوعي أن الأغلبية المطلقة من مستشرقي القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين لم يتخلصوا من المواقف المسبقة الموجهة ضد الإسلام، سواء أكان عداؤها صريحًا مباشرًا وعنيفًا أم كان يتسم بعدم الارتياح تجاه الشعوب الإسلامية»[(٢)].

وحتى في حمأة الدفاع عن الغرب يُقِرُّ مؤلفان غربيان بأن «بعض ضروب التحامل الاستشراقية لا ترى في الشعوب غير الغربية تلك الكائنات البشرية الراشدة، فعقولهم عقول أطفال، ويُمكن أن يُعاملوا تاليا على أنهم سلالات أدنى»[(٣)].

إنه السبب القديم المقيم: العلم في خدمة السياسة! فالسلطة التي تدعم العلوم وأهلها لا تنتظر منهم بطبيعة الحال أن يخرجوا بنتائج تضاد وتناقض مصالحها ومطامحها.

---

(١) أفوقاي الأندلسي: رحلة أفوقاي الأندلسي ص٨٥.

(٢) أليسكي جورافسكي: الإسلام والمسيحية ص٩١.

(٣) إيان بوروما ومرجليت أفيشاي: الاستغراب ص٢٢.

ولذلك «يمكن القول بموضوعية كاملة إن «علم الإسلاميات» ولد في أحشاء «المخططات الاستعمارية»[١]، ولم يكن يستطيع إلا أن يكون ابنًا بارًّا ومطيعًا!

ولذلك سنجد في عهد نضوج الاستشراق نفس الكلام الذي قيل قبل أن تبدأ الدراسات العلمية، ففي (١٦٩٧م) ظهر «بارتلمي ديربيلو» الذي ألَّف «المكتبة الشرقية» وهو المؤلف الذي يوصف بأنه دائرة المعارف الإسلامية الأولى، واستعان فيه بمصادر عربية وتركية وفارسية وبذل جهدًا كبيرًا لإزالة الأفكار الخاطئة المتراكمة عند المسيحيين، وكان طبيعيًا أن يخرج هذا العمل بروح إيجابية ملموسة.

ولكنه برغم هذا يقول: «هذا هو الدجال الشهير محمد، صاحب ومؤلف بدعة اكتسبت اسم الدين ونسميها المذهب المحمدي، وقد نسب المسلمون إلى هذا الكاذب جميع الفضائل التي ينسبها الآريون أو البوليسيون أو المتشبهون بهم وغيرهم من دعاة البدع إلى يسوع المسيح وإن كانوا ينزعون عنه صفة القداسة».

وفي نفس العام ظهر كتاب «محمد: طبيعة الدجل الحقيقية» للإنجليزي همفري بريدو الذي يقول بأن الإسلام هو نموذج واضح لمستوى البلاهة التي يمكن أن يصل إليها أي دين.

ويجب أن نتذكر أننا في نهاية القرن السابع عشر وبداية الثامن عشر أي أن عصر التنوير قد بدأ منذ زمن، يقول عن النبي: «كان الشطر الأول من حياته يتسم بالإباحية الشديدة والآثام البالغة، وكان يجد متعة كبيرة في السلب والنهب وإهراق الدم... تملكته صفتان: الطموح والشهوة، فتشييد مملكته يدل على الأولى وتعدد زوجاته يدل على الثانية، وكل سورة في القرآن لا تخلو من قانون للحرب وإهراق الدماء، كما لا تخلو من إباحة التمتع بالنساء في الدنيا وكذلك في الآخرة»[٢].

---

(١) أليسكي جورافسكي: الإسلام والمسيحية ص٩٠.

(٢) كارين أرمسترونج: سيرة النبي محمد ص٥٥، ٥٦.

وانطلاقًا من أن العلم إنما كان في خدمة المصالح والمطامح والمطامع، يرى إدوارد سعيد أن «القيمة الكبرى للاستشراق تكمن في كونه دليلًا على السيطرة الأوروبية الأمريكية على الشرق أكثر من كونه خطابًا صادقًا حول الشرق (وهو ما يزعمه الاستشراق في صورته الأكاديمية أو البحثية) .

ومع ذلك فعلينا أن نحترم ونحاول أن ندرك ما يتسم به خطاب الاستشراق من قوة متماسكة متلاحمة الوشائج، والروابط الوثيقة إلى أبعد حد بينه وبين المؤسسات السياسية والاقتصادية والاجتماعية التي تمنحه القوة، وقدرته الفائقة على الاستمرار.

وعلى كل حال، فإن أي مذهب فكري يستطيع الصمود دون تغيير، واستمرار التمتع بمنزلة العلم الذي يتعلمه الناس (في المعاهد التعليمية والكتب والمؤتمرات والجامعات ومعاهد تخريج العاملين بوزارة الخارجية) منذ عصر إرنست رينان في فرنسا في أواخر الأربعينيات من القرن التاسع عشر حتى الوقت الحاضر في الولايات المتحدة، لا بد أن يكون أقوى من مجموعة من الأكاذيب وحسب، وليس الاستشراق إذن خيالًا أوروبيًا متوهمًا عن الشرق، بل إنه كيان له وجوده النظري والعملي، وقد أنشأه من أنشأه، واستُثْمِرَت فيه استثمارات مادية كبيرة على مرّ أجيال عديدة[1].

وقد أدى استمرار الاستثمار إلى أن أصبح الاستشراق، باعتباره مذهبًا معرفيًا عن الشرق، شبكة مقبولة تسمح منافذها بتسريب صورة الشرق إلى وعي الغربيين، مثلما أدّى تكاثر ذلك الاستمرار نفسه، بل وتحوله إلى مصدر حقيقي للإنتاج والكسب، إلى تكاثر الأقوال والأفكار التي تتسرب من الاستشراق إلى الثقافة العامة»[2].

---

(١) انظر مثلا: د. مازن مطبقاني: من قضايا الدراسات العربية الإسلامية في الغرب ص١٤ وما بعدها.

(٢) إدوارد سعيد: الاستشراق ص٥٠.

ومن ثَمَّ فليس غريبًا أن يذهب البعض إلى القول بأن الاستشراق «لم يفعل شيئًا مهما، اللهم إلا أنه أضفى صبغة علمية على الأضاليل القديمة، والخرافات والقوالب النمطية الغربية العتيقة عن الإسلام»(١).

لكن أمرًا مهمًا يجب أن ننتبه إليه، ونعترف به بمقتضى العدل والإنصاف، ذلك أن نضوج الاستشراق وتقيده بالتقاليد العلمية أسفر عن كثير من المراجعات في صفوف المستشرقين، فظهرت كثير من الكتابات والدراسات المنصفة، وصدر عن كثير من المستشرقين مدح وافر وثناء جميل على الإسلام ونبيه وحضارته وأثره، واعترف كثير منهم بفضل الإسلام على الإنسانية وفضل الحضارة الإسلامية على مناحي التقدم العلمي والأدبي، كما واعترف بعض المستشرقين أن تيار الاستشراق عاجز عن الوصول إلى دراسة كافية وحقيقية عن الإسلام، ونادى بأن يتصدى المسلمون لذلك فهم أهله وأولى به(٢).

إلا أن التيار العام للاستشراق ظل وفيا للأطماع الغربية ويعمل في خدمتها. والسؤال الآن: كيف يستطيع الاستشراق -وهو يزعم العلمية والموضوعية والتقصي- أن يمارس ذات دور التشويه والتجهيل والكذب في عصر ثورة الإعلام والاتصالات؟!

هذا موضوع المبحث القادم:

---

(١) أليسكي جورافسكي: الإسلام والمسيحية ص٩١.

(٢) قال المستشرق آربري للدكتور مصطفى السباعي: «إنَّنا -نحن المستشرقين- نقعُ في أخطاء كثيرة في بُحُوثنا عن الإسلام، ومن الواجب ألا نخوضَ في هذا الميدان؛ لأنَّكم -أنتم المسلمين- العرب أقدرُ مِنَّا على الخوض في هذه الأبحاث». وقال المستشرق الألماني شوديل يقول: «ما الذي يمكن أن نعلمه لتلاميذنا العرب في مسألة منهج الإنتاج العلمي؟ إنهم يلمون بذلك أحسن منا».

د. مصطفى السباعي: السنة ومكانتها في التشريع الإسلامي ص٢٩.

المبحث الثالث

ما بعد الاستشراق

منذ أربعين سنة، وتحديدا عام (١٩٧٣م) عقد المستشرقون في باريس مؤتمرهم العالمي الدوري، وفيه اتفقوا على التخلص من كلمة «الاستشراق» و«المستشرق» وعلى أن يستبدلوا بها وصفًا آخر، فجعلوا اسم المؤتمر «المؤتمر العالمي للدراسات الإنسانية حول آسيا وشمال إفريقيا»، وصار الشائع في اصطلاحاتهم من بعدها كلمات نحو «الدراسات الشرقية»، «دراسات الشرق الأدنى»، «الدراسات الشرق الأوسطية» «دراسات المناطق»... إلخ. وكتب برنارد لويس -وهو من أساطين المستشرقين وشيوخهم- يؤيد ما فعله المؤتمر لأن كلمات الاستشراق والمستشرق صارت ملوثة[1]!

لكن بعض المفكرين مثل عبد الرحمن بدوي -الفيلسوف المشهور، والذي لم يكن في ذلك الوقت متدينا ولا منحازا للإسلام- رأى في قرار إنهاء مؤتمر الاستشراق مؤامرة صهيونية قادها برنارد لويس لوأد هذا المؤتمر الذي يكشف عن الوجوه الزاهرة للحضارة الإسلامية، وقد حاول جهده -ومعه إبراهيم مدكور- وآخرين إيقاف محاولة وأد المؤتمر والتصدي لفكرة إلغائه التي تزعمها برنارد لويس ومجموعة المستشرقين اليهود في هذا المؤتمر المنعقد في باريس، إلا أنهما لم ينجحا، وتحدث بدوي بألم ومرارة وحزن شديد عن انتهاء هذا المؤتمر. وكتب في مذكراته يقول: «تولى تدبير هذه المؤامرة برنارد لويس بحماقته واندفاعه وتهريجه، يعاونه يهودي آخر يُدعى بَشَم Basham وهو إنجليزي الجنسية ومتخصص في الدراسات

(١) د. مازن مطبقاني: هل انتهى الاستشراق حقا؟، مجلة الشريعة والدراسات الإسلامية، الكويت، العدد ٤٣، ص٢٨١ وما بعدها.

الهنديـة. واسـتطاعا التـأثير في رئـيس المـؤتمر وهـو الأسـتاذ فيلـوزا Filliozat المتخـصص في الدراسـات الهنديـة، وهـو عـالِم مهـذب الأخـلاق لكنـه ضـعيف الشخصية، فاستطاع ذانك الخبيثان: لويس وبشم استدراجه إلى مؤامراتهما الدنيئة. وهكذا قرر الثلاثة ومعهم باقي أعضاء «الاتحاد الأكاديمي الدولي» وهو المشرف على عقد مؤتمرات المستشرقين – حلّ مؤتمر المستشرقين وتجزئته إلى عدة مؤتمرات خاصة، أطلق على المتعلق منها بالدراسات الإسلامية والعربية اسم «مؤتمر العلوم الإنسانية للشرق الأدنى وشمالي إفريقية» وهو عنوان سخيف طويل ثقيل يدعو إلى الخلط والغموض في هدفه وموضوعاته. ولهذا ولعدم فهم المؤسسات التي دعيت فيما بعد لإيفاد مندوبين عنها – بعثت هذه المؤسسات بمن لا شأن لهم أبدا بالدراسات العربية والإسلامية بالمعنى الذي كان مفهوما من مؤتمرات المستشرقين، فكانت مهزلة ما بعدها مهزلة لما أن عقد المؤتمر في المكسيك ثم في اليابان. وبهذا لم يبق أي أثر لمؤتمر المستشرقين المعروف منذ أكثر من مائة سنة. وعلى هذا النحو تحقق الهدف الأصلي الذي كان يستهدفه أولئك الصهاينة الخبثاء: برنارد لويس، وبشم، ومن وراءهما من المؤسسات الصهيونية العالمية!!»[١].

وهذه الإضافة من بدوي –الذي كان حاضرا للمؤتمر، ولم يكن ساعتها متدينا أصلا– تقول بأن إنهاء مؤتمر المستشرقين هو في حقيقة الأمر خطوة «استشراقية» بعدما بدا أن المؤتمر ينحرف عن أهداف الاستشراق الأصيلة، وأن حركة نضوجه تسير باتجاه إبراز أمجاد الحضارة الإسلامية ووجهها الزاهر. ومن ثَمَّ استطاعت حركة الاستشراق –في وجهها السياسي– السيطرة والتحكم في الوجه العلمي للاستشراق ومنعه من النمو بما يخالف الأغراض.

---

(١) د. عبد الرحمن بدوي: سيرة حياتي ٢/ ٢٥٥.. وقد تاب عبد الرحمن بدوي وعاد إلى الإسلام في آخر حياته رحمه الله.

لكن يبقى السؤال: هل انتهى الاستشراق؟

الواقع أن هذا لم يحدث بأي وجه من الوجوه، فما زالت ثوابت الاستشراق وهياكله كلها قائمة، بل تزيد وتتطور، فالمؤسسات والمعاهد والأقسام ما تزال تدرس وتبحث أحوال الشرق، والباحثون في الشرق لا يفتأون يكتبون ويختلفون إلى الشرق أو يقيمون فيه، وما تزال الأموال تنفق على هذه البحوث، وما يزال صانع القرار يعتمد على الخبراء والمراكز البحثية المتخصصة في الشرق.

بل والأكثر من هذا أن التعصب الغربي ضد الإسلام ما زال موجودًا، كذلك «ما زالت الكتب تكتب وما زالت المؤتمرات تعقد حول »الشرق« باعتباره الموضوع الرئيسي، وهي التي تقيم حججها على ما قاله المستشرقون القدماء أو المحدثون باعتبارهم موضع الثقة»(١).

وغاية ما يُقال في انتهاء الاستشراق هو انتهاء صورته القديمة، وتجاوز بعض الآراء القديمة التي لم تعد صالحة، وكلا الأمرين صادران عن تطور واحد: هو ثورة المعلومات والاتصالات، وهو أمر ليس جديدًا كليًّا، فقبل نحو نصف قرن كتب د. مصطفى السباعي أنه في حوار له مع المستشرق نيبرج -وكان ذلك في السويد- ذكر له طرفًا من أخطاء المستشرقين، وبالتحديد جولدزيهر، فقال له نيبرج: «إن جولدزيهر كان في القرن الماضي (التاسع عشر) ذا شهرة علمية ومرجعًا للمستشرقين.

أما في هذا العصر -بعد انتشار الكتب المطبوعة في بلادكم عن العلوم الإسلامية- فلم يعد جولدزيهر مرجعًا كما كان في القرن الماضي.. لقد مضى عهد جولدزيهر في رأينا».

---

(١) إدوارد سعيد: الاستشراق ص٤٥.

وهـذا القـول حملـه الـشيخ الـسباعي علـى أنـه خـاص بالـدول الغربيـة غيـر الاستعمارية كالدول الاسكندنافية(١).

ومثله قال د. مازن مطبقاني قبل سنوات معدودة: «وقد تحقق لي بعض النجاح في هذه الزيارة كما أنني التقيت عددًا منهم في رحلات علمية أخرى وفي بعض الندوات والمؤتمرات التي تيسر لي حضورها في السنتين الماضيتين، وهم ليسوا سواء فالتعصب الشديد مازال يسيطر على البعض بينما تخلص بعضهم الآخر من موروثات الاستعمار والحقد والتعصب»(٢).

الاختلاف أن الاستشراق لم يعد يستطيع أن يقوم بدور تشويه الإسلام بين عموم الجماهير بخرافات مثل: صنم محمد المُحلَّى بالجواهر، أو المعلَّق في السماء، أو الذي يبيح الزنا واللواط، أو الذي كان كاردينالًا مسيحيًّا ثم هرب بعد خلاف مع الكنيسة ليؤسس مذهبًا جديدًا يضرب به المسيحية... إلى آخر هذه الخرافات التي عاش عليها الاستشراق أمدًا طويلًا في العصور الوسطى الأوروبية، والتي ما كان لها أن تنتشر لولا الجهل المخيم بين الغربيين وصعوبة الوصول إلى معلومات من مصادر أخرى غير المستشرقين آنذاك.

أما الآن فبعد استقرار الاستشراق علميا وموضوعيا لم يعد يصلح في مخاطبة الجمهور، لأن الجمهور تحركه الخطابات البسيطة الشعبوية، بينما لا تسمح قواعد البحث العلمي التي صارت من التقاليد المرعية أن ينزلق الخطاب الأكاديمي إلى الأكاذيب الفجة.

أما في جانب دراسة الشرق بغرض الهيمنة عليه واستمرار التحكم فيه وتقديم خلاصات الرأي للسلطة، فهو جانب يزدهر وينمو ويزداد تفرعًا وتخصصًا، بل إن

---

(١) د. مصطفى السباعي: الاستشراق والمستشرقون ص٧٢ وما بعدها.

(٢) د. مازن مطبقاني: من قضايا الدراسات العربية الإسلامية في الغرب، ص٢٣.

فارق القوة بين الشرق والغرب تجعل كثيرًا من تقارير مراكز البحوث الاستشراقية تُعلن وتُقرأ في الشرق في ذات اللحظة التي تُقرأ فيها في الغرب، ولا تستخفي توجهاتها.

بل صار طبيعيًّا أن يصدر -مثلًا- تقرير من مؤسسة راند يتحدث عن «بناء شبكات إسلام معتدل» أو «كيف تنتهي الجماعات الإرهابية»، وأن تكون خريطة التقسيم الجديدة للعالم العربي التي أرساها برنارد لويس منتشرة في العالم العربي، وأن يضع جيل كيبل خريطة الحركات الإسلامية بعد تطواف في العالم العربي، وأن يتحدث أوليفيه روا بصراحة ووضوح عن إرادة السيطرة والتحكم في العالم الإسلامي.. والأمثلة كثيرة ومشهورة ومتجددة في كل يوم!

الحقيقة أن الذي يبحث في الواقع الإسلامي لن يجد في المصادر المكتوبة بالعربية ما يجده في المصادر الأجنبية شمولا ودقة(١).

ويكفي أن تعلم أن موقع «كتاب الحقائق The Fact book» وهو صفحة من موقع المخابرات الأمريكية، يعطي تصورًا دقيقًا عن حال كل البلدان: السياسية والاقتصادية والاجتماعية والدينية واللغوية، وهو مبذول للجميع.

كذلك فإن هيئة كبرى مثل صندوق النقد الدولي لها إحاطة بالدقائق الاقتصادية للبلدان، حتى إن «توصياتها» بالإصلاح الاقتصادي لبلد ما تصدر في مجلدات، وتعتمد على تفصيلات دقيقة للموارد والإنفاق والهيكلة الاقتصادية للبلد.

فإذا كان الـمُعلن المعروف المبذول للناس يحتوي هذا القدر، فكيف بالتقارير والتوصيات السرية التي تبقى في الأروقة والدهاليز؟!!

---

(١) حدثني أحد المقربين من الرئيس محمد مرسي -حفظه الله وفك أسره- عن أنهم لم يجدوا في مصر خريطة لانتشار المعادن في ظل محاولة وضع خريطة اقتصادية لمصر، بينما استطاعوا بعد ذلك شراء هذه المعلومات من مؤسسات أمريكية تتاجر بالمعلومات!

أما في جانب رسم صورة جماهيرية للإسلام والشرق، فقد ذهب دور الاستشراق وأتى دور الإعلام، أو بالأحرى: تراجع دور الاستشراق ليقوم بدور الإلهام والمرجعية في خلفية المشهد، بينما يقوم الإعلام (صحافة، تلفاز، انترنت...) والفنون (أفلام، مسلسلات، روايات، أغاني...) بدور الاستشراق القديم: ترويج الأكاذيب الفجّة عن الإسلام والمسلمين، وقد أتيح لها في عصرنا زخارف وأساليب تأثير وترويج مبتكرة وغير مسبوقة[1]، وهذا هو الموضوع الذي أفرد له إدوارد سعيد كتابه «تغطية الإسلام».

إن ما شهده المجال الفني من تطور جعل مؤرخ الفن المعروف أرنولد هاوزر يطلق على التاريخ الاجتماعي للفن في القرن العشرين لقب «عصر الفيلم»، بل حمل لينين على القول بأن «السينما هي أهم الفنون بالنسبة لنا»، ويتذكر الجميع كيف نظر الرئيس الأميركي بيل كلينتون إلى الممثل الأميركي الشهير شين كونري -وهو الذي قام بتمثيل شخصية جيمس بوند- قائلًا له: «لولاك ما كسبنا الحرب الباردة»[2].

إنه تأثير ليس بوسع باحث جاد أن يتجاهله وهو يرصد حركة المجتمعات، ومن أهم ما يمكن ضربه من أمثلة هنا هو الفصل الذي أفرده جوزيف براودي ضمن كتابه «العراق الجديد»، والذي يحلل فيه تطور المجتمع العراقي بعد الحرب الأمريكية (٢٠٠٣م)، وأسماه «إعادة تصوير المشهد البابلي: السينما العراقية ونشاطات الترفيه والتسلية»، وكيف يتحول المجتمع بتأثير الفن الذي كان مصريًا خالصًا بادئ الأمر، حتى انتهى إلى المجهودات الأميركية في استخدام الإعلام لتسويق نفسها للعراقيين[3].

---

(١) انظر: د. مازن مطبقاني: بحوث في الاستشراق الأمريكي المعاصر ص٦١ وما بعدها.

(٢) يحيى عزمي: التطور التكنولوجي لفن السينما عبر مائة عام، ضمن «حصاد القرن»، تحرير: محمد شاهين، وإشراف: فهمي جدعان، ص٣٢٠.

(٣) جوزيف براودي: العراق الجديد ص٢٤٧ - ٢٦٥.

ولقد توقع الصحفي البريطاني المعروف روبرت فيسك «أن تصبح السينما الوسيلة الوحيدة التي يمكن أن نستعين بها في التأثير على العالم»[١].

ولقد نشر الباحث الأمريكي من أصل لبناني جاك شاهين كتابه: «العرب الأشرار في السينما: كيف تشوه هوليود شعبًا»[٢] في عام ٢٠٠١م، ومن قبله في مجلة الأكاديمية الأميركية للسياسة والعلوم الاجتماعية، وهذه الدراسة ترتكز على أكثر من تسعمائة فيلم منذ عام ١٨٩٦م، فكانت النتيجة صورة في الغاية من التشوه والسوء.

وقد كشفت مذكرة صادرة عن النقيب روكسي ت. ميريت -مدير العمليات الصحافية في البنتاجون- عن أسلوب خطير اعتمد مؤخرًا، فقد قالت المذكرة: «بات للمحللين الإعلاميين تأثير أكبر فأكبر في تغطية الشبكات الإعلامية التليفزيونية للمسائل العسكرية، وباتوا الآن الأشخاص الذين يُقصدون ليس فحسب من أجل المواضيع الطارئة، بل لأنهم يؤثرون أيضًا في وجهات النظر حيال المسائل، ولديهم أيضًا تأثير كبير في المواضيع ذات العلاقة بالجيش التي تقرر الشبكة تغطيتها استباقيًا... وأنا أوصي بإنشاء مجموعة أساسية من ضمن لائحتنا من المحللين الإعلاميين ممن يسعنا الاعتماد عليهم لنقل أفكارنا... فنزودهم معلومات أساسية وقيمة ليصبحوا الأشخاص الأساسيين الذين يجب على الشبكات أن تقصدهم وتشرع بنفسها في اجتثاث المحللين الأقل ركونا إليهم والأقل ودا»[٣].

«إن الاستشراق الإعلامي أكثر خطورة على جمهور القراء من الاستشراق الأكاديمي الذي لا يقرؤه إلَّا المتخصصون، وإن كانت الخطورة في المادة الأكاديمية أشد لوصولها إلى أعلى مراكز القرار السياسي في الولايات المتحدة وفي أوروبا.

---

(١) روبرت فيسك: زمن المحارب ص١٧١.

(٢) Reel Bad Arabs: How Holly wood vilifies a people

(٣) مايكل أوترمان وآخران: محو العراق ص١٤٨.

ولكن ما حدث أن بعض المستشرقين أصبحوا من الكتاب الصحافيين ومن الذين يلجأ إليه الإعلام للحديث عن القضايا الإسلامية»[١].

وإذن، فالقائل بانتهاء الاستشراق أو موته أو «ما بعده» إنما يصدق قوله على الجانب الجماهيري المباشر، بينما بقاء الاستشراق كمحدد لوجهة النظر الغربية تجاه الإسلام، وكمؤسس لخطط الهيمنة والسيطرة السياسية، فهو قائم ويزدهر، بل لعله يعيش الآن أزهى عصوره قاطبة!



(١) د. مازن مطبقاني: بحوث في الاستشراق الأمريكي المعاصر ص٦٤، ٦٥.

الفصل الثاني

حصاد الاستشراق

قالوا: «من يستطيع أن يجمع البحر في قدح، والريح في زجاجة، والكون في عباءة؟!»، فما أشبه الكلام عن حصاد الاستشراق بهذا! ذلك أن غزارة الإنتاج الاستشراقي تحول حتى الآن دون إعداد قائمة ببيلوجرافية كاملة له، والمحاولات التي جرت في هذا الشأن لم تكتمل منها واحدة فيما أعلم[1]، فنحن نتكلم عن تراث يمتد عبر تسعة قرون، منذ مطلع القرن الثاني عشر حتى القرن الحادي والعشرين، ومكتوب في لغات عديدة، ويتناول مجالات شتى.

وعلى قدر الإحاطة بهذه التجربة والغوص فيها بقدر ما يمكن تلمس حصادها، ولكن يشفع لنا في هذا المقام أنه مقام إشارة من بعيد، إشارة في ثنايا التأسيس لتجربة الاستغراب لا غير.. فمن هنا نستعرض حصاد الاستشراق عبر هذه المباحث الثلاثة:

- **المبحث الأول: إنجازات الاستشراق**
- **المبحث الثاني: إخفاقات الاستشراق**

---

(١) كان للدكتور عبد العظيم الديب رحمه الله مشروع كبير لحصر مؤلفات المستشرقين وبيان اتجاهاتهم في التأليف، لكنه توفي قبل أن يتمه، وقد أخبرني تلميذه المقرب ونائبه في عمله الشيخ علي الحمادي أن المشروع متوقف ويحتاج دعما لإكمال المسيرة فيه.

كذلك فقد كانت للدكتور فؤاد سزكين محاولة مماثلة في معهد تاريخ العلوم العربية والإسلامية في فرانكفورت لكنها مقتصرة على الدراسات الاستشراقية الصادرة باللغة الألمانية، ومقتصرة على إعداد قائمة ببيلوجرافية دون دراسة الاتجاهات. انظر: د. علي بن إبراهيم الحمد النملة: الاستشراق والدراسات الإسلامية ص٢٦.

■ المبحث الثالث: كيف نستفيد من تجربة الاستشراق

المبحث الأول

إنجازات الاستشراق

الحديث عن الإنجازات هنا لا علاقة له بحسن النوايا أو سوئها ولا بالأغراض التي استهدفت من ورائها، بل هو متعلق بما تحقق من منافع ومصالح بأثر من حركة الاستشراق، وإن اختلفت الدوافع والمطامح.

١ - حفظ التراث الإسلامي

وذلك حين جمعوا المخطوطات الإسلامية من مظانها في البلاد الإسلامية، ونقلوها إلى بلادهم، وسواء كان هذا الجمع بطريق مشروع -كالشراء أو الإذن- أو بطريق غير مشروعة كالسرقة والغصب بقوة الاحتلال أو بالتحايل، فإنهم قد فعلوا ذلك في وقت لم تكن فيه البلاد الإسلامية مؤهلة لحفظ تراثها.

ونحن نقول هذا مع الشعور بالمرارة الشديدة، وكم رويت في هذا من قصص مفجعة لتراث كاد أن يحرق أو يتلف أو يضيع لجهل من وصلت إليه هذه الكنوز بأهمية وقيمة ما فيها، فإن بعض هذه المخطوطات كان يُباع فيها الحلوى، وبعضها كان صاحبه على استعداد لحرقه إن قيل له بضلال ما فيه وإن لم يكن أهلا للتحقق من هذا الضلال من عدمه، وغير ذلك كثير.

فجمعوا هم ما استطاعوا الوصول إليه ونقلوه إلى مكتباتهم، وصارت المكتبات الغربية تزخر بملايين المخطوطات الإسلامية.

فحُفِظت بهذا من العبث واللعب والضياع والاحتراق، وظلت شاهدة على

حضارتنا ينهل منها الباحثون في كل وقت.

ولا يظنن أحد أن هذا إنما كان قديما فحسب، لا بل إن السلطات في عالمنا العربي لا تزال من الغفلة -أو التواطؤ- بمكان، فكثيرًا ما عثر باحثون على مخطوطات دفينة وحاولوا أن يوصلوا الأمر إلى السلطة كي تقوم بواجب حمايتها فكان الجواب مثيرًا للأسى.

وكان أفضل شيء لحماية المخطوطات هو تسليمها للسفارة الأجنبية التي تتنافس هي وأخواتها على الحصول عليها بأفضل ثمن، ثم رعايتها حق الرعاية[١].

٢- خدمة التراث الإسلامي

ثم إنهم قاموا على خدمة هذا التراث الذي جمعوه تصنيفًا وتحقيقًا وفهرسة ونشرًا، وأنجزوا العديد من دوائر المعارف الإسلامية ومن المعاجم اللغوية، وكان لديهم من الإمكانات ما لم يكن متوفرًا -ولا حتى يُنتظر توفره في وقت قريب-

(١) والمؤسف أن هذا الأمر مستمر حتى الآن، ومنه -مثلا- ما نشرته صحيفة «المصرى اليوم» بتاريخ ١٢/ ١٢/ ٢٠٠٥، قصة الباحثة حنان السيد التى عثرت على ١٣٠ مخطوطة قديمة يرجع بعضها إلى عام ٦١٨ هـ، وبعد مجهود استغرق منها ثلاث سنوات فى ترتيب وتنظيف هذه المخطوطات التى كانت تأكلها الحشرات وأنفقت أموالها، حاولت تسجيل المخطوطات في سجل المكتبة الأزهرية التابعة لها حتى لا تُسرق، لكن رُفِض طلبها بل ومُنِعت من دخول المكتبة وفشلت جهودها مع المسؤولين في الأزهر للحفاظ على المخطوطات ثم لم تجد إلا أن تستغل فرصة وجود مؤتمر علمى عن المخطوطات فى مكتبة الاسكندرية ، فأعلنت عما اكتشفته من المخطوطات دون أن تصرح بمكانها، وهنا انهالت عليها العروض بالمال والوظيفة وشهادات التقدير فى مقابل تسهيل الحصول على هذه المخطوطات، وكانت الجهات الأجنبية هي الأكثر كرمًا فقد عرضت عليها مبالغ فلكية مع كل ما تشاء من تسهيلات، لكن الباحثة رفضت كل هذه العروض واستغاثت بشيخ الأزهر ووزير الأوقاف، لكن لم يصلها أى رد بحسب الصحيفة.

للباحثين في العالم العربي والإسلامي.

يقول د. عبد العظيم الديب، وهو من أشرس أعداء الاستشراق[١]، وممن يرى أنه لا يصلح للكتابة في أمور الإسلام مستشرق: بأن إنتاج المستشرقين بلغ ستين ألف بحث وأنه طوفان يعسر حصاره، وكان ذلك قبل ربع قرن من الآن[٢].

وكان في مقدمة هذا ترجماتهم للقرآن الكريم إلى عدد من اللغات الأوروبية قبل وقت طويل من بدء التفكير في هذا الموضوع في العالم الإسلامي، وعلى رغم ما حفلت به هذه الترجمات من أخطاء إلا أنها كانت في وقتها خيرا من العدم.

إن ظهور معجم مثل «المعجم المفهرس لألفاظ الحديث النبوي» كان خدمة لهذا التراث في وقت لم يكن يستطيع أحد أن يصنع مثله في عالمنا الإسلامي، ولئن قيل: إنما صنعوه لأنفسهم ولم يصنعوه لنا، قلنا: وقد وصل إلينا وانتفعنا به، ولو لم يصنعوه ما وصل! وحديثنا الآن -كما نكرر- عن إنجازهم لا عن دوافعهم، وهذا المعجم إنجاز كبير بغير شك.

وقد أثمرت هذه البحوث والدراسات كثيرا من الهداية لكثير من عظماء الغرب، فنحن مثلا حين نقرأ محاضرة «البطل محمد» لتوماس كارلايل ونجد فيها هذه العاطفة المشبوبة والحب الصادق لنبينا محمد ﷺ، وهي المحاضرة التي تمثل نقطة يؤرخ بها في مسيرة النظرة الغربية للإسلام[٣] - حين نقرأ هذه المحاضرة ينبغي أن

---

(١) لقد بلغ من نفور د. عبد العظيم الديب من الاستشراق حد أنه فضَّل أن يفنى التراث على أن يقع بين يدي المستشرقين وإن حفظوه، قال: «ومن أعجب العجب، أن تجد أمة -مثل أمتنا- تشكر وتمجد، وتعظم أمر سارقي وثائقها، لمجرد أنهم احتفظوا بها، أو قدموا إليها صورة منها، وعهدي بالدول الواعية، أنها تفضل حرق وثائقها من أن تقع في يد أعدائها». د. عبد العظيم الديب: المنهج في كتابات الغربيين ص١٢٧.

(٢) د. عبد العظيم الديب: المنهج في كتابات الغربيين ص٣٤.

(٣) مونتجمري وات: محمد في مكة (المقدمة).

نتذكر فورًا أنه ما كان لها أن توجد إلا بفضل ما نشر من تراث المستشرقين باللغة الإنجليزية، وهي عملية مستمرة حتى هذه اللحظة التي نقرأ فيها كتابا مثل «سيرة النبي محمد» أو «محمد نبي لزماننا» لكارين أرمسترونج، والتي لا تعتمد على غير المصادر الاستشراقية، ولكنها دفقة عواطف حارة ووقفة احترام جليلة للنبي وإنجازه وفضله على الإنسانية، وإن لم يخل هذا من أخطاء هنا وهناك.

ونحن لا نذهب مذهب بعض علمائنا الأجلاء الذين يهونون من شأن خدمة المستشرقين لهذا التراث، اعتمادًا على جهلنا بكم تراثنا وكم ما بقي منه وكم ما بقي منه لدى المستشرقين ثم كم ما أنجزوه من خدمة لما بقي في أيديهم ثم ما نصيب هذا الإنجاز من الكفاءة[١]، وذلك أنه يكفينا في هذا المقام أن القوم قاموا بما لو لم يكونوا قد قاموا به فلم يكن آخرون ليفعلوا ذلك، وذلك إنجاز كبير في حد ذاته.

إن مستشرقًا واحدًا مثل فرديناند فستنفلد (ت١٨٩٩م) قد نشر نحو مائتي مصنف من التراث الإسلامي منها: طبقات الحفاظ، ووفيات الأعيان، وتهذيب الأسماء واللغات، ومعجم البلدان، ومعجم ما استعجم، واشتقاق ابن دريد، وسيرة ابن هشام، ومات عن ثلاث وتسعين سنة بعد أن كُفَّ بصره في آخرها، ويقال أنه كان يعمل أربع عشرة ساعة يوميًا لأكثر من ستين سنة[٢]، ووصفه عبد الرحمن بدوي بأنه «لا نظير له في الخصوبة (في التأليف) غير جوستاف فلوجل»[٣].

٣- إنتاج لا يمكن تجاوزه

لا يمكن إنكار أن كثيرًا من الإنتاج الاستشراقي بلغ من القوة والجدة في البحث ما يجعل تجاوزه ضربًا من المستحيل، ونحن إذا ابتعدنا عن إنتاجهم في اللغويات

---

(١) د. عبد العظيم الديب: المستشرقون والتراث ص٧، ٨.

(٢) نجيب العقيقي: المستشرقون ٢/ ٧١٣.

(٣) عبد الرحمن بدوي: موسوعة المستشرقين ص٣٩٩.

والأدب والفقه والتفسير وما هو شديد التعلق بالثقافة ويحتاج ملكة خاصة، نجد أنفسنا إزاء دراسات نفيسة في بابها، بل نجد أبواب علم جديدة قد فتحوها لم يسبقهم إليها أحد.

يقول د. حسين مؤنس: «كلامنا عن العلوم عند العرب كثير، وحديثنا عن فضلهم على الحضارة العالمية أكثر، ولكننا إذا استثنينا قلائل منا صرفوا العناية إلى التأليف في العلوم عند العرب وخدموا هذا المطلب بالبحث والتأليف من أمثال: أحمد عيسى، ومصطفى نظيف، ومصطفى الشهابي، ونفيس أحمد، وزكي وليدي، وبهجة الأثري، وقدري حافظ طوقان وغيرهم من أجلاء العلماء[١]، وجدنا أن معظم ما نفخر به في هذا المجال إنما هو من كشوف غيرنا، من أمثال: جورج روشكا، وهانز فون مجيك، وجورج سارتون، وكارلو نللينو، وبول كراوس، وألدو ميلي، وهاينريش سوتر، وماكس مايرهوف، وكونراد ميللر، وخوان بيرنيت، وغيرهم كثيرين جدًّا، ممن أنفقوا - وينفقون - العُمر في دراسة المخطوطات العربية في العلوم وحل رموزها وإثبات فضل العرب وأهل الإسلام على هذا العلم أو ذاك بالحجة والبرهان الساطع»[٢].

وإذا نسجنا على منواله أضفنا إليه: ونحن نفخر بأن دِيننا لم يُكره أحدًا على اعتناقه، وأنه لم ينتشر في العالمين بحد السيف.

ولكننا لا نستطيع أن نجد في مصدر إسلامي دلائل كالتي نجدها في كتاب «الدعوة إلى الإسلام» للمستشرق الإنجليزي الشهير توماس أرنولد، الذي تتبع انتشار الإسلام حول العالم فذهب وراءه حتى أدغال إفريقيا وجزر المالايو وسفوح

---

(١) مع ملاحظة أن هذه الأسماء إنما كانت متأخرة زمنيا عن أسماء المستشرقين القادمين بعدهم، أي أن بداية البحث والتنقيب في هذا الباب وخدمة هذا العلم إنما كانت من قبل المستشرقين.

(٢) د. حسين مؤنس: تاريخ الجغرافيا والجغرافيين في الأندلس (المقدمة).

التبت، وهو في هذا الكتاب معتمد بدوره على دراسات استشراقية أخرى كشفت ما لا طاقة لنا حتى اليوم ببعض ما كشفت لخلو أيدينا من القدرة المالية ودعم المؤسسات البحثية.

ونحن وإن كنا نستنكر تمامًا أن يلتزم الباحث بالاطلاع على آراء المستشرقين في موضوع توفرت مصادره الإسلامية أو لم يلزم موضوع البحث به، فنحن في ذات الوقت نعترف بأن إنتاجهم في بعض هذه الأبواب يستحيل تجاوزه، فلا يستطيع أحد أن يكتب في تاريخ صقلية الإسلامية متجاهلا مجهود ميشيل أماري في هذا الباب، ولا يكتب في تاريخ بخارى بغير المرور على مجهود أرمانيوس فامبري، ولا في تاريخ الترك في آسيا متجاوزا بحوث بارتولد.

كما أن التأريخ للأندلس والحروب الصليبية لا يمكنه تجاوز المصادر الاستشراقية التي حفلت بتسجيل الرواية النصرانية للأحداث والتي لا يكتمل التأريخ ولا فهم الحادثة بدونها.

ومن حقائق الواقع التي ينبغي الاعتراف بها أن المستشرقين لم يبلغوا أن يكونوا أساتذة لمحض الهوى وحب التقليد والهزيمة النفسية، بل لما في جهودهم البحثية من مجهود يثير الإعجاب ويستحق التقدير، فموسوعة «وصف مصر» التي وضعها علماء الحملة الفرنسية ليس لها مثيل، وكتاب مثل «تاريخ الأدب الجغرافي» للمستشرق الروسي كراتشوفسكي هو أحد النوادر العلمية النفيسة في بابه لا نعرف أحدا سبقه إليه أو لحق به فيه، والمجلدات الثلاثة التي كتبها ستانلي بول عن «النقود الإسلامية» كذلك، و«علم التاريخ عند المسلمين» لروزنثال كذلك، وتاريخ الشعوب و«تاريخ الشعوب الإسلامية» و«تاريخ الأدب العربي» وكليهما لكارل بروكلمان كذلك، وموسوعة الأنساب والأسر والحاكمة للمستشرق النمساوي زمباور كذلك.

وقد افتتح بعض المستشرقين فتوحا في بعض العلوم مثل كي ليسترنغ في الخطط

والجغرافيا بكتابيه الشهيرين «بغداد في عصر الخلافة العباسية» و«بلدان الخلافة الشرقية»، وافتتحوا علوما جديدة مثل التأريخ للبحار والأنهار كما فعل إميل لودفيج في كتابه «نهر النيل» والذي قضى في تأليفه عشر سنوات، وكتابه «البحر المتوسط» وقضى في تأليفه ثلاث سنوات.



المبحث الثاني

إخفاقات الاستشراق

ويقال في الإخفاقات مثل ما قد قيل في الإنجازات، فقد يخفق المستشرق وهو حسن النية كما تشهد بذلك باقي كتاباته ومواقفه، وقد يسيء من حيث أراد أن يحسن.

وإخفاقات الاستشراق -كما نراها- تنقسم إلى ثلاثة جوانب: إخفاق في المنطلق، وإخفاق في القدرة، وإخفاق في الغاية.

١ - إخفاق في المنطلق

«لقد مال المفكرون والمؤرخون الأوروبيون، منذ عهود اليونان والرومان، إلى أن يتبصروا بتاريخ العالم من وجهة نظر التاريخ الأوروبي والتجارب الثقافية الغربية وحدها. أما المدنيات غير الغربية فلا يعرض لها إلا من حيث إن لوجودها أو لحركات خاصة فيها، تأثيرًا مباشرًا في مصائر الإنسان الغربي»[١].

أو ربما لم يجدها تستحق الاهتمام أصلا كما فعل رونالد سترومبرج وهو يؤرخ للفكر الغربي فيقول: «علما بأن تلك الكنوز (فلسفة اليونان) قد تضاءلت كمًّا بعض الشيء نتيجة لغزوات البرابرة التي فصلت عالم البحر المتوسط عن أوروبا، ابتداء من القرن السادس حتى القرن الحادي عشر»[٢].

---

(١) محمد أسد (ليوبولد فايس): الطريق إلى الإسلام ص١٥.

(٢) رونالد سترومبرج: تاريخ الفكر الأوروبي الحديث ص١٨.

إن سترومبروج يرى في الحضارات الأخرى حضارات «فاترة الهمة بطيئة الخطى مكبلة بأغلال التقاليد والعادات، بينما حضارتنا (الغربية) بالغة القدرة على التبدل والتفكير»(١).

فمن كان هذا منطلقه كان أحرى به أن يخفق في فهم الآخرين، وأن يرسم عنهُم صورة تحقق ما يستقر في ضميره لا ما هو مستقر في الواقع.

لقد سجل د. مصطفى السباعي خلاصة لقاءاته مع المستشرقين في قوله: «لقد كنت كتبت عن المستشرقين كلمة موجزة في كتابي «السنّة ومكانتها في التشريع الإسلامي» قبل أن أزور أكثر جامعات أوروبا عام ١٩٥٦م وأختلط بهم وأتحدث إليهم وأناقشهم. فلمّا تم لي ذلك ازددت إيمانًا بما كتبته عنهم واقتناعا بخطرهم على تراثنا الإسلامي كله، سواء كان تشريعيًا أم حضاريًا، لما يملأ نفوسهم من تعصب ضد الإسلام والعرب والمسلمين»(٢).

ولو نجا المستشرق من التعصب الديني، وظل على قناعته بأن الغرب هو ممثل الحضارة دون غيره(٣)، فإن ذلك أحرى أن يوقعه في ذات الفخ، فخ الإسقاط الذي يريه ما في ضميره لا ما هو في الواقع، ومثال ذلك ما شاع في إنتاج المستشرقين من تفسيرات مادية أو تفسيرات قومية للتاريخ الإسلامي(٤)، وازورار أعينهم عن خصوصيات وظواهر تتنافى مع هذه التفسيرات، هذا إن لم يتكلفوا تأويلها لتؤدي إلى أغراضهم.

---

(١) رونالد سترومبرج: تاريخ الفكر الأوروبي الحديث ص١٩.

(٢) د. مصطفى السباعي: الاستشراق والمستشرقون ص٦٥.

(٣) قال أرنولد توينبي: «ظل التعصب المسيحي ضد المسلمين حيا في عقول كثير ممن نبذوا المسيحية نفسها».

(٤) د. فاروق عمر فوزي: الاستشراق والتاريخ الإسلامي ص٩ وما بعدها.

إن الذي ينطلق من أن الغرب هو خلاصة الحضارة، لا بد أن ينبش ما استطاع ليحاول إيجاد علاقة بين الشريعة الإسلامية وبين القانون الروماني كما فعل جولدزيهر وشاخت وجاتيسكي! وقد يتكلف من يؤمن بهذا أن يزيل كل الفوارق بين الإسلام والمسيحية ليقرب الإسلام من الغربيين كما فعل إميل درمنغم، وإن الذي لا يريد أن يصدق بأن محمدًا ﷺ يتلقى الوحي من ربه، يتكلف البحث عمن قد يكون قد أعطاه هذا القرآن ولو كان رجلًا عبر به للحظات في سفر وقت أن كان في الثانية عشرة من عمره، كما فعل جوستاف لوبون ومونتجمري وات!

وهكذا تفعل سائر المنطلقات إذا لم تكن حقائق راسخة!

٢- إخفاق في القدرة

ويتجلى هذا لدى تصديهم للكتابة فيما هو شديد الخصوصية كاللغة والأدب والتفسير والفقه، وهي أمور تحتاج إلى ملكة يعسر أن يحوزها أعجمي لم ينشأ في بيئة عربية يستقيم فيها ذوقه، إلا أننا نجد كثيرًا منهم اجترأوا على هذا فصدرت عنهم عجائب وغرائب، وهذا إذا أعملنا غاية الحسن ولم نفترض وجود الغرض.

وقد أفاض الشيخ محمود شاكر في بيان أمر اللغة والثقافة وكيف أنها من الخصوصيات التي لا تستقيم لمن يدخل فيها بعد الكبر، ويكرر د. عبد العظيم الديب استشهاده بقول المستشرق الروسي كراتشوفيسكي: «اللغة العربية »تزداد صعوبة كلما ازداد المرء دراسة لها»[1] كثيرًا، وهذا برغم أن كراتشوفيسكي من أساطين الاستشراق وجهابذته، وقد أطال نُقَّاد الاستشراق في ذكر الأمثلة على هذا بما تغني شهرته عن إيراده. إلا أن المثال الأبرز والأقوى هو إخفاقهم جميعًا في وضع ترجمة واحدة دقيقة للقرآن الكريم، وهو الكتاب الأول والأساس في الإسلام! فظل

---

(١) كراتشوفسكي: مع المخطوطات العربية ص٧.

المسلمون يستدركون على هذه الترجمات ويرصدون عيوبها مهما كان المستشرق الذي أصدرها معروفا بإنصافه ونزاهته.

كذلك ثمة جانب آخر مهم في مسألة الإخفاق في القدرة، وهو إخفاقهم في التحرر من شبكة المصالح التي تمول الاستشراق لتجني ثماره، يقول إدوارد سعيد: «من المحال تفهُّم الأفكار والثقافات والتاريخ، أو دراستها دراسة جادة، دون دراسة القوة المحركة لها، أو بتعبير أدق دون دراسة تضاريس القوة أو السلطة فيها، فمن المخادعة الاعتقاد بأن الخيال وحده قد فرض خلق صورة الشرق... فالعلاقة بين الغرب والشرق علاقة قوة وسيطرة ودرجات متفاوتة من الهيمنة المركبة... ولم يكن سبب اكتساب الشرق للصورة التي رسم بها يقتصر على أن من رسموه اكتشفوا أنه يمكن أن يصبح «شرقيا» بالصورة الشائعة لدى الأوروبيين العاديين في القرن التاسع عشر، ولكنه يتجاوزه إلى اكتشاف إمكان جعله كذلك، أي إخضاعه لتلك الصورة الجديدة للشرق»[1].

ولذلك فقد دفع بعضهم ثمن إنصافه مع الإسلام فعانى من الاضطهاد في العمل أو النفور من أقرانه المستشرقين أو تلقي الهجوم الشديد لكتاب منصف ألفه، مثل الألماني يوهان رايسكه[2] والإنجليزي توماس أرنولد[3] والفرنسي رجاء جارودي.

٣- إخفاق في الغاية

فمثلما أخفق الاستشراق في رسم صورة حقيقية للشرق، فقد أخفق كذلك في محاولة ترويضه وإدراك أسراره وتحقيق الهيمنة الكاملة عليه، ويبدو واضحًا أن المجهود الرهيب والإمكانيات الضخمة التي بذلت للاستشراق ثم للجيوش التي

---

(١) إدوارد سعيد: الاستشراق ص٤٩.

(٢) عبد الرحمن بدوي: موسوعة المستشرقين ص٣٠٠.

(٣) د. مصطفى السباعي: الاستشراق والمستشرقون ص٣٢.

تحركت لتنفيذ توصياته لم يحقق شيئا يناسب ما بُذِل، فما من جيش نزل أرض المسلمين صراحة إلا وهو هُزِم أو يعاني من جهاد شرس فلا يقر له قرار، وما من فرصة تتاح لاختبار اختيارات الشعوب وإرادتها إلا وتأتي بممثلي الفكر الذي قضى الاستشراق كل هذه القرون ليحاربه ويضع فكرا غيره في مكانه، وقد تقع المفاجآت التي تجعل تقارير الخبراء والمستشرقين لا تساوي الحبر الذي كتبت به!

إن القدر القليل الذي أتيح للمسلمين من قدرات البحث العلمي مكنهم من نسف الأساطير الاستشراقية، وإنزال قوم من كبارهم من المنازل العالية التي وُضِعوا فيها إلى منازلهم التي يستحقون، وكُشفت عمليات التزييف والتشويه ومناهجها وطرائقها، حتى صارت كلمة »الاستشراق« ملوثة كما قال برنارد لويس، وصار التتلمذ على المستشرقين نوعًا من التهمة يدفعه صاحبه عن نفسه، من بعد ما كان في قبل نصف قرن شيئًا مثيرا للفخر.

لقد فشل الاستشراق -كأداة للاحتلال والهيمنة- في سوق الشعوب نحو وحدة الثقافة التي حملها كرسالة يريد لها أن تسود، وما زالت المقاومة مستمرة، والجهاد ماضيا إلى يوم القيامة!

❁ ❁ ❁

المبحث الثالث

كيف نستفيد من تجربة الاستشراق

لقد كشفت تجربة الاستشراق عددًا من الحقائق ينبغي أن نتنبه لها، أهمها كما نراه:

١ - لم تعد نشأة العلوم ممكنة بمجهود الأفراد، بل لا بد من مجهود المجامع والمؤسسات، والتعاون وتبادل الخبرات.

٢- لئن لم تحظَ العلوم بدعم من أصحاب السُّلطة والحُكم فإنها لا تتطور، والحاكم الحصيف من يستعين بالعلم والعلماء في أموره ومصالح دولته.

٣- التهديد الوجودي يثير في الأمم عوامل الانبعاث والتحدي على نحو ما لاحظ أرنولد توينبي في نظريته الشهيرة عن »التحدي والاستجابة«.. وأمتنا مؤهلة للمرحلة القادمة بما تمور به من أحداث وبما توقن من وعد الله ورسوله أنها منتصرة وأنها لن تهلك لا بسنة عامة ولا بعدو يستأصل شأفتها.

٤ - التهديد الوجودي يثير في الأمم الخوف والفزع ويحملها على شيطنة عدوها وتصوره على أسوأ ما يكون، فإذا تم لها النصر أو زال الخطر عاد إليها التقييم الهادئ والنظرة المتزنة.. وأمتنا لا ينبغي لها أن تنزل هذا المنزل ليقينها بأنها لن تهلك، ولما يأمرها به دينها من العدل والإنصاف حتى مع العدو، ولما تملكه من عقيدة راسخة وكتاب منزل معصوم يصف لها طبيعة المعركة وطبيعة العدو وطريق التعامل معه، فمن ثَمَّ لا تحتاج إلى فزع يفضي إلى الشيطنة ورمي العدو بما ليس فيه، ولا تحتاج إلى خوف يرى في أي خطأ صدر عن أي مستشرق نوعًا من مؤامرة أو جزءًا من تدبير رهيب وغرض مقصود ووضع للسم في العسل. بل يوزن المرء بمجموع عمله بغير إفراط ولا تفريط، ويوضع خطؤه في قدره ومكانه بدون مبالغة أو تساهل.

٥- مرحلة النصر والتفوق تعطي ثقة بالنفس واطمئنانًا ورغبة حقيقة في الاطلاع الحقيقي على ما عند المخالف، ولذلك لم نرَ شيئًا إيجابيًا في تاريخ الاستشراق إلا

بعد أن تم لهم تركيعنا وإخضاعنا عسكريًا وسياسيًا، وأُمتنا ينبغي أن تكون في كل الأحوال -وإن تحت الهزيمة العسكرية والهيمنة السياسية- واثقة من نفسها ومطمئنة لما لديها، فتبصر -وهي في لحظة الهزيمة- ما عند عدوها من نقاط القوة -في العلوم والفكر- لتستفيد منه، فيعصمها الاطمئنان والثقة من الوقوع في أسر تقليد الغالب، ولا يصرفها النفور والمقاومة عن التعلم والاستفادة حتى من عدوها، فنحن من أمة علمها نبيها أن تتعلم ولو من الشيطان إن صدق، فيما العهد به أنه كذوب!

٦- الانطلاق من مسلمات لا تبلغ درجة الحقائق الراسخة يفضي إلى سوء فهم وتصور، ومِن ثَمَّ سُوء عمل وتصرف، وعليه فينبغي على الداخل في مجال الاستغراب أن يكون على بصيرة من تصوراته وأفكاره ومنطلقاته، وإن الانطلاق من الإسلام سيعصمنا من تصورات عنصرية وعرقية خاطئة، إذ لا تقديس إلا للفكرة والعقيدة، وهو مجال حاكم مطلق لا يتعلق بطبيعة بشرية أو تصنيف جغرافي أو عرقي، وأصول الإسلام محفوظة في القرآن والسنة، وثوابته محفوظة بالإجماع، وإذا ما رسخت هذه الضوابط كان ما بعدها من مساحات النظر والتفاعل في المسائل المستحدثة أرشد وأيسر.

٧- إن من أهم ما نستفيد من تجربة الاستشراق هو ضرورة الانعتاق والتخلص من شبح الحيادية الوهمي الذي سوقته الدعاية الغربية والذي لم يكن يتمتع بأي رصيد في الواقع العملي، وأبرز ما يشهد لهذا هو الإنتاج الاستشراقي نفسه.. فالحياد في الحقيقة غير واقعي وغير ممكن، الواقعي والممكن هو بذل المجهود في «فهم الآخر» كما هو الآخر، مع بقاء مسافة لازمة للحكم والتقييم.

٨- ثمة مناطق شديدة الخصوصية لدى الأمم كاللغة والثقافة، وهذه تحتاج إعدادا خاصا وعدة خاصة قبل الإقدام على دراستها.

٩- ضرورة التخلص من لوازم الاستشراق وآثاره الفكرية التي شاعت بأثر التفوق الغربي مثل:

▪ المفاهيم العلمية المغلوطة مثل «عصر الكشوف الجغرافية» الذي يعتبر اكتشاف إفريقيا والأمريكتين كأنما هو بداية الوجود، وهي نظرة ذاتية متطرفة، فإفريقيا والأمريكتان

وسكانهم موجودون من قبل هذه الحقبة ولا يؤثر في وجودهم كونهم «لم يُكتشفوا» من قبل الأوروبيين، «كما أن الأوروبيين بالنسبة للهنود الحمر وسكان إفريقيا لم يكونوا موجودين من قبل حلولهم سواحل أمريكا وإفريقيا، طبقًا للمنطق الأوروبي للاستكشافات الجغرافية»، ومثل هذا تسميات «الحرب العالمية الأولى والثانية» وهي حروب أوروبية.

▪ تقسيم التاريخ إلى عصور بعين أوروبية على نحو: العصور القديمة (اليونان والرومان) والعصور الوسطى (اليهودي والمسيحي والإسلامي) والعصور الحديثة، وهو ما يمكن أن تفعله كل حضارة إذا وضعت نفسها في المركز، وفي هذه التقسيمة إنكار لدور الحضارات القديمة وكأن تاريخها سابق على تاريخ البشرية.

▪ تقسيم المجتمعات بعين ونفسية غربية إلى: حضارية وبدائية، أو متقدمة ومتخلفة، أو صناعية وزراعية، أو عقلية وأسطورية، أو موضوعية وذاتية. وقد وجدت كل هذه التقسيمات صياغاتها المتطرفة في النظريات العنصرية وتقسيم الشعوب إلى آرية وسامية في العلوم الإنسانية خاصة الأنثروبولوجيا الاجتماعية وعلم الحضارات وفلسفة التاريخ[1].

إن انطلاقنا من الإسلام الذي لم يكن جغرافيًا ولا عرقًا ولا لغة يتيح للمسلمين نظرة إنسانية شاملة، وكوننا لا نرى الإسلام بدأ في لحظة متأخرة -بل هو دين الله الذي نزل به آدم إلى الأرض، وما سواه انحراف عنه- يعصمنا من نزوع نحو التميز الخاص أو النظر إلى باقي البشر وكأنهم من جنس آخر غير بني آدم، وكذلك فإن ديننا الذي يحملنا على دعوة الناس سيعصمنا من أسباب التكبر عليهم.

كما أن انطلاقنا من الواقع الذي يشهد ويحكم بأننا لسنا طليعة غزو للغرب، سيجعل الاستغراب أكثر تحررًا وموضوعية وانفتاحًا من قوم كانت مهمتهم في صلبها هي التعرف على هذه البلاد تمهيدًا لافتراسها، ثم إن ما لدينا من دين يأمر بالتعارف والدعوة إلى الله يجعل الأمر أحسن إنسانية وأقرب صدقا وصداقة من قوم هم طليعة غزو وحرب، فلا تقع عينهم إلا على نقاط الضعف ولا ينظرون إلى أولئك القوم إلا كنظرة الأعداء.

---

(١) د. حسن حنفي: مقدمة في علم الاستغراب ص٣٩ وما بعدها.

خلاصة الباب الثاني:

الاستشراق هو دراسة الشرق، أو هو بالأحرى دراسة الشرق بغرض مواجهته والهيمنة عليه، وقد ظهر الاستشراق في لحظة التهديد الوجودي الذي تعرض له الغرب، ثم نما وتطور كما ينمو الكائن الحي، وكان في مختلف أطوراه ابنًا بارًّا للأهداف والمطامع الغربية في الشرق، فاستطاع في فترة نضوجه أن يصنع صورة شائهة للشرق حشدها بوجوه التزييف والتشويه ليرسم صورة بشعة للعدو الذي يراد محاربته والسيطرة عليه، ولا يتوقع أن ينتهي الاستشراق قريبا كما يظن البعض، بل إن مهمته ما زالت مستمرة طالما كان ثمة صراع في بلادنا، إنما الذي قد يجوز أن يكون انتهى هو تصدر الاستشراق لرسم صورة شائهة مزيفة تخاطب عموم الجماهير، ذلك أن الاستشراق وقد التزم -وإن بلسانه- بالتقاليد العلمية لا يستطيع أن يردد خرافات الماضي في ظل الثورة الإعلامية وثورة الاتصالات، لذا فقد تراجع خطوة إلى الخلف ليتحول إلى مصدر للمعلومات يعيد إنتاجه -بلغة العصر وأسلوبه- أداة جديدة هي: الإعلام، فذلك هو الذي يخاطب الجماهير ويستطيع حشدهم في هذا العصر.

إلا أن تسعة قرون من الاستشراق قد جاءت بحصاد ضخم كبير لم يُحَط به بعد، فمن إنجازاته -بالنسبة إلينا- أنه حفظ التراث الحضاري الإسلامي في لحظة كان يتهدده فيها الضياع، وأنه عمل على خدمة هذا التراث تصنيفًا وتحقيقًا وفهرسة ونشرًا، كما أنه أخرج بحوثًا قيمة ونفيسة في أحوال الشرق منها ما لم يسبق إليه من قبل ومنها ما افتتح به مجالات علم وبحث جديدة.

ومن إخفاقاته أنه لم يتحرر من عقدة التفوق الغربي المسيطرة عليه فكان عمله في الشرق أقرب إلى تكوين صورة لا نقل صورة أو فهم صورة، وفي مرحلة تالية إلى صناعة هذه الصورة قسرًا وقهرًا، ومن ثم أخفق في معرفة حقيقة الشرق، ومن إخفاقاته كذلك أنه لم يمتلك الأدوات الكافية التي تؤهله لمعرفة الشرق لا سيما في

جانب اللغة والثقافة -وهو الجانب الأشد خصوصية والذي يحتاج لإعداد خاص- فترتب على هذين الإخفاقين إخفاق كبير في الغايات؛ حيث لم يبلغ الاستشراق بعدُ ما أمله منذ بدأ في مطلع القرن الثاني عشر.

هذه الإنجازات والإخفاقات التي تمثل تجربة الاستشراق يجب أن ينتبه لها ويعيها الداخل إلى علم الاستغراب!



الباب الثالث

الاستغراب.. من؟ ولماذا؟

لقد بدأت حركة دراسة الغرب والتعرف إليه عن قرب قبل أن تصل جيوشه إلى قلب العالم الإسلامي، فقد انتبهت الدولة العثمانية المترامية الأطراف -مع نزول الهزائم- إلى ضرورة التعرف على هذا السبب الذي قلب الموازين والذي بدَا أنه يفوق مجرد كونه انتصارًا عسكريًّا حصل بمجرد إحسان الخطة وترتيب الجيوش، غير أن هذه الإفاقة لم تكد تكتمل وتسفر عن إجراءات إلا وفوجئ الجميع بجيش نابليون وقد دخل إلى القاهرة ثم توغل في الشام، لكن القدر أتاح نصف قرن آخر كان بالإمكان أن يتغير فيه الكثير لو أثمرت جهود المصلحين، لكنها لم تثمر!

في هذا الباب نلقي الضوء على هذه الجهود المبكرة، والتي تمثل «طلائع الاستغراب»، وهي الجهود التي تستقيم على خط المسيرة الإسلامية منذ بدأت، فهي تستلهم روحها ومبادئها وتلتزم غاياتها وأغراضها، وذلك عبر هذين الفصلين:

- الفصل الأول: ما بعد الصدمة
- الفصل الثاني: أغراض الاستغراب

❁ ❁ ❁

الفصل الأول

ما بعد الصدمة

لقد كان الأمر أشبه بالسباق، فمنذ استفاقت أُمتنا على وضع تأخرها وتخلفها في أواخر القرن الثامن عشر، ظهرت بوادر امتصاص الصدمة وإعادة النظر والتدبر ومحاولة النهوض بسرعة من جديد.

إلا أن الغرب من جهة أخرى كان يسابقنا للظفر بالبلاد والعباد، وكانت خلافاته الداخلية تمنعه من التكتل والتوحد علينا، وكان الفارق في القوة لا يسمح حتى ذلك الوقت بقهرنا وسحقنا على الجملة.

لكننا خسرنا الجولة بسبب من هذه الثلاثية المزمنة: الاستبداد السياسي، والجمود العلمي، واللذين تضافرا ليمهدا الطريق للثالثة: الاحتلال الأجنبي! فتمت لهم هزيمتنا وذهبت ثمرات جهود الرواد والمصلحين واستكملنا المسيرة نحو التخلف والضعف، وما زلنا نعاني!

لم تفلح الدولة العثمانية في إصلاح نفسها ولا استثمار جهود المصلحين، بل عمل الاستبداد علي إفشال كل مجهود يصب في الإصلاح السياسي، وعمل الجمود العلمي على إفشال كل مجهود يصب في الإصلاح الإدراي، ومِن ثَمَّ اتخذت الإمبراطورية العظيمة طريقها إلى الهاوية.

وفي مصر كان محمد علي فاتحة الإصلاح الإداري لكنه لاستبداده كان خاتمته أيضا، فقد أسس لدولة مستبدة قضى فيها أولاده أنفسهم على إرث أبيهم فأفسدوا البلاد -واستكملوا سيرة أبيهم في إذلال العباد- حتى أسلموها للاحتلال الأجنبي.

وفي ذلك الوقت كانت الفجوة في القوة تتسارع لصالح الاحتلال، الذي لم يُفلت الفرصة بطبيعة الحال، فما إن استطاع حتى فعل، ونزلت جيوش الصليب أرض القاهرة لأول مرة في التاريخ، وظلت فيها نحو ثمانين سنة، ولم تخرج حتى كانت قد سلمت البلاد لصنائعها وممثليها، وسقط عَلَم الدولة العثمانية العُظمى من فوق أسوار القسطنطينية، بل سقطت الخلافة لأول مرة في التاريخ، ودخل المسلمون أشد عصورهم ظلامًا وسوادًا، وصار الغرب يحكم البلاد من قريب أو من بعيد، ونشأ في الإسلام من يحارب الإسلام، ويدعو لدين المحتل وقيمه ونظمه بالقلم والسيف بالترغيب والترهيب.

قُبِرت مشاريع الإصلاح في مهدها، ولم يعد علينا أن نفكر في تضييق الفجوة واللحاق بالركب، بل برفع هذا الحمل الثقيل عن صدورنا: حِمْل صنائع الاحتلال، ثم الاحتلال، ثم تضييق الفجوة واللحاق بالركب. ومن حسن الحظ أننا في زمن متسارع وعالم متقارب فكل مراحل هذه المعركة تجري في ذات الوقت واللحظة، وكل نصر جزئي يعود بالأثر على المعركة الكلية.

في هذا الفصل نلقي ضوءا على المجهود الذي بُذل في دراسة الغرب، والذي ما زال يعاني حتى هذه اللحظة بفعل الاستبداد والاحتلال، وذلك عبر هذه المباحث:

- المبحث الأول: حد الاستغراب
- المبحث الثاني: الرواد الأوائل
- المبحث الثالث: ما قبل النضوج

المبحث الأول

حدُّ الاستغراب

ثمة اتفاق بين من نادوا بعلم الاستغراب في بلادنا على أنه ضد التغريب، وأنه يجب أن يكون مبنيًا على رؤيتنا الذاتية ومن منظورنا الحضاري، وتأسيسًا على هذا فلا يصلح للاستغراب أحد هؤلاء:

١- مَن اتخذ الغرب إمامًا، بل هؤلاء هم خصومه الذين يُقصدون بالمواجهة، ومن هنا فيخرج من حد الاستغراب من هو مثل سلامة موسى الذي كان من المؤمنين بالغرب الكافرين بالشرق -حسب تعبيره- المعارضين لكل كفاح ضد الإنجليز في مصر، والذي لما كتب كتابه «هؤلاء علموني» لم نجد فيهم إلا الغربيين وغاندي وتولستوي!

وكذلك أمثال طه حسين[1] الذي لم يُحاول حتى التخفيف من عباراته، وصرح بأن انتماء مصر هو للبحر المتوسط لا للشرق، وأننا لن نتقدم إلا إذا تقفينا آثار أوروبا بكل ما فيها «حلوها ومرها، ما نحب وما نكره»، ونهى بصراحة عن مجرد التفكير في

---

(١) ثمة معلومات أشار إليها غير واحد من الباحثين -ويراها الأكثرون غير دالة ولا كافية- بأن طه حسين قد تاب في آخر أيامه وتراجع عن أهم ما صدر منه من أفكار، منهم د. محمد محمد حسين (أزمة العصر ص٧٦) والشيخ محمود شاكر (أباطيل وأسمار ١/ ٣١، المتنبي ص٣١) ود. محمد عمارة في مقالات نشرها قبل عشر سنوات وجمعها في كتابه الذي صدر قبل أيام (طه حسين من الانبهار بالغرب إلى الانتصار للإسلام).

وقد حدثني الشيخ عبد السلام البسيوني في إحدى ليالي صيف ٢٠١٤م في الدوحة بأنه التقى سكرتير طه حسين الذي أكد له وقوع هذه التوبة. ونحن وإن كان يسعدنا توبة كل إنسان، إلا أننا نتحدث عن إرث طه حسين وما بقي منه وما اشتهر عنه.

التراجع عن هذا السبيل، لأن التراجع غير ممكن!، يقول «لقد التزمنا أمام أوروبا أن نذهب مذهبها في الحكم، ونسير سيرتها في الإدارة، ونسلك طريقها في التشريع. التزمنا هذا كله أمام أوروبا، وهل كان إمضاء معاهدة الاستقلال[١] ومعاهدة إلغاء الامتيازات[٢] إلا التزامًا صريحًا قاطعًا أمام العالم المتحضر بأن نسير سيرة الأوروبيين في الحكم والإدارة والتشريع؟ فلو أننا هممنا الآن أن نعود أدراجنا وأن نحيي النظم العتيقة لما وجدنا إلى ذلك سبيلًا، ولوجدنا أمامنا عقابًا لا تُجاز ولا تُذلل، عقابًا نقيمها نحن.. وعقابًا تقيمها أوروبا، لأننا عاهدناها على أن نسايرها ونجاريها في طريق الحضارة الحديثة»[٣].

وقد كفانا أولئك القوم مؤونة الأمر إذ تصدوا بأنفسهم للاستغراب، فما إن ظهرت هذه الدعوة حتى سخروا منها.

وكتب هاشم صالح -تلميذ محمد أركون، والقائم على مشروعه- مستهزءًا: «كيف يمكن لهذا "العلم" الغريب الشكل أن ينهض على أسس قويمة إذا كنّا عاجزين حتى الآن عن استيعاب الثورات اللاهوتية والابستمولوجية (المعرفية) والفلسفية للفكر الغربي، وإذا كنّا عاجزين عن إحداث مثلها في ساحة الفكر العربي؟ وكيف يمكن لنا أن نقف موقف النِدّ من الغرب إذا كنّا لا نملك أبسط المقومات حتى مشروع الترجمة لم نقم به كما ينبغي»[٤].

---

(١) يقصد معاهدة (١٩٣٦م)، والتي حصلت بها مصر على استقلال صوري في الحقيقة.

(٢) يقصد اتفاقية مونتريه (١٩٣٧م) التي قضت بإلغاء المحاكم المختلطة -التي هي على الحقيقة محاكم أجنبية لا سيادة للدولة عليها- في مصر بعد ١٢ عاما أي (١٩٤٩م).

(٣) طه حسين: مستقبل الثقافة في مصر ص٣٤.

(٤) هاشم صالح: الحياة الدولية بتاريخ ١٣/ ٤/ ١٩٩٥. (نقلا عن د. مازن مطبقاني: الغرب من الداخل ص١٩)

وليس هذا بالغريب على مثله، فالرجل قد بلغ من الصراحة -أو الوقاحة- حدًّ أن اعتبر الهجمة على الإسلام بعد أحداث سبتمبر ٢٠٠١ «فرصة ذهبية».

ودعَا إلى تأسيس كليات تحارب الدِّين قبل كليات تعلم الكيمياء، قال: «فبمواجهة كل كلية شريعة أو معهد ديني ينبغي أن نؤسِّس كليات لتدريس تاريخ الأديان المقارن، أو علم الاجتماع الديني. هذا أهم من تدريس الكيمياء أو الفيزياء، أو قل: إن له الأولوية حاليًا... إننا يجب أن نلتحق بفولتير وتصوره الطبيعي عن الدين والأخلاق، فالدين الحقيقي هو الدين الطبيعي»(١).

٢- كذلك يخرج عن حد الاستغراب من لا يؤمن أننا نملك من الذاتية والخصوصية ما يُمكِّننا الآن وفي كل وقت من دراسة الغرب ونقده، حتى وإن كان يؤمن بأن ذلك ممكن في وقت آخر إذا بلغنا قدرًا من التقدم والتطور.

ومن هؤلاء الدكتور حامد أبو أحمد أستاذ اللغة الإسبانية وقد قال: «قيام علم الاستغراب يحتاج إلى أن يكون لدينا فكر يستطيع مواجهة الفكر الغربي الحديث؛ لكن للأسف نحن لم نصل بعد إلى المستوى الأوروبي ولم نقف بعد في مصاف ما ينتج هناك؛ ففي مجال الفكر ما زلنا عالة على الغرب»(٢).

فهذا التصور قائم على افتراض أن نتبع الغرب ونسرع في اتباعه حتى نكون له أندادا ونتجاوزه ثم -حينئذ- نتمكن من نقده، ذلك أن الأساس الذي يقوم عليه «الاستغراب» هو الإيمان بإمكانية ذلك في كل وقت اعتمادًا على خصوصيتنا وذاتيتنا لا على مستوى تقدمنا التقني المادي.

---

(١) هاشم صالح: الشرق الأوسط بتاريخ ١٣/ ١٢/ ٢٠٠١. (نقلا عن د. محمد عمارة: في فقه المواجهة بين الغرب والإسلام ص١٠٤)

(٢) الشرق الأوسط بتاريخ ٣٠/ ١١/ ٢٠٠١م.

ويبدو ذلك الفارق واضحًا حين نرى المستشرق الألماني رودي بارت ينادي على العرب أن يكون لهم دراسات في الاستغراب[1]، قبل نحو نصف قرن من الزمن الذي رأى فيه بعض أهلنا أننا لم نتأهل لذلك بعد!

ونحن إذ نكتب في «التأصيل الإسلامي» لعلم الاستغراب، فإن التأسيس الإسلامي لهذا العلم يضع حدا آخر للاستغراب والمستغرب، فعلى هذا التأسيس يخرج من حد الاستغراب:

٣- من درس الغرب منطلقا من نموذج غير إسلامي، سواء أكان هذا أحد النماذج الفلسفية الغربية أو الشرقية أو القديمة، فطالما لم يكن الإسلام مرجعيته، فهو خارج عما نعنيه في هذا البحث بالاستغراب والمستغرب.

هذه الحدود الثلاثة تُبقي لنا في تعريف المستغرب: «من له دراسات أصيلة في الغرب -أو موضوع متعلق به- على قاعدة من الاعتزاز الذاتي بنفسه وحضارته الإسلامية».

فأما وجود الدراسات فدليل على الثقة بالنفس والإقدام على التقييم وهو يناقض الهزيمة النفسية، وأما الأصالة فلئلا يدخل فيها الخواطر والمقالات ومذكرات السفر والسياحة، وأما تعلقها بالغرب فهذا هو موضوع العلم، وأما الاعتزاز بنفسه فآية ذلك ما يظهر في معالجته لنقاط الاشتباك والفوارق المؤثرة والموضوعات الشائكة مثل: الدين والدولة، وسؤال التقدم والتخلف، والإسلام والعلمانية، وحدود الحرية... ونحو هذا.

وهذا التعريف يثير بضع أسئلة:

الأول: هل يمكن لغير المسلم أن يدخل تحت هذا التعريف وهو لا يؤمن بالإسلام دينًا؟

---

(١) رودي بارت: الدراسات العربية والإسلامية في الجامعات الألمانية ص١٣.

والجواب: إن الإسلام يمثل الذات الحضارية للمسلم وغير المسلم، وفي العالم الإسلامي كثير من غير المسلمين يعتزون بانتمائهم الحضاري للإسلام، وقد تشربوا عبر هذه القرون معظم الأعراف والعادات الإسلامية حتى صار تكوينهم النفسي والفكري إسلاميًّا، وإن لم يعتنقوا الإسلام دينًا.

فمن هنا لا إشكال في أن يحقق غير المسلم هذا التعريف للمستغرب.

الثاني: ما حال من تنقل بين المذاهب والأفكار، وله إنتاج مختلف الميول والتوجهات عن الغرب؟

والجواب: الاستفادة من إنتاجه كله أمر قائم في كل وقت، بل نحن نطرح أن يُستفاد في دراسة الغرب مما كتبه غربيون[1].

ولكن يُنظَر في إنتاجه، ثم لا يُعتبر من «الاستغراب» إلا ما كتبه إذ كان على منهج دراسة الغرب برؤية ذاتية حضارية إسلامية.

فأما غير هذا فلا يحقق الشرط.

الثالث: ما حال من يُنازَع في أن منهجه إسلامي، فهو يدعي هذا لنفسه ولا يُقِرُّه غيره؟

والجواب: أن حدَّ المنهج هو حد الإسلام نفسه، فما دام الباحث لا يعلن انتماء آخر له غير الإسلام كالعلمانية -بفروعها: الماركسية، الليبرالية، اليسارية.. إلخ- فالأصل أنه إسلامي المنهج، إلا أن يعلن ما ينقض أصلًا من أصول الشريعة أو يخالف ما هو معلوم من الدِّين بالضرورة بلا تأويل أو بتأويل غير سائغ. ولا ريب أن القرائن والأحوال ترجح ما قد يخفى ويقع فيه اللبس والتنازع.

---

(١) انظر الباب الرابع، الفصل الأول، المبحث الثالث.

وعليه فإن حدَّ الاستغراب كما نراه هو «دراسة الغرب -أو موضوع متعلق به- دراسة أصيلة، انطلاقا من المرجعية الإسلامية»[١].

ولا نرى بأسًا في أن يكون تعريف الاستغراب هو مقلوب تعريف الاستشراق -وللاستشراق تعريفات كثيرة مشتهرة- من الشرق إلى الغرب، مع إضافة قيد «المرجعية الإسلامية»، لكن التعريفات تدور حول هذا المعنى[٢].

وتعدُّ دعوة المستشرق الألماني رودي بارت أول ما وجدناه صريحًا في الدعوة إلى علم الاستغراب[٣]، وقد صدرت ترجمته العربية عام ١٩٦٧م، ولم أفلح في الوصول لزمن صدور طبعته في الألمانية أو الإنجليزية، ومن المثير للتأمل أن المستشرق المتعاطف مع المسلمين رأى فيهم القدرة على هذا قبل أن يراه كثير من «نخبتهم»!!

وأشار د. أحمد سمايلوفيتش في كتابه القيم «فلسفة الاستشراق»[٤] إلى هذا الموضوع، واستدرك على رودي بارت أنه لم ينتبه -هو ولا غيره- إلى المحاولات الرائدة للطهطاوي ومحمد عبده وشكيب أرسلان والعقاد ومالك بن نبي في هذا المجال، واختار تعريفًا للمستغرب يقول: «هو الذي تبحر من أهل الشرق في إحدى لغات الغرب وآدابها وحضارتها»[٥].

---

(١) هذا التعريف هو أخصر ما استطعناه مما يعبر عن المعنى الذي أردناه، مع الاعتراف بأن وضع تعريف جامع مانع يكاد يكون من مستحيلات العلوم الإنسانية، فكيف إذا كان التعريف لعلم لم ينشأ بعد؟!

(٢) راجع في تعريفات الاستشراق: الباب الثاني.

(٣) رودي بارت: الدراسات العربية والإسلامية في الجامعات الألمانية ص١٣. وقد أشار رودي بارت إلى دعوة محمد رحباء التي جاءت في مؤتمر العالم الإسلامي (لاهور: ديسمبر ١٩٥٧، يناير ١٩٥٨م) لدراسة الغرب دراسة موضوعية، ولكن مجرد وجود الدعوة مبذول من قبل ذلك بكثير كما سنرى في المبحث التالي «الرواد الأوائل»، بينما تعد أولية بارت في تسميته لهذه الدراسة بـ«علم الاستغراب».

(٤) وأصل الكتاب رسالة دكتوراة نوقشت عام ١٩٧٤م، بكلية اللغة العربية جامعة الأزهر.

(٥) د. أحمد سمايلوفيتش: فلسفة الاستشراق ص٣٦، ٣٧.

ثم، وبعد حوالي خمسة عشر عامًا، جاء كتاب حسن حنفي «مقدمة في علم الاستغراب»، وقد سبق التعليق عليه(١).

إلا أن الكتاب -لكونه يمسّ حاجة قائمة، ولكون صاحبه من النخبة المشهورة- قد حظي باهتمام كبير، ومن بعد هذا الكتاب صار الموضوع يُثار على نطاق واسع في الملتقيات والندوات والمقالات في المجلات العلمية والصحافة السيارة، حتى صار طبيعيا ومعتادا أن تقرأ هذه الدعوة في توصيات كل مؤتمر أو في كلمته الافتتاحية أو بحد أدنى في أحد الأوراق المقدمة إليه.

لكن هذه الرغبة لم تتحول إلى خطط عملية بعد.

رغم أن بعض الأساتذة بذل مجهودًا في وضع خطة لعلم الاستغراب منذ وقت مبكر، منهم د. السيد محمد الشاهد الذي قدم خطته لجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية (١٩٨٩م)، ونشر موجزًا لها في صحيفة «مرآة الجامعة»، ثم في مجلة (المسلمون)(٢).

وفي كل ما اطلعنا عليه من هذه المقالات والمؤتمرات لا يخرج الكلام عن ضرورة دراسة الغرب بالمعنى المتبادر إلى الذهن.

إلا أن حسن حنفي حاول توسيع العلم فقال بأن علم الاستغراب ليس قاصرًا على دراسة الغرب، بل هو «في حقيقة الأمر تحليل الثقافة الوطنية ووصف تفاعل الجبهات الثلاثة فيها: التراث القديم، التراث الغربي، الواقع المباشر»(٣).

---

(١) انظر: التمهيد.

(٢) د. السيد محمد الشاهد، مرآة الجامعة بتاريخ ٢٠ جمادى الأولى ١٤١٠هـ (١٩/ ١٢/ ١٩٨٩م). ود. السيد محمد الشاهد، جريدة المسلمون بتاريخ ١١- ١٧ رمضان ١٤١٠هـ ٦- ١٢ أبريل ١٩٩٠م. (نقلا عن: د. مازن مطبقاني: الغرب من الداخل ص١٤)

(٣) حسن حنفي: مقدمة في علم الاستغراب ص٥٥.

ولئن كنا لا ننكر أن هذه الأشياء من لوازم الخوض في دراسة الغرب، إلا أنها ليست منه، بل نراها توسيعًا لهذا العلم يعسر معها انضباطه وتحديد إطاره، وما نراه قال هذا إلا ليمنع كل دراسة من قبله أو من بعده لا تتفق مع منهجه من أن تسمى استغرابًا كما يبدو في سياق الكلام، بل نذهب إلى أن كل ما هو دراسة للغرب من قبلنا هو «استغراب» وإن لم يقصد إلى هدف آخر نظري أو عملي، على أنه لا يكاد يوجد دراسة بغير هدف أو بغير أثر عملي.. إلا أن استهداف هذا شيء، ووجوده عرضًا شيء آخر.

ومن هنا نبدأ في إلقاء الضوء على المحاولات الأولى لدراسة الغرب، والتي يجوز أن نسميها بواكير الاستغراب أو طلائع الاستغراب أو الاستغراب المبكر.



المبحث الثاني

الرُّوَّاد الأوائل

استطاعت الحملة الفرنسية أن تحتل القاهرة وأجزاء من الشام، وظهر واضحًا العجز الإسلامي -سواء المملوكي أو العثماني- عن صدهم، ولم يخرج الفرنسيس من مصر إلا بالتعاون مع أعداء آخرين وهم الإنجليز.

منذ تلك اللحظة(١) وصار الغرب حاضرا في الذهن الإسلامي، انبعث سؤال لماذا وكيف انتصروا؟ ولماذا وكيف انهزمنا؟ وكيف السبيل لئلا تتكرر الهزيمة؟ وكل هذه الأسئلة كانت تعني بحثًا وتفتيشًا في الغرب عن إجاباتها.

ومنذ اللحظة الأولى نرى الجبرتي -المؤرِّخ المعاصر للحملة الفرنسية- يحلل الخطاب الأول لنابليون فيقف عند جملته الأولى «بسم الله الرحمن الرحيم، لا إله إلا الله، لا ولد، ولا شريك في ملكه» ليحللها فيقول:

«في ذكر هذه الجمل الثلاث إشارة إلى أنهم موافقون للمِلل الثلاث ومخالفون لهم، بل ولجميع المِلل، موافقون للمسلمين في ذكر التسمية ونفي الولد والشريك

---

(١) هذه اللحظة هي بالنسبة إلى العرب لا إلى كل المسلمين، ونحن قد اضطررنا إلى اختيار هذه اللحظة لقلة المصادر المتوفرة حول المؤلفات الأولى التركية، فقد كان الأتراك أسبق في محاولة التعرف على الغرب من خلال الصراعات المشتعلة بين الدولة العثمانية والدول الأوروبية، وفيما أتيح لنا الوصول إليه من مصادر لم نجد ما يشفي الغليل في هذا الباب، اللهم إلا ما كتبه برنارد لويس في بعض مؤلفاته وخصوصا «اكتشاف المسلمين لأوروبا».
وهو على سعة علمه لا يوثق بأحكامه لما هو معروف من تعصبه، فضلا عن أنه لم يتوسع في الأمر بل تعرض له بسرعة. ولهذا فلعله من المناسب أن يُطرح موضوع البحث هذا ليكتب فيه باللغات: التركية، والفارسية، والأردية ليكتمل تصور طلائع الاستغراب في العالم الإسلامي كله.

ومخالفون لهم في عدم الإتيان بالشهادتين وجحد الرسالة، ورفض الأقوال والأفعال الشرعية المعلومة من الدين بالضرورة، وموافقون للنصارى في غالب أقوالهم وأفعالهم ومخالفون لهم في القول بالتثليث وجحد الرسالة أيضًا ورفض ديانتهم وقتل القسوس وهدم الكنائس، وموافقون لليهود في التوحيد فإن اليهود لا تقول بالتثليث وإنما هم مجسِّمة مخالفون لهم في دياناتهم، والذي تحرر من عقائدهم أنهم لا يتفقون على دين ولا يتفقون على ملة بل كل واحد منهم ينحو دينًا يخترعه بتحسين عقله، ومنهم الباقي على نصرانيته المتكتم لها، وفيهم فِرَقٌ من اليهود الحقيقيين، لكن كل ذي دين منهم ما نزله مُصِرٌّ عليه، موافق للجمهور في ضلالهم المصرين عليه»[1].

وعبر أكثر من قرنين من الزمان، هما عمر الاحتلال والهيمنة الغربية، لم يغِب الغرب يوما عن بال المصلحين والعلماء، فليس ثمة واحد منهم ليس له في الغرب رأي أو آراء أو مؤلفات تقصر أو تطول، وكثير من هؤلاء كانت له في الغرب رحلات على اختلاف الأسباب: إما نفي وطرد أو عمل ودعوة أو حتى حاجة المعيشة، فمن هنا بدأت بواكير الاستغراب وطلائعه الأولى.

ونحن نجري في اختيارهم على المعيار الذي حددناه في المبحث السابق: من كانت له دراسة أصيلة للغرب على أساس المرجعية الإسلامية[2].

---

(١) الجبرتي: مظهر التقديس ص٢٦.

(٢) ومما ينبغي أن يُلاحظ هنا في مسألة المرجعية الإسلامية: أن ألفاظ الإسلام والعروبة أو الشعب والأمة هي ألفاظ مترادفة تعبر عن معنى واحد في كتابات القرن التاسع عشر، ثم بدأت تأخذ الألفاظ معانيها المنفصلة المعبرة عن انتماء ديني أو قومي أو وطني أو عرقي -بحسب الحالة- في بدايات القرن العشرين، حتى فُتِح لها المجال واسعا مع ما سُمِّي «الثورة العربية» ثم صارت هي الشعار الغالب في الخمسينات والستينات، وما إن انتهت السبعينات حتى كانت الغلبة لشعارات الوطنية المنفصلة عن القومية والمنفصلة بدورها عن الإسلام.

=

والتي غالبًا ما تكون ظاهرة وواضحة ولا يحتاج تلمسها إلى كبير مجهود.

وقد كانت أول الكتابات الإسلامية في شأن الغرب هي كتب رحلات، واستمر هذا طوال القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين، ثم نزل الغرب بجيوشه وأخذ في احتلال بلادنا منذ أواخر القرن التاسع عشر وحتى منتصف القرن العشرين، وجرى تحت ظل الاحتلال إنشاء نخبة ثقافية متعلقة بالغرب اتباعًا وانبهارًا، ووُضِع هؤلاء في ظل منظومة تجعلهم أصحاب التوجيه الفكري والثقافي، ثم ظل هؤلاء بعد خروج الجيوش من أرضنا في ذات مواقعهم، فحدث بهم الانقطاع الثقافي الكبير الذي أنشأ التغريب[1].

ومن ثَمَّ لم يعد يمثل طلائع الاستغراب -بالمعنى الذي حددناه- إلا نفر قليل اجتهدوا بأنفسهم أو وفرت لهم ظروف خاصة إمكانية دراسة الغرب، أو نفر بدأوا حياتهم منبهرين ثم رجعوا وعادوا فنقدوا الغرب من بعد ما انبهروا، ونظروا إليه بعينٍ غير عين الاتباع.

هؤلاء الطلائع وإن كانوا قلة بالنسبة لمجموع الأُمة، إلا أنهم كثرة تستعصي على الحصر، وهم موجودون في كل مجال علمي: السياسة والأدب والجغرافيا والتاريخ والاجتماع والاقتصاد واللغة والقانون والفلسفة والفنون وغيرها.

= (وذلك فيما عدا الكُتَّاب النصارى الذين فصلوا عن وعي بين انتمائهم العربي القومي وبين انتمائهم الحضاري الإسلامي، ففخروا وكتبوا ونظروا للقومية العربية المنفصلة عن الانتماء الإسلامي الذي كان يمثله في ذلك الوقت سلطة الخلافة العثمانية، وقارن مثلا رحلة فرنسيس مراش الحلبي «رحلة إلى باريس» بالرحلات الأخرى في عصره كرحلة الطهطاوي «تخليص الإبريز» وخير الدين التونسي «أقوم المسالك» وأحمد فارس الشدياق «الواسطة، وكشف المخبا»).

(١) وإن كانت هذه النخبة قد وفرت معرفة غزيرة عن الغرب من خلال ما قامت به من ترجمات ومؤلفات وما قامت عليه من صحف ومجلات وسلاسل علمية ودور نشر وجامعات ومعاهد علمية طوال هذه السنين.

ولذا فلا حيلة لنا في هذا المقام سوى أن نعرِّف بأبرزهم وأبرز مؤلفاتهم.

وقد اخترنا من بينهم الثلاثة الأوائل: رفاعة الطهطاوي، وخير الدين التونسي، وأحمد فارس الشدياق.

فلقد عاش ثلاثتهم الصدمة الأولى مع الغرب، وكانت لهم جميعًا رحلات إلى الغرب وإجادة لبعض لغاته.

وقد سجلوا رحلاتهم وآرائهم في مؤلفات رائدة كذلك.

١- الشيخ رفاعة الطهطاوي (١٨٠١ - ١٨٧٣م)

ولد قبل تولي محمد علي باشا بأربع سنوات، ودرس في الأزهر على مجرى العادة، فلما كان في شبابه كان عهد البعثات العلمية قد بدأ، فكان ضمن بعثة علمية إلى فرنسا قضت خمسة أعوام هناك (١٨٢٦ - ١٨٣١م) فأتقن الفرنسية وقرأ أهم الأعمال الفكرية حينئذ، وسَجَّل هذه الرحلة في كتابه «تخليص الإبريز في تلخيص باريز».

ولما عاد إلى مصر كان من أهم رجال الدولة في مجال التعليم والترجمة إدارة وإشرافا ومتابعة، ثم حين مات محمد علي تغيرت الإرادة السياسية في عهد حفيده عباس، فنال الطهطاوي من ذلك النفي إلى السودان (١٨٥٠م) بذريعة افتتاح مدرسة هناك، وكانت أيامًا عصيبة عليه، ثم عاد إلى مصر بعد أربع سنوات حين مات عباس وخلفه سعيد (١٨٥٤م) فعاد للطهطاوي بعض قدره وشيئًا من أيامه لثمان سنوات قبل أن يتغير عليه سعيد فيفصله ويغلق مدرسة أركان الحرب التي كان مديرًا لها (١٨٦١م)، لكن لم تمض سنتان حتى مات سعيد وجاء إسماعيل (١٨٦٣م)، وقد عاش الطهطاوي في زمن إسماعيل عشر سنوات ارتفع فيها شأنه وعادت له أيامه الأولى، وصار من واضعي المناهج التعليمية وعضوًا في عدة لجان، وكان له نفوذ

توجيه المطبعة المصرية (مطبعة بولاق) إلى نشر أعمال بعينها مثل مقدمة ابن خلدون، وظل على هذه الحال حتى توفي (١٨٧٣م)[1].

ويعدّ كتاب الطهطاوي «تخليص الإبريز» أول تقرير عربي وافٍ في موضوعه، فقد وصف اللغة والأدب والسياسة والقانون والعادات، حتى أنه سجل ميزانية ما ينفقه الفرنسيون على الطعام والشراب.

ورغم سعة علم الطهطاوي وغزارته يشعر المرء أحيانًا وهو يقرأ هذا الكتاب بالانقطاع الحضاري بينه وبين التراث الحضاري الإسلامي، فهو يتكلم أحيانًا عن أشياء في فرنسا وكأنها جديدة غير مسبوقة، بينما نقرأ في كتب تراثنا الحضاري وجودها قبل هذا بقرون طويلة، كما في حديثه -مثلًا- عن وجود تخصصات في الطب ووجود عيادات طبية[2] أو غيره، وهذا يدلك على ما غاب عن المسلمين من علومهم هم في فترات تخلفهم الحضاري.

ويمثل كتاب الطهطاوي هذا نموذجًا للعلاقة السوية مع الغرب، وللاستغراب الصحيح المؤسس على أرضية ثابتة من الفخر والاعتزاز بالإسلام، والمنضبط في انطلاقته بالعدل والإنصاف، ففي كتاب الطهطاوي نقد واضح لما في فرنسا من الكفر والعُري والفُحش وأخلاق مثل الكذب -خصوصًا المنتشر في صحافتهم- والبخل وغيرها، وفيه كذلك ثناء على ما لديهم من العلوم والمعارف وعلى تنظيمهم لأمورهم السياسية والإدارية والصحية والعلمية، وعلى أخلاقهم في النظافة والبشاشة

---

(١) انظر في ترجمة الطهطاوي وآثاره: فانديك: اكتفاء القنوع بما هو مطبوع ص٤٠٧ وما بعدها، شيخو: تاريخ الآداب العربية ص١٣٤ وما بعدها، الزركلي: الأعلام ٣/ ٢٩، عمر رضا كحالة: معجم المؤلفين ٢/ ١٦٨، وانظر مقدمة د. محمد عمارة محقق أعماله الكاملة ١/ ٣٩ وما بعدها.

(٢) الطهطاوي: تخليص الإبريز، ضمن «الأعمال الكاملة» ٢/ ١٥٤، ١٥٥. ومنذ منتصف القرن الثالث الهجري روى الطبري ما يفيد وجود عيادات طبية خاصة ومتخصصة أيضا (تاريخ الطبري ٥/ ٦٤٦).

في وجه الغريب، والتزامهم بالقوانين في المحاكمات، وتقييدهم لسلطة ملكهم، وإقبالهم على القراءة والتعلم، وابتكار الجديد في صناعاتهم وغيرها. وكانت المقارنات حاضرة دائمًا في ذهنه بين ما يراه في باريس وما هو كائن في الشرق، حتى في التفاصيل.

فندر أن يوجد معنى عند الفرنسيين في الشعر والأدب أو غيره إلا وساق عليه من شعر العرب وآدابهم ما يعضده أو يناقضه، وحتى تقييد سلطة الملك لامسه أيضا وإن بلهجة أخف، فهو في النهاية تحت حكم الجبار محمد علي، ومثل ذلك فعله في المقارنة بين اللغة العربية والفرنسية ونحوهما وإعرابهما وأساليبهما اللفظية والمعاني التي لا تصلح للترجمة بين اللغتين وغيرها، وكتب بصريح العبارة عن ضرورة التأسيس الشرعي للمستغرب لما لدى القوم من ضلالات يقيمون عليها الأدلة التي يعسر على الإنسان الخالي من الدين ردّها، فقال: «فحينئذ يجب على من أراد الخوض في لغة الفرنساوية المشتملة على شيء من الفلسفة أن يتمكن من الكتاب والسنة حتى لا يغتر ذلك ولا يفتر عن اعتقاده وإلا ضاع يقينه»[1].

وكان للطهطاوي نشاط كبير وواسع في الترجمة وتنظيم المدارس بعد عودته إلى مصر، حتى بعد أن نفي إلى السودان لم يتوقف إنتاجه، ويدهش المرء لغزارة إنتاجه مع ما كان يحمله من أعباء إدارية وتعليمية متعددة، وظل وافر النشاط حتى وفاته، التي حلت عليه وهو يكتب سيرة النبي ﷺ وتأسيس الدولة الإسلامية في كتابه «نهاية الإيجاز في سيرة ساكن الحجاز».

وبالرغم من أن «تخليص الإبريز» كان أول مؤلفاته إلا أنه ظل أبرزها وأشهرها، لكن أهم كتبه -وهو من آخرها- والذي أودعه خلاصة فكره هو «مناهج الألباب المصرية في مباهج الآداب العصرية».

(١) الطهطاوي: تخليص الإبريز، ضمن «الأعمال الكاملة» ٢/ ١٨٦، ١٨٧.

غير أن الفكرة التي ظلت مستقرة ثابتة يدافع عنها من الكتاب الأول للأخير هي استقدام الغربيين ومخالطتهم للانتفاع بما عندهم، ففي تخليص الإبريز يدافع عن تقريب محمد علي للأجانب قائلًا: «يلتجي إليه أرباب الفنون البارعة، والصنائع النافعة، من الإفرنج، ويغدق عليهم فائض نعمته، حتى إن العامة بمصر، بل وبغيرها، من جهلهم يلومونه غاية اللوم بسبب قبول الإفرنج وترحيبه بهم وإنعامه عليهم، جهلا منهم بأنه حفظه الله إنما يفعل ذلك لإنسانيتهم وعلومهم لا لكونهم نصارى، فالحاجة دعت إليه»(١).

ويقول في مناهج الألباب: «مخالطة الأغراب، لا سيما إذا كانوا من ذوي الألباب، تجلب للأوطان من المنافع العمومية العجب العجاب»(٢)، مع ثبات اعتزازه بالإسلام والشرع واتباع «الطريقة التقليدية، مستشهدا في إثبات كل مسألة بالنبي والصحابة»(٣).

٢- خير الدين التونسي (١٨١٠ - ١٨٩٩م)

ولد في قرية قوقازية ثم اختطف إلى اسطنبول كما كان شائعًا في ذلك الوقت، وكان من حسن حظه أن استقر أمره عند الباي أحمد حاكم تونس، فتلقى هناك التربية الدينية والعسكرية وأتقن الفرنسية، ورأى فيه الباي من النبوغ والنجابة ما دعاه إلى أن يستعمل هذه المواهب، فعهد إليه بإدارة المدرسة العسكرية، ثم صار موضع ثقته فاختاره سفيرًا له في مهمة خاصة إلى فرنسا (١٨٥٢م)، فبقي بها أربع سنوات، ثم عاد فعُيِّن وزيرًا للبحرية وكان رئيس مجلس الشورى وعضوًا في لجنة دستور ١٨٦٠م، وأرسله الباي سفيرًا إلى اسطنبول أكثر من مرة في مهمات سياسية كبرى (١٨٥٩،

---

(١) الطهطاوي: تخليص الإبريز، ضمن «الأعمال الكاملة» ٢/ ٢٤، ٢٥.

(٢) الطهطاوي: مناهج الألباب، ضمن «الأعمال الكاملة» ١/ ٤٩٩.

(٣) ألبرت حوراني: الفكر العربي ص٩٦.

١٨٦٤، ١٨٧١م)، رغم ما وقع بينهما من خلافات أدت لاستقالته من الوزارة (١٨٦٢م)، إذ كان خير الدين يريد تقييد سلطة الباي طبقًا لرؤيته الإصلاحية، لكن الباي اضطر للاستعانة به مرة أخرى وزيرًا للداخلية والمالية والخارجية ثم رئيسًا للوزراء (١٨٧٣م)، واستغل هذه السلطة في تدشين حركة إصلاحية واسعة إلا أنه لم يستطع موازنة الضغوط الخارجية الثلاثية الأطراف: بريطانيا وفرنسا وإيطاليا، مع ضعف تونس وصغر حجمها ومواردها، فكانت فرصة للباي الناقم عليه تقييد سلطانه، فذهبت عنه الوزارة بعد أربع سنوات (١٨٧٧م)، لكن لم تمضِ أشهر حتى كان خير الدين قد استقر في الأستانة التي يحكمها السلطان عبد الحميد الثاني الذي كان قد قرأ كتاب خير الدين «أقوم المسالك» وأعجب به، فعينه صدرًا أعظم (رئيس وزراء)، ثم لم يمض العام حتى كان عبد الحميد يقصيه (١٨٧٩م) لذات الأسباب التي أقصي بسببها في تونس، فعاش في شبه عزلة حتى وفاته التي جاءته بعد عشرين سنة من هذا التاريخ (١٨٩٩م)[1].

وبخلاف الطهطاوي البعيد نسبيًا عن دوائر السلطة والغزير الإنتاج، كان خير الدين مشتبكًا مع السلطة وليس له إلا هذا الكتاب الوحيد «أقوم المسالك في معرفة الممالك»، بخلاف وثائقه ومذكراته التي نشرت بعد موته. ويحلو للباحثين أن يجمعوا بينه وبين ابن خلدون من حيث اتفاقهما في الأصل التونسي والتقلبات السياسية التي جرت عليهما وفي طريقة تصنيف الكتاب (مقدمة فيها الخلاصة، ثم سرد) وفي العزلة التي صُنِّف فيها الكتابان.

---

(١) انظر في ترجمة خير الدين التونسي وآثاره: ألبرت حوراني: الفكر العربي ص١٠٩ وما بعدها، فنديك: اكتفاء القنوع بما هو مطبوع ص٤١٤، عمر رضا كحالة: معجم المؤلفين ٤/ ١٣٣، وانظر مقدمة د. محمد الحداد للطبعة الجديدة من كتاب «أقوم المسالك» ص٢٣ وما بعدها (ط دار الكتاب المصري ودار الكتاب اللبناني).

لكن ما يجمعه بالطهطاوي كثير، أهمها هو تلك النظرة الفاحصة للغرب والتي تؤكد على أهمية التعلم مما وصلوا إليه دون أخذ ما عندهم من ضلالات، وأن هذا الفصل بين الأمرين ممكن وسهل، وأن مفتاحه في السياسة والتربية (والتربية تشمل التعليم في مصطلحهما)، وقد كان موقع الرجلين من السلطة مما وجه نظرهما إلى التركيز على ما ينبغي أخذه للانتفاع به في الشرق، لذا لن تجد كثير تركيز على أمور أقل أهمية كالفنون والآداب والأشعار الغربية وما هو من خصوصياتهم. فكانوا أكثر اهتماما بما ينفع وأقل اهتمامًا بالنقد وإبراز المعايب، على عكس الرحالة الذين عاشوا مطلع القرن التاسع عشر، وذاقوا طعم الغرب كمحتل[1].

ومثل الطهطاوي كان خير الدين يرى أن التفوق الغربي راجع في أصله إلى النظام السياسي، حتى لقد افتتح كتابه بقوله: «سبحان من جعل من نتائج العدل العمران»[2]، وعدد مجالات التقدم ثم أردف «وأساس جميع ذلك حسن الإمارة»[3]، «ولا سبب لما ذكرناه إلا تقدم الإفرنج في المعارف الناتجة عن التنظيمات المؤسسة على العدل والحرية»[4].

وصرح أن سبب نكبتنا يؤول إلى: الأمراء والعلماء، إذ «لا يظهر لملوكها سبب قوي في الامتناع (عن الإصلاح) إلا حب الاستبداد الموصل للشهوات»[5]، «مع

---

(١) برغم أن الطهطاوي كان في فرنسا وقت احتلالها للجزائر إلا أننا لا نجد له حديثا في الموضوع، ولا ندري هل هذا لقلة المعلومات لديه عما أحدثوه في الجزائر؟ أم لأنه لم يشأ أن يغضب محمد علي ذا العلاقات القوية مع الفرنسيين؟ أم لأنه كتب رحلته في بلادهم فخشي منهم ثم لم تسعفه الظروف -أو لم يشأ- أن يغير في الرحلة بعد ذلك؟

(٢) خير الدين التونسي: أقوم المسالك ص٢.

(٣) خير الدين التونسي: أقوم المسالك ص٥.

(٤) خير الدين التونسي: أقوم المسالك ص٨.

(٥) خير الدين التونسي: أقوم المسالك ص٤٩، ٥٠.

إغفال العلماء القيام بما أهلهم الله له بإعراضهم عن مقتضيات أحوال الوقت»[١].

وحمل خير الدِّين على العلماء الذين يعتزلون معارك الحياة، فساءه أن يرى «الموكول لأمانتهم مراعاة أحوال الوقت في تنزيل الأحكام، معرضين عن استكشاف الحوادث الداخلية، وأذهانهم عن معرفة الخارجية خليَّة»[٢].

وهاجم نهيهم عن الأخذ عن الغرب بإطلاق وشدد على أن «الأمر إذا كان صادرًا من غيرنا، وكان صوابًا موافقًا للأدلة، لا سيما إذا كنا عليه وأُخِذ من أيدينا، فلا وجه لإنكاره وإهماله، بل الواجب الحرص على استرجاعه واستعماله»[٣]، وأطال في سرد الأدلة على هذا من القرآن والسنة وأقوال أهل العلم[٤].

وشدد في عدد من المواضع على أن الأخذ بالعلوم يعود على السياسة بالقوة، فبالعلوم «نَمَتْ نتائج الأيدي واتسعت دوائر مُتَّجَر الإنجليز وثروتهم وارتفع شأن السياسة»[٥].

فكأنما أراد بذلك أن يطمئن ذوي السلطة على أن إصلاح السياسة لا يعود عليهم بالضعف وقلة النفوذ كما يتوهمون، بل بالقوة واتساع النفوذ. كما شدد على أن الشورى لا تعني في حقيقتها تضييقًا على صاحب السلطان وإنما هي تحقيق لمصلحته ومصلحة البلاد والعباد، كصاحب البستان الذي إذا استمع لمشورة الخبراء في الزرع والبيع والرعاية لم يكن ذلك تضييقًا عليه وإنما نفع له[٦].

---

(١) خير الدين التونسي: أقوم المسالك ص٥٠.

(٢) خير الدين التونسي: أقوم المسالك ص٣.

(٣) خير الدين التونسي: أقوم المسالك ص٦.

(٤) خير الدين التونسي: أقوم المسالك ص٥ وما بعدها.

(٥) خير الدين التونسي: أقوم المسالك ص٦٠.

(٦) خير الدين التونسي: أقوم المسالك ص١٦، ١٧.

وكان خير الدِّين منتبهًا إلى مآل هذه الفجوة العلمية، وهو احتلال البلاد الإسلامية، فكأنه يصرخ وهو يقول:

«ولا يخفى أن البقاء على هذه الحالة مما يعظم خطره وتُخشى عواقبه، سمعت من بعض أعيان أوروبا ما معناه أن التمدن الأوروباوي تدفق سيله في الأرض فلا يعارضه شيء إلا استأصلته قوة تياره المتتابع، فيُخشى على الممالك المجاورة لأوروبا من ذلك التيار، إلا إذا أخذوه وجروا مجراه في التنظيمات الدنيوية فيمكن نجاتهم من الغرق»[1].

ونادى بالحل، وأنه في الشورى التي أمر الله بها رسوله مع وجود الوحي لتكون «سنة واجبة على الحكام بعده»[2]، واجتماع الأمراء بالعلماء وأخذ كل منهم عن الآخر، «فرجال السياسة يدركون المصالح ومناشئ الضرر، والعلماء يطبقون العمل بمقتضاها على أصول الشريعة، وأنت إذا أحطت خبرًا بما قررناه علمت أن مخالطة العلماء لرجال السياسة بقصد التعاضد على القصد المذكور من أهم الواجبات شرعًا لعموم المصلحة وشدة مدخلية الخلطة المذكورة في اطلاع العلماء على الحوادث التي تتوقف إدارة الشريعة على معرفتها»[3].

وأكد على أن الأُمة تملك ما يميزها، إذ إن الشريعة الإسلامية هي «اللائقة بكل زمان»[4] وهي «كافلة بمصالح الدارين»[5]، وأنها «لا تنسخها تقلبات الدهور»[6]، وأن الأمة كانت سابقة «التقدم في مضماري العرفان والعمران، وقت نفوذ الشريعة في

(١) خير الدين التونسي: أقوم المسالك ص٥٠.

(٢) خير الدين التونسي: أقوم المسالك ص١١.

(٣) خير الدين التونسي: أقوم المسالك ص٤١.

(٤) خير الدين التونسي: أقوم المسالك ص٢.

(٥) خير الدين التونسي: أقوم المسالك ص٣.

(٦) خير الدين التونسي: أقوم المسالك ص٤٢.

أحوالها، ونسخ سائر التصرفات بمنوالها»[١]. وأن «الغرض من ذكر الوسائل التي أوصلت الممالك الأوروباوية إلى ما هي عليه من المنعة والسلطة الدنيوية، أن نتخير منها ما يكون بحالنا لائقًا، ولنصوص شريعتنا مساعدًا وموافقًا»[٢].

وفي مجال السياسة كان خير الدين أقوى وأكثر صراحة من الطهطاوي، وإن اعتُذِر للطهطاوي بوجود الجبار محمد علي بينما لم يواجه خير الدين سلطانا له كل هذا الطغيان.

٣- أحمد فارس الشدياق (١٨٠٤ – ١٨٨٧م)

وكان حقه الذِّكر قبل خير الدين التونسي فهو أقدم منه، إلا أن التشابه بين الطهطاوي وخير الدين حملنا على تقديم خير الدين.

فأما أحمد فارس الشدياق فهو العلامة النابغة اللغوي الأديب المشهور، وُلِد مسيحيا مارونيا في لبنان، وعمل في نسخ الكتب وفي التجارة أحيانًا، ثم تحول أخوه أسعد إلى المذهب الإنجيلي فعانى من اضطهاد الكنيسة المارونية حتى مات قهرًا، فالتجأ إلى المنصرين الأمريكان فبعثوا به إلى مصر، فوصلها في عهد محمد علي (١٨٢٥م).

وقد نبغ فيها حتى تولى تحرير جريدة الوقائع المصرية، ثم بعثت به الإرسالية الأمريكية إلى مالطة (١٨٢٨م) فعلَّم اللغة العربية وقضى بها أربع عشرة سنة (١٨٣٤ – ١٨٤٨م) وسجل ذلك في «الواسطة في معرفة أحوال مالطة»، ثم دعي إلى انجلترا، فمرَّ في طريقه على فرنسا، وفي بلاد الإنجليز ترجم التوراة والإنجيل إلى العربية فذاعت شهرته، ثم أقام في فرنسا، واهتم في أوروبا بمطالعة المخطوطات العربية في

(١) خير الدين التونسي: أقوم المسالك ص٤، ٤٩.

(٢) خير الدين التونسي: أقوم المسالك ص٤.

مكتباتها، وكتب عن أوروبا «كشف المخبا عن فنون أوروبا» ثم اتصل بباي تونس، ومدحه بقصيدة رائقة، فاستدعاه للعمل في بلاطه، فذهب إليه وتولى تحرير جريدة «الرائد»، وهناك أسلم فسمى نفسه أحمد فارس وتكنَّى بأبي العباس، ونظم قصيدة رائقة عن حرب الدولة العثمانية وروسيا فلفتت إليه أنظار السلطان عبد الحميد فاستدعاه إلى اسطنبول فقضى بها زمنا وأسس فيها جريدة «الجوائب»، وبها توفي (١٨٨٧م). وأما مؤلفاته فهي غزيرة كثيرة، وهي مشهورة بين أهل الأدب لما تميز به من طبع وموهبة أدبية مدهشة، منها المطبوع ومنها المخطوط ومنها المفقود ومنها ما احترق ولم يصل إلينا، لكن إنتاجه عن الغرب أكثره -فيما نعلم- في كتابيه «الواسطة» و«كشف المخبا»، وفي سيرته الذاتية «الساق على الساق»، وما بقي من تراثه فإن فيه شذرات متضمنة[1].

وكان الشدياق هو الأكثر هجومًا على الغرب ونقدًا لما فيه، وكان أعلى رفيقيه صوتا وأشدهم حدَّة، وأكثرهم تنبهًا ويقظة لمشكلات التمدن والتقدم العلمي وعيوبها، حتى أفرط في ذلك وتجاوز حد الاعتدال، ولعل الاختلاف بينه وبين الطهطاوي وخير الدين كان في أنه أديب ناقد لم يقترب من سلطة ولم تكن له صلاحية تنفيذ فلم يكن له مشروع إصلاحي فكان صراعه مع الغرب فكريًا أكثر منه عمليًا، فيما كان الطهطاوي وخير الدين أكثر تنبها لمواضع التميز والتفوق الغربي وكيفية الاستفادة منها لأنهما كانا أقرب إلى مواقع السلطة، ويملكان بعضًا من

---

(١) انظر في ترجمة أحمد فارس الشدياق وآثاره: طنوس الشدياق: أخبار الأعيان في جبل لبنان ١/ ١٢٠، شيخو: تاريخ الآداب العربية ص٢١٢ وما بعدها، فنديك: اكتفاء القنوع بما هو مطبوع ص٤٠٥ وما بعدها. وانظر مذكراته الموسعة: الساق على الساق فيما هو الفارياق (أو) أيام وشهور وأعوام في عجم العرب والأعجام.

وثمة اضطراب في بعض التواريخ بين المصادر، وضعنا هنا منها ما ترجح لدينا فيها.

القدرة. لكن نعود فنقول إن ما انتبه إليه الشدياق وسجله إنما هو ذو قيمة تاريخية كبرى، وبه كان أكثر معاصريه تحررًا من سطوة الغرب والانبهار به، وأكثرهم يقظة لما خلف الوجه الجميل من عيوب ومشكلات، وهو أمر كان ضروريًا أن يُعرف للشرق في زمن يصطدم فيه بالغرب للوهلة الأولى.

ورحلات الشدياق أمتع الرحلات جميعًا، لما له من أسلوب ممتع وملاحظات بديعة واهتمام بالأمور الصغيرة والفوارق الدقيقة، ثم وصفه لكل ذلك بعبارة متفننة متظرفة[١]، وكان أيضًا أدقها وأكثرها أرقامًا وإحصاءات، حتى لقد اهتم بعدد المواليد غير الشرعيين[٢].

وصف الشدياق كيف أن لندن مدينة حقيرة قذرة متهالكة البيوت كئيبة من الخارج، ولكن معيشة الإنجليز طيبة داخل البيوت على عكس باريس المبهرة من الخارج بينما بيوتها في الداخل أقل في المرافق من لندن[٣]، ولذلك فبيوتها دائمة الاحتراق على عكس باريس، وكذلك جرائم القتل والتزوير والسرقة والغش فيها أكثر بكثير من باريس[٤]، كذلك فإن لندن شديدة الإزعاج من كثرة أصوات الآلات والمركبات «فإن توالي هذه القرقعة داهية من أعظم الدواهي، فمن لم يتعود عليها لن يهنئه نوم ولا قعود، ولن يمكنه أن يجمع أفكاره في رأسه، وإذا مشى اثنان في الطريق لزم المتكلم أن يصرخ بأعلى صوته ليسمعه الآخر»[٥].

---

(١) انظر مثلا: مقارنته بين تأجير المنزل في لندن وباريس، المال والطعام والخدمة والتعامل مع المؤجر في: أحمد فارس الشدياق: كشف المخبا ص٣٤١.

(٢) أحمد فارس الشدياق: كشف المخبا ص٢٢٩.

(٣) أحمد فارس الشدياق: كشف المخبا ص٢٧٣، ٣٤١ وما بعدها.

(٤) أحمد فارس الشدياق: كشف المخبا ص٣٥٠، ٢٧١، ٢٧٢.

(٥) أحمد فارس الشدياق: كشف المخبا ص٣٤٣.

لقد تحدث الشدياق بعبارات في غاية الإيلام والقسوة عن الأحوال البائسة للطبقات الفقيرة كالعمال والفلاحين الإنجليز، وعما يعانونه من مآسٍ وفظائع، وكيف أن كل الأشياء في لندن إنما «هي مجعولة لحظ الكبراء... فإن كل شيء هنا معني به اسم العلية»[(١)]، حتى المناصب يتوصل إليها بالمال والوسائط[(٢)].

وأفاض في وصف حال الفقراء والأغنياء وما بينهما من التفاوت الكبير، وما يقع على الفقراء من ظلم شنيع حتى قال: «لا فقير أشقى من فقيرة لندرة (لندن)، كما أنه لا غني أترف من غنيها»[(٣)] حتى إنه «ليس بين الجنة والجحيم في هذه المدينة بُعْد ما بين الجنة والجحيم في الآخرة»[(٤)].

ووصف كيف يؤدي هذا بالفقراء إلى الجريمة والنهب والسرقة والحرق[(٥)] وبالبنات إلى العُهر والزنا بكل ما يترتب على هذا من مصائب لكل المجتمع[(٦)]. وانتهى إلى القول: «لا جرم أن فلاحي بلادنا أسعد من هؤلاء الناس»[(٧)].

وقد عدد الشدياق كثيرا من مظاهر الاستغراق في المادية، حتى إن الرجل لا يعرف جاره سنين عددًا لانشغاله[(٨)]، وحتى إن الرجل ليتزوج القبيحة لما لها من المال، وحتى إن التاجر لا يرضَى الواحد منهم أن يجلس على أريكة ليستريح[(٩)]،

---

(١) أحمد فارس الشدياق: كشف المخبا ص٣٤٣.

(٢) أحمد فارس الشدياق: كشف المخبا ص٢٧٢.

(٣) أحمد فارس الشدياق: كشف المخبا ص٣٤٨.

(٤) أحمد فارس الشدياق: كشف المخبا ص٣٤٧.

(٥) أحمد فارس الشدياق: كشف المخبا ص٨٥.

(٦) أحمد فارس الشدياق: الساق على الساق ٢/ ٢٢٤ وما بعدها.

(٧) أحمد فارس الشدياق: الساق على الساق ٢/ ٢٢٧.

(٨) أحمد فارس الشدياق: كشف المخبا ص١١٦.

(٩) أحمد فارس الشدياق: الساق على الساق ٢/ ٢٢٦ وما بعدها.

وينتشر الغش في البضائع حتى إن «سائر أهل الصنائع يغشون ويموهون»[١]، بل إنه «ليس عند الإنجليز في أيام السنة كلها يوم للحظ واللهو، فلا تعرف فيها رأس السنة من ذَنَبها، وليس عندهم أيام للبطالة ما عدا أيام الآحاد سوى عيد الميلاد ويوم الجمعة»[٢].

وفي غمرة ما يصفه من مشكلات تشيع في الغرب تصدر عنه أقوال نحو: «فإن كان التمدن والعلم قد سبَّب هذا، فالجهل إذن سعادة! غير أن الفلاحين هنا في غاية الجهل زيادة على بؤسهم»[٣]، ونحو قوله: «فلعمر الله إن كان هذا الغش نتيجة التمدن والترقي في العلوم، فللجهل خير»[٤].

إلا أن هذا إنما هو من جهة الحِجاج وأساليب الأدباء، فهو يشدو مع الشادين ذات الحزن العميق الذي يجعله -وأهل عصره- «دائم التفكر في خلو بلادنا عما عندهم من التمدن والبراعة والتفنن. ثم تعرض لي عوارض من السلوان بأن أهل بلادنا قد اختصوا بأخلاق حسان وكرم يغطي العيوب»[٥]، فالرجل بهذه الأقوال إنما يتسلى عن أحزانه!

وعلى رغم الهجوم المسيطر على الشدياق إلا أنه أثنى على العديد من الأمور في الغرب، ومنها الجدية والنظام والشورى وحسن الترتيب والتنظيم وعمل المؤسسات والأمن على الأطفال والبنات أن يسيروا في الطرقات، وذهاب الخوف والرهبة من الشرطة، واحترام الشرطة لحرمات الناس والبيوت، وأن هذا يزرع فيهم الإقدام

---

(١) أحمد فارس الشدياق: كشف المخبا ص٣٥٠.

(٢) أحمد فارس الشدياق: كشف المخبا ص٣٤٢.

(٣) أحمد فارس الشدياق: الساق على الساق ٢/ ٢٢٧، ٢٢٨.

(٤) أحمد فارس الشدياق: كشف المخبا ص٣٥٠.

(٥) أحمد فارس الشدياق: الواسطة ص٤.

والجرأة والشجاعة، وقلة كلام الإنجليز وقصدهم إلى الغاية ووفائهم بالوعد[1]، ومدح في فرنسا الرفق بالفقراء والمساجين وطلاب العلم والمرضى والحصول على خدمات التعليم والعلاج بسهولة، وقدرة الفقراء والضعفاء على أخذ حقوقهم والمجاهرة بعداوتهم للكبراء والأغنياء، وتأنقهم في الطعام والشراب والملابس ورعايتهم للأولاد وحبهم لبلدهم وسرعة اندماجهم في البلاد الغريبة وشغفهم بالعلم حتى «يودون أن يعلموا كل أمر من فصّه»[2]، وأنهم لا يسخرون من الغريب[3]. وغير ذلك.

ويبدو الخلاف الذي ذكرناه بين الشدياق وبين الطهطاوي وخير الدين واضحًا في أمور بعينها؛ منها «المسرح» الذي أبصر فيه الطهطاوي وخير الدين أنه وسيلة تعليمية بديعة وأنها «من المجامع المعدة لتهذيب الأخلاق»[4] وأن «الإنسان يأخذ منها عِبرًا عجيبة، وذلك لأنه يرى فيها سائر الأعمال الصالحة والسيئة ومدح الأولى وذم الثانية»[5].

وقد أقرَّ الشدياق هذا لكنه لفت النظر إلى مفاسده وكيف يتعلم النساء والشباب منه فنون الفسوق والفجور والتعشق وخيانة الأزواج، ثم وصف كيف أن مهنة الممثلين وإن بدت أحلى المهن إلا أنها -في الحقيقة- أشقاها مع التكلف والتكرار[6].

---

(١) أحمد فارس الشدياق: كشف المخبا ص١٤٨ وما بعدها.

(٢) أحمد فارس الشدياق: كشف المخبا ص٢٢٨، ٢٢٩، ٢٥٥ وما بعدها، ٢٧٣، ٢٧٤.

(٣) أحمد فارس الشدياق: الساق على الساق ٢/ ٢٧٤.

(٤) خير الدين التونسي: أقوم المسالك ص٥٤.

(٥) الطهطاوي: تخليص الإبريز، ضمن «الأعمال الكاملة» ٢/ ١٤٣.

(٦) أحمد فارس الشدياق: كشف المخبا ص٣٠٨، ٣٠٩.

وهكذا رأى في كل شيء لوازمه، فرأى في بلادة الإنجليز أنها «مقرونة بشيء من سلامة الصدر وخلوص النية، كما أن فطنة الفرنسيين مقرونة بالمكر والمحال»[(١)]. ورأى -وهو يشيد بالطب في فرنسا- كيف يحتال بعض المشتغلين بالطب حتى يبتز الناس ويستولي على أموالهم[(٢)].

وسيبلغ التطرف مداه أنه رأى حتى في الثورة -رغم إقراره بكل المظالم التي تسببت فيها- ما فيها من الشر، يقول: «واعلم أن الفتن والمعامع التي وقعت في فرنسا، ولا سيما فتنة ١٧٩٣ قد غيَّرت كثيرا من أخلاق هذا الجيل، فما يقال عنهم من البشاشة والأنس والاحتفاء بالغريب فليس على إطلاقه»[(٣)].

وإذا نقد الشدياق الدين أو رجاله فإنما نقده عائد على المسيحية ورجال الكنيسة، الذين اضطهدوا أخاه أسعد وحبسوه حتى مات في محبسه[(٤)]، وإلا فهو يقر بضرورة الدين في تهذيب أخلاق الناس، وهو في غمرة ذِكره لمحاسن الفرنسيين يذكر أنهم «قد عزب عنهم أهم الحقائق، وهو ضرورة وجود الدِّين لكل من السائد والمسود والرئيس والمرؤوس، ولو سُلِّم لهم بأن الكيس وأهل المعارف والأدب غنيون عنه بما فُطِروا عليه من حسن الأخلاق أو حسنوا به إملاءهم من مطالعة الكتب، لم نسلم لهم بأن الرعاع الذين هم الجمهور الأعظم في كل البلاد غير مفتقرين إلى دين يردعهم عن الشرور والمعاصي ويحثهم على فعلى الخيرات، ولولا ذلك لأكل القوي الضعيف، فإن قلتَ: كيف يأكله والحاكم من ورائه؟ قلتُ: ليس في كل الأمور يمكن استحضار الحاكم أو الاستغاثة به... فكم من قضية جرت

---

(١) أحمد فارس الشدياق: كشف المخبا ص١١٦.

(٢) أحمد فارس الشدياق: الساق على الساق ٢/ ٢٧٤، ٢٧٥.

(٣) أحمد فارس الشدياق: كشف المخبا ص٢٧٥.

(٤) أحمد فارس الشدياق: الساق على الساق ١/ ١٣٣ وما بعدها.

بين الناس وفاتت اجتهاد أهل السياسة والإيالة، ولكن إذا كان الناس يستحضرون خالقهم في السر والعلن ويخافون عقابه ويرجون ثوابه كان لهم بذلك أعظم رادع ووازع، فاتصاف أُمة بعدم الدِّين من أعظم ما يهين شرفها ويخفض قدرها»[١].

وبعد..

فإنه يلفت النظر أن أوائل الرحالة العرب إلى الغرب، كانوا على هذا القدر من الرسوخ والثبات والاعتزاز بالإسلام، كما كانوا على هذا القدر من التبصر بالغرب وإدراك ما تحت وجهه المبهر، مع تحليل أسباب القوة والدعوة إلى الإفادة منها.

وفيما نعلم فإن هذا لم يتحقق في غير العرب، فإن أول هندي مسلم يزور بلاد الغرب (أحمد خان، ذهب إلى بريطانيا، إبريل ١٨٦٩م) قد افتتن وانبهر حتى ألحد وعاد إلى بلاده ساعيًا لتحريف الدِّين، وقد فُسِّر هذا بوقوع الاحتلال الذي يجعل المغلوب مولعًا بتقليد الغالب[٢]، ولا شك أن هذا حق في بعض جوانبه، وقد وقع مثله في بلاد العرب في مرحلة لاحقة، إلا أن الشاهد هو أن هذه البداية المبكرة في النظر إلى الغرب لم تستلب عقول المسلمين، ولو كان ثمة سلطة راشدة تتبنى هذه الآراء في الإصلاح لكنا نكتب الآن تاريخا آخر، لكن الواقع أن الاستبداد أتى بالاحتلال، ثم أتى الاحتلال بالاستبداد، وهذا حالنا حتى الآن، يُسلمنا كل شر إلى شر منه!



(١) أحمد فارس الشدياق: كشف المخبا ص٢٥٦.

(٢) الندوي: موقف العالم الإسلامي تجاه الحضارة الغربية ص٤٠ وما بعدها.

المبحث الثالث

ما قبل النضوج

لم ينضج الاستغراب في بلادنا، رغم هذا الغرب الحاضر دائمًا، أو قُل: بسبب هذا الغرب الحاضر لم يكن ممكنًا.

فالمجهودات التي حظيت بالإخلاص كانت مجهودات فردية، وموضوع الاستغراب أوسع من طاقة الأفراد مهما كانوا أفذاذًا ومهما بذلوا من جهود.

وأما المجهودات الجماعية فقد وقفت أمامها الظروف السياسية والاقتصادية، ولم تحظ كثير من هذه المجهودات بإخلاص جهات تقف وراءها، فظلت على حال الجمود، وبعضها لم يبلغ مرحلة البدء وظل في عالم الأماني.

ويمكننا تقسيم هذه المجهودات التي لم تنضج إلى ثلاثة فروع:

- الرحلات إلى الغرب والحركة الثقافية والعلمية.
- حركات الإصلاح ومواجهة الغرب.
- المجهودات الجماعية.

إلا أن هذا كله -وإن لم ينضج- يمثل قاعدة متينة وتراثًا وافرة لحركة الاستغراب المنشودة.

١- الرحلات والحركة الثقافية والعلمية

أحصت د. نازك مائة واثنين وأربعين رحالة عربيًا بين القرنين التاسع عشر والعشرين، ذهبوا إلى الغرب وسجلوا رحلاتهم في مؤلفات تبلغ نحو الأربعمائة مؤلَّف إن لم يكن أكثر.

إذ بعض الرحلات دمجت في مؤلف واحد وكان أصلها كتبًا مفترقة[١].

وقد تعددت أسباب الرحلات بين المهمات الرسمية أو البعثات العلمية أو الدراسة أو النفي السياسي أو الدفاع عن القضايا الوطنية أو السياحة، وقد كانت المنافسة السياسية بين فرنسا وإنجلترا وروسيا والنمسا وألمانيا مما يتيح لبعض الحركات السياسية أن تتخذ من هذه العواصم مقرات لها للدفاع عن قضاياها ضد البلاد المحتلة لا سيما مع ازدهار حركة الصحافة وصدور الجرائد، كذلك كانت النهضة العلمية وحركة التغريب مما دفعت بكثير من العرب إلى إكمال دراستهم في الغرب أو حضور مؤتمرات علمية، حتى إنه «من الأعمال الثمانية التي نشرت في القاهرة خلال السنوات العشر الأخيرة للقرن التاسع عشر والتي تصف بلدان وأفكار أوروبا، كانت خمسة عبارة عن تقارير عن رحلة إلى مؤتمر استشراقي أو معرض عالمي»[٢].

ومن بين مَن ذهبوا من انبهر وافتتن أبدًا، ومنهم مَن انبهر وافتتن ثم عاد ورجع إلى أصوله، ومنهم مَن كان على العهد ونظر إلى الغرب معتزًّا بذاته ومنطلقًا من هويته.

فمن هذا الصنف الأخير -الذين يصدق عليهم وصف المستغرب كما ذكرناه- عدد جميل من أبرزهم: علي مبارك صاحب «الخطط التوفيقية»، وأحمد زكي الملقب بشيخ العروبة، ومحمد المويلحي صاحب «حديث عيسى بن هشام»،

---

(١) د. نازك سابا يارد: الرحالون العرب والحضارة الغربية ص٤٤١ وما بعدها. وهو جمعٌ نادرٌ، وإن فاتها بعضهم مثل: محمد بيرم صاحب السِّفْر الضخم «صفوة الاعتبار بمستودع الأمصار والأقطار» (٥ مجلدات)، وعلي مبارك صاحب كتاب «علم الدين» (٤ مجلدات) وهو قد صيغ في شكل مسامرات أصلها عن مؤتمر الخيال للمستشرقين في باريس.

(٢) تيموثي ميتشل: استعمار مصر ص٤٨.

ومحمد كرد علي صاحب «خطط الشام»، ومحمد فريد باشا، وشكيب أرسلان الملقب بأمير البيان.

وأما الحركة العلمية الثقافية فمجال واسع فسيح، فكم قد درس شباب من بلادنا في الغرب، وكم منهم تعلَّموا على يد مستشرقين سواء في الجامعات العربية أو في الجامعات الغربية، بل إن فوجًا ممن عادوا إلى الصف الإسلامي من بعد ما كانوا يساريين وماركسيين مثَّلوا طليعة إسلامية مقاتلة في الساحة الفكرية كجلال كشك ومحمد عمارة وطارق البشري وعادل حسين وعبد الوهاب المسيري وغيرهم.

ومنهم من سبق عليه الأجل قبل أن نستفيد من توبته مثل عبد الرحمن بدوي ممثل الفلسفة الوجودية في بلادنا، وواحد من أهم الفلاسفة العرب، الذي كتب كتابيه «دفاع عن القرآن» و«دفاع عن محمد ﷺ» في أواخر عُمره، لكنه لم يترك لنا تراثًا ناقدًا لحضارة الغرب وفلسفته ننتفع به، فقد قضى آخر حياته مريضًا ومعتزلًا في باريس.

٢- حركات الإصلاح

وذلك أن الصراع الحالي المستمر منذ قرون جعل كل مُنَظِّر أو مفكر أو مصلح له رأي في الغرب وفي الفارق بين الغرب والشرق وبين الغربيين والشرقيين، وكثير منهم عاش في بعض عواصم الغرب أو مرَّ بها، وكثير منهم له مؤلفات خاصة في تقييم ونقد الحضارة الغربية أو بعض قيمها أو مناظرات مع رجالها. ولكنهم أكثر من رحالة وأكبر من مجرد مفكرين أو مثقفين.

وكان تركيز المصلحين في مسألة الشرق والغرب منصرفا -بطبيعة الحال- إلى الفوارق بين الحالين، وهم بموقعهم من الإصلاح والجهاد وبسيرة حياتهم لا يُتَّهمون في ولائهم للدِّين وللأُمة، ويُحمل نقدهم مهما كانت قسوته على إرادة الخير وشحذ الهمم لا على التبرؤ والتعالي والافتتان بالغرب كما هو حال غيرهم.

ونحن لا نتوقع أن يكون إنتاجهم في الغرب إلا بقدر كون الغرب تحديًا وعدوًا، فإن أساس انبعاثهم إنما هو الإصلاح أو الثورة أو الجهاد ضد الاحتلال، فلا تثريب أن نجد تجييشًا أو اختزالًا أو تعميمًا قد لا يروق للأكاديميين، فإن الذي يباشر الحرب وينادي تحت ظلال السيوف غير الذي يرقب وينظر ويتابع من بعيد. إنما الذي نبتغيه من تراثهم هو معالجتهم لمسألة الغرب وسر تقدمه وطريق اللحاق به ضمن برامجهم ومشروعاتهم الإصلاحية.

يأتي على رأس هؤلاء جمال الدين الأفغاني، وعبد الله النديم، ومحمد عبده، ومصطفى كامل، ومحمد فريد، وعبد الحميد بن باديس، ورشيد رضا، ومحمد إقبال، وعبد الكريم الخطابي، والبشير الإبراهيمي، وحسن البنا، وسيد قطب، وعبد القادر الجزائري، وعلال الفاسي، ومالك بن نبي، ومصطفى السباعي، وأبو الأعلى المودودي، وأبو الحسن الندوي... وطائفة يطول مجرد سرد أسمائها.

فكتب هؤلاء من الكتب أو الخطب أو الرسائل والمقالات ما فيه خلاصة حياتهم وبرامجهم، وجهادهم الذي كان الغرب أحد أهم ساحاته إن لم يكن الهم الوحيد!

٣- مجهودات جماعية

لقد تجلت الرغبة في دراسة الغرب عبر العديد من المؤتمرات والندوات والمراكز البحثية، لكنها لم تصل إلى مرحلة البداية بعد، فإما انفضت المؤتمرات عن غير بذرة، أو بُذرت البذرة لكنها لم تلق الرعاية حتى تنبت.

فمن أبرز هذه المجهودات:

١- أنشأت جامعة الإمام محمد بن سعود قسم الاستشراق بكلية الدعوة بالمدينة المنورة منذ عام ١٤٠٣هـ (١٩٩٣م)، وهو مقتصر على الدراسات العليا حيث لا بد أن يكون الطالب متخرجًا في أحد العلوم الإسلامية أو يعطى سنة تأهيلية لإعداده في

هذه العلوم ليتمكن من دراسة كتابات المستشرقين. وقد ضم القسم متخصصين بالإضافة إلى العلوم الشرعية في مجال التاريخ وفي الاجتماع وفي الاقتصاد وفي الإدارة والاقتصاد.

وتضمنت المناهج الدراسية في هذا القسم دراسة أصول الحضارة الغربية بالإضافة إلى دراسة اللغات الأوروبية التي من المتوقع أن يكون الطالب متقنًا لإحداها[1].

إلا أن الروتين والتعقيدات الإدارية مع عدم وجود رغبة حالت دون تطور هذا القسم أو دخوله مرحلة العمل والإنتاج!

٢- عُقدت خلال شهر أغسطس عام ١٩٩٦م «ندوة أصيلة» السنوية في المغرب تحت عنوان: «الواحد من منظور الآخر».

وكان حضور هذه الندوة يتكون من أدباء ومفكِّرين من العالم العربي ومجموعة من الباحثين الأمريكيين، وكان من بين الموضوعات التي طرحت العلاقات بين العالم العربي والغرب، واتفق المجتمعون على أن العالم العربي تنقصه المعرفة الحقيقية بالغرب فاتفقوا على إنشاء مركز الدراسات الأمريكية في أصيلة نفسها[2].

وجاءت ندوة «أصيلة» لتدعو إلى إنشاء مركز الدراسات الأمريكية؛ فكانت المبررات التي نشرت تتلخص فيما يأتي: «فقد اتفق الحضور على وجود بعض أشكال من عدم الفهم للعروبة والإسلام في أمريكا وهذا ما يصعّب تقديم قضايا العرب والمسلمين بصفة جيدة، كذلك اتفقوا بالمقابل على عدم التفهم العربي الكافي لأمريكا ومجتمعها وعمل إدارتها السياسية».

---

(١) د. مازن مطبقاني: الغرب من الداخل ص٤، ٥.

(٢) د. مازن مطبقاني: الغرب من الداخل ص٤.

ورأى المجتمعون أن من الأهداف التي من الممكن تحقيقها من إنشاء المعهد «تقريب وجهات النظر وتقديم رؤية معتمدة على المعلومات المعاصرة وليس على الحساسيات التاريخية التي تتحكم بالجانبين».

أما الوسائل التي سيستخدمها المعهد في تحقيق أهدافه فهي «تقوية الحوارات والاتصالات بين الأكاديميين والصحافيين والعلماء والاقتصاديين من كلا الطرفين، كما يطبع الأعمال الثقافية والفكرية التي تخدم كافة أشكال الحوار الحضاري بين الثقافتين العربية والأمريكية»[1].

ومن الملاحظ هنا أن الأهداف فيها نفس استشراقي واضح، وذوبان تغريبي واضح، وتوقُّع أن المشكلة في أنهم يفعلون بنا كل هذا لأنهم لا يفهموننا، ونحن نعاديهم لأننا لا نفهمهم!! وآخر الأخبار المتاحة عن هذا المشروع أنه ما يزال تحت التنفيذ.

٣- وفي شهر ربيع الآخر ١٤١٨هـ (أغسطس ١٩٩٧م) عقد منتدى أصيلة ندوته السنوية وقرر إنشاء معهد الدراسات الأمريكية بالتعاون مع مركز دراسات الشرق الأوسط بجامعة هارفارد الأمريكية.

وقد حضر الجلسة الافتتاحية للندوة بندر بن عبد العزيز سفير المملكة العربية السعودية في الولايات المتحدة وقدّم تبرعا سخيا لإنشاء المعهد وكذلك لإنشاء مكتبة مركزية في مدينة أصيلة[2].

ولا جديد كذلك عن هذا المشروع منذ هذا الخبر.

---

(١) د. مازن مطبقاني: الغرب من الداخل ص٤ (ويقول بأن الخبر على صحيفة الشرق الأوسط بتاريخ ١٠/٨/١٩٩٦م).

(٢) د. مازن مطبقاني: الغرب من الداخل ص٤.

٤- وقد عمل الشيخ عبد الله بن بيه على إنشاء وحدة لدراسات الغرب ضمن مؤسسة الفرقان في لندن والتي أقامها أحمد زكي يماني[١]، ولكن لم يُفْضِ البحث عن جديد بشأن هذه الوحدة أو ما أثمرت من أعمال.

٥- ونبتت فكرة إنشاء مركز للدراسات الغربية بين مجموعة من العرب في باريس، على رأسهم أحمد الشيخ، ووجدوا صعوبة في إنشائه في باريس، إذ لم يرحب أحد بأن يدرس العربُ الغربَ.

وآخر ما وصلنا إليه هو قول صاحبه د. أحمد الشيخ: «المشروع مازال في طور التأسيس،لم ينتقل بعد إلى مرحلة العمل الحقيقي التي نتمناها، المعوقات كثيرة في الخارج وفي الداخل، لكن ما نجحنا فيه حتى الآن هو إعطاء مشروعية لهذا التوجه الجديد»[٢].

٦- تأسس في أمريكا «معهد الدراسات الغربية» عام ٢٠١٠، ثم افتتح له فرعًا في الرياض عام ٢٠١١، كأكاديمية دولية غير ربحية، وبحسب تصريحات رئيس المعهد د. فهد الحمودي فإن أعمالهم «على الدراسات القانونية ودراسة الأعمال والدراسات الدينية وذلك من خلال أربعة محاور وهي الأبحاث والنشر والتعليم من خلال بعض البرامج لإرسال طلابها واستقطاب أساتذة لإلقاء محاضرات بين المملكة العربيةالسعودية والولايات المتحدة الأمريكية وللتعرف على ثقافة الأديان وتنصب هذه في التوجيهات التي يرعاها خادم الحرمين الشريفين الملك عبدالله بن عبدالعزيز في نشر الحوار والثقافة وفهم الآخر وتقديم صورة مثالية عن المملكة والإسلام وفي المستقبل دول أوروبا»،كما يستهدفون أن يكون هذا المعهد «الرابط

---

(١) د. مازن مطبقاني: رحلاتي إلى بلاد الإنجليز ص١٠٠.

(٢) لقاء مع د. أحمد الشيخ، برنامج «الاستشراق»، قناة الجزيرة بتاريخ ١/ ١١/ ٢٠٠٢ (رابط)، بتصرف يسير.

بين المهتمين السعوديين والعرب وبين نظرائهم من المهتمين من الدول الغربية، سواء كانوا طلاب جامعات أو أساتذة جامعات أو محامين ودبلوماسيين أو مختصين في مجالاتهم في العلاقات السعودية الغربية»[١].

وبحسب موقعهم على الانترنت فإن لهم رؤية واسعة وطموحة، كذلك فإن فريق العمل يتنوع بين عرب وأجانب، ولكن لم يصدر عنه حتى الآن سوى كتاب واحد «الثقافة الأمريكية والتنوع الديني» للدكتور فهد الحمودي، ومجلة أعلن أنها ستكون نصف سنوية، لكن لم نجد أثرا لأي من أعدادها[٢].

۞ ۞ ۞

(١) صحيفة الجزيرة السعودية بتاريخ ١١/ ٤/ ٢٠١٢.

(٢) www.westernstudiesinstitute.org

الفصل الثاني

أغراض الاستغراب

إن تحديد أغراضنا من دراسة الغرب هو فرع من تعريفنا لأنفسنا، وحيث إننا أمة الإسلام فنحن نستمد معرفتنا بأنفسنا ودورنا في الحياة من كتاب ربنا وسنة نبينا ﷺ، وقد أوجز سيدنا ربعي بن عامر هذا كله في عبارته الخالدة: «الله ابتعثنا والله جاء بنا لنخرج مَن شاء مِن عِبادة العباد إلى عبادة الله، ومِن ضيق الدنيا إلى سعتها، ومِن جَور الأديان إلى عدل الإسلام»(١).

وهذه المهمة تستلزم أشياء أربعة: العلم، والدعوة، والتعاون، والمواجهة.

وليس ثمة رسالة حققت نجاحًا إذا لم تحقق هذه الرباعية، فكل واحد منها يُفضي إلى الآخر أو يلزمه.. فتلك هي أغراضنا في دراسة الغرب.

وتلك الأغراض هي جماع المجهود المبذول من المصلحين الذين سعوا في دراسة الغرب ممن استعرضنا بعض مجهودهم في الفصل السابق، وهم على اختلاف مشاربهم ورؤاهم التفصيلية ينطلقون منها، ونحن في هذا الفصل نردُّها إلى أصولها، كنوع من التأصيل والتذكير اللذين لا غنى عنهما لسالك طريق، وذلك من خلال هذه المباحث:

- المبحث الأول: العلم
- المبحث الثاني: الدعوة
- المبحث الثالث: التعاون
- المبحث الرابع: المواجهة

---

(١) الطبري: تاريخ الطبري ٢/ ٤٠١.

المبحث الأول:

العلم

بوّب الإمام البخاري رحمه الله في صحيحه «باب العِلم قبل القول والعمل»، فالعلم مبتدأ كل أمر، فلا يصلح القول إلا إن كان على علم، ولا يصلح العمل إلا إن بُني على علم، وهذا من الوضوح والظهور بمكان يغني عن التدليل عليه.

وتحصيل العلم بالغرب هو من ضرورات الأُمة، وإذا اعتمدنا تجديد الشيخ القرضاوي لمقاصد الشريعة[1]، فهو في صميم المقاصد الشرعية، وهو في كل الأحوال واجب لأنه مما لا تقوم واجبات أخرى إلا به، وذلك أن الأُمة المكلَّفة بإصلاح الأرض والدعوة إلى الإسلام والجهاد في سبيل الله يستحيل أن تقوم بهذه الواجبات دون تحصيل العلم المطلوب. ومن ثمَّ فإن هذا العلم هو في مرتبة الفرض الكفائي.

فأما من تصدى للعمل للإسلام في مجال يحتك بالغرب فقد صار العلم بالغرب واجبًا عليه بقدر ما يحتاجه، وصار التكليف في حاله متعينا بهذا القدر، إذ العلم في هذه الحال من ضرورات حفظ العقل الذي قصد إليه الإسلام «بوسائل وأمور كثيرة، منها: فرض طلب العلم على كل مسلم ومسلمة، والرحلة في طلب العلم، والاستمرار في طلب العلم من المهد إلى اللحد، وفرض كل علم تحتاج إليه الأمة في دينها أو دنياها فرض كفاية، وإنشاء العقلية العلمية التي تلتمس اليقين وترفض اتباع الظن أو اتباع الهوى، كما ترفض التقليد للآباء وللسادة الكبراء، أو لعوام الناس»[2].

---

(١) رأى الشيخ القرضاوي أن مقاصد الشريعة التي ذكرها الأقدمون متعلقة بالفرد «الدين، النفس، العقل، النسل، المال»، وينبغي أن يُضاف إليها ما يتعلق بمصلحة المجتمع والأمة. انظر: د. يوسف القرضاوي: دراسة في فقه مقاصد الشريعة ص٢٧ وما بعدها.

(٢) د. يوسف القرضاوي: دراسة في فقه مقاصد الشريعة ص٢٩، ٣٠.

وتحصيل العلم بالغرب يحقق للأمة عددا من المصالح والمقاصد الشرعية، أهمها هذه الستة:

١- تحقيق التعارف: وذلك مأخوذ من قوله عز وجل: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَـٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَـٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟﴾ [الحجرات: ١٣]، فالتعارف هو العلة المشتملة على الحكمة في خلق الناس شعوبًا وقبائل(١).

والمعنى المقصود: «لم نجعلكم كذلك لتتفاخروا بآبائكم الذين مضوا في الشعوب والقبائل، وإنَّما جعلناكم كذلك لتعارفوا»(٢).

«والحقيقة أن الإسلام دعَا إلى السلام وحث عليه، ومبدؤه العام التعارف بين بني الإنسان لا التنابذ بينهم»(٣).

٢- معرفة الجاهلية: فإنها طُرُق وألوان وسُبُل كثيرة ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ﴾ [الأنعام: ١٥٣].

ومعرفة الشر من وسائل معرفة الخير كما كـان حذيفة بن اليمان رضي الله عنه يسأل النبي ﷺ عن الشرّ مخافة أن يدركه(٤).

وقد حذَّر النبي ﷺ مِن اتِّباع سُنن الباطل فقال: «لتتبعن سنن من كان قبلكم شبرًا بشبر وذراعًا بذراع، حتى لو دخلوا جحر ضب تبعتموهم». قلنا: يا رسول الله، اليهود والنصارى؟ قال: «فمن؟»(٥).

ولا يتحقق الانتفاع من التحذير إلا بمعرفة سنن القوم.

---

(١) محمد الأمين الشنقيطي: أضواء البيان ٣/ ٤٥، ٧/ ٤١٧.

(٢) الشافعي: تفسير الإمام الشافعي ٣/ ١٢٨١.

(٣) محمد أبو زهرة: زهرة التفاسير ٢/ ٦٥٢.

(٤) البخاري (٣٤١١)، ومسلم (١٨٤٧).

(٥) البخاري (٦٨٨٩).

وقد ورد عن عمر بن الخطاب قوله: «إنما تُنقض عُرى الإسلام عُروة عُروة إذا نشأ في الإسلام من لا يعرف الجاهلية»[١].

ويترتب على معرفة الجاهلية زيادة الإيمان ووقر اليقين في القلوب، لما في ذلك من معرفة بعظمة الدين وحكمة الله وعلمه.

٣- **طلب الحكمة**: التي هي ضالة المؤمن والتي أنّى وجدها فهو أحق الناس بها، والتي من أجلها طلب الناس العلم في الشرق والغرب.

وقد أخذ النبي ﷺ عن الروم ختم الكتب بخاتم فاتخذ خاتمًا من فضة[٢]، وكاد ﷺ ينهي عن الغيلة[٣] (بصفته رئيسًا للدولة) لولا أن رأى الروم وفارس لا يتضررون منه فلم يفعل[٤]، ولبس ﷺ جُبة رومية[٥]، وصنع له المنبر روميٌّ على نحو ما كان في بلاده[٦].

وما لدى الغرب الآن من القوة لم يكن من فراغ ولم ينبت فجأة، والحاجة إلى القوة تستوجب الحاجة إلى الاطلاع على ما لديهم والتعلم منهم والتتلمذ عليهم والاستفادة من تجاربهم، وفي النهاية سنجد أن كل خير طبقوه إنما هو موجود -أو له أصل- في كتاب ربنا وسُنة نبينا وتراثنا الفقهي والتاريخي ولكن القوم فعلوه ونحن غفلنا عنه أو أهملناه.

---

(١) ابن تيمية: منهاج السنة ٢/ ٣٩٨.

(٢) البخاري (٥٥٣٧).

(٣) الغيلة: هي وطء الزوجة المرضع، وكانت العرب تظن أنه يضر بالولد.

(٤) مسلم (١٤٤٢).

(٥) أحمد (١٨٢٦٥)، والترمذي (١٧٦٨)، والنسائي (١٢٥)، وصححه الألباني وشعيب الأرناؤوط.

(٦) الطبراني: المعجم الأوسط (٢٢٥٠)، وابن خزيمة (١٧٧٧)، وقيل عن الرومي إنه ربما يكون تميما الداري «لأنه كان كثير السفر إلى أرض الروم». ابن حجر: فتح الباري ٢/ ٣٩٩.

«إننا في أشد الحاجة إلى الصناعات الإفرنجية، وما تتوقف عليه من العلوم والفنون العملية، وإلى الاعتبار بتاريخهم، وأطوار حكوماتهم وجماعاتهم، ولكن يجب أن يقوم باقتباس ذلك جماعات منا، يجمعون بينه وبين حفظ مقوماتنا ومشخصاتنا، وأركانها: اللغة والدِّين والشريعة والآداب، فمن فقد شيئًا من هذه الأشياء فقد فقد جزءًا من نفسه، لا يمكن أن يستغني عنه بمثله من غيره، كما أنه لا يستغني بعقل غيره عن عقله، ولا بجسم سواه عن جسمه، وإنما نستفيد من العبرة بحالهم، كيف نرقي لغتنا كما رقوا، وكيف ننشر ديننا كما ينشرون دينهم، وكيف نسهل طرق العمل بشريعتنا وآدابنا كما سهلوا طرق شرائعهم وآدابهم»(١).

كذلك نطلب الحكمة في وسائلهم لحل المشكلات التي واجهتهم، فما كان نافعا ومناسبا وناجعا تدبرناه، وما كان فاشلًا أو فاسدا لم نحتج أن نجربه مرة أخرى، ولا يمكن الوصول إلى حكم بالنجاح والفشل إلا بعد دراسة وتدبر وتعمق في عوامل وظروف عديدة.

٤- فهم السُّنن الكونية: وذلك أن سنن الله المسطورة في كتابه وفي سنة نبيه، إنما تستبين وتتضح من خلال الواقع والتاريخ، ومن هنا كان السير في الأرض وسيلة للعلم بالسنن: ﴿ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٧].

فإذا درسنا الغرب علمنا على وجه العلم واليقين لا الظن والتخمين أنهم ﴿ ۞ لَيْسُواْ سَوَآءً﴾ [آل عمران: ١١٣]، وعرفنا فيم يتفقون وفيم يختلفون، وما الذي يفرقهم وما الذي يجمعهم، ومتى نتعامل معهم جملة ومتى لا يسعنا إلا التفريق في المعاملة.

(١) محمد رشيد رضا: مجلة المنار ١٧/ ١٠.

وإذا درسنا الغرب علمنا كيف تعمل سنن الله في قيام الأمم وسقوطها، وفسَّرنا ما يحل بهم من تقدم أو تراجع على ضوء معرفتنا بهذه السنن، فبالتفاصيل نعرف قدر كل عمل وأثره في ميزان النهضة أو السقوط، وعرفنا ما هي العوامل التي تحافظ على بقائهم وما هي التي تدفعهم للهاوية، وإذا ضبطنا هذا الميزان -وهو عملٌ جليل رهيب، لا يتأتى إلا بعد مجهود ضخم هائل- استطعنا أن نفهم أسئلة تبدو من بعيد محيرة ومثيرة مثل:

لماذا تظل الرأسمالية متماسكة رغم كل مشكلاتها وكوارثها؟ وكيف بعد هذه القرون من المادية التي صبغت الحياة الغربية وأنظمتها لا زالت ثمة مظاهر إنسانية أصيلة؟ وكيف نجمع بين انحسار تأثير المسيحية والنقص المضطرد في أعداد المسيحيين والمترددين على الكنائس وبين ارتفاع شأن المسيحية وعلو صوتها وزيادة أموال الكنائس وثرواتها وابتلاع المجتمع الغربي لكل ما يصدر عن الكهنة والقساوسة من فضائح أخلاقية؟ وكيف يجمع الغرب بين مظهرين يبدوان متناقضين: الرحمة والرعاية الوافرة للأطفال، والقسوة والإهمال للكبار؟!

أليس مثيرا للتأمل أن الفلسفات الغربية قد أدت إلى عكس مقصودها؟! كيف تطورت الرأسمالية التي قامت لمحاربة الاحتكار وتوفير اختيارات متعددة إلى أن صنعت أعظم طبقة احتكارية في التاريخ حتى إنها لتتحكم في مقدرات الدول وثروات الأرض؟! وكيف تطورت الاشتراكية التي قامت لتحرير الشعوب من الطبقية وتحكم الأقلية وسطوتها لتنتج أبشع نظام طبقي أفرز أوسع المذابح الشعبية وامتلكت أقليته من القهر ما لم يمتلكه إقطاعي عبر التاريخ؟! وكيف تطورت «النسبية» من فلسفة قامت وهي ترجو أن تكون سببًا في التعددية التي تفرز التسامح إلى فلسفة تُميِّع كل الحقائق حتى لم يعد من سبيل لإثبات شيء ما على أنه «حقيقة» إلا بقوة السلاح، فكأنها أفسدت كل منطق إلا منطق القوة، فأي تسامح يبقى حينئذ؟! وهل كانت

العلمانية خروجًا من الدِّين حقًّا أم أنه اعتناق لدين جديد: حلَّت فيه الدولة محل الكنيسة، والدستور محل «الكتاب المقدس»، وعلم الدولة محل الصليب؟!

وهذا فضلًا عن الأسئلة الكبرى المطروحة دائمًا، والتي تعد الحضارة الغربية إحدى التجارب الإنسانية المهمة المفيدة في تحديد الإجابة، مثل: ما هي الفِطرة الإنسانية؟ ما هو المشترك بين كل البشر؟ ومتى تنتصر الفطرة على نواقضها؟ ومتى تستطيع النواقض تحريف الفطرة وتنكيسها؟ وما الوزن النسبي لكل من: القوة المادية، القوة الناعمة، العدالة الاجتماعية، الاستقرار الاقتصادي ...إلخ في معادلة النهضة؟ وما مدى قدرة الأرقام والإحصائيات على التعبير عن حقائق إنسانية مركبة؟

٥- **القيام بالواجبات**: وذلك أن الأمة صاحبة رسالة إصلاح الأرض لا بد لها من العلم بكل ما يقتضيه هذا الإصلاح، سواء بالدعوة إلى الله وتبيين محاسن الدِّين وحقيقته وقدرته على إصلاح أحوال العباد وإنقاذ البلاد، أو بالتعاون على البر والتقوى مع المسلمين وغيرهم، أو بجهاد المفسدين والمبطلين ومقاومة شرهم ودرء فسادهم وإفسادهم. فكل هذا يستلزم علمًا واسعًا وافرًا في كل المجالات، وأيما مجال لم يكن فيه من يقوم به كان ثغرة، وربما كان ذلك إثما تحمله الأمة كلها إذا كان من فروض الكفايات التي لا تجد من يقوم بها.

٦- **معرفة فضل الإسلام**: فمن الحقائق أن كثيرًا من فضل الإسلام على الغرب لم نعرفه إلا من خلال الغرب والمستشرقين.

وقد قدَّمنا لدى مناقشة الاستشراق وآثاره كيف كشف المستشرقون كثيرًا من فضل الإسلام على الغرب وعلى الإنسانية، سواء بما حفظوه من تراث الأقدمين أو بما طوروه وجددوه أو بما أبدعوه وابتكروه، وتزيد الأهمية إذا كنا سندرس مناطق عاش فيها الإسلام زمنًا كالأندلس وصقلية وشرق أوروبا أو شعوبًا ما تزال مسلمة رغم وجودها -جغرافيا- في الغرب كشعوب البلقان،

«إذ لا بد من دراسة عميقة واسعة لتاريخ الشعوب والأمم والبلاد والمجتمعات، حتى نستطيع أن نقارن بين ماضيها وحاضرها ونهتدي إلى عمل الدعوة الإسلامية والبعثة المحمدية في تغيير العقيدة وإصلاحها، والقضاء على آثار الجاهلية والفلسفات الوثنية والتقاليد الموروثة، وتحويل التيار الفكري من جهة إلى جهة، والتغيير الثوري في القيم والمثل، وتناول المدنيات بالتهذيب والتحسين»[1].



(١) الندوي: الإسلام أثره على الإنسانية وفضله على الحضارة ص١٣.

المبحث الثاني

الدعوة

إنَّ الدعوة إلى الله من صميم واجبات الأُمة الإسلامية، وإن القيام بهذا الواجب يقتضي العلم بأُمة الدعوة وأحوالها وما هي عليه من أفكار وما لديها من نظم سياسية واقتصادية واجتماعية.

وهذا العلم هو البديل الإسلامي للوهم الغربي المسمى بـ «الحياد العلمي»، إذ ليس ثمَّة إنسان يمكنه أن يكون محايدًا، لا سيما إن كان موضوع الدراسة موضوعًا إنسانيا، فكيف إذا كان الموضوع مما قد يصطدم مباشرة بأفكار الباحث الذي تكونت نفسيته وشخصيته وثقافته في ظل مناخ حضاري وثقافي؟! كيف لمثل هذا أن يدعي أنه محايدٌ؟!

والعلم الذي يترتب عليه واجب الدعوة أقوى وأعمق حتى من فكرة «الموضوعية»، فهما وإن اشتركا في ضرورة التوثق من كل معلومة والفحص لكل ظاهرة، إلا أن العلم الذي يترتب عليه دعوة هو بحثٌ تلهبه روح الدعوة وتحركه حماسة الداعية، فهو أعمق من الرصد والفحص والتسجيل لأنه يبتغي الفهم والوصول إلى أعماق الظواهر ابتغاء الإمساك بمفاتيح الموضوع وأصوله لأنها ستكون ركائز عملية الدعوة في الخطوة التالية.

ولا ريب أن الفهم العميق لأمة الدعوة مع اتخاذ موقف من هذه الأفكار هو أمر ممكن إنسانيا، بخلاف محاولة الخروج من كل موقف مسبق والانسلاخ عن كل فكرة قبل الدخول إلى البحث لتحقيق هدف «الحيادية»، وسنأتي إلى هذه النقطة بمزيد تفصيل في الباب القادم.

إن مما يلفت النظر ويثير التأمل أن الجزء الأول من القرآن الكريم كان حديثًا مطولًا عن أعداء الأمة من المنافقين واليهود والمشركين، وذلك أن الدعوة تحتاج إلى هذه البصيرة: ﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى﴾ [يوسف: ١٠٨].

إنه لا مناص من دراسة معمقة للغرب نعرف منها مداخل الدعوة إليه، وما الذي يثير أشواق الناس، أو يكدر حياتهم، ما أحلامهم وما همومهم، وبهذا وحده نستطيع أن نقدم الإسلام بالوجه المناسب.

إن الدعوة إلى الزهد لها رنين خاص في مجتمع فوجئ بأنه لم يصل إلى الراحة مع التقدم التقني، بل على العكس وصل إلى اللهاث، «لم ينتج عن هذا زيادة التحكم في الذات الإنسانية أو في الواقع الموضوع بل على العكس، فمع ظهور الإنسان الطبيعي (المادي) وتحديد المنفعة واللذة باعتبارهما الهدف الأساسي للوجود الإنساني، ترجم هذا نفسه إلى الاستهلاكية، وتصور أن مزيدًا من السلع فيه مزيد من المنفعة واللذة، وقد تسارعت وتائر هذه الاستهلاكية تسارعًا مذهلًا، وبعد أن كانت الحاجة هي أم الاختراع أصبح الاختراع هو الذي يولد الحاجة، فوجد الإنسان نفسه محاطا بسلع وأجهزة ليس متأكدًا تمامًا أنه يريدها والسلعة مثل المادة شيء يتحرك بلا هدف أو غاية، وبدأ الإنسان يشعر أنه لم يعد يملك من أمره شيئا وأنه يدخل في بحث لا ينتهي عن هدف لم يحدده في عالم ليس من صنعه تتراكم فيه سلع لا يريدها»(١)، ويكاد كل من تكلم في تفسير انتشار البوذية في الغرب أن يُرجع هذا -في بعض وجوهه على الأقل- إلى الشوق إلى الروحانية التي تتألق تحت ضغط المادية العنيفة(٢).

---

(١) د. عبد الوهاب المسيري: العلمانية تحت المجهر ص١٣٣.

(٢) كارين أرمسترونج: سيرة النبي محمد ص١٥.

وإن بيان حال المرأة في الإسلام وما أوجبه على زوجها أو أبيها من النفقة عليها له رنين خاص في مجتمع يشهد عودة المرأة إلى بيتها وعزوفها عن المشاركة في الرأي العام، ومن ثَمَّ تراجع الإقبال على دور الحضانة، وقد علقت صحيفة التايم البريطانية على هذا بأن النساء استسلموا ودخلوا المطابخ(١).

إنَّ أهل الإسلام يجب أن يكونوا حاضرين في لحظة تشهد موجة العودة إلى الدين في الغرب، وهي الظاهرة التي تشمل العالم كله(٢) ويسميها المفكر الفرنسي جيل كيبل «ثأر الله»، إذ إن الصحوة الدينية قد «انتشرت في كل قارة وكل حضارة وكل دولة في الواقع»، وخلاصتها أن «التوجه نحو العلمنة ونحو تكييف الدِّين مع العلمانية أخذ وجهة معاكسة، ظهر توجه ديني جديد لم يعد يهدف إلى التكيف مع القيم العلمانية وإنما إلى استعادة أساس مقدس لتنظيم المجتمع، وعن طريق تغييره إذا لزم الأمر»(٣).

وفي أمريكا نفسها -منذ ريجان وحتى الآن- ثمة اتفاق بين الكتاب على موجة الرجوع إلى الدين والنفور من الإلحاد والإباحية وتدني الأخلاق(٤)

وقد سجل د. مازن مطبقاني في كتابه «رحلاتي إلى بلاد الإنجليز»(٥) عددًا من

---

(١) د. مازن مطبقاني: رحلاتي إلى بلاد الإنجليز ص٧٨، ٧٩، وهو ينقل عن: أليس مايلز Alice Miles في التايم ٢/ ٥/ ٢٠٠٧م.

(٢) كارين أرمسترونج: سيرة النبي محمد ص١٥ وما بعدها.

(٣) صمويل هنتنجتون: صدام الحضارات ص١٥٨.

(٤) د. مازن مطبقاني: الغرب من الداخل ص٦٥ وما بعدها، ريتشارد كوك وكريس سميث: انتحار الغرب ص٨١ وما بعدها.وتقدر معظم الاستطلاعات أن حوالي ٨٥٪ من الأمريكيين يعتنقون عقيدة دينية، و٥٥٪ يحضرون الطقوس الدينية بانتظام. العربية نت بتاريخ ٢/ ٥/ ٢٠١٢م.

(٥) وهو الكتاب الذي يعدُّ مثالا على الفارق بين عين صاحب الرسالة ويقظته وبين عين الباحث «المحايد» إن صحَّ وجود مثل هذا.

الظواهر التي ينبغي ألا تفلت من صاحب رسالة، أهمها ما يُكتب في الصحافة البريطانية عن حاجة بريطانيا إلى الإسلام[١] أو المعاناة من شيوع الخمر[٢]، ومنها النقاشات المطروحة على المجتمع الغربي عن عقوبة القصاص ودوافع تأييدها أو رفضها[٣].

إن الوقت يبدو مناسبًا لاستقبال الإسلام في ظل انطفاء بريق الفلسفات، إذ ليس ثمَّة فلسفة لها ذات البريق القديم.

بل إن أزمة هوية تبدو واضحة في الكتابات الغربية، كما يبدو واضحًا ذلك القلق والخوف من المستقبل، حتى لتشيع الكتب ذات العناوين الموحية «سقوط الغرب»، «انتحار الغرب»، «موت الغرب»... إلخ.

في كتاب «انتحار الغرب» لخَّص المؤلفان دوافع التأليف في هذه الفقرة تشير إلى عمق هذه الأزمة:

«أطروحتنا هي أن الفرد الذي يحسن نفسه، والواثق، والمسؤول، والمتجذر تجذرًا كاملًا في مجتمع ليبرالي مع إحساس بالواجب نحو ذلك المجتمع، هو الفرد الذي يتلاشى الآن تدريجيًا، وفي مكان الإيمان لدينا اللا أدرية أو النسبية، وفي مكان التفاؤل لدينا الجبرية، وفي مكان الإحساس بالتقدم لدينا التحذيرات المسبقة، وفي مكان الأحلام لدينا الكوابيس، وفي مكان التوفير لدينا الاستهلاك، وفي مكان الكفاح لدينا العاطفية، وفي مكان المسؤولية نحو الآخرين لدينا الإحساس بكونهم ضحية، وفي مكان المثالية لدينا الارتياب، وفي مكان المعنى والهدف لدينا المال، وفي مكان العقل لدينا العواطف، وفي مكان الجدية لدينا التفاهة والإفراط في اتباع شهوات

(١) د. مازن مطبقاني: رحلاتي إلى بلاد الإنجليز ص١٠٦ وما بعدها.

(٢) د. مازن مطبقاني: رحلاتي إلى بلاد الإنجليز ص١٤٦ وما بعدها.

(٣) د. مازن مطبقاني: رحلاتي إلى بلاد الإنجليز ص٨٤ وما بعدها.

النفس، وفي مكان نماذج الدور الأصيل لدينا المشاهير المُمِلُّون، وفي مكان المجتمع لدينا التشظي»[١].

وليس يتأثر بمثل هذه الحال كما ينبغي أن يتأثر لها صاحب رسالة، وإن أمة الإسلام التي تحمل رسالة إنقاذ الناس وإصلاح الأرض، ينتظرها حمل ثقيل!

وفي مقام الدعوة هذا ينبغي أن نشير إلى أمرين مهمين:

أولهما: أن دعوة أهل الغرب يجب أن تقوم على أسس من أهمها دراسة الأسلوب الأنسب في الدخول إلى العقلية والنفسية الغربية، وهنا سنجد أنفسنا ملزمين بالاطلاع على كتب المستشرقين المنصفين أو شبه المنصفين ممن أرادوا تغيير الصورة الذهنية السيئة لدى الغربيين عن الإسلام والمسلمين، فإن ثمة خيطا متينا واصل بين هؤلاء يدركه من أكثر القراءة لهم. فمن هذا نعلم ما يُقال وما حضر أهله وما حان وقته من سائر الكلام.

وثانيهما: أن الحرص على دعوة الغربيين وحُب الخير لهم والحرص عليهم وبذل الدعوة لهم، لا ينافي اليقين في أن الغرب سيظل غربًا وسيكون مركز العداء للإسلام وطرف الملاحم التي في آخر الزمان.

استنادًا على ما نعلمه من أحاديث النبي ﷺ.



---

(١) ريتشارد كوك وكريس سميث: انتحار الغرب ص٢٠، ٢١.

المبحث الثالث

التعاون

يمثل التعاون الحد الأدنى من العلاقة السوية بين المختلفين، وليس بعده إلا القتال والصراع.

والتعاون فطرة أصيلة في الإنسان وهو قديم فيه، ومهما اختلف علماء الأنثربولوجيا في «الماذا» و«كيف» نشأ لأول مرة فإنهم متفقون على أنه وُجِد منذ اللحظات الأولى[1].

وقد أجمل ابن خلدون القول في التعاون وكونه فطرة فقال: «الواحدُ من البشر لا تُقاوِم قدرتُه قدرةَ واحدٍ من الحيوانات العُجم سيما المفترسة؛ فهو عاجز عن مدافعتها وحده بالجملة، ولا تفي قدرتُه -أيضًا- باستعمال الآلات المُعَدَّة لها، فلا بد في ذلك كله من التعاون عليه بأبناء جنسه، وما لم يكن هذا التعاونُ فلا يحصلُ له قُوتٌ ولا غذاءٌ، ولا تتمُّ حياته؛ لِمَا رَكَّبه الله تعالى عليه من الحاجة إلى الغذاء في حياته، ولا يحصل له أيضًا دفاعٌ عن نفسه؛ لفُقْدَان السلاح، فيكون فريسة للحيوانات ويُعاجله الهلاك عن مدى حياته، ويَبْطُل نوع البشر، وإذا كان التعاون حصَل له القوتُ للغذاء، والسلاحُ للمدافعة، وتمَّتْ حكمة الله في بقائه وحِفْظِ نوعه؛ فإذًا هذا الاجتماع ضروري للنوع الإنساني، وإلا لم يَكْمُل وجودهم، وما أراده الله من اعتمار العالم بهم، واستخلافه إياهم»[2].

---

(١) هـ. جـ. ويلز: معالم تاريخ الإنسانية ١/ ١١٤، ول ديورانت: قصة الحضارة ١/ ١٢، أشلي مونتاغيو: البدائية ص١٤، ١٥.

(٢) ابن خلدون: تاريخ ابن خلدون ١/ ٤٣.

وقد أمر القرآن الكريم بالتعاون فقال تعالى: ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ ۖ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ ۚ﴾ [المائدة: ٢]، وقال الإمام القرطبي بأن هذا «أمر لجميع الخلق[١] بالتعاون على البر والتقوى»[٢].

وكان على المسلمين أن يعينوا أعداءهم على فعل الخير، ذلك «أن التعاون عليها يكسب محبة تحصيلها، فيصير تحصيلها رغبة لهم، فلا جرم أن يعينوا عليها كل ساعٍ إليها، ولو كان عدوًّا، وإن كانوا كفارًا يُعَاوَنون على ما هو بر؛ لأن البر يهدي للتقوى»[٣].

وأنكر القرآن الكريم على الناس أن يجعلوا ما بينهم من خلافات مبعثا للتنازع، فقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا﴾ [الحجرات: ١٣]، قال سيد قطب: «يا أيها الناس. والذي يناديكم هذا النداء هو الذي خلقكم.. من ذكر وأنثى.. وهو يطلعكم على الغاية من جعلكم شعوبًا وقبائل. إنها ليست التناحر والخصام. إنما هي التعارف والوئام. فأما اختلاف الألسنة والألوان، واختلاف الطباع والأخلاق، واختلاف المواهب والاستعدادات، فتنوع لا يقتضي النزاع والشقاق، بل يقتضي التعاون للنهوض بجميع التكاليف والوفاء بجميع الحاجات»[٤]، فالمقصود من الآية «أنكم حرفتم الفِطرة وقلبتم الوضع فجعلتم اختلاف الشعوب والقبائل سبب تناكر وتطاحن وعدوان»[٥].

---

(١) قوله «لجميع الخلق» وليس للمسلمين فحسب، فجمهور العلماء على أن الكفار مخاطبون بفروع الشريعة عقلا وشرعا. انظر التفصيل في: الموسوعة الفقهية الكويتية ٣٥/ ١٩ وما بعدها.

(٢) القرطبي: الجامع لأحكام القرآن ٦/ ٤٦.

(٣) الطاهر بن عاشور: التحرير والتنوير ٦/ ٨٧.

(٤) سيد قطب: في ظلال القرآن ٦/ ٣٣٤٨.

(٥) الطاهر بن عاشور: التحرير والتنوير ٢٦/ ٢٦٠.

وجاء في سُنة النبي ﷺ أن «الدَّال على الخير كفاعله»[(١)]، وقوله ﷺ «خير الناس أنفعهم للناس»[(٢)].

وكذلك حفلت سيرته ﷺ بأنواع التعاون هذه مع أعدائه، فقد شهد في شبابه تحالفًا بين وجوه بيوت تعاهدت على نصرة الغريب المظلوم الذي فقد السند القبلي في بيئة قبلية، وهو حلف الفضول، وقال: «لقد شهدتُ في دار عبد الله بن جدعان حِلفًا، ما أحب أن لي به حُمْر النعم، ولو دعيتُ به في الإسلام لأجبتُ»[(٣)].

واستعان في هجرته ﷺ بعبد الله بن أريقط المشرك الأمين الخبير في الطريق[(٤)]، وكان من أول أعماله عند وصوله المدينة وضع وثيقة المدينة وفيها التعاون بين المسلمين والمشركين واليهود على حماية المدينة والدفاع عنها وعلى تسليم المجرمين والتشارك في النصرة[(٥)].

ولما أراد المشركون تفريق أهل المدينة استعمل النبي ﷺ صلة الرَّحم -لا صلة الدِّين- في الخطاب، وقصة ذلك أن مشركي قريش أرسلوا إلى عبد الله بن أبي ابن سلول -وقد كان الشخصية التي تتهيأ لتزعم المدينة- ومن كان يعبد معه الأوثان من الأوس والخزرج رسالة تقول: «إنكم آويتم صاحبنا، وإنا نقسم بالله لتقاتلنه أو

---

(١) أحمد (٢٣٠٧٧)، وأبو داود (٥١٢٩)، والترمذي (٢٦٧٠) واللفظ له، وصححه الألباني وشعيب الأرناؤوط.

(٢) أحمد (٩١٨٧)، والحاكم (٥٩)، وحسنه الألباني في صحيح الجامع (٦٦٦٢).

(٣) البيهقي (١٢٨٥٩)، ابن هشام: السيرة النبوية ١/ ١١٣، وانظر: الألباني: صحيح السيرة النبوية ص٣٥ وما بعدها.

(٤) الطبراني في المعجم الكبير (١٩٠١٥)، والهيثمي في مجمع الزوائد (١٥٢٨٩)، وانظر: الذهبي: سير أعلام النبلاء ٢/ ١٥٢.

(٥) محمد حميد الله: مجموعة الوثائق السياسية للعهد النبوي والخلافة الراشدة ص٥٧ وما بعدها، إبراهيم العلي: صحيح السيرة النبوية ص١٤٥ وما بعدها.

لتخرجنه، أو لنسيرن إليكم بأجمعنا، حتى نقتل مقاتلتكم، ونستبيح نساءكم». فلما بلغ ذلك عبد الله بن أُبي ومَن كان معه من عبدة الأوثان اجتمعوا لقتال رسول الله ﷺ، فلما بلغ ذلك النبي ﷺ لقيهم فقال: «لقد بلغ وعيد قريش منكم المبالغ، ما كانت تكيدكم بأكثر مما تريدون أن تكيدوا به أنفسكم؛ تريدون أن تقاتلوا أبناءكم وإخوانكم». فلما سمعوا ذلك من النبي ﷺ تفرَّقوا[(١)].

وللفقهاء كلام طويل مبسوط في مسائل التعاون مع الكافر والاستعانة به في السلم والحرب، ولهم تحقيقات مطولة في ضبط الموضوع لئلا يخرج عن كونه تعاونا على البر والتقوى فيدخل في كونه تعاونا على الإثم والعدوان[(٢)].

وقد بني الفقه كله على قاعدة المصلحة التي تنفع الناس.

قال الغزالي: «جلب المنفعة ودفع المضرة مقاصد الخلق، وصلاح الخلق في تحصيل مقاصدهم»[(٣)]، ولا تكتمل مصالح الناس بغير تعاون.

وتاريخنا زاخر بالتعاون مع الأُمم الأخرى، نسوق منه مثالًا واحدًا نستدل به على حرص المسلمين على تعاون «أكثر من المطلوب»، وهو موقف السلطان العثماني عبد المجيد الأول مع مجاعة أيرلندا التي ضربت البلاد بسبب آفة البطاطا التي أكلت المحصول، والذي كان المحصول الرئيسي في أيرلندا، وقد عمل جشع أصحاب المال على منع استيراد الحبوب من أمريكا الشمالية، فلما سمع السلطان عبد المجيد

---

(١) أبو داود (٣٠٠٤)، وقال الألباني: صحيح الإسناد.

(٢) ومن أدق هذه المسائل وأدلها على الغرض منع الفقهاء الاستعانة بالكافر على قتال المسلم ولو كان باغيا، والقلة التي أجازت هذا من علماء الأحناف اشترطوا وجود القدرة والسيطرة للمسلمين في حال القتال. فكان القصد كما عليه جميعهم هو «إعزاز الدين» وضبط أن يكون التعاون على البر والتقوى لا الإثم والعدوان. وجدير بالذكر أن أقوال الفقهاء هذه لا تنطبق بحال على أحوالنا المعاصرة لعلو حكم الكفر وظهوره على المسلمين.

(٣) الغزالي: المستصفى ص١٧٤.

الأول بأنباء المجاعة أرسل عشرة آلاف جنيه استرليني للمساعدة، فرفضت الملكة فيكتوريا هذا المبلغ لأن البروتوكول لا يسمح لأحد بما يفوق ما تبرعت به، وقد تبرعت بألفي جنيه فقط، فاكتفي السلطان بإرسال ألف جنيه، ثم أرسل ثلاث سفن محملة بالأغذية إلى ميناء دروهيدا (Drogheda) ساهمت في إنقاذ الوضع، وما زال الأيرلنديون يحفظون الجميل ويجعلون من الشِّعار العثماني شعارًا لبعض منتدياتهم مثل ستاد دروهيدا، ويعمل بعضهم على إنتاج فيلم سينمائي يخلد هذه القصة سيظهر للنور قريبًا[١].

إن دراسة الغرب تدلنا على مواطن التعاون مع القوم، فنحن مع أهل الكتاب ضد الملحدين، ومع أهل الدين ضد الماديين، ومع المؤمنين بالإنسان ضد العنصريين، ومع المنصفين للإسلام وأهله وحضارته ضد المتعصبين، ومع المؤمنين بالعدل وحقوق الإنسان ضد مسعري الحروب والداعين للاحتلال، وهكذا.. فنحن وإن كنا طريقًا وسطًا متميزًا بين الأُمم، إلا أن كثيرًا من المواقف العملية والجدالات النظرية تستدعي أخذ جانب الأقرب فالأقرب، ولذا سنجد أنفسنا مع فلاسفة فرانكفورت ضد فلاسفة المادية، ومع جون لوك ضد توماس هوبز في الحريات السياسية، ومع دور كايم ضد نيتشه في الأوضاع الاجتماعية، ومع توينبي ضد ماركس في العوامل الروحية المحركة للتاريخ... إلخ.

وليس يمكن أن نتعاون في كل هذا ما لم نعلم ونفهم وندرس هذا الغرب.

---

(١) انظر تقريرا مرئيا لقناة الجزيرة، ضمن برنامج «مراسلو الجزيرة» بُث بتاريخ ١٨/ ٣/ ٢٠١٤، وعرض الوثيقة العثمانية الخاصة بالموضوع، وانظر أيضا البحث الموسع الصادر حديثا لكريستين كينيلي عن المجاعة العظمى بأيرلندا «بذل المعروف والمجاعة العظمى في أيرلندا: عطف الغرباء»، والذي تتبع الموضوع، وتوجد منه نسخة إلكترونية على موقع جوجل للكتب:

Christine Kinealy: Charity and the Great Hunger in Ireland, The Kindness of Strangers

المبحث الرابع

المواجهة

كان حق هذا المبحث أن يكون المبحث الأول في هذا الفصل، فإني أكتبه في ظلال تدشين الحرب الجديدة على الإسلام، والعنوان هذه المرة هو «تنظيم الدولة الإسلامية في العراق والشام»، إلا أني آثرت الترتيب الذي أدركناه من الإسلام: التعارف ثم الدعوة، فإن لم يمكن فالتعاون، فإن لم يكن من سبيل فالجهاد والمواجهة، وقد جعل الله آخر الدواء الكي، وفرض على عباده القتال وهو كره لهم.

إن الصراع بين الحق والباطل مستمر منذ أن كان هذا المشهد ﴿ قَالَ يَٰٓإِبۡلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسۡجُدَ لِمَا خَلَقۡتُ بِيَدَيَّۖ أَسۡتَكۡبَرۡتَ أَمۡ كُنتَ مِنَ ٱلۡعَالِينَ ٧٥ قَالَ أَنَا۠ خَيۡرٞ مِّنۡهُ خَلَقۡتَنِي مِن نَّارٖ وَخَلَقۡتَهُۥ مِن طِينٖ ٧٦ قَالَ فَٱخۡرُجۡ مِنۡهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٞ ٧٧ وَإِنَّ عَلَيۡكَ لَعۡنَتِيٓ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلدِّينِ ٧٨ قَالَ رَبِّ فَأَنظِرۡنِيٓ إِلَىٰ يَوۡمِ يُبۡعَثُونَ ٧٩ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلۡمُنظَرِينَ ٨٠ ﴾ [ص: ٧٥ - ٨٠].

وذلك الصراع لا يكتفي فيه الباطل بالقلم واللسان بل يسرع إلى السيف والسنان، فإن حجته داحضة، وإنه زهوق! لذا سرعان ما يعبر الصراع عن نفسه في ساحات القتال!

باستقصاء الحروب المعروفة منذ بدء تاريخ البشرية حتى ١٩٤٥م، ظهر أنه: نشبت ٣٤٥٣١ حربًا خلال ٥٥٦٠ سنة، بمعدل ٦.٢ حرب كل عام، وخلال ١٨٥ جيلًا لم ينعم بسلم مؤقت إلَّا عشرة أجيال فقط[1].

إننا الآن في القرن الخامس عشر للهجرة، ويمكن القول بأن هذه القرون الطويلة لم تشهد هدنة طويلة بين الإسلام والغرب، فما إن تسكن الحرب حتى تشتعل مرة

---

(١) عبد اللطيف عامر: أحكام الأسرى والسبايا في الحروب الإسلامية ص١٩.

أخرى، رغم أن أول أمرها كان رسالة أرسلها النبي ﷺ إلى هرقل، والذي كان ممن ﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾ [النمل: ١٤] ففضَّل المُلك والحياة الدنيا على الآخرة، ثم مات مهزومًا يرى جيوشه تنهار أمام المسلمين.

وإننا لنعلم من حديث نبينا ﷺ أن المعركة بين المسلمين والروم مستمرة إلى نهاية الزمان، ولذا لا يصح أن يخجل المرء أن يقول بأن من أغراض دراسة الغرب هو جهادهم وقتالهم، فهذه بمثابة الحقيقة الكونية التي لا سبيل إلى تغييرها، ولو كان الأمر بيدنا فلربما حاولنا لكنه أمرٌ لا نتحكم فيه وحدنا!

بل إن الخجل من قول هذا هو من علامات الانهيار النفسي، فالحقيقة والواقع أننا أُمة مسحوقة على يد الغرب، وصاحبة ثأر طويل معه، فقد شرب من دمائنا ونهب ثرواتنا ثم يقول: هل من مزيد، ثم سلط علينا صنائعه من المستبدين والمفسدين ودعمهم، فحكم بهم البلاد وأذل بهم العباد، وأعطاهم من الأموال والأسلحة ما مَكَّنهم من ذبح الأمة وتسليمها ذليلة قابلة للاحتلال والاستعباد، وأنشأ إسرائيل في بلادنا وكان لها شريان حياة، وما تزال حممه تنهمر علينا في كل حين، وليس من داعٍ للإطالة فيما هو معروف مشهور!

ويزيد من شدة اللحظة الحاضرة ذلك الصعود السياسي للمتعصبين في الغرب -سواء اليمين المسيحي الصهيوني في أمريكا، أو الأحزاب اليمينية العنصرية في أوروبا- ووجود قوات عسكرية غربية في عواصمنا المحتلة -عسكريًا وسياسيًا- وعلى سواحلنا، والصوت المرتفع للمنظرين والمفكرين الذين يوجهون الاستراتيجية نحو مزيد من الحرب والسيطرة.

إن الله تبارك وتعالى أمرنا بإعداد القوة حتى في حال السِّلم لتحقيق الردع: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ﴾ [الأنفال: ٦٠].

فكيف ونحن الآن في حال الحرب وفي وضع الهزيمة والدفاع عن النفس؟! إنه جهاد مفروض على كل مسلم، وكلٌّ بقدر ما يستطيع.

ومن القوة الواجب إعدادها دراسة الخصم والعلم بكل ما يجري في معسكره ويؤثر عليه، ونحن أحرى الناس أن نفقه هذا بعدما رأينا من الفائدة العظمى التي حققها الغرب من علم الاستشراق وجهود المستشرقين في احتلال بلادنا، إذ لم يعد الغزو عسكريا فحسب، بل صار إعلاميًّا وثقافيًّا، وهذا نابليون نزل مصر بجيوشه وهو يعلن أنه قد أسلم وأنه تابع للخليفة العثماني وأنه أحسن دِينًا من المماليك بل إنه ما قدم إلَّا لإزالة فسادهم[1].

وكان كرومر يُثني على الشيخ محمد عبده وجهوده علنًا بينما يسعى في تغيير كل النظام التعليمي من خلال دنلوب سرًّا، وما كان كل هذا ليتم لولا التقارير العلمية التي توصي بقول هذا وعمل هذا[2].

يبدو الغرب من بعيد ككتلة واحدة، بينما إذا اقتربنا شيئًا يسيرًا وجدناه كُتَلًا متفرقة وإن استطاعت الحفاظ على تعاون وثيق فيما بينها، ومنذ أن تفرقت اللغة اللاتينية إلى لغات عدة فليس ثمة إمكانية لإعادة هذه الكتل إلى كتلة واحدة، إذ وحدة اللغة من أهم عوامل الوحدة السياسية، ثم إن ما مرَّ به الغرب من أحداث هائلة -آخرها الحرب العالمية الثانية- أحدث شروخا عميقة، فالألمان -مثلا- صار لديهم شعور عميق بالمظلومية فهم أقوى اقتصاد في أوروبا لكنهم بلا نفوذ سياسي وبلا

(١) الجبرتي: مظهر التقديس ص٢٣، ٢٤.

(٢) يذكر مؤرخ الحملة الفرنسية كريستوفر هيرولد أن أول رحلة استطلاعية لاحتلال مصر كانت قبل الاحتلال الفعلي بعشرين سنة، حيث أوفدت الخارجية الفرنسية البارون دتوت إلى مصر، وصحبه في رحلته العالِم الطبيعي سونيني، ومما جاء في تقريره: التوصية بأن تبدأ الحملة أعمالها بإذاعة «منشور يطمئن الأهالي إلى أن الفرنسيين قدموا بوصفهم أصدقاء، وحلفاء للسلطان، ومحررين لهم من ربقة المماليك». كريستوفر هيرولد: بونابرت في مصر ص١٧، ٢٠.

جيش، وتشيع في دول جنوب أوروبا موجة من الفقر كما في إيطاليا وإسبانيا، وقد تزيد حدة كما في اليونان، وهذا بخلاف طموحات الانفصال كما في اسكتلندا عن بريطانيا وكتالونيا عن إسبانيا والبندقية عن إيطاليا.

وعلى ضفة المحيط الأخرى يعتبر الأمريكان انفصالهم عن الإنجليز «استقلالًا»، ولديهم فخر بالآباء المؤسسين وبالدستور الذي تنطق نقاشاته بالعداء للإنجليز ونظامهم وابتغاء بناء نظام على خلاف نظامهم، حتى إن صحفيًّا أمريكيًّا تضيق الصحف والقنوات الأمريكية بتقاريره لا يجد متنفسًا له إلا في الصحف والقنوات الإنجليزية، وهو حين يفعل تصله رسائل تقول: «ابتعد عن أمورنا السياسية أيها الخنزير الإنجليزي»[(١)]!

لكن المواجهة تحتاج إلى الاقتراب أكثر وأكثر وأكثر، وتستلزم علما بالتفاصيل والدواخل، لتترتب الأولويات والعداوات، ونعرف كيف نحفظ أنفسنا وكيف نصيب من عدونا، ورحم الله أبا الطيب لما قال:

الرأي قبل شجاعة الشجعان هو أولا، وهي المحل الثاني

❁ ❁ ❁

(١) جريج بالاست: أفضل ديمقراطية يستطيع المال شراءها ص٩، ١١، ١٣، ١٥.

خلاصة الباب الثالث

لسنا نبدأ الاستغراب من الصفر ولا ننشئه من الفراغ، بل سبقنا على الطريق رواد كثيرون، وذلك أن الأزمة التي نحياها والحاجة التي نطلبها ليست وليدة اليوم بل تعود لقرنين من الزمان، ولئن كانت جهود المصلحين لم تأت بثمرتها المرجوة إلا أنها أنارت لنا طريقًا وحملتنا إرثًا نفيسًا لا نستغني عنه، فلئن كان ثمة اختلاف في التفاصيل والأساليب فلقد بقيت الأصول والغايات والأغراض كما هي.

لقد كانت صدمة الاحتلال الغربي لبلادنا قوية، لكن استجابة أُمتنا لهذه الصدمة كانت واحدة وواضحة، عنوانها النظر في أحوالنا وأحوال عدونا واستنهاض أُمَّتنا وامتلاك ما غاب عنا وامتلكه العدو في غفلتنا، لولا أن هذه الاستجابة نفسها ووجهت بصخور عاقتها مثل الجمود والاستبداد والاحتلال، وكل من هذه الثلاثة يدعم الآخر ويقويه، ثم أنتج هؤلاء جميعًا مصيبة جديدة، وهي محاولة إنتاج استجابة جديدة لهذه التحديات: التغريب!

ولهذا كان يجب أن نضع حد الاستغراب الذي نعرف به من كان من أُمتنا ومعبرًا عنها، دون من أراد الذوبان في عدونا أو ضل الطريق.

فإذا عرفنا هؤلاء استفدنا من تجربتهم وإرثهم، وتعلمنا من محاولاتهم، ما نجح منها وما أخفق.

ونحن بعد هذا لنا منبع أصيل لا نستغني عنه، القرآن والسنة، فمنهما انبعثنا ومنهما نعرف غايتنا وأهدافنا، وبهما نقيس الرجال وتجاربهم، فوجدنا أن أغراضنا من الاستغراب أربعة:

١ - العلم الذي نحقق به التعارف ونعرف به الجاهلية، ونحصل به الحكمة

ونفهم به السنن الكونية، ونستعين به في أداء الواجبات الشرعية، ونعلم به فضل الإسلام على الإنسانية.

٢- والدعوة إلى الله، والتي تستلزم معرفة القوم ومشكلاتهم وأمراضهم ومداخلهم لكي نحسن بذلها وتؤتي ثمرتها.

٣- والتعاون على البر والتقوى، وعلى ما فيه نفع الناس وإصلاح الأرض، ولا يتم التعاون إلا إن كنا على علم بأطراف المعاونة، ومن يصلح للتعاون في ماذا.

٤- والمواجهة التي تستلزم العلم بالخصم وما يدور في معسكره، وأهدافه وطرائقه وأساليبه، فالرأي قبل شجاعة الشجعان.



الباب الرابع

كيف ندرس الغرب

لقد شكل الإسلام عقل المسلم بحيث تترتب فيه الأولويات بوضوح، فالمسلم يعرف من دينه أن العقائد مقدمة على العبادات، وأن الفرائض مقدمة على النوافل، والأصول مقدمة على الفروع، وأن ما يتعدى نفعه مقدم على ما لا يتعدى نفعه، وأن مصلحة الأمة مقدمة على مصلحة الفرد، والمصلحة المتيقنة مقدمة على المصلحة المظنونة، والمصلحة الدائمة مقدمة على المصلحة العارضة، وأن مقاومة الشرك أولى من مقاومة الكبائر، ومقاومة الكبائر أولى من مقاومة الصغائر، وإذا عرض للمرء مصلحتان اختار أكبرهما، وإذا عرض له مفسدتان دفع أكبرهما، وإذا تعارضت المصلحة والمفسدة قدم ما كان أصلح، فإذا استوت المصلحة مع المفسدة كان درء المفسدة مقدم على جلب المصلحة، والمصلحة نفسها -كما قسمها بعضهم- ثلاث مراتب: الضروريات والحاجيات والكماليات، والذنوب -كما قسمها بعضهم- ثلاثة: شهوات وشبهات وشرك، ويُدفع الضرر الأعلى باحتمال الضرر الأدنى، ويُدفع الضرر العام باحتمال الضرر الخاص، والضرر يُزال بقدر الإمكان ولا يزال بضرر مثله أو أكبر منه.. وهكذا!

والقصد أن المسلم حين يلج إلى موضوع فإنه لا يدخله مدخل التائه الحيران، بل ينظر إليه نظرة المتأمل المتفحص، الذي يجمع أطراف الأمر من أقطاره حتى يستوي تصوره في نفسه فيعرف له مدخله، أو يتخير لنفسه أحسن المداخل وأولاها.

والأمر دائما محل تقدير ونظر، ولكنه التقدير والنظر مع الاجتهاد وبذل الوسع، وقد ضمن النبي ﷺ الأجر لمن اجتهد وإن أخطأ، بينما ضمن الإثم لمن لم يجتهد

وإن أصاب كما في حديث القضاة، فوحده الذي اجتهد فقضى مأجور، أما من لم يجتهد فآثمٌ ولو أصاب.

فالأمر -كما يقول أستاذنا جلال كشك- ليس مقامرة مأمونة الخسارة، والدول تعاقب من انتحل مهنة الطب ولو أصاب بينما لا تعاقب الطبيب ولو أخطأ[1]!

وفي موضوع الاستغراب أدى بنا اجتهادنا الذي نحسب أنه يسعنا في هذا المقام إلى أن نرتب منهجه وطريقته في هذين الفصلين:

- الفصل الأول: تأسيس الأصول
- الفصل الثاني: معالم في الطريق



(١) جلال كشك: خواطر مسلم حول الجهاد والأقليات والأناجيل ص٧.

الفصل الأول

تأسيس الأصول

نعني بـ «تأسيس الأصول» لعلم الاستغراب تنزيل القواعد الكلية الإسلامية على موضوع هذا العلم، وقد سبق وقدمنا في «التمهيد» أن العلم في الإسلام كمنهج ينطلق من قاعدة «التميز الإسلامي» التي هي دليل الإيمان بأن الله هو الحق وأن الإسلام حق وأن محمدًا ﷺ حق وأن هذه الأمة هي خير أُمة أُخرجت للناس طالما حققت شرط الله منها كما قال عمر بن الخطاب ﷺ. كما أن العلم من حيث كونه عملية إنسانية -تبدأ بالتأمل والنظر وتنتهي بالاستنتاج والحكم- محكوم بغايات وضوابط شرعها الإسلام لا يجوز الخروج عنها، وكتبناها هناك في ثلاثة عشر عنصرًا.

بغير هذا التأسيس لا يكون «علم الاستغراب» إسلاميًّا، ولا يؤمن أن تنحرف رؤيته ومساره وغاياته، وحينها ينقلب صورة أخرى من صور الجاهلية التي تخبط في الأرض على غير هدى وتتبع الهوى ﴿ فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُواْ لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَآءَهُمْۚ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ اللَّهِۚ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِى الْقَوْمَ الظَّٰلِمِينَ ﴾ [القصص: ٥٠].

أما من قد يظن أن «تأسيس الأصول» إنما هي عملية حجر على الفكر أو تضييق على الإبداع أو نحو ذلك من شعارات مكرورة مملولة، فهذا لا يعنينا في هذا المقام إذ ليس هو بالـمُخاطب فيه، وإنما غايتنا في هذا البحث أن نحقق «التأصيل الإسلامي» لعلم الاستغراب.

إن التأصيل الإسلامي لعلم الاستغراب يحتاج إلى هضم أمور ثلاثة:

الأول: الإسلام كدين ومنهج حياة.

والثاني: الغرب كواقع وحقيقة بشرية تحتاج إلى استكناه.

والثالث: الفوارق المؤثرة والـمُفَرِّقة بين الإسلام والغرب.

وهذه المقارنة بين «الإسلام» و«الغرب» هي المقارنة الصحيحة، فالإسلام ليس مجرد دين، ولذلك ليس مقابله المسيحية، وهذا أمر مفهوم وفي محل الحقيقة لدى الباحثين في التاريخ والحضارة، ويقوله المسلمون والغربيون على السواء.

فهذا المستشرق الشهير هاملتون جِب يقول: «الحق أن الإسلام ليس مجرد نظام من العقائد والعبادات، إنه أعظم من ذلك كثيرًا، هو مدنية كاملة، ولو بحثنا عن لفظ مقابل له لقلنا: العالم المسيحي ولم نقل المسيحية، ولقلنا الصين بدل أن نقول ديانة كونفوشيوس»[1].

وانطلاقًا من هذا جعلنا هذا الفصل في خمسة مباحث؛ ثلاثة منها عن هذه الثلاثة: الإسلام، الغرب، الفوارق المؤثرة بينهما. ثم أضفنا مبحثين كنماذج تطبيقية في محاولة للابتعاد عن المثالية التنظيرية والاقتراب من الواقع العملي، فتحدثنا عن نموذج لمستغرب وعن نموذج لقضية في الفكر الغربي، فاستوى الفصل على هذا النحو:

- المبحث الأول: الانطلاق من الإسلام
- المبحث الثاني: إدراك الفوارق الجوهرية
- المبحث الثالث: البحث عن الثوابت والكليات
- المبحث الرابع: علي عزت بيجوفيتش نموذجًا
- المبحث الخامس: قضية «البيئة» نموذجًا

---

(١) جب: وجهة العالم الإسلامي ص٩.

المبحث الأول

الانطلاق من الإسلام

لماذا ينبغي علينا أن ننطلق من الإسلام لدراسة الغرب؟ أو -بعبارة أخرى- لماذا يجب أن يكون الإسلام هو النموذج الحاكم ونحن ندرس الغرب؟

والجواب: لأكثر من سبب، أهمها:

١- ضرورة وجود نموذج

مما صار معروفًا في حقل البحث العلمي -حتى التطبيقي البحت- أن الإنسان لا يملك أن يكون محايدًا، وأن هذا الحياد إنما هو طبيعة الآلة[١]، فحتى الخطوة الأولى من خطوات البحث العلمي «الملاحظة» ليست أمرًا محايدًا، فالإنسان يمارس هذه الملاحظة من خلال انحياز كامن، وغامض أيضًا، فيتنبه لأمور ويغفل عن أخرى. وإذا كان هذا في الملاحظة التي أظهر ما فيها الحياد والتنبه، فكيف بالتفسير والاستنتاج الذي هو عملية عقلية متشابكة تتداخل فيها المعلومات مع الآراء والانحيازات والميول؟!

الحقيقة أنه ليس ثمة حياد في حياة البشر، وكيف يمكن لمن هو خالٍ من كل انحياز أن تكون له رؤية ونظر؟! إنه لابد من النسبة إلى شيء والقياس على شيء. والإنسان لا يملك أن ينفك عن طبيعته الإنسانية التي تقبل وترفض وتؤيد وتستنكر وتحب وتبغض، وما من إنسان يستطيع الانعتاق من كل شيء ليكون محايدًا. بل إن

---

(١) وإن كانت حتى الآلات غير موصوفة بالحياد لأنها مبرمجة مسبقا على أداء عمليات ولأن لها مدخلات، فبحسب المدخلات وبحسب البرمجة تخرج النتائج.. قد يصح القول إنها محايدة بالنسبة إلى المدخلات فلا تفرق ولا تميز ولا تستبعد، بينما «البرمجة» هي ذاتها «النموذج».

الإنسان يُعرِّف نفسه بالنسبة إلى آخر فيما يسميه بعضهم «الوعي»، و«الوعي الغاضب»[١].

وبعد بحث طويل وأخذ وردّ بين علماء الإنسانيات في مسألة الحياد والدوافع، يصرح عالم الاجتماع والاقتصاد السويسري ميرودال أنه: «لا يوجد شكل آخر لدراسة الواقع الاجتماعي غير دراسته من وجهة نظر المثل الإنسانية، فالعلم الاجتماعي الغيري الخالي من المصلحة لم يوجد أبدًا ولا يمكن أن يوجد منطقيًّا، وهو يمثل مجال القيم لمفاهيمنا الرئيسية ومصلحتنا في هذه القضية، ويعطي الاتجاه لأفكارنا والمغزى لاستنتاجاتنا، فهو يطرح القضايا ويقدم لها الإجابة في آن واحد... العلم الاجتماعي الخالي من المصلحة هراء فارغ»[٢].

وذات الأمر قائم حتى في حديث الإنسان عن نفسه، وهو المجال المغرق في الذاتية، فمن يكتب مذكراته لا يملك -ولو أراد- أن يعطي صورة كاملة عن نفسه، يقول د. عبد الوهاب المسيري في مقدمة مذكراته: إنه «لا مناص من أن يتم الاختيار والإبقاء والاستبعاد والتهميش والتركيز حسب نموذج محدد، فالبديل هو أن أحاول أن أعطي القارئ كل التفاصيل، دون تفسير أو ترتيب، ولعلَّه قد يغرق فيها فلا يعرف أين بدأ وكيف ينتهي، وما معنى كل تفصيلة أو معلومة»[٣].

والنموذج المحدد الذي يجب أن ينبني عليه النظر والتحليل هو الإسلام، والمسلم ابتداءً يجب ألا يكون له نموذج آخر، وإلا كفر: ﴿ مَّا جَعَلَ ٱللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِۦ ﴾ [الأحزاب: ٤].

---

(١) إدوارد سعيد: الاستشراق ص٢١ (مقدمة المترجم د. محمد عناني).

(٢) بوبوف: نقد علم الاجتماع البورجوازي المعاصر ص١٧٢، نقلا عن: محمد محمد أمزيان: منهج البحث الاجتماعي ص١١٧.

(٣) د. عبد الوهاب المسيري: رحلتي الفكرية ص١٢، ١٣.

وتاريخنا واضح تمامًا في هذه النقطة، فهذه الأُمة خرجت من الإسلام وبه وُجدت، وخرجت بالإسلام إلى العالمين وبه سادت وانتصرت «فلقد كان هو مبرر وجودها ذاته منذ ما يربو على أربعة عشر قرنًا، وبه تحددت معالم شخصيتها، وبه صُنِع مصيرها عبر العصور. وحدها رؤية المسلم نفسه خليفة في الأرض بأمر الله تعالى هي التي تصنع منه محركًا لعجلة التاريخ الإنساني»[١].

وقد بدأ القرآن الكريم آياته بصياغة هذا النموذج ﴿ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ۝٣ وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ۝٤ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ ۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ۝٥﴾ [البقرة: ٣ - ٥].

وبعد توضيح هذا النموذج أفاضت سورة البقرة، وهي أول سور القرآن وأطولها، في توضيح صفات «الآخر» بالنسبة للمسلمين، فاستعرضت حال المشركين والمنافقين وبني إسرائيل.

وقد كان نزولها في أول الهجرة إلى المدينة فكانت بهذا دليلًا لتعامل الدولة الإسلامية والمجتمع الإسلامي مع الآخرين.

وكان أول ما يفتتح النبي ﷺ يومه به من القرآن قراءة سورة «الكافرون»، فيقرأها في الركعة الأولى من سُنَّة الصبح[٢]، وهي السورة التي ترسخ للمفاصلة كما ترسخ للتعايش في ذات الوقت: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ۝١ لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ۝٢ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ۝٣ وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ ۝٤ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ۝٥ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ ۝٦﴾ [الكافرون: ١ - ٦].

والمفاصلة تستلزم تمام الوضوح في تعريف النفس وفهم الآخر.

---

(١) د. إسماعيل الفاروقي: التوحيد ص٣٠.

(٢) أحمد (٤٧٦٣)، وابن ماجه (١١٤٨)، وصححه الألباني وشعيب الأرناؤوط.

٢- الإسلام حق مطلق

من أهم الدلائل على ربانية الإسلام كونه انبعث فجأة، لا توجد حركة إصلاحية في التاريخ المعروف لا يمكن التماس أسباب نشوئها من خلال الواقع الذي أحاط بها، مما يعني أنها حركة «رد فعل» طبيعية على الأحوال التي نشأت فيها، ومن هذه الحقيقة انبثقت كافة التحليلات المادية للتاريخ كحتمية ماركس وجدلية هيجل وما إلى ذلك.

بينما لا يمكن للمرء أن يلتمس سببا في المجتمع المكي يدفع الرجل الهادئ الوقور الرصين، ذو الحسب والمال، وبعد أن بلغ الأربعين، أن يشن هذه الحرب على معتقدات قومه فجأة، وينادي أنه أتى مبعوثا للعالمين، وأن من اتبعه سيملك العرب والعجم! فكل هذه أمور لا دوافع لها من الواقع أو طموحات المجتمع، وكم كان هرقل ذكيًّا وهو يتحقق من هذه الدوافع فيسأل: هل قال هذا القول منكم أحد قط قبله؟ قال: فهل كان مِن آبائه مَن ملك؟ أشراف الناس يتبعونه أم ضعفاؤهم؟ هل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال؟ فهل يغدر؟.. فلما استبان له أن لا دوافع عَلِم أنه خاتم الأنبياء[1].

كل ما هو رباني فهو متجاوز للواقع ومطالبه، وكل ما هو بشري فإنما هو رد فعل للواقع وانعكاس له، ولذلك فإن الحق رباني والخطأ بشري، وسبيل الحق واحد وسبل البشر كثيرة: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسۡتَقِيمٗا فَٱتَّبِعُوهُۖ وَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمۡ عَن سَبِيلِهِۦۚ﴾ [الأنعام: ١٥٣].

ولهذا كان الإسلام نموذجًا معصومًا، وهدايته هداية مطلقة، وتوجيهاته حق، وعلمه يقين.

---

(١) البخاري (٧).

أما اجتهاد المسلمين في فهم الإسلام وتطبيقه فهو المعرض للخلل والزلل، ومن بدائه العقول أن اعتماد النموذج المعصوم وإن شاب فهمه وتطبيقه خطأ، خير من اعتماد نموذج بشري ليس يسلم من الخلل في نفسه، فضلا عن الاجتهاد في فهمه وتطبيقه.

وحيث كان هذا «النموذج» دِينًا، فإن ما فيه من علم يحسم الإجابة عن أسئلة نهائية ومصيرية، وما فيه من توجيهات يرتقي ليبلغ مرتبة الفرض أو العبادة التي يُتقرب بها إلى الله خوفًا وطمعًا فيحفز هذا نشاط الأتباع، وما فيه من هدايات وضوابط يتحول إلى أوامر ونواهٍ فيُجتهد في تنفيذها برقابة الضمير الذاتي وخوفًا من الحساب الآخر.

ولتوضيح الصورة نحتاج ضرب أمثلة على:

العلم، والتوجيهات، والهدايات.

أ- فأما العلم، فمنه:

عام مُجمل كُلِّي كالثوابت والأصول، ومنه خاص جزئي تفصيلي:

فأما العام المجمل الكُلِّي، فكإدراك أن الحق واحد، وأنه حقيقة، وأن منه ما هو ظاهر لا يخفي، ومنه ما يَدِقّ ظهوره ويحتاج اجتهادًا في إدراكه. فإن الإيمان بهذا إيمان ببطلان النسبية والعدمية وتكافؤ الأدلة، ويستلزم هذا: التعامل معها كباطل ابتداءً، يُبحث في بطلانه وتهافته وآثاره السيئة، فضلًا عن أن تكون هذه الانحرافات أساسا يُسَلَّم به أو تُبنى عليه مناهج تحليل!

وكذلك العلم بمنهج الإسلام في بناء الفرد والمجتمع، والتوازن بين الروح والمادة، وبين الفردية والجماعية، وبين الحاكم والرعية، فالعلم بهذا المنهج يضبط نظر الإنسان ورؤيته في تحليل ما سوى ذلك من المناهج، فلا يذوب في الموضوع

المدروس انبهارًا به أو تطرفًا في رفضه، بل يقوم في نفسه العلم بالحق فيقبل بحق ويرفض بحق ويعرف موضع الانحراف ومقداره.

وأما الخاص الجزئي التفصيلي، فكقول النبي ﷺ: «تصالحون الروم صلحًا آمنًا، وتغزون أنتم وهم عدوًّا من ورائهم فتسلمون وتغنمون، ثم تنزلون بمرج ذي تلول، فيقوم إليه رجل من الروم فيرفع الصليب ويقول: الأغلب الصليب، فيقوم إليه رجل من المسلمين فيقتله، فعند ذلك تغدر الروم وتكون الملاحم، فيجتمعون إليكم فيأتونكم في ثمانين غاية[1] مع كل غاية عشرة آلاف»[2].

فمن هذا الحديث نعلم أن الروم سيظلون حتى آخر الزمان، وسيظلون عدوًّا حتى آخر الزمان، ولا يمنع هذا من فترات صُلح وتعاون وتحالف ضد عدو مشترك، وأن المسيحية ستبقى شعارهم وجزءًا أصيلًا من تكوينهم إلى النهاية[3]، ويشير تعدد الرايات إلى أنهم لا يصيرون أُمة واحدة بل سيظلون منقسمين إلى دول، لكل دولة جيش، وإن اجتمعوا في تحالف واحد.

فهذا مثال على العِلم الذي يحسم أمورًا، ويجيب عن أسئلة، ويحكم التوقعات وتسترشد به التحليلات.

فلا يأتي على بال أحد -ولو في ذروة النصر العظيم- أن هذه هي نهاية الروم كما كانت نهاية الفرس، أو يأتي على بال أحد -ولو في ذروة انتصار العلمانية- أن أوروبا

(١) غاية: أي راية.

(٢) أحمد (١٦٨٧١) وهذا لفظه، أبو داود (٤٢٩٢)، ابن ماجه (٤٠٨٩)، وصححه الألباني وشعيب الأرناؤوط.

(٣) ويُستأنس لهذا المعنى بحديث آخر -وإن كان فيه ضعف- يقول: «فارس نطحة أو نطحتان؛ ثم لا فارس بعدها أبدًا، والروم ذات القرون أصحاب سحر وصحر، كلما ذهب قرن خلف قرن مكانه، هيهات إلى آخر الدهر، هم أصحابكم ما كان في العيش خير» رواه ابن أبي شيبة: المصنف (١٠٦٩٩)، وابن قتيبة: غريب الحديث ١/ ٦٥، وضعفه الألباني في السلسلة الضعيفة (٣٩٩٩).

ستتخلى عن المسيحية، أو يأتي على بال أحد -ولو في ذروة الاتحاد الأوروبي والأطلسي- أن الروم سيصيرون يومًا دولة واحدة(١).

كذلك فإن دراسة الظواهر الاجتماعية والأخلاق وحتى العلوم التطبيقية ستتأثر بوضوح وتختلف منطلقاتها، وإذا أخذنا مثالًا فجًّا ليتضح المعنى فسنذكر مسألة اللواط أو «الشذوذ الجنسي»، إن الأمر في الإسلام محسوم الحُرمة، وفاعله يعاقب عقوبة شديدة باعتباره اقترف جريمة. بينما جرت الأمور في الغرب على تدرج نفيه كخطأ، ثم اعتبرت بعض الدراسات أن المسألة راجعة لحالة نفسية، ثم -وفي مرحلة لاحقة- اعْتُبِر أن المسألة راجعة لحالة جسدية وجينات وراثية، ثم اعتبرت حقًّا من الحقوق، وأخيرا أسبغت الشرعية على زواج المثليين.

هنا تكون انطلاقة المسلم في دراسة الظاهرة مختلفة كليا عن رؤية الغربي لها، فهذا يجسم أنها انحراف ثم يبحث في جوانب نشوئه وعلاجه بينما الآخر يتيه في تحديد كونها انحرافا أم لا منذ البداية، ويترتب على هذا التيه تيه أكبر في النتائج يستحيل معه إدراك حق فضلا عن الرجوع إليه: ﴿ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَٰتٍ لَّا يُبْصِرُونَ ﴿١٧﴾ صُمٌّ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴿١٨﴾﴾ [البقرة: ١٧، ١٨].

وقد اخترنا هذا المثال لشدة وضوحه وحدِّيته، ولكن المقصد أن الرؤية الإسلامية عامل حسم في فهم وتحليل الأوضاع الاجتماعية والمذاهب الفكرية.

ب- وأما التوجيهات فمنها:

طلب العلم الذي صار فريضة على كل مسلم ولم يعد مجرد شيء مرغوب فيه، فتحركت بهذا دوافع النشاط العلمي في المسلمين كأقوى ما يكون.

---

(١) ولئن كان ثمة من يخالف هذا التحليل لسبب أو لآخر، فليس المقصود الآن بيان صحته أو خطئه، بل بيان أن العلم المعصوم، يحسم إجابات ويحل إشكالات كانت من دونه ستبقى بلا إجابات ولا حل.

ومنها الاقتداء بالنبي ﷺ في كل أحواله، فهذا أيضًا ليس مجرد شيء حسن بل هو واجبٌ على كل مسلم.

ومما يتعلق بموضوعنا هذا من سيرة النبي ﷺ:

▪ ما كان عليه ﷺ من الوعي بالمحيط الدولي من حوله منذ اللحظات الأولى للدعوة، فعلى هذا اختار لأصحابه الهجرة إلى الحبشة لأن «**بها ملكًا لا يُظْلَم عنده أحد**»[١]، وبهذا راسل هرقل وحَدَّثه عن «الأريسيين»[٢].

واستدرك على عدي بن حاتم أمرًا في مذهبه فقال له: «**ألستَ رُكوسيًا[٣]؟ ألستَ تأكل المرباع[٤]؟**» فقال عدي: بلى. فقال النبي ﷺ: «**فإن ذلك لا يحلّ في دينِك**»[٥].

▪ توجيهه ﷺ لزيد بن ثابت بتعلم لغة اليهود، وذلك قبل أن يكمل عمر الدولة الإسلامية أربع سنوات.

وذلك لهدفين:

-أن يقرأ مسلم موثوق فيه الرسائل الواردة إلى النبي ﷺ بهذه اللغة[٦].

-ولكي يُحْرَس القرآن من تحريف اليهود إذا هم نقلوه إلى لسانهم.

قال ﷺ: «**يا زيد تعلم لي كتاب يهود، فإني والله ما آمن يهود على كتاب**»، فتعلم زيد لغتهم في خمس عشر ليلة[٧].

---

(١) د. أكرم العمري: السيرة النبوية الصحيحة ١/ ١٧٠.

(٢) راجع مبحث السفارات من الفصل الثاني من الباب الأول.

(٣) من مذاهب النصرانية، وقال بعضهم: هي بين النصرانية والصابئة.

(٤) المرباع: ربع الغنيمة التي يأخذها لنفوذه ورئاسته دون أن يشارك في القتال.

(٥) أحمد (١٩٤٠٨)، وابن حبان (٦٦٧٩)، وصححه شعيب الأرناؤوط.

(٦) البخاري: كتاب الأحكام، باب ترجمة الحكام وهل يجوز ترجمان واحد.

(٧) أحمد (٢١٦٥٨)، وأبو داود (٣٦٤٥)، والترمذي (٢٧١٥)، وصححه الألباني وشعيب الأرناؤوط.

ولا يعرف قدر هذا التوجيه إلا من قرأ تاريخ ما فعله المترجمون غير المسلمين في الدولة العثمانية، أو ما فعله ويفعله الغرب الآن في ترجمات القرآن الكريم(١).

جـ- وأما الهدايات، فمنها:

الحث على السياحة والسير في الأرض مع النظر والاعتبار و«تذكر حال الماضين والاعتبار بما كان لهم في زمانهم وما انتهى إليه أمرهم من عمار أو دمار، وليس هذا إلا ليزداد الفكر تنورًا والعقل تبصرًا وينفسح أمامه مجال النظر والتصرف وترتيب المسببات على الأسباب، سنة هذا الشرع الحنيف فيما كلفنا به من الأعمال»(٢).

فموضع الهداية -أو الضبط- هنا هو الحجز عن أن يكون الغرض مجرد سياحة وتمتع ولذة نفسية، بل تشكيل العقل المسلم على التبصر والتفكر والاعتبار.

ومنها: العدل والإنصاف، وهذا أهم ما نقدمه في موضوع دراسة الغرب بديلًا عن «الخرافة» المسمَّاة بـ «الحياد العلمي».

فالعدل والإنصاف مع الجميع أمر ممكن، وكون الإسلام دينًا يجعل المرء تحت رقابة الله وإن فقد الرقيب، ويبتغي وجه الحق برغم المصالح والأغراض التي تغريه

---

(١) يقول الشيخ عبد السلام البسيوني -في معرض ثنائه على جهود د. حسن المعايرجي في موضوع ترجمة القرآن- إن الداخل لهذا الباب يجد «مئات الترجمات الحقيرة المسيئة لكتاب الله تعالى، بمئات الطبعات، ومئات اللغات، بمئات الأشكال والأحجام «اقترفها» قساوسة وحاخامون، ودجاجلة ومستشرقون، وخمورجية وحشاشون، وجواسيس وصيادون في الماء العكر، كلهم «يعك» شيئا يسميه ترجمة، مرّة تحت اسم «قرآن محمد» ومرة «أحاديث محمد على المائدة» وثالثة «مختصر القرآن» ورابعة أهم عشر سور، وخامسة القرآن مرتبا على طريقة «حادي بادي كرنب زيادي»، أو «واحد اثنين عم حسين».. جرأة رهيبة، وإهانات بشعة ضد القرآن الكريم، الذي هان بهوان أصحابه، ولا من منتبه، ولا من غيور، ولا رقيب ولا حسيب». عبد السلام البسيوني: دعاة ومشاهير عرفتهم ص١١١.

(٢) أحمد زكي: السفر إلى المؤتمر ص٦، والكلام في المتن للشيخ عبد الكريم سليمان الذي قرظ الكتاب فأثبتها أحمد زكي في المقدمة.

أو ترهبه لتحمله على قول الزور أو تزوير الحقائق، وهذا هو الفارق الكبير بين أن يوكل الباحث إلى دين أو أن يوكل إلى نفسه.

ولقد تحير حسن حنفي في إيجاد شيء يحجز الباحث في الاستغراب عن الوقوع في التعصب للشرق كما فعل المستشرقون لما تعصبوا للغرب، ثم لم يجد إلا أن يَكِل هذا إلى «وعي الباحث وأصالته»[1]! وما دام يصر بعضهم على عدم اعتماد «الإسلام» كدِين ونموذج حاكم فلن يجد شيئًا من المناهج الأرضية يمكنه إلزام أحد بشيء!

وصحيحٌ أن الخطأ وارد والمعصية واردة وأن مجرد اعتناق الباحث للإسلام لا يعفيه من الخطأ أو التزوير، لكنه ذات الفارق بين إلزام الناس بقانون لا يُحترم إلا في وجود الشرطة، وبين اعتناقهم دينا يحترمونه ويلتزمونه من تلقاء أنفسهم ولا بأس بعدها من وجود شرطة أيضًا.

ولكن في العمل البحثي ليس ثمة شرطة على الباحث إلا الضوابط العلمية، ويعرف كل باحث أنه من السهل تحقيق هذا «الشكل» العلمي لعمله غير النزيه، بل إن ذوي الصنعة يعرفون كيف يعيدون بعث الخرافات في عصر العلم إذا «أضيفت إليها زخارف عصرية» بتعبير مكسيم رودنسون[2].

٣. الذات أساس النهضة

ويجب أن يكون الإسلام هو نموذجنا الحاكم لأن الذات هي أساس النهضة، فإن «الشرق بالإسلام، والإسلام بالشرق، وإذا تحدثت عن أحدهما فكأنني أتحدث عن الآخر.

---

(١) د. حسن حنفي: مقدمة في علم الاستغراب ص٣٣.

(٢) مكسيم رودنسون: الصورة العربية والدراسات الغربية الإسلامية، ضمن «تراث الإسلام» بإشراف شاخت وبوزوروث ١/ ٦٩.

والإسلام دين ومدنية، وإن أمتنا ذات مدنية أصيلة، وليست الأُمة الطفيلية التي تُرَقِّع لمدنيتها ثوبًا من فضلات الأقمشة التي يلقيها الخياطون»(١).

وما مِن أُمة استطاعت بعث نفسها في عالم الحضارة إلا بالتمسك بأصولها وإن كانت فاسدة.

فلولا أن اليهود -حين تقطعوا أُممًا- كانوا في حاراتهم يحيون مجتمعهم القديم؛ لذابوا، وإنما كانت هذه المجتمعات هي نواة تجددهم وإعادة انبعاثهم في دولة، فحتى «الحديث اليومي بين اليهود في المجتمع لم يكن يتمُّ بلغة البلاد، وإنما برطانة يهودية خاصة تُسَمَّى باليديش، وحين كان يهودي الجيتو يتعلَّم لغة جديدة، فإنه كان يتعلَّم «لشون هاقدوش»؛ أي: اللسان المقدس أو اللغة العبرية؛ لأن مجرَّد النظر إلى أبجدية الأغيار كان يُعَدُّ كفرًا ما بعده كفر، يستحقُّ اليهودي عليه حرق عينيه»(٢)، فاستطاعوا بعد آلاف السنين أن يعيدوا بعث لغتهم من جديد في عملية مثيرة للانبهار على الرغم من كل شيء.

ولعله يثير العجب أن نجد الرواد الأوائل للنهضة الغربية، مع ثبوت تأثرهم بالإسلام وحضارته بشكل مباشر أو غير مباشر، يأخذون منه وهم يسبونه ويحتقرونه(٣).

فهذا مارتن لوثر -الذي لا يجد الباحثون جذورا لدعوته ضد سلطة الكهنة إلا الإسلام- يقول: «أي كتاب بغيض وفظيع وملعون هذا القرآن، مليء بالأكاذيب والخرافات والفظائع».

---

(١) عبد الرزاق السنهوري: إسلاميات السنهوري باشا ص.

(٢) د. عبد الوهاب المسيري: الأيديولوجية الصهيونية ١/ ٣١، ٣٢.

(٣) ونحن لا نضرب المثل بهم في الإجحاف والظلم بل نضربه في قدرتهم على الانتقاء وأخذ ما يريدون دون ما يكرهون.

وهذا الشاعر الإيطالي دانتي -الذي عاش في بلاط النورمان العربي، وفي ظل فريدريك المحب لعلوم العرب- يضع النبي ﷺ وعلي بن أبي طالب في الحلقة الثامنة من الحفرة التاسعة في الجحيم ويصف عذابهم في «الكوميديا الإلهية» المتأثر فيها بأبي العلاء المعري ومحيي الدين بن عربي.

وهذا توما الإكويني أبرز فلاسفة العصور الوسطى -والذي ما كان ليكون هكذا لولا تأثره بمنهجية ابن رشد وغيره من المسلمين- يزعم أن «محمدًا (ﷺ) أغوى الشعوب من خلال وعوده لها بالمتع الشهوانية»[(١)].

وحين أخرجت اليابان بعثة من طلابها للتعلم في أوروبا، أغروهم هناك بدراسة الفلسفة والأفكار والآداب الغربية لا التقنية والصناعات كما هو المطلوب، فلما أن عادوا أمَر الإمبراطور الياباني بإحراقهم، ويرى د. عبد العظيم الديب أنه ربما يكون هذا هو السبب الذي أوصل اليابان إلى نهضتها[(٢)].

ويشن باتريك بوكانان حربًا واسعة في كتابه «موت الغرب» ضد من يتحدث عن جرائم الرجل الأبيض وتاريخه في المجازر والمذابح، ويقول بأن هذه «الحرب على الماضي» هي المسؤولة عن إنتاج أجيال لا تؤمن بنفسها ولا تنتمي إلى حضارتها، ولا بأس لديه في طمس كل هذا تجنبًا لتفكك أمريكا[(٣)].

وإذا كان هذا تصرف الأمم ذات التاريخ الدموي الملوث، فكيف بنا نحن وبتاريخنا الناصع؟ حتى وإن كانت كلمة «الناصع» هذه تثير «الموضوعيين، وذوي الحساسية الحيادية»، إلا أن تاريخنا بالمقارنة بهذه التواريخ ناصع ولا شك، ولولا أن يخرج البحث عن قصده لأوردنا من أقوال مؤرخيهم ما يشهد بهذا.

---

(١) ثابت عيد (مترجم): صورة الإسلام في التراث الغربي ص٢٠، ٢١، ٢٤، ٢٥، ٣٢.

(٢) د. عبد العظيم الديب: نحو رؤية جديدة للتاريخ الإسلامي ص١٨٢.

(٣) باتريك بوكانان: موت الغرب ص٢٨٥ وما بعدها.

لقد وُفِّق الأستاذ الإمام محمد عبده حين وصف السرَّ في ضرورة أن تكون النهضة ذاتية، قال: «إذا كان الدِّين كافلًا بتهذيب الأخلاق، وصلاح الأعمال، وحمل النفوس على طلب السعادة من أبوابها، ولأهله من الثقة فيه ما ليس لهم في غيره، وهو حاضر لديهم، والعناء في إرجاعهم إليه أخف من إحداث ما لا إلمام لهم به، فلِمَ العدول عنه إلى غيره؟!». فهذا على الحقيقة هو السر الذي يفسر أقوال زعماء كل نهضة في كل مكان[1].



إن «الانطلاق من الإسلام» هو ما يعصمنا من التأثر غير الواعي بالمناهج الأخرى، وقد رأينا في تاريخنا القريب كيف يكون المرء متعصبا ضد الغرب ولكن على منهاج الغرب نفسه، كما هو الحال في القوميين العرب، الذين شربوا القومية بمفهومها الغربي ثم أعادوا توجيهها ضده، ويظنون أنهم متحررون منه مضادون له[2]!!

هذا حسن حنفي الذي كتب «مقدمة في علم الاستغراب» ليواجه به التغريب، لم يشعر أنه يتحرك على قاعدة الغرب إذ يواجهه، ودعَا إلى استعراض جديد للتاريخ بناء على رؤيتنا كشرقيين، فانظر ماذا صنع؟

قال حسن حنفي: «العصور الوسطى بالنسبة للغرب هي بالنسبة لنا عصرنا الذهبي (وبالتالي) فإن العصور الحديثة بالنسبة للغرب هي عصورنا الوسطى... ويظهر (أثر المركزية الغربية) في وعينا الحالي لدرجة زحزحة الوعي التاريخي

(١) محمد عبده: الأعمال الكاملة للأستاذ الإمام ٣/ ٢٤٨.

(٢) والحديث هنا عمن صدقوا في مذهبهم، لا عمن كانوا قوميين ظاهرًا وهم أدوات الغرب والشرق -ومؤخرًا: إيران- على الحقيقة!

الإسلامي كلية لحساب الوعي التاريخي الأوروبي.

فإذا سئلنا: في أي قرن نحن نعيش؟ لأجبنا في القرن العشرين! أي أننا نجيب بحضور الوعي التاريخي الأوروبي ونحن لسنا أوربيين.

ولو سئلنا: في أي عصر نحن نعيش؟ لأجبنا: في عصر العلم والتكنولوجيا مع أننا ما زلنا في عصر النهضة، نحاول الخروج من العصر الوسيط»[1].

فهنا يبدو حسن حنفي محكومًا بالسياق الغربي نفسه والتقسيم الغربي للعصور والمراحل، لكنه يريد زحزحة هذا المقياس لتعبر كلمة «العصور الوسطى» ذاتها عن زمن آخر، وكلمة «عصر النهضة» عن زمن آخر.

فالمعيار والتقسيم واحد بينما «تصنيف الحالة» داخل هذا المعيار هو المختلف باختلاف الحالة بيننا وبين الغرب.

بينما الاستغراب الذي نؤصل له والمنطلق من رؤية إسلامية لا يلتزم بالأساس بهذا المعيار، وليس محكومًا بأن نُجْرِيَ مقياسهم على تاريخنا، فنحن لسنا ملزمين من الأصل بأن نستعمل هذه المصطلحات التي صارت لها مدلولات سلبية (العصور الوسطى) أو إيجابية (عصر النهضة)، وإذا ألزمتنا ظروف علمية أو أكاديمية أو شيوع المصطلح، فبالإمكان أن نعمل على نزع الإيحاءات السلبية أو الإيجابية لما لا نرتضيه من مدلولات هذه الألفاظ.

ولا يعني هذا الاضطرار أن نتخلى عن صياغة النظرية أو المعيار الذي يعبر عن تاريخنا وعن تاريخ العالم أصدق تعبير، وهو معيار منطلق من القرآن والسُّنة. وقد بُذِلت مجهودات كثيرة[2] في رسم هذه المعايير لكنها تحتاج جمعًا وتمحيصًا ثم تفعيلًا.

---

(١) د. حسن حنفي: مقدمة في علم الاستغراب ص٤١، ٤٢.

(٢) كتب في هذا المجال كثيرون منهم الشيخ محمد قطب رحمه الله، والشيخ د. منير الغضبان رحمه الله، =

ثم لا بأس أن نستعمل مقياسهم إذا وجدناه الأصدق في التعبير عن حقيقة علمية، باعتباره حكمة نأخذها من كل أحد، إلا أن هذا سيكون قليلًا إذا كان «الانطلاق من الإسلام» هو المنهج، بينما سيكون كثيرًا إذا كان «الانطلاق من الجغرافيا» هو المنهج، ولا يكون من فائدة حينئذ إلا تغير وِجْهة الألفاظ.

وفي النهاية يظل موضوع «الانطلاق من الإسلام» في دراسة الغرب بحاجة إلى مؤتمر أو أكثر، وعدد من الندوات وورش العمل لصياغة ملامح عامة يسترشد بها أصحاب التخصص في دراساتهم التفصيلية والفرعية المتخصصة.



= ود. جمال عبد الهادي، ود. عماد الدين خليل، وغيرهم.

المبحث الثاني

إدراك الفوارق الجوهرية

إن الصراع التاريخي بين الإسلام والغرب، والذي يعيش الآن قرنه الخامس عشر، إنما يعبر في أحد وجوهه عن خلافات أصلية وجوهرية بين الطرفين.

ولا يجوز لمن يتصدَّى لدراسة الغرب أن يقدم على هذا الباب إلا وله وعيٌ بأهم هذه الفوارق والخلافات الجوهرية، فبغير هذا لا يكون ثمة فهم ولا إدراك لحقيقة وطبيعة وأبعاد الموضوع المدروس.

ومعظم أخطاء المستشرقين -إذا غضضنا الطرف عن وجود الغرض والنية المبيتة- إنما تأتي من هذا الباب، إذ هو يحاول دراسة المجتمعات الأخرى بمناهج ونظريات نشأت في بيئته هو لتجيب عن أسئلة واقعه هو، وهو ما يتسبب في النهاية في الوصول إلى تحليلات ونتائج ونظريات تجانب الصواب، وأحيانًا تكون مناقضة للصواب من كل وجه.

ولا يعني وجود خلافات وفوارق أصيلة وجوهرية أننا ننزع عنهم الصفة الإنسانية أو ننظر إليهم بعنصرية، معاذ الله، بل على العكس، إذ نؤمن بأن الإسلام صالح لكل زمان ومكان ولكل بشر على هذه الأرض، ولكنه إدراك للخلافات والفوارق المندرجة كلها من الطبيعة الإنسانية، والتي تشكلت عبر عوامل كثيرة متشابكة من الانحراف عن دين الله وعن أصل الفِطرة، ترسخت ونمت عبر امتداد الزمان، واكتسبت بعض الصفات من جغرافيا المكان، وتشربت في ظروف بعينها ثقافات واتجاهات.

إنه في حقيقة الأمر فهم للحالة يبتغي الوصول إلى علاجها مما حل بها من انحراف ودعوتها إلى الله وتحريرها مِن عبادة العباد إلى عبادة الله، ومِن ضيق الدنيا إلى سعة الدنيا والآخرة، ومِن جور الأديان إلى عدل الإسلام.

فإن لم يمكن هذا تحت أي ظرف بقيت وجوه التعاون على ما فيه الخير وهو تعاون يحتاج إلى علم وفهم، وإلا فلن يفلح تعاون ولا تفاهم بين أطراف يجهل بعضهم بعضًا.

فإن لم يمكن هذا ولم يبق إلا الحرب فمن ضرورات الحرب معرفة الخصم وفهم طبيعته وطرائقه ومناهجه.

وهكذا، في كل الأحوال لا محيص عن العلم بالمخالف وفهمه، وفهم الفوارق بيننا وبينه.

ولا ريب أن الأمر يحتاج دراسة موسعة متقنة، لمحاولة تحديد -أو على الأقل رسم الخطوط العامة- لهذه الفوارق فيكون الباحثون منها على بصيرة، وما نفعله في هذه السطور هو الإشارة والتنبيه لا أكثر.

١ - قصة الدِّين وآثاره

ثمة إجماع بين المؤرِّخين على أن الحضارة الغربية لها ثلاثة جذور: الفلسفة اليونانية، الأنظمة الرومانية، الديانة المسيحية[(١)]، ولا تزال المسيحية تمثل ركنًا ركينًا في الروح الغربية، وهي الحقيقة الملموسة تصريحًا وتلميحًا في الكتب التي ألفت عن الغرب[(٢)].

---

(١) Gustave E. Grunebaum : Modern Islam; The Search for Cultural Identity, p. 147.
وانظر: برتراند رسل: تاريخ الفلسفة الغربية ١/ ١٦، ١٧.

(٢) ريتشارد كوك وكريس سميث: انتحار الغرب ص٥٥ وما بعدها، باتريك بوكانان: موت الغرب ص٣٣٩ وما بعدها.

وثمة إجماع آخر بين المؤرِّخين على أن العرب لم يكونوا ذوي حضارة قبل الإسلام[١]، وإنما جاء الإسلام فكأنما أنشأهم من العدم وبعثهم من القبور وأخرجهم إلى الحياة، ليس هذا فقط، بل نقلهم هذه النقلة الهائلة المدهشة من التشرذم إلى الوحدة ومن رعي الغنم إلى تسيد الأمم، ولهذا قال عمر بن الخطاب «كنا أذل قوم فأعزنا الله بالإسلام، فمهما نطلب العز بغير ما أعزنا الله به أذلنا الله»[٢].

وإذن، فقد حمل الفصل الأول من هذه القصة هذا الفارق الذي أدى بدوره إلى بعض النتائج:

أ- أن المسيحية «جزء» من التكوين الغربي، وقد ساعد خلو المسيحية من النظم والشرائع على بقاء واستمرار النظم الرومانية المستفادة والمنبثقة عن الفلسفة اليونانية.

بينما الإسلام هو المكون الأساسي والوحيد للمسلمين، فالعرب لا يعرفون سوى الإسلام دينًا وفلسفة ونظامًا وشرائع، وغير العرب إنما يلزمهم بحكم إسلامهم أن يتخلوا ويتبرأوا بل وأن يكرهوا ما يناقض الإسلام من ميراثهم الحضاري، فظل الإسلام دائمًا حاكمًا لا محكومًا، وهاضمًا لما قبله من النظم والشرائع لا متأثرًا بها كما هو الحال في المسيحية التي تأثرت كثيرًا بالتراث اليوناني والروماني.

---

(١) هذا إذا غضضنا الطرف عن محاولات بعض المؤرخين القوميين في الحقبة القومية لاختلاق حضارة للعرب قبل الإسلام، وهي محاولة أيديولجية أكثر منها علمية، وليس هنا مقام الرد عليها، ولكن نقول بإيجاز: الحضارات العربية التي يتحدثون عنها شهدت انقطاعًا طويلًا حتى لم يعد لها أثر في المجتمع الذي أرسل فيه النبي، وهو مجتمع لم تتحقق فيه أي مظهر من مظاهر الحضارة، والعرب أنفسهم بعد أن جاءهم الإسلام رأوا أنفسهم في حقبة جديدة تماما وليست امتدادًا ولا تجديدًا ولا بعثًا لحضارات قديمة.

(٢) رواه الحاكم في المستدرك (٢٠٧) وقال صحيح على شرط الشيخين ووافقه الذهبي، وابن أبي شيبة (٣٣٨٤٧، ٣٤٤٤٤).

ب- لقد تأثرت المسيحية بالتراث اليوناني والروماني تأثرًا كبيرًا، حتى إن ثمة أفكارًا دينية رئيسية تسللت إلى المسيحية، واضطر الدعاة المسيحيون منذ بولس أن يصيغوا المعاني المسيحية في عبارات وصياغات يونانية[١]، ومن أبرز الأدلة على هذا دخول الصور والتماثيل كمعبودات برغم النهي الصريح في الوارد في الإنجيل عن ذلك، حتى قيل بحق «النصارى ترومت ولم تتنصر الروم»[٢].

بينما عاش الإسلام حياته في صراع مع الجاهلية التي بُعِث فيها، حتى انتصر عليها وكسر أصنامها وأزال رسومها وتقاليدها، ولم يبحث عن تقارب معها أبدًا، بل اقتضى التزام الصراط المستقيم «مخالفة أصحاب الجحيم».

جـ- وإذا أخذنا المسألة القومية كمثال على ما سبق، نرى كيف «احتوى الإسلام الباكر على عناصر من القومية العربية، لكن محمدًا (ﷺ) وأتباعه رفضوا النهج اليهودي للانعزال القومي وابتكروا بدلا من ذلك مجتمعا دوليًا جديدًا، وتبنت البلاطات الملكية ثقافة راقية متعددة القوميات، وكان الدِّين في أيدي جماعة من العلماء متعددي القوميات على نحو واعٍ ذاتيًا.

وكانت بعض الدول الإسلامية تحكمها سلالة تتكون من مجموعة أقلية عرقية (مثل البويهيين والسلاجقة)، وكانت الإمبراطورية العثمانية مأهولة بمزيج من المجموعات العرقية، وهكذا تجاوزت وحدة الأمة (الإسلامية) الاختلافات العرقية أكثر بكثير مما فعلت الكنيسة؛ سواء في العالم المسيحي الشرقي أو الغربي، قبل الإصلاح أو بعده، ولم تكن توجد دولة قومية في العالم الإسلامي حتى القرن العشرين»[٣].

---

(١) ريتشارد كوك وكريس سميث: انتحار الغرب ص١٠، ٧١.

(٢) القاضي عبد الجبار المعتزلي: تثبيت دلائل النبوة ص١٧٣.

(٣) أنتوني بلاك: الغرب والإسلام ص١٢٢. (باختصار)

ثم يأتي الفصل الثاني من القصة فنرى المسيح عليه السلام، كما هو في التصور الغربي، يُصلب ويُقتل، دون أن يحقق نصرًا لا على المستوى الديني ولا على المستوى الدنيوي، ثم يكون أبرز تلاميذه وناشري دعوته ممن مات عنهم وهم كافرون به، وظل أتباعه يزيدون ببطء وينزل بهم كل صنوف العذاب، حتى يتولى قسطنطين عرش الإمبراطورية الرومانية، ويدخل في المسيحية، فتأخذ المسيحية في الانتشار الواسع.

بينما نرى محمدًا ﷺ يموت وقد أسس دولة شملت الجزيرة العربية، ودخل حربين مع الروم، وأرسل رسائله إلى الملوك يدعوهم إلى الإسلام، ونشر الدين ووحد العرب، واكتمل نزول الكتاب عليه، وظل صحابته الذين عايشوه طويلًا يحكمون بعده بأنفسهم لستين سنة، وظل صحابته ينشرون الدين بأنفسهم بعده لقرن من الزمان.

وهذا الفارق في الفصل الثاني من القصة كانت له نتائج مؤثرة منها:

أ- «أن الإسلام ليس مجرد نظام من العقائد والعبادات، إنه أعظم من ذلك كثيرًا، هو مدنية كاملة، ولو بحثنا عن لفظ مقابل له لقلنا: العالم المسيحي ولم نقل المسيحية، ولقلنا الصين بدل أن نقول ديانة كونفوشيوس»[1].

ب- أن الغرب يملك -ولو نظريًا، أو مرحليًا- التخلي عن المسيحية، إذ له في التراث اليوناني والروماني ما يقيم صلبه، أو على الأقل يؤمن الغربي بقدرته على النهوض بمعزل عن المسيحية كما نهض بدونها أول مرة. بينما لا يملك المسلمون التخلي عن الإسلام -ولو أرادوا- لأنه يمثل كل تراثهم، وليس لهم سواه من تراث، فهو سرهم وجوهرهم وسبب تميزهم كأمة ومبرر وجودهم كأصحاب رسالة، وهذا

---

(١) جب: وجهة العالم الإسلامي ص٩.

تفكير منطقي وضعي حتى ولو لم يتفق مع قول الإمام مالك «لا يُصْلِح آخر هذه الأمة إلا ما أصلح أولها»(١).

ولذلك نرى التراث الفلسفي الغربي على ثلاث شُعب:

فلسفة سبقت المسيحية كفلسفة اليونان، وفلسفة حاولت التوفيق بينها وبين العلم كأوائل فلاسفة العصور الوُسطى وأبرزهم توما الإكويني، وفلسفة هاجمت المسيحية ابتغاء تصحيحها أو إقصائها كفلاسفة ما قبل وبعد الثورة الفرنسية ومنظِّري الإلحاد والمادية والعلمانية.

بينما «الفلسفة الإسلامية» كانت دائمًا تقدم نفسها باعتبارها «الفهم الصحيح للإسلام» ولم تزعم فرقة من الفرق التي نشأت في التاريخ الإسلامي -على اختلافها- أنَّ مذهبها «خارج عن الإسلام».

جـ- أن «النصرانية أرجأت تحقيق ملكوت الرب إلى الآخرة، على اعتبار أنه مستحيل التحقيق في الحياة الدنيا، لأن الإنسان خاطئ بطبعه، قاصر بطبعه، معوج بطبعه، فلا يمكن أن يستقيم.

أما الإسلام فقد اعتبر تحقيق ملكوت الله هو مهمة الإنسان في الحياة الدنيا لا في الآخرة، ولذلك يسعى المسلمون دائمًا إلى محاولة تطبيقه، وإلى تقويم عجلة التاريخ كلما انحرفت عن الطريق ولو ضحوا بأنفسهم في سبيل ذلك.

ومِن ثَمَّ فإن التضحية في الإسلام له حصيلة إيجابية في واقع الأرض هي محاولة تقويم هذا الواقع وإصلاح ما اعوج منه، بينما التضحية في النصرانية ذات مفهوم سلبي، مؤداه أن يقف النصراني أمام عجلة التاريخ المنحرفة لا ليقومها ولكن لتدوسه وهو واقف مكانه، فهو يفضل أن تدوسه العجلة وتقتله على أن يسمح لها أن تتجاوزه

---

(١) القاضي عياض: الشفا ٢/ ٢٠٥.

وهـي منحرفـة، ولكنـه لا يبـذل جهـدا لتـصحيح مـسارها وردهـا إلـى الـصراط المستقيم»(١)، وسنرى بعضًا من آثار هذا لدى مناقشتنا لقضية البيئة كنموذج(٢).

د- ومن ثَمَّ كانت عصور ازدهار المسيحية عصورَ تخلف وركود، وكان الخروج إلى تغيير العالم مرتبطا بالانحراف عن المسيحية أو بالانقلاب عليها وعزلها عن الحياة، وكانت معركة العلم معركة ضد الدين في ذات اللحظة. بينما الحال في الإسلام على النقيض من هذا، فعصور ازدهار الإسلام هي عصور الازدهار العلمي والحضاري، وعصور التخلي عن الإسلام هي عصور الضعف والانحطاط(٣).

فخلاصة القصة أن الفارق بين المسيحية بالنسبة للغرب وبين الإسلام بالنسبة للمسلمين ليس مجرد فارق بين دينين، ولا بين نظامين، بل هو فارق تأسيسي خطير؛ فالمسيحية جزء من الروح الغربية والإسلام هو كل الروح الإسلامية، والمسيحية تركز على عالم الملكوت وكل تغيير يتم في هذا العالم يُعدّ خصمًا من رصيد الآخرة، بينما الإسلام يرى أن النجاح في الآخرة مبني على النجاح في الدنيا ومرتبط به، وأن بذل المجهود في إقامة مملكة الله في الدنيا هي الطريق لنيل ملكوت الله في الآخرة.

٢- بين الربانية والبشرية

إن الثلاثية التي بُنِي عليها الغرب بشرية: الفلسفة اليونانية، الحضارة الرومانية، المسيحية.

---

(١) ولفرد كانتول سميث: الإسلام في التاريخ الحديث ص٩، نقلا عن: محمد قطب: كيف نكتب التاريخ الإسلامي ص١٠٢.

(٢) انظر المبحث الخامس من هذا الفصل.

(٣) وأفضل ما يعبر عن هذا الاختلاف بيتان من الشعر قالهما رفاعة الطهطاوي في وصف باريس:

أيوجد مثل باريس ديار ... شموس العلم فيها لا تغيب

وليل الكفر ليس له صباح ... أما هذا وحقكمُ عجيب

فحتى المسيحية انحرفت مبكرًا عما أتى به المسيح، وصار البابا في مرحلة لاحقة يملك تحريم ما كان حلالًا أو تحليل ما كان حرامًا، ويملك أن يغفر الذنوب وأن يحرم من الصلاة وأن يتاجر في أرض الجنة.

بينما الأُمة الإسلامية وحضارتها بُنِيَت على أمر واحد: الإسلام، وهو رباني، وقام على تطبيقه رسول معصوم حتى اكتملت مهمته، ولم يعد للعلماء من دور إلا التبيين والشرح والتفسير والتوجيه وكل ما من شأنه إقامة الدين دون صلاحية في تحليل أو تحريم أو تبديل للدين، وهم طائفة لا تملك السيطرة على نفوس الناس، كما ليس لهم كهنوت ولا أسرار ولا مؤسَّسة مقدسة، وظل علماؤنا لأجيال طويلة يجمعون بين علوم الدين والدنيا حتى قال إرنست بلوك: «كاد كل عالم أن يكون طبيبًا أيضًا»[1].

وقد أثمر هذا عددًا من الفوارق المؤثرة بين السيرة الغربية والسيرة الإسلامية، أبرزها كما نرى:

أ- أن حضارتنا حضارة مركزية بينما حضارة الغرب طردية[2]، فحضارتنا ترجع إلى نصٍّ معصوم متجاوز تستلهمه وتسترشد به وتريد تحقيقه على الوجه الأمثل، بينما حضارة الغرب -وخصوصًا بعد العلمانية- تسير باطراد في مسار لا يحكمه نص ولا يرجع إلى قاعدة أو أساس، وهو ما وصفه د. عبد الوهاب المسيري في مؤلفاته بالسيولة، حيث لا مقدس ولا معصوم، ولا معيار يُرجع إليه أو يُقاس عليه.

ب- وهذا يستلزم أن لحظة الذروة عندنا قد حدثت ونحاول دائمًا الاقتراب منها والعودة إليها وتكرارها، فعصر النبوة والخلافة الراشدة هو أفضل العصور في تمثل الإسلام، وأهله هم «خير القرون».

---

(١) Ernst Bloch : Natural Law and Human Dignity, p. 58

(٢) د. حسن حنفي: مقدمة في علم الاستغراب ص١٧، ٢٠ (الحاشية).

بينما لحظة الذروة في الحضارة الغربية ما تزال لم تتحقق، وهي تتحقق بمزيد على السيطرة والتحكم المادي في كل الإنسان حتى أخلاقه وسلوكه ورغباته ومشاعره، هي عند الماديين اللحظة التي يكون فيها الإنسان -أو على الأدق: الإنسان الغربي وحده- إلها يعرف كل شيء عن هذا العالم ويتحكم فيه.

والفارق الحقيقي بين النظرتين وما يتولد عنهما من طموحيْن، هو الفارق بين أرحم الناس وأحلمهم وأزهدهم وأرفقهم بالناس، كما كان حال الصحابة، وبين أقسى الناس وأشرسهم وأعنفهم وأشدهم تدميرًا وطغيانًا.

كما يتمنى نيتشه في فلسفته عن السوبر إنسان الذي لا يعرف الرحمة ولا الشفقة[1] وفوكوياما في عصر ما بعد التاريخ، حيث تُعزل الشعوب الأخرى خلف خط حديدي، وتعيش الشعوب الحرة عصرًا يعترف بأنه سيكون عديم الشجاعة والطموح والإبداع[2]! فيما تكون القوة هي وسيلتهم في التعامل مع الشعوب الأخرى[3].

حتى تصوراتهم وأحلامهم بشعة!!

جـ- إن الفارق بين الربانية والبشرية، ووجود المركز (النص الإلهي المعصوم) الذي يمثل المعيار والمرجع الذي يُرجع إليه ويُقاس عليه يثمر فوارق نظرية وعملية في غاية الخطورة؛ منها هذا الفارق بين «الشريعة» و«القانون»؛ إذ إن «مهمة القانون الوضعي صياغةُ ما تعارف عليه الناس من أوضاع ومعاملات وتقاليد في صورة مواد تشريعية، مهما يكن في هذه الأوضاع والأعراف من فساد وانحراف، ومهما يكن وراءها من إضرار بالجماعة وبالأمة وبالإنسانية.

(١) نيتشه: هكذا تكلم زرادشت ص٧٤ وما بعدها.

(٢) فوكوياما: نهاية التاريخ ص٢٧٣ وما بعدها.

(٣) فوكوياما: نهاية التاريخ ص٢٤٣، ٢٤٤.

فالقانون مرآة تعكس صورة الأمة صلاحًا وفسادًا ورقيًا وهبوطًا واستقامة وانحرافًا، أما الشريعة فمهمتها أن ترقى بالأمة وتأخذ بيدها وتعينها على التحرر من ضغط الأنانية والشهوات وأسر التقاليد الفاسدة والأعراف الضارة.

بينما مهمة الشريعة أن تُقَوِّم عوج الأمة وتصلح ما فسد منها لا أن تبرر ضعفها وانحرافها، وتضفي عليه صبغة شرعية أو قانونية، إنما تقر الصالح والنافع فقط مما تواضعت عليه الأمة. وفي هذا نجد بونًا شاسعًا بين الشريعة الإسلامية والقانون الروماني، فالشريعة جاءت بـ «تقنين الأخلاق» أي جعل الأوامر والأحكام الأخلاقية قوانين ملزمة، أما القانون الروماني فقام على أساس «تقنين العادات» أي صياغة ما تعارف عليه الناس من أوضاع وتقاليد في صورة قوانين، وما أعظم الفرق بين الأمرين»[1].

ولقد كان نيتشه صادقًا تمامًا وهو يعبر عن القانون في الفكر الغربي بأنه «تعبير عن رغبات الأقوياء»، بينما الشريعة في الإسلام هي دين نزل من عند الله، لا يملك أحد التلاعب بها، ويحرسها المسلمون كجزء من حراستهم لدينهم، كلما هلك في سبيلها قوم نهض آخرون!

د- ومنها هذا الفارق بين «المعيارية» و«الوضعية» في العلوم الاجتماعية، إذ انقلب الفلاسفة في العصر الحديث على كل معيار ومرجع، وأرادوا دراسة الإنسان كما يدرسون المادة، يقول أوجست كونت مؤسِّس المذهب الوضعي: «ما دمنا نفكر بشكل وضعي في مادة علم الفلك أو الفيزياء، لم يعد بإمكاننا أن نفكر بطريقة مغايرة في مادة السياسة أو الدين، فالمنهج الوضعي الذي نجح في علوم الطبيعة يجب أن يمتد إلى كل أبعاد التفكير»[2].

---

(١) د. يوسف القرضاوي: مدخل لدراسة الشريعة الإسلامية ص٩٧.

(٢) محمد محمد أمزيان: منهج البحث الاجتماعي بين الوضعية والمعيارية ص٤٠.

وإذا أخذنا «الأخلاق» كمثال، فسنجد أن كل التاريخ الفكري يتعامل مع علم الأخلاق باعتباره من العلوم المعيارية؛ بمعنى أنه لا يدرس ما هو كائن، بل ما ينبغي أن يكون(١)؛ ولذا فمهمته هي وضع الشروط التي يجب توافرها في الإرادة الإنسانية وفي الأفعال الإنسانية؛ لكي تصبح موضوعًا لأحكامنا الأخلاقية(٢).

حتى جاء القرن التاسع عشر وظهرت مدرسة في فرنسا تنظر إلى علم الأخلاق باعتباره تفسير ما هو كائن، لا باعتباره معيارًا لما ينبغي أن يكون(٣).

وصارت الأخلاق لديهم تساوي «القواعد السلوكية التي تسلم بها جماعة من الناس في حقبة من حقب التاريخ»، فنزعوا عن القيم الأخلاقية فكرة الثبات والدوام(٤).

ومن أجمل ما قرأت في وصف هذا الفارق ما قاله المفكر المجاهد علي عزت بيجوفيتش: «إن المساواة والإخاء بين الناس ممكن فقط إذا كان الإنسان مخلوقًا لله، فالمساواة الإنسانية خصوصية أخلاقية وليست حقيقة (مادية)، إن وجودها قائم باعتبارها صفة أخلاقية للإنسان، كسمو إنساني أو كقيمة مساوية للشخصية الإنسانية، وفي مقابل ذلك إذا نظرنا إلى الناس من الناحية المادية فالناس غير متساوين... فطالما حذفنا المدخل الديني من حسابنا سرعان ما يمتلئ المكان بأشكال من اللا مساواة: عرقيًا وقوميًا واجتماعيًا وسياسيًا. إن السمو الإنساني لم يكن من المستطاع اكتشافه بواسطة علم الأحياء أو علم النفس أو بأي علم آخر»(٥).

---

(١) د. زكريا إبراهيم: مشكلة الفلسفة ص٢٠٥.

(٢) د. مصطفى حلمي: الأخلاق بين الفلاسفة وعلماء الإسلام ص١٥.

(٣) د. زكريا إبراهيم: مشكلة الفلسفة ص٢١٠، وما بعدها.

(٤) د. مصطفى حلمي: الأخلاق بين الفلاسفة وعلماء الإسلام ص١٧، ١٨.

(٥) علي عزت بيجوفيتش: الإسلام بين الشرق والغرب ص١٠٠.

ويشهد جوستاف لوبون بأن «العرب يتصفون بروح المساواة المطلقة وفقًا لنُظمهم السياسية، وأن مبدأ المساواة الذي أعلن في أوربا -قولاً لا فعلاً- راسخٌ في طبائع الشرع (الإسلامي) رسوخًا تامًّا، وأنه لا عهد للمسلمين بتلك الطبقات الاجتماعية التي أدَّى وجودها إلى أعنف الثورات في الغرب ولا يزال يؤدي»[(1)].

والخلاصة باختصار: أن الربانية تحسم الإجابات عن أسئلة ربما تنقضي فيها القرون وتهلك فيها العقول قبل التوصل إلى إجابات حاسمة فيها، سواء على مستوى تعريف القيم الكبرى كالتقدم والسعادة والأخلاق، أو على مستوى تعريف وضبط الغايات والعلاقات والسلوكيات تجاه الكون والإنسان والكائنات، أو على مستوى القرارات الصغيرة كالاتحاد والتفرق، فوحدة الأمة ليست مجرد قرار تحركه المصلحة كما فعل الغرب في الاتحاد الأوروبي أو حلف شمال الأطلسي، ولا تفرقها إلى قوميات هو قرار كما في معاهدة وستفاليا، بل الاتحاد فرض ديني والتفرق حرام.. وعلى هذا فِقس الفوارق الكبرى بين الربانية والبشرية.

لقد عملت «الربانية» على بقاء عالم الإسلام ثابتًا على أصوله الكبرى متمسكًا بها وإن ضعف طامحًا إلى استعادة مجده القديم وإن طال عليه الأمد، بينما كان أثر «البشرية» واسعًا.

فلقد «انتقلت أوروبا من دين بلا حضارة إلى حضارة بلا دين! ومن دين بلا علم إلى علم بلا دين! ومن دين يقتل حيوية الناس بالرهبانية السلبية وإهمال عمارة الأرض إلى حيوية عارمة تقتل الدين! ومن فكر يعتقد الثبات في كل شيء ويرفض إحداث أي تغيير في جانب من الحياة لأنه يخالف سنة الثبات، إلى فكر يعتقد التطور في كل شيء ولا يقر الثبات في شيء على الإطلاق»[(2)].

---

(١) جوستاف لوبون: حضارة العرب ص٣٩١.

(٢) محمد قطب: كيف نكتب التاريخ الإسلامي ص٢٥٥.

المبحث الثالث

البحث عن الثوابت والكُلِّيات

حين بدأ الجغرافي العلامة د. جمال حمدان موسوعته عن «شخصية مصر»، عقد فصلًا في أولها ليتحدث عن علم الجغرافيا وعلاقته بالشخصية الإقليمية، قال: «ليس هدفنا أن نشرح المكان لنقدم عن أعضائه وأجزائه موسوعة كتالوجية وصفية، إن تكن ضافية وافية إلا أنها خاملة راكدة.

ولكن الهدف أن نعتصر« روح المكان» ثم نستقطره حتى يُستقطب في أدق مقولة علمية مقبولة ويتركز في أكثف كبسولة لفظية ممكنة.

ولمثل هذا فنحن بحاجة إلى جغرافية تركيبية في المقام الأول، جغرافية علوية رفيعة، قل «سوبر جغرافيا»، لا تقف عند حدود وصف المكان بل تتعداه إلى فلسفة المكان»(١).

هذا الذي قيل هو ما نحتاجه من كل ذي تخصص في تخصصه، أن يبذل المجهود في وصلنا بالروح ما استطاع، فتكون المعلومات بمثابة الغذاء المهضوم والرحيق المختوم، لا قِطَعًا جامدة يعسر هضمها ويتطاير شذاها فلا يُفاد منها.

إن حقيقة العلم وثمرته لا تكمن في حشد التفاصيل بل في استخلاص الخلاصات منها، وقد أطال علماؤنا في شرح هذا المعنى، فقال مالك: «إن العلم ليس بكثرة الرواية، وإنما العلم نور يجعله الله في القلب»(٢).

---

(١) د. جمال حمدان: شخصية مصر ١/ ١٢.

(٢) الخطيب البغدادي: الجامع لأخلاق الراوي ٢/ ١٧٤.

وقال ابن تيمية: «من نَوَّر الله قلبه هداه بما يبلغه من ذلك (العلم)، ومن أعماه لم تزده كثرة الكتب إلا حيرة وضلالا»(١).

وقال ابن رجب: «فليس العلم بكثرة الرواية ولا كثرة المقال، ولكنه نور يقذف في القلب يفهم به العبد الحق ويميز به بينه وبين الباطل، ويعبر عن ذلك بعبارات وجيزة محصلة للمقاصد»(٢).

وعلى عظيم ما استفادت الأمة من الحفاظ إلا أن استفادتها كانت أعظم من ذوي العقول التي جمعت هذا الحشد العظيم في أصول وثوابت، وقد جاء في الحديث تقديم الفقهاء على الحفَّاظ فقال ﷺ: «مثل ما بعثني الله به من الهُدى والعلم كمثل الغيث الكثير أصاب أرضا، فكان منها نقية قبلت الماء فأنبتت الكلأ والعشب الكثير، وكانت منها أجادب أمسكت الماء فنفع الله بها الناس فشربوا وسقوا وزرعوا، وأصابت منها طائفة أخرى إنما قيعان(٣) لا تمسك ماء ولا تنبت كلأ، فذلك مثل من فقه في دين الله ونفعه ما بعثني الله به فعَلِم وعَلَّم، ومَثَل من لم يرفع بذلك رأسا ولم يقبل هدي الله الذي أرسلت به»(٤).

ينبغي على الدارس أن يذهب وراء التفاصيل ويبحث في الأعماق، وعليه أن يجتهد فهي عملية شاقة، حتى تصير له هذه الملكة، فيلتقط من التفاصيل المغزى المكنون، أو يضعها في نظام يفضي إلى نموذج تفسيري منضبط.

وكلما تعمق الباحث في دراسة تاريخ المنطقة أو الموضوع محل البحث، كلما كان أحسن إدراكا لثوابته ومتغيراته، فما تكرر في التاريخ والواقع أدعى أن يكون من

---

(١) ابن تيمية: مجموع الفتاوى ١٠/ ٦٦٥.

(٢) ابن رجب الحنبلي: بيان فضل علم السلف ص٦٣.

(٣) قيعان: جمع قاع، وهي الأرض الملساء.

(٤) البخاري (٧٩)، ومسلم (٢٢٨٢).

الثوابت والأصول، وما تغير في الواقع عما كان في التاريخ أدعى إلى أن يكون من المتغيرات والفروع.

ولا ريب أن من عرفوا الغرب وعاشوا فيه طويلًا أو اهتموا بتراثه هم المقدمون في هذا الجانب، وكلمتهم فيه هي المقدرة، ومثلهم -وربما أهم منهم- من نشأوا في الغرب ثم اعتنقوا الإسلام، بل ولا نرى بأسًا في أن نستفيد بالتحليلات الغربية للروح الغربية في هذا الباب، فالقوم في النهاية أقدر على تعريف أنفسهم بدقة من غيرهم على تعريفهم وإن افتقدوا نظرتنا للأمور وقواعدنا في الحكم على الأشياء، فكم في الكتب الغربية من تفسيرات قوية قادرة على حل الإشكاليات البحثية المطروحة وتقديم نماذج تفسيرية ممتازة ومتميزة.

ولنضرب بعض الأمثلة على ما نريد قوله من البحث وراء التفاصيل أو جمعها في تفسير واضح، ولا يعنينا الآن أكانت مدحًا أم ذمًّا:

١- من الجغرافيا إلى الوطنية إلى العنصرية: «الوطنية من لوازم الطبيعة الأوربية، بينما تخف في آسيا، وذلك من آثار الطبيعة الجغرافية، فآسيا تتمتع بجغرافيا متسعة وخصب وفير، أما في أوربا فالتنازع على البقاء شديد، والكفاح للحياة دائم مستمر، لتزاحم العمران وضيق المناطق وقلة وسائل المعيشة، وقد حصرت الجبال والأنهار الأجناس الأوربية في نطاق طبعي دائم، وقد شاءت طبيعة هذه القارة أن تكون منشأ لممالك ضيقة صغيرة.

لذلك كان التصور السياسي في أوربا في القديم لا يكاد يجاوز ممالك بلدية لا تزيد منطقتها على أميال مستقلة استقلالًا تامًا، وأكبر مظهر لهذا التصور أرض اليونان حيث وُجدت من فجر التاريخ عشرات من مدن صغيرة مستقلة، فلا عجب إذا كان اليونان يدينون بالوطنية وينتحلونها، وكانت الفكرة العالمية التي نادى بها بعض حكمائهم كسقراط وانكساغورس شاذة لم تنل أنصارًا في يونان، فكان نظام أرسطو

مبنيا على التمييز بين اليوناني وغير اليوناني، وكان حب الوطن يتقدم فضائل الأخلاق التي أجمع عليها حكماء اليونان، ولم يكتفِ أرسطو بحب وطنه فحسب بل قال: إن اليونانيين ينبغي لهم أن يعاملوا الأجانب كالبهائم. وراجت هذه الفكرة الوطنية الضيقة في الأوساط اليونانية حتى لم يقبل اليونانيون قول فيلسوف منهم يعلن أن بِرَّه سيكون لجميع اليونانيين وليس لأهل وطنه فحسب، فتعجبوا ونظروا إليه شزرا»(١).

٢- **الداروينية في الفن**: «لنضرب مثلًا بالكارتون المسمى توم وجيري، الذي يصوغ وجدان أطفالنا كل صباح، حيث يقوم الفأر اللذيذ الماكر باستخدام كل الحيل (التي لا يمكن الحكم عليها أخلاقيًا، فهي لذيذة وذكية وناجحة) للقضاء على خصمه القط الغبي ثقيل الظل، وليلاحظ أن القيم المستخدمة هنا قيم نسبية وظيفية برجماتية، لا علاقة لها بالخير أو الشر، قيم تشير إلى نفسها وحسب، ولا تفرق بين الظاهر والباطن.

كما أن الصراع بين الاثنين لا ينتهي، يبدأ ببداية الفيلم ولا ينتهي بنهايته، فالعالم حسب رؤية هذا الكارتون الكامنة، إن هو إلا غابة داروينية مليئة بالذئاب التي تلبس ثياب القط والفأر: توم وجيري»(٢).

٣- **سمات التراث الغربي**: «هناك سمات عامة مشتركة تتخلل كل هذا النتاج التراثي (الغربي) بالرغم من تعدده، لا فرق في ذلك بين تراث الغرب الرأسمالي وتراث الغرب الاشتراكي، فكلاهما تراث سيطرة وهيمنة، بين تراث الطبقة المسيطِرة والطبقة المُسَيْطَر عليها، فكلاهما تراث عنصري. وهي السمات المشتركة التي توجد في أعماق اللاوعي الأوروبي الحضاري بل وفي وحدة شعور الأوروبي»(٣).

---

(١) الندوي: ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين ص١٤٤، ١٤٥. باختصار وتصرف.

(٢) د. عبد الوهاب المسيري: العلمانية تحت المجهر ص٢٢.

(٣) د. حسن حنفي: مقدمة في علم الاستغراب ص١٠٢.

٤- أول حضارة ملحدة: «وحينما سئل فاكيلاف هافل (رئيس جمهورية التشيك) عن الأسباب التي أدت إلى هذا الوضع؟

أجاب قائلًا: هذا الوضع له علاقة ما بأننا نعيش في أول حضارة ملحدة في التاريخ البشري، فلم يعد الناس يحترمون ما يُدعى القيم الميتافيزيقية العليا، والتي تمثل شيئا أعلى مرتبة منهم، شيئا مفعمًا بالأسرار.

وأنا لا أتحدث هنا بالضرورة عن إله شخصي، إذ إنني أشير إلى أي شيء مطلق ومتجاوز، هذه الاعتبارات الأساسية كانت تمثل دعامة للناس وأُفقًا لهم؛ ولكنها فُقدت الآن، وتكمن المفارقة في أننا بفقداننا إياها نفقد سيطرتنا على المدنية، التي أصبحت تسير من دون تحكم من جانبنا، فحينما أعلنت الإنسانية أنها الحاكم الأعلى للعالم، في هذه اللحظة نفسها، بدأ العالم يفقد بُعده الإنساني»[(١)].

ولو سمحت لنفسي أن أقول في هذا الموطن قولا، فإن الملاحظة التي تشيع في الكتابات الغربية والمتغربة هي ذلك الغرام بالتفريق بين ما يمكن الجمع بينهما، أو لنقل التطرف في التفريق وإثبات التناقض، وضيق الذهن عن قبول فكرة تبدو جامعة.

فأفلاطون -مثلا- أراد أن يكون الولاء للوطن فحمله ذلك على محاربة الولاء للأسرة فنادى بشيوع النساء والأولاد كي لا ينشأ ولاء للأسرة الصغيرة يهدد الولاء للوطن، رغم أنه يمكن الجمع بين الولاء للأسرة الصغيرة والولاء للوطن وليس حتميا -بل ولا راجحًا- أن يثور تناقض بين الولاء.

ويتكرر هذا المظهر في الحرب بين المسيحية والعلم حتى صار التناقض ظاهرًا بين كل ما هو علم وكل ما هو دين، حتى ولو كان العلم ما زال فرضية لم يبلغ

---

(١) د. عبد الوهاب المسيري: رحلتي الفكرية ص٢١٩.

الحقيقة العلمية وحتى لو كان الدين ليس مناقضا للعلم[1].

وقد حكى الطهطاوي كيف أصر الفرنسيون في ثورة (١٨٣٠م) على أن يصرح الملك فيليب الأول أنه تولى العرش بإرادة الشعب وأن يمتنع تمامًا عن قول «بفضل الله»، لأنهم اعتبروا أن فضل الله وإرادة الشعب نقيضان فالأولى منهم تعني الحق الإلهي واختصاصه بالحُكم، ومن هنا أصروا على أن يكون لقبه ملك الفرنسيين لا ملك فرنسا هروبًا من معنى امتلاكه للأرض والشعب.

وفي هذا الموقف قال الطهطاوي كلمة تعبر عن الفارق بين الحضارتين: «فلو كان عندنا لاستوت العباراتان! فإن كون الملك ملكًا باختيار رعيته له لا ينافي كون هذا صدر من الله تعالى على سبيل التفضل والإحسان، ولا فرق عندنا مثلا بين ملك العجم وملك أرض العجم»[2].

ومثل ذلك ما يبدو في الكتابات -حتى العربية المتغربة- من شعور بالتناقض لدى تحليل كتابات الرواد الأوائل مثل الطهطاوي وخير الدين التونسي وأمثالهما، إذ تبدو محاولات هؤلاء للجمع بين الأصول الإسلامية والاستفادة من الحضارة الغربية مثيرة للارتباك لدى هؤلاء المحلِّلين، فيفسرون هذا برواسب أو «قيود الفكر التقليدي الموروث» أو عدم فهم لحقيقة النهضة الغربية، فلا يقبلون إمكانية الجمع بين الأمرين[3]، والمتغربون أوضح الأمثلة على هذا المعنى.

---

(١) وهذا يفسر كيف راجت في الغرب نظرية دارون أكثر بكثير من إثباتات مندل، فنظرية دارون تذهب إلى نفي الإله ومنح المخلوقات القدرة الذاتية على التطور، بينما تجارب مندل -التي لا تثبت أكثر من القدرة على تحسين النوع الواحد بتدخلات خارجية- لا تخدم هذا التناقض بين العلم والدين.

(٢) الطهطاوي: تخليص الإبريز، ضمن «الأعمال الكاملة» ٢/ ٢٤٦، ٢٤٧.

(٣) انظر مثلا: ألبرت حوراني: الفكر العربي في عصر النهضة ص١٠٨، د. نازك سابا يارد: الرحالون العرب وحضارة الغرب ص٣٢، ٣٣.

ونحن حين نطالع الكتب الغربية التي تحلل الغرب، ينبغي أن نميز بين ثلاث فئات منها:

الأولى: هي الكتب والدراسات العامة التي تناقش طبيعة الغرب وروحه وحضارته وخصائصه، وقد ذهب المؤلفون مذاهب شتى في المدح والقدح، والثناء والهجاء، ولكن محصلة هذه الكتب تفضي إلى مادة ثرية تفيدنا من وجهين؛ الأول: هو التعرف على الأصول والثوابت والكليات التي يعتنقها الغرب كما يراها بنفسه، والثاني: هو التعرف على ما يناقشونه من هذه الأصول والثوابت (ويرون أن مناقشته ونقده وتجاوزه أمر مطلوب ومرغوب) وما هو بمثابة المقدس الذي لا يُمسّ ولا يُناقش (ويرون أن التمسك به والازدياد منه هو المطلوب والمرغوب).

والثانية: هي الكتب المتخصصة في بعض العلوم، ولكنها لم تكتف بالوصف بل قامت بدور التحليل والتشريح واستخلاص الثوابت والأصول والكليات من أجزاء هذه العلوم.

والثالثة: هي الكتب التي تناقش مشكلات الغرب على وجه التحديد، وهذه الفئة تُعَدُّ عظيمة الفائدة من وجهين؛ الأول: هو التعرف على هذه المشكلات وحجمها، والثاني: هو تحليل الطرق الغربية في معالجتها.

وإذا أردنا أن نضرب مثالا على هذه الفئات الثلاث، نقول:

١- يُعَدُّ كتاب «انتحار الغرب» مثالا على محاولة تحليل الروح الغربية وطبيعتها، ويرى المؤلفان -ريتشارد كوك وكريس سميث- أن روح الغرب تقوم على ستة أعمدة: المسيحية، التفاؤل، العلم، النمو، الليبرالية، الفردية.

ويدور الكتاب حول كيف تتعرض هذه الأسس الأصيلة للتآكل والانهيار في الوقت المعاصر، ولكنها تمتلك من المرونة ما قد تتمكن به من إعادة بناء نفسها، فهو

يمزج بين النظرة المتخوفة مع الأمل والتفاؤل والقدرة على استيعاب المتغيرات والاستجابة الصحية لها.

٢- كذلك يُعَدُّ كتاب «أفضل ديمقراطية يستطيع المال شراءها» من أفضل الكتب التي اطلعت عليها في مجال استخلاص الخلاصة من تفاصيل كثيرة ومتنوعة، وإن تكن الخلاصة نفسها مبذولة في كثير من الدراسات التي كتبها نُقَّاد الرأسمالية مثل نورينا هيرتس في كتابها «السيطرة الصامتة: الرأسمالية العالمية وموت الديمقراطية»، كذلك كافة ما كُتِب عن هيمنة الشركات الكبرى عابرة القارات والتي تمثل الآن قوميات جديدة بما صار لها من ولاء عابر للحدود.

وهذه الدراسات تكشف كيف أن الديمقراطية في صيغتها الغربية تحت ظل الرأسمالية ليست أكثر من «ملكية جديدة» تمارس استبدادًا «ناعمًا»، وهو ما يصعب أن يفهمه كثير من أهل بلادنا الذين يعانون الملكية الصريحة والاستبداد الخشن.

٣- ومن أبرز الكتب التي تناقش مشكلات الغرب كتاب «موت الغرب: أثر شيخوخة السكان وموتهم وغزوات المهاجرين على الغرب»، ويأخذ هذا الكتاب قيمته من كونه واحدًا من أوسع الكتب مبيعًا، كما أن مؤلفه باتريك بوكانان كان مستشارًا لثلاثة رؤساء أمريكيين، وكاد يكون مرشحًا للحزب الجمهوري مرتين في الأعوام (١٩٩٢، ١٩٩٦م) ثم ترشح للرئاسة عن حزب «الإصلاح» عام (٢٠٠٠م).

وفي هذا الكتاب لوعة وحسرة ونقاش متوتر للمشكلات التي تهدد الحضارة الغربية، والتي تنحصر في شيخوخة السكان وقلة عددهم في مقابل تكاثر غير الغربيين وهجراتهم المتزايدة إلى الغرب، وكيف أن شيخوخة السكان راجعة إلى الثقافة «المسمومة» والأفكار «المسرطنة» التي تبيح -تحت عنوان الحرية- الإجهاض واللواط والعزوف عن الزواج والإنجاب وتحارب المسيحية.

ومما يجعل الكتاب ذا أهمية خاصة كونه صادرًا عن غربي، ومسؤول، ومن قادة الحزب الجمهوري المعبر عن الجانب المتشدد في السياسة، وأنه موجه بالأساس إلى الغرب، وأنه وجد صدى بينهم. فكل ذلك يفضي إلى قراءته باهتمام ثم تحليل منطلقاته في علاج ما طرحه من مشكلات.

ومن المهم التنبيه عليه في هذا السياق أن مسألة البحث عن الأصول والكليات والثوابت لا تتعلق بالمدح أو الذم للحضارة الغربية بقدر ما تتعلق بالفهم، فإبصار ما تميزوا فيه وفهمه ضروري ومهم بذات قدر إبصار ما انحرفوا فيه وفهمه أيضًا.



المبحث الرابع
علي عزت بيجوفيتش نموذجًا

يمثل الرئيس المجاهد والمفكِّر المتميز علي عزت بيجوفيتش نموذجًا متميزًا للمسلم الذي استوعب هذه الثلاثية التي ذكرناها: الإسلام، الغرب، الفوارق بينهما. وهذا مع أنه نشأ في الغرب لا في الشرق، مما يدعم ما ذهبنا إليه من أن الاستغراب في حقيقته ليس مفهومًا جغرافيًا.

ويُعَدّ كتابه «الإسلام بين الشرق والغرب» نموذجًا في شرح ما نعنيه من تأسيس الأصول لعلم الاستغراب، ولا أحسب أحدا يبحث في مجال الفكر والحضارة يسعه أن لا يقرأ هذا الكتاب لما فيه من عمق ورسوخ ودقة نظر وسمو فهم، ثم هو بعد ذلك قد صيغ في عبارات سلسلة ومبسطة[1] نقلت المعنى العميق الدقيق في ثوب رفيق رقيق.

وُلِد علي عزت بيجوفيتش في مدينة «بوسنة كروبا» شمال غرب البوسنة، وكانت وقتها جزءا من الاتحاد اليوغسلافي، عام ١٩٢٥م، واندرج في النشاط الإسلامي منذ كان في الخامسة عشرة من عمره، وأسس جمعية «الشبان المسلمين» في ظل الهيمنة الشيوعية لجوزيف تيتو على يوغسلافيا، فذاق السجن وهو في الحادية والعشرين لمدة ثلاث سنوات لأجل مقالات كتبها يدفع فيها هجمات شيوعية على الإسلام والمسلمين.

---

(١) وهنا لا ننسى أن نشكر د. محمد يوسف عدس الذي نقل هذا الكتاب إلى العربية، وكانت ترجمته لا تقل روعة ولا دقة ولا حسن فهم وصياغة عن النص الأصلي، فصار النص الفلسفي بقلمه نصا بديعا ذا لمسة أدبية متفننة.

ثم سجن مرة أخرى في عهد جوزيف تيتو بتهمة أنه ضد الشيوعية حتى أفرج عنه عام ١٩٥٤م، وكان في التاسعة والعشرين من عمره، عمل بعد هذا محاميًا حتى أكمل دراسته العليا في القانون عام١٩٦٢م.

ثم سجن مرة ثالثة بتهمة أنه يريد إنشاء دولة إسلامية واحدة من خلال مقالاته التي جُمِعت في كتابه «الإعلان الإسلامي»، فحكم عليه عام ١٩٨٣م بالسجن لمدة أربعة عشر عام، لكنه قضى منها ستة فقط ثم أعيدت المحاكمة مع ضعف النظام السياسي الشيوعي قبيل انهيار الاتحاد السوفيتي.

ولما خرج من السجن أنشأ حزب العمل الديمقراطي عام ١٩٨٩م، ليكون سبيله إلى إنقاذ الوضع الإسلامي في البوسنة، إذ ها هو الاتحاد اليوغسلافي ينهار ويوشك ألا يُظلم إلا المسلمون الذين كانت قياداتهم الرسمية شيوعية، بينما تحولت قيادات باقي دول الاتحاد من الشيوعية البغيضة إلى العنصرية البغيضة، وأثبت ملوسوفيتش أنه يريد وراثة الاتحاد المتفكك ليصنع مشروعه «صربيا الكبرى» حيث تُمتَصّ خيرات باقي دول الاتحاد لمصلحة صربيا وحدها.

وبالفعل دخل الحزب الانتخابات في البوسنة وفاز بها علي عزت بيجوفيتش ليكون أول رئيس للبوسنة بعد تفكك الاتحاد اليوغسلافي وقادها في محنتها الشنيعة التي أحيط بها فيها من كافة العالم في واحدة من أقسى مآسي القرن في أوروبا، بل هي الأقسى بعد الحرب العالمية الثانية[1].

وقد نقل مترجم الكتاب عن المؤلف أن أفكار الكتاب استقرت في ذهن المؤلف قبل صدور الكتاب بنحو عشرين سنة، أي في عقد الستينات.

---

(١) انظر مقدمة المترجم د. محمد يوسف عدس لكتاب بيجوفيتش «الإعلان الإسلامي» ص١٧ وما بعدها، د. محمد يوسف عدس: مذكرات علي عزت بيجوفيتش.

وقد وضع المؤلف كتابه في قسمين هذه خلاصتهما[1]:

في القسم الأول يستعرض المؤلف الرؤى التي تفسر العالم:

إن الرؤى التي تفسر العالم ثلاث: المادية، الدينية، الإسلامية؛ فالرؤية المادية متعلقة بالجسد، والدينية متعلقة بالروح، بينما الإنسان كائن مزدوج يحمل في جسده روحا، فلذلك تنحاز كل رؤية لما تتعلق به، فالرؤية المادية لا تقيم اعتبارًا للروح، والرؤية الدينية لا تقيم اعتبارًا للجسد، وهذا يضع الإنسانية في مشكلة حقيقية.

الماديون يؤمنون بإنسان دارون إذ الإنسان كائن متطور، بينما الدينيون يؤمنون بالإنسان الذي رسمه مايكل أنجلو على سقف كنيسة السستن طبقًا لما ورد في «الكتاب المقدس»، وهو الإنسان الذي خلقه الله بأمر منه وأنشأ فيه الروح بلا تطور ولا تاريخ.

ومن هنا يفترق القوم إلى جهتين لا تلتقيان، إذ إن «الإنسان» في مفهوم الماديين ليس هو «الإنسان» في مفهوم الدينيين، فكلاهما يتحدث عن شيء يختلف عن الآخر.

ولهذا تظهر الثنائيات المتناقضة بين الجسد وحاجاته (كيف أعيش) والروح وطموحاتها (لماذا أعيش)، بين الحضارة (التقدم المادي = تأثير الذكاء على الطبيعة) والثقافة (الموقف الفكري = تأثير الدين على الإنسان أو الإنسان على نفسه)، بين الأداة (استعمال المادة) والعبادة (إشباع الروح)، بين التعليم (كعملية تستهدف

---

(١) ننقل هنا عن النسخة العربية الصادرة في القاهرة، عام ١٩٩٧م، عن دار الجامعات، بينما أخذت معلومة أن أفكار الكتاب كانت في ذهن مؤلفه قبل عشرين سنة من صدوره من المقدمة التي كتبها المترجم لطبعة دار الشروق الصادرة في القاهرة ٢٠١٣م. وقد كانت للمؤلف تقديم وملاحظات على الطبعة العربية أدرجت في طبعة دار الجامعات، ثم كتب تعليقا آخر على الكتاب في كتابه «هروبي إلى الحرية» ص٢٢٧ وما بعدها، من الطبعة العربية التي صدرت عن دار الفكر في دمشق عام ٢٠٠٢م.

تحصيل مهارة) والتأمل (كعملية تستهدف الوصول إلى المعاني والحقائق)، بين اليوتوبيا (التي تصنع مجتمعا على مثال واحد) والدراما (التي تصف حياة مركبة فيها ما لا يحصى من التنوعات والاختلافات)، بين المصلحة (المادية النفعية) والواجب (الإنساني الأخلاقي)، بين العلم (حقائق تُكتَشَف، ويخرج منتجات للاستعمال) والفن (إبداع يُخلق، ومنتجاته للاستمتاع)... إلخ.

وينعكس هذا الاختلاف بين التيارين على الكثير من المفاهيم، فالتقدم والتخلف لهما معانٍ مختلفة لدى كل منهما، هذا يقيسها بتراكم العلم والتطور، وهذا يقيسها بمدى القرب أو البعد عن القيم المقدسة(١).

والمساواة لها معنى مختلف فهي مقاييس آلية رقمية لدى الماديين، بينما هي تتعلق بالتنوعات والخصائص لدى الدينيين، بل حتى ما يبدو أنها مفاهيم محايدة مثل «الزمن» ليس كذلك، فالزمن في مفهوم المادة والحضارة زمن مستقيم مستمر ترمز إليه الساعة، بينما الزمن في مفهوم الروح والثقافة دائري، فيه عودة دائمة وإعادة تخيل للزمن.

وفي النهاية يعاني كل فريق من مشكلات، ففيما تقوم ضد الماديين حقائق إنسانية راسخة، لا يسع الدينيين رفض الحضارة ولو أرادوا.

فلا الماديون استطاعوا التخلص من آثار الروح، ولا الدينيون استطاعوا التخلص من ضرورات الجسد.

لأن الثنائية (والوحدة) للجسد والروح هي «أكبر وأرسخ وأقدم تجربة بشرية، لم تستطع أي فلسفة بشرية أن تتجاوز هذه المشكلة».

---

(١) فالماديون مثلا يرون صلب المسيح فشلًا، بينما يراه المسيحيون لحظة النجاح ورمز الخلاص، بينما «نجاح» محمد ﷺ أمر لا يرحب به المسيحيون.

وبعد أن انتهى من توضيح الرؤيتين: المادية والدينية، يطرح علي عزت بيجوفيتش -في القسم الثاني من الكتاب- الرؤية الإسلامية، ويعطي لها لفظًا جديدًا هو «الوحدة ثنائية القطب»، ويشرح كيف يمثل الإسلام الفهم الشامل للإنسان، الفهم الذي يجمع بين الروح والمادة، وكيف أنه بهذا يمثل «طريقًا ثالثًا» بين الرؤيتين: المادية والدينية، ويصف كيف قامت عبادات الإسلام وشعائره، ومؤسساته وشريعته، على تحقيق الغايتين معا؛ إذ الفصل بين هذه الحاجات مستحيل ولا سبيل إليه.

ومن هنا فإن النجاح الديني والدنيوي لمحمد ﷺ هو التعبير الأمثل عن رؤية الإسلام في الحياة، لأنه نجاح الرسالة الدينية الأخلاقية في هذا العالم الأرضي، وهذا النجاح هو نفسه سبيل الوصول للنجاح المنشود في الحياة الآخرة، ولا أدل على هذا من أن النبي ﷺ وقبل وفاته بقليل كان يجهز لحملة عسكرية في شمال الجزيرة العربية.

وبعد أن شرح الملامح التي تجعل الإسلام طريقا ثالثا، أراد أن يقول بأن فكرة الطريق الثالث نفسها ممكنة، ولها تجليات خارج الإسلام، فاختار نموذج بريطانيا الذي يسير وسطًا بين التيارات الأوروبية، فهو يتمتع بالديمقراطية والملكية معًا، لا تأخذ ثوراتها مجراها إلى النهاية بل هم مغرمون بالوصول إلى حلول وسط.

وهذا القسم الثاني الذي شرح فيه الإسلام يبدو أكثر وضوحا إذا ضممنا إليه كتابه الآخر «الإعلان الإسلامي»، إذ هو مختص بشرح الفكرة الإسلامية وتحديد نقاط الخلل لدى المسلمين ثم طرح الحل من خلال تصحيح فهم الإسلام وتطبيق ما لا يطبق منه.

يمكن قول الكثير في شأن بيجوفيتش وأفكاره، إلا أن المهم في سياقنا الآن، هو نموذجه كمسلم درس الغرب وهضم حضارته ونقدها من قاعدة إسلامية.

فحقق بهذا الثلاثية التي ذكرناها، وهي:

١- فهم الإسلام

فالبرغم من نشأة الرجل في الغرب وعدم تلقيه دراسة دينية تقليدية، كذلك بالرغم من غياب النصوص الإسلامية عن كتبه إلا قليلًا، فإن فهمه للإسلام وطبيعته كان من الوضوح والقوة إلى حد لا يظفر به كثير ممن تلقى دراسة شرعية تقليدية، وهو حين أراد أن ينقل نصوصًا تدعم فكرته من «علماء» مسلمين، استعان بنصوص يوصف أصحابها في عالمنا العربي -أحيانًا- بالمتشددين، مثل سيد قطب، وكثير من استنباطاته جديدة تمامًا على إنسان نشأ وتعلم في الغرب، فلئن كانت من إبداعاته فهو أمر مدهش يستحق التتبع والبحث عن تكوينه العلمي، وإن كانت من ترجمات منقولة عن مصادر عربية فهذا يشهد باتساع حصيلته العلمية.

٢- فهم الغرب

وبرغم الحصيلة الواسعة لدى بيجوفيتش من الحضارة الغربية -والتي تشهد بها النصوص الكثيرة المنقولة عن المفكرين والفلاسفة الغربيين- فإنه لم يُستَلَب في تفاصيلها ولم يضع في دهاليزها، بل استطاع أن يرد كل هذه التفاصيل إلى أصولها وثوابتها وكليَّاتها حتى استقرت كافة التفاصيل في مسارين متمايزين: الرؤية الدينية والرؤية المادية، ثم ينسجم هذان المساران في كونهما «نظرة أحادية» إلى الإنسان، وهي الفكرة العميقة الغائرة في كل هذه التفاصيل التي تبدو كثيرة ومشوشة ومنتثرة لا يجمعها رابط أبدًا.

وعندئذ قام بيجوفيتش بنقد هذه الفكرة الأصلية الكلية وطرح في مقابلها المفهوم الإسلامي الذي يرفض النظر إلى الإنسان على أنه كائن أحادي الجانب، بل هو كائن يجمع بين الطبيعتين: البشرية (الجسد) والإلهية (نفخة الروح)، فلكل منهما طبائع وخصائص كما لكل منهما آثار ونتائج.

ومن هنا فلا يصلح لهذا الإنسان إلا رؤية تجمع بينهما، وهذه الرؤية لا توجد إلا في الإسلام الذي يجمع في عباداته وشعائره ومؤسساته بين الجسد والروح.

٣- فهم الفوارق بين الإسلام والغرب

وهو ما بدَا في رسالة الكتاب والغرض منه، وفي تقسيمه إلى قسمين: قسم عن الغرب، وقسم عن الإسلام، والفوارق بينهما منثورة فيه ولكنها متركزة أكثر في القسم الثاني.

إن عظمة بيجوفيتش لا تقتصر فحسب على إنتاجه الفكري، ولكنها تمتد لتشمل مواقفه العملية، فلقد وُضِع الرجل على المحكّ العملي، بل لا نبالغ أن نقول إنه قد وضِع في صراع ضخم، أضخم بكثير من إمكانياته، وصار عليه أن يواجه طوال حياته أمواجا عاصفة: بدءًا بالشيوعية، ثم النازية -أثناء الاجتياح الألماني ليوغسلافيا في الحرب العالمية الثانية- ثم الشيوعية من جديد، ثم القومية الصربية، ثم البراجماتية الغربية التي خانت كل مبادئها وأسلمت شعبًا للذبح والقتل، ثم طرحت حلًّا يشرعن ما أُخِذ بالسيف. وهو في كل هذا لم ينبهر ويُفتن، أو يضعف ويسقط.

فهكذا كان نموذجًا علميًّا وعمليًّا لفهم الغرب ودراسته برؤية إسلامية.

❁ ❁ ❁

المبحث الخامس

قضية البيئة نموذجًا[(١)]

تبدو قضية البيئة للوهلة الأولى وكأنها بعيدة عن سياق الأفكار الغربية، لكن ما إن يتعمق المرء قليلًا في النظر إلى هذه القضية إلا ويبدو له أثر الفكر الغربي فيها واضحًا، وكيف أن أفكار العصور المختلفة التي تمثل انقلابًا على بعضها في أمور كثيرة تختزن في عمق باطنها فكرة واحدة هي «السيطرة» و«التحكم» و«الاستعمال» - بالمعنى المادي السلبي - لكل ما ليس بغربي. فذلك هو ما نعنيه بـ«البحث عن الكليات» في القضايا الجزئية واستخلاص القواعد من التفاصيل.

ذكرنا أن الغرب المعاصر يستمد أفكاره من ثلاثة روافد؛ رافد قديم: وهو الفلسفة اليونانية، ورافد وسيط: وهو المسيحية، ورافد حديث: وهو أفكار عصر التنوير والحداثة.

١ - فأما الفلسفة اليونانية فقد أسست لعلاقة منقطعة بين الإله وبين الكون والإنسان، فالإله عند أرسطو خلق الكون وتركه لأنه أعظم من أن يفكر في شيء أقل منه (!)، كصانع الساعة، أودع فيها القوانين التي تسيرها ثم لا يراعيها.

كما أسست لطبقية وعنصرية عنيفة بين البشر أنفسهم؛ فيرى أفلاطون وأرسطو أن الناس ثلاث طبقات؛ الطائفة الذهبية: وهم الفلاسفة الحكماء على رأس الهرم،

---

(١) اخترت هذه القضية تحديدا لما لي من سابق دراسة لها، فقد كنت الباحث الرئيسي في بحث «منهج الإسلام في حماية البيئة»، وقد أجريته تحت إشراف د. راغب السرجاني، وقد فاز هذا البحث بجائزة الأمير نايف بن عبد العزيز لخدمة السنة النبوية وعلومها، فرع الدراسات الإسلامية المعاصرة (٢٠١٢م)، ثم في كتاب آخر أسأل الله أن يصدر قريبًا وعنوانه «قضية البيئة بين الإسلام والغرب».

ثم الطائفة الحديدية: وهم المحاربون والصناع الذين خُلِقوا للطاعة العمياء، ثم العبيد وهم البهائم العاقلة.

ورأى أفلاطون أنه لا يجوز لأحد في طبقة ما أن يطمح إلى غيرها وألزمه بقبول حكم الطبيعة عليه ليكون سعيدًا[١].

ولئن كان هذا تقسيم اليونان لأنفسهم فليس مستغربًا أن يكون موقفهم من غير اليونانيين متلخصًا في «عنصرية» تنفر منهم وتحتقرهم ولا ترى بأسًا في قهرهم[٢]، وسجل القانون الروماني «مدونة جوستنيان» هذه العبارات:

- بعض الرعايا ممن ليسوا رومانا بالسلالة ليست لهم حقوق الرومان، فهم كالعبيد يعملون لأجل الرومان ولتشبع بطونهم.
- إن العبيد لا يعاملون معاملة الآدميين.
- ليست للمرأة شخصية مستقلة بل هي في حُكم المملوكة للرجل أبًا كان أمْ زوجًا.

وبعد هذا يُعد من السذاجة أن نسأل عن الموقف من الطبيعة والبيئة والنبات والكائنات!

على أن أخطر ما أسست له أساطير اليونان، كانت العلاقة بين الإله والإنسان، فهما في صراع مستمر؛ الإله يريد الاحتفاظ بالعلم ليحتفظ بهيمنته على البشر، والإنسان يريد العلم ليتحرر من تحكم الإله ويتأله بنفسه ويتحكم في الكون.

---

(١) ول ديورانت: قصة الفلسفة ص٢٣ وما بعدها، ماريا لويزا برنيري: المدينة الفاضلة عبر التاريخ ص٢٦ وما بعدها، السيد محمد بدوي: الأخلاق بين الفلسفة وعلم الاجتماع ص٥٢.

(٢) مونتسكيو: روح الشرائع ٢/ ١٤٦، برتراند رسل: حكمة الغرب ١/ ١٠٠، ١٤٣، ١٥٧، أرنولد توينبي: مختصر دراسة التاريخ ١/ ٩٣.

فأي اكتشاف هو خصم من الإله وإضافة إلى الإنسان حتى تأتي اللحظة المنشودة: لحظة إزاحة الإله وتنصيب الإنسان إلها[١].

ولقد كان تاريخ الحضارات الغربية القديمة هو التطبيق العملي لهذا الوجه الفكري الفلسفي، فلقد استبدوا بالشعوب ونهبوا الثروات وافترسوا ما أمكنهم من بشر أو موارد.

٢- وأما المسيحية فقد اختلطت بالوثنية حتى كان أثر الوثنية في المسيحية أكبر من أثر المسيحية فيها، وظهر هذا في النصوص المحرفة التي صارت تنادي بالإخضاع، وتجعل العلاقة بين الإنسان والطبيعة علاقة سيطرة وقهر وتحكم، فمن ذلك مثلا:

- «فَخَلَقَ الله الإنسان على صورته، وعلى صورة الله خلقه ذكرًا وأنثى، خلقهم وباركهم وقال لهم: انموا واكثروا واملئوا الأرض وأخضعوها وتسلطوا على أسماك البحر وطيور السماء، وكل حيوان يدب على الأرض»[٢].
- «اذهب، واضرب عماليق، وحَرِّموا كل ما له، ولا تعف عنهم، بل اقتل رجلًا وامراة، طفلًا ورضيعًا، بقرًا وغنمًا، جملًا وحمارًا»[٣].
- ومثله ما جاء في سفر يشوع: «وحرموا كل ما في المدينة من رجل وامرأة، من طفل وشيخ، حتى البقر والغنم والحمير، بحد السيف»[٤].

وقد نتج عن مثل هذه النصوص «المقدسة» كثيرٌ من التفسيرات والمواقف العملية.

---

(١) محمد قطب: واقعنا المعاصر ص٨٩.

(٢) سفر التكوين ١/ ٢٧.

(٣) سفر صموئيل الأول ١٥/ ٣.

(٤) سفر يشوع ٦/ ٢١.

ففي منتصف القرن التاسع عشر مَنَع البابا بيوس التاسع إنشاء فرع لجميعة الرفق بالحيوان في الفاتيكان لأن «الحيوانات مجردة من الروح، ومن ثَمَّ لا تصلح لأن تكون موضعًا لاعتبارات أخلاقية».

وفي عام ١٩٧٣م، قال رئيس أساقفة لوس أنجلوس: «من الأفضل الاحتفاظ بالرأي القائل بأن الطبيعة عدو للإنسان، فهي القوة الغريبة عنه، والتي ينبغي له أن يقهرها ويروضها بعزيمته»[١].

وصرح جيمس وات -وزير الداخلية الأمريكي في عهد ريجان- بأن «الحفاظ على المصادر الطبيعية غير مهم» إذ سيعود المسيح عندما تُقطع آخر شجرة، مستدلًّا على هذا بنص من إنجيل لوقا[٢].

وعلى منواله نسج القس سبونك في كتابه (الذنوب في الكتاب المقدس Sins of the Scriptures) ورأى بأنه طالما ستكون ثمة حياة آخرة فعلى الناس «أن لا يركزوا على الأرض ولا أن تكون عليهم مسئولية في الاعتناء بها وبطبيعتها وتحولها... وأن الكوارث البيئية شيء لا بُدَّ منه».

وقرر الصحفي جلن سيثرر في كتابه «النبوة البيئية» أن الملايين من الأصوليين المسيحيين يؤمنون أن تدمير البيئة أمر ينبغي الترحيب به والتعجيل بحدوثه؛ إذ «الجفاف والفيضانات والمجاعات والأوبئة الناجمة من التدمير البيئي تأتي في سياق

---

(١) إيان ج. سيمونز: البيئة والإنسان عبر العصور ص٢٢٦.

(٢) يقول النص: «وستظهر علامات في الشمس والقمر والنجوم، وينال الأمم كرب في الأرض ورهبة من عجيج البحر وأمواجه. وستزهق نفوس الناس من الخوف، ومن توقع ما ينزل في العالم؛ لأن أجرام السماء تتزعزع، وحينئذ يرى الناس ابن الإنسان آتيًا في الغمام في تمام العزة والجلال. وإذا أخذت هذه الأمور تحدث فانتصبوا قائمين وارفعوا رءوسكم؛ لأن افتداءكم قد قرب».
إنجيل لوقا ٢١/ ٢٥-٣٢.

النبوات الواردة في الإنجيل، وَلِمَ القلق بشأن تقلبات المناخ ما دام الإنقاذ سيتم على يد المسيح؟»[(١)].

لهذه النصوص والتفسيرات والمواقف نجد كثيرا من علماء البيئة -لا سيما الملحدين منهم- يرون المشكلة البيئية كامنة أصلا في الدين الذي يعطي الإنسان حق السيطرة والقهر على ما حوله، إلى درجة الترحيب بالتدمير البيئي[(٢)].

وما كان هذا الظن ليثور لولا ما أصاب المسيحية من تحريف، إذن لعرفوا الفرق بين «الاستخلاف» بما يحمله من معنى الأمانة والالتزام وحساب الله في الآخرة، وبين «السيطرة» التي تعني سلطة قهر وامتلاك وتصرف بلا حساب.

٣- وأما أقوى الروافد وأوسعها تأثيرًا في مسألة البيئة فهو فلسفات عصر التنوير والحداثة.

وفي هذه الحقبة ظهرت مشكلة البيئة وتفاقمت حتى بلغت حد الكارثة، وحتى الآن ما تزال كل مجهودات إنقاذ البيئة تتحطم على صخرة هذه الأفكار وما أنتجته من سياسات وأنظمة.

كان من المحتم أن يقع الصدام بين الكنيسة والعلم لأكثر من سبب:

منها أن بعض الاتجاهات المسيحية نظرت إلى العلم باحتقار انطلاقًا من قول بولس «ألم يصف الربُّ المعرفة الدنيويَّة بالغباوة؟»[(٣)].

---

(١) انظر: جعفر هادي حسن: المسيحيون الصهيونيون ونظرتهم إلى العالم، مجلة الحوار المتمدن، ٣/ ١١/ ٢٠٠٧م، ومقال بعنوان «ليس هناك غد» مترجم عن دورية ستار تريبيون ومنشور بموقع «إسلام ديلي» بتاريخ ٣٠/ ١/ ٢٠٠٥م.

(٢) انظر: مايكل زيمر مان: الفلسفة البيئية ص١٩، ٢٠، إيان ج. سيمونز: البيئة والإنسان عبر العصور ص٢٢٥.

(٣) زيجريد هونكه: شمس الله تسطع على الغرب ص٣٦٩.

ومنها ما اعتنقته المسيحية كـ«حقائق علمية مقدسة» يجعل التشكيك فيها طعنًا في المسيحية ذاتها، فمجرد اكتشاف أن الأرض ليست مركز الكون يضرب العقيدة المسيحية، إذ دامت الأرض مجرد كوكب عادي فكيف يصح «القول بأن خالق هذا الكون الهائل المنظم قد أرسل ابنه ليموت على هذا الكوكب المتوسط الحجم، وبهذا واجه اللاهوت أقوى تحدٍّ في تاريخ الدين»[١].

وكان طبيعيًّا أن ترى المسيحية أن هذا العلم خطرًا عليها لا سيما وهو مقتبسٌ - آنذاك- من المسلمين، فلذلك كانت الكنيسة تفعل كل ما بوسعها لإنهاء هذه «الفتنة» وهذا «التهديد الوجودي»! وبدأت معركة صفرية ابتلعت الآلاف من العلماء في محارق الكنيسة وفنون تعذيبها، معركة لا يرضى أحد أطرافها بحل وسط، وبطبيعة الحال كان صوت العلم أقوى من سوط الخرافة، ووصلت الأمور إلى العلمانية الكاملة وعزل الكنيسة عن الحياة.

ثمة محطات ثلاث يمكن التقاطها في هذا السياق:

الأولى: اكتشاف نيوتن قوانين الحركة والجاذبية، وبدلا من أن يكون رد الفعل «سبحان الله خالق هذه القوانين» طرحت أجواء المعركة مع الكنيسة ردة فعل معاكسة: الكون يسير وفق قوانين حتمية ولا وجود لإله يسيِّره ويرعاه.

الثانية: طرح داروين نظرية النشوء والارتقاء، فكان كأنما ألقى بحجر ينتظره الجميع ليعلن انتهاء الإله بشكل كامل وأن الكائنات تستطيع التكيف ويمكنها أن ترتقي وتغير من تشكلها وفق حاجتها[٢].

---

(١) ول ديورانت: قصة الحضارة ٢٧/ ١٣٨، ١٣٩. بتصرف.

(٢) في نفس الوقت كان مندل يبحث في علم الوراثة، ولم يخرج بشيء أكثر من إمكانية تحسن السلالات عن طريق التهجيين، ورغم أن إثباتات مندل أقوى كثيرا من نظرية دارون، إلا أن الأجواء الطموحة إلى التخلص من الدين وإلهه طارت بأفكار دارون دون مندل.

الثالثة: طرح ماركس نظريته المادية التي تفسر تاريخ الإنسان بالحاجات المادية (وبالذات المسألة الاقتصادية) فبها وصلت الفكرة إلى نهايتها: لا إله، الحياة مادة، الدين أفيون الشعوب.

وبين هذه المحطات الثلاثة غابة من المواقف والآراء والنظريات، تؤدي إلى: الغرب يتخلص من الدين، ويعزل الكنيسة داخل جدرانها.

ونحن حين نقرأ نصوص تلك الفترة نشعر أن برومثيوس قد عاد إلى الحياة بعد قرون، هذا إيريش فوندانكين يقول بصراحة: «السمة المشتركة لكل الأديان هي أنها وعدت بتقديم العون والخلاص للجنس البشري، فلماذا لم تفِ تلك الآلهة بوعودها؟ إن عالم الأفكار الذي نشأ وتضخم على مدى ألف سنة في طريقه إلى الانهيار، حيث إن سنوات قليلة من البحث العلمي الدقيق قد أدت إلى تقويض ذلك الصرح الفكري»[1].

وحين تخلت أوروبا عن المسيحية اعتنقت المادية وأزاحت كل «ما وراء الطبيعة»، فكان طبيعيًا أن ينفجر النهر الفياض من الشهوات واللذائذ، وأن يعب المرء من الحياة ما استطاع بكل ما استطاع، فخلاصة الحياة في ظلال المادية تلخصها عبارة ألبير كامي -فيلسوف العدمية الشهير- القائلة: «كل شيء جائز طالما أن الله غير موجود وأن الإنسان يموت»[2]. وبهذا صارت الطبيعة «مادة استعمالية لا قداسة لها، توظَّف وتصنَّع وتستهلَك وتولَّد منها الطاقة من أجل تحقيق لذة الإنسان ومنفعته، الأمر الذي يتطلب المزيد من استهلاك مصادر الطبيعة بمعدلات لا نظير لها في تاريخ الإنسان، ويؤدي هذا إلى تلوث البحار والأرض والسماء (موت الطبيعة)»[3].

---

(١) إيريش فون دانكين: عربات الآلهة ص٦.

(٢) علي عزت بيجوفيتش: الإسلام بين الشرق والغرب ص١٣٩.

(٣) د. عبد الوهاب المسيري: العلمانية الجزئية والعلمانية الشاملة ٢/ ١٢٠.

وهذا بالنسبة لأي مرحلة تاريخية سابقة «مفهوم شاذ عن الطبيعة يعتبرها كما لو أنها ملكية خاصة لنا يحث لنا استخدامها والإفراط باستخدامها (كما يُعَرِّف الحق الروماني هذه الملكية) إلى حد أنه لم يعد يُرى فيها إلا مخزنًا للثروات ومستودعًا لنفايتنا»[١].

ومع نمو الرأسمالية تحولت قيم الاستهلاك نفسها إلى «فلسفة مطلوبة؛ إذ إن تكاثر الإنتاج يقتضي ويريد تكاثرًا في الاستهلاك.

فيسعى أصحاب الإنتاج أنفسهم إلى خلق نوعيات جديدة للاحتياج عبر الدعاية والإعلان والتطوير المستمر للمنتجات، والبحث عن أسواق جديدة، وتقصير عمر المنتج ليستهلك سريعًا؛ ولهذا فإن السيارات الحديثة لا تتمتع بأعمار السيارات القديمة، وكذلك البنايات الحديثة لا تعيش أبدًا كما عاشت البنايات الأقدم منها».

وهذا ما يسميه جان ماري بيليت -أحد علماء البيئة البارزين- بـ «مجتمع النفايات»، ويرمز لها بنهر «له منبع وهو الاقتصاد الذي يضخ عددًا رهيبًا من السلع والمنتجات لتلبية حاجات الاستهلاك المتزايدة، وله أيضًا مصب وهو تراكم النفايات بعد انتهاء الاستهلاك، وهذا ما ينتج ثلاث مشكلات: مشكلة الطاقة، ومشكلة الموارد الأولية، ومشكلة تلوث البيئة»[٢].

وقصة الغرب في عصره الحديث تكاد تكون واحدة، منذ إسبانيا التي كانت أول المتمتعين بثروات العالم الجديد[٣]، مرورًا ببريطانيا التي كانت لحقبة امبراطورية لا تغيب عنها الشمس فيما كانت عاصمتها لندن «أقرب شبهًا ببركان أو بضواحي

(١) جارودي: وعود الإسلام ص٢٠.

(٢) جان ماري بيلت: عودة الوفاق بين الإنسان والطبيعة ص٤٨، ٥٠، ٥٦، ٥٩.

(٣) انظر: جوستاف لوبون: حضارة العرب ص٥٨٤، ٥٨٥.

جهنم، منها بمجتمع تعيش فيه مخلوقات»[١]، وانتهاء بأمريكا التي لا تتورع عن أي جريمة في سبيل المصلحة المادية ولو كان قذف قنبلتين ذريتين على مدنيين في اليابان، أو حتى رفض التوقيع على اتفاقية كيوتو التي تلزم بخفض نسب الغازات الملوثة برغم أن أمريكا وحدها تتسبب في ثلث الغازات المنبعثة في العالم.

والأخطر من «الأفعال» الأمريكية «سياستها وفلسفتها»، ففي مايو ١٩٩٢م جرت لأول مرة عملية «التجارة بالتلوث»، وذلك أن وكالة «تينيسي فالي» دفعت إلى شركة للطاقة في ولاية ويسكونسن، من أجل منحها «الحق» بقذف عدة أطنان من ثاني أكسيد الكبريت في الجو، فخفضت ويسكونين من تلوثها لموازنة تلوث تينيسي، سامحة بذلك للوكالة بتجاوز الحدود العليا للتلوث المحددة بواسطة القانون[٢]، كما لم يعد مدهشًا في ظل الفلسفة الرأسمالية أن نرى مسارعة أعدى أعداء الاتفاقيات البيئية إلى ترؤس المؤسسات البيئية، كما فعل بويدن جراي -رئيس «مواطنون من أجل اقتصاد مستقر» وهي جماعة معادية لمعاهدة كيوتو- الذي ترأس بنفسه مؤسسة «اتحاد المصادر البيئية» التي تأسست أصلًا لتنفيذ نظام التبادل التجاري لبروتوكول معاهدة كيوتو!!

وفي خضم المفاوضات دسوا أسلوبا خطيرا، لكنه ابن شرعي طبيعي للرأسمالية المتوحشة، وهو شراء الحصص غير المستخدمة من الانبعاثات، بمعنى أن المعاهدة تلزم بوضع حد للانبعاثات الملوثة للبيئة، وقامت بتوزيع ما تحت هذا الحد على الدول الصناعية بنسبة متوزعة أخذتها من حساب المساهمة لكل بلد في الانبعاثات في العام ١٩٩٠، فكان هذا الأسلوب يعتمد على أنه من حق مصنع أن يشتري نسبة

---

(١) انظر: ول ديورانت: قصة الحضارة ٣٢/ ١٢٨، وتشيع صورة لندن البائسة الغارقة في الدخان والروائح الكريهة في الروايات الإنجليزية المكتوبة في هذه الفترة.

(٢) جريج بالاست: أفضل ديمقراطية يستطيع المال شراءها ص٢٢٢، ٢٢٣.

التلويث المخصصة لمصنع آخر، وبالتالي يمكنه خرق القانون وزيادة دفق ما يرسله من انبعاثات بنفس النسبة التي اشتراها من المصنع الأول، وفي هذا الإطار جرى شراء حصص الاتحاد السوفيتي المنهار بعد كساده الصناعي وانخفاض نسبة تلويثه للهواء لحساب الأمريكان.

ويؤكد الصحفي الأمريكي جريج بالاست الذي تتبع هذا الموضوع بأن هذه الصفقات إنما هي صفقات وهمية، وأنه خلال بحثه لم يجد تبادلًا تجاريًا واحدًا خلَّص الجو من أصغر نسبة تلوث، لأن باقي الالتفاف يكمن في المناورات القانونية، وهي الساحة التي يتحالف فيها الساسة مع رجال المال بحيث يبدو كل شيء طبيعيًا وسليمًا [١].

وهكذا كانت البيئة فريسة على مائدة الروافد الثلاثة المغذية للفكر الغربي منذ الفلسفة اليونانية وعصور اليونان والرومان، مرورا بهيمنة المسيحية وعصور الملوك والإقطاع، وحتى فلسفات التنوير والحداثة في عصور القوميات والاستعمار والنظام العالمي. تختلف الظواهر ويبقى العمق البعيد الغائر واحدا لكنه يغير ثوبه.



(١) جريج بالاست: أفضل ديمقراطية يستطيع المال شراءها ص٢٢٣ وما بعدها.

الفصل الثاني

معالم في الطريق

قال الإمام الشافعي:

أخي: لن تنال العلم إلا بستة ... أنبيك عن تفصيلها ببيان
ذكاء وحرص واجتهاد وبُلْغَة[1] ... وصحبة أستاذ وطول زمان

فأما الذكاء والحرص والاجتهاد فلا سبيل لنا عليه فتلك مواهب يؤتيها الله من يشاء وينميها الباحث من تلقاء نفسه، وأما المال فرزق من الله يأتي في لحظة كما يزول في لحظة والله كريم ودود! وأما صحبة الأستاذ فإنما يعاني فقدها من يبدأ في علم جديد فهو يجمع من الأساتذة المتفرقين ما يؤهله لافتراع علم جديد، وأما طول الزمان فلا مفر منها فقلَّما أتى متعجل بخير!

إنما نحاول في هذا الفصل خدمة ذوي الذكاء والحرص والاجتهاد وأصحاب المال على توجيه هذه المواهب في أحسن طرقها، فنلفت النظر إلى معالم طريق الاستغراب، بعدما أسسنا الأصول في الفصل السابق، وذلك عبر هذه المباحث:

- **المبحث الأول: المجالات والأولويات**
- **المبحث الثاني: نقاط القوة والفرص**
- **المبحث الثالث: الإجراءات والوسائل**
- **المبحث الرابع: المحاذير**
- **المبحث الخامس: الصعوبات**

(١) بلغة: أي مال يبلغك غايتك.

المبحث الأول

المجالات والأولويات

أطال المؤرِّخون وعلماء الحضارات في تعريف الحضارة ومجالاتها، وذهبوا في ذلك مذاهب شتى، ومنهم من يفرِّق بين «الحضارة» و«الثقافة» باعتبار أن الحضارة هي صورة النشاط المادي بينما الثقافة هي صورة النشاط الروحي والفكري[1]، ومنهم من يجعل الحضارة كلمة جامعة تشمل صورة النشاط المادي والثقافي معًا.

وأصل كلمة «الحضارة» في لسان العرب وفي الغرب تعني المدينة أو ما هو فوق البادية أو فوق القرية، ففي لسان العرب «الحضارة هي الإقامة في الحضر، والحاضرة خلاف البادية»[2]، وهو كذلك في الإنجليزية (civilization) وأصلها من كلمة (civis)[3].

وقد ظلت دلالة المعنى العام الإجمالي لم تتغير عبر القرون، رغم ما حلَّ بالتعريف من منازعات هي نفسها من آثار المعركة الحضارية المشتعلة في هذه القرون، وموجز القصة أن البعض -خصوصًا الماديون- اعتبروا الحضارة إنما تعني

---

(١) وأصحاب هذا الفصل بين الكلمتين والمعنيَيْن هم الفلاسفة الألمان بشكل رئيسي. فرناندو بروديل: تاريخ وقواعد الحضارات ص٥ وما بعدها، وإليه مال الرئيس المجاهد علي عزت بيجوفيتش وقال: «الثقافة هي تأثير الدِّين على الإنسان أو تأثير الإنسان على نفسه، بينما الحضارة هي تأثير الذكاء على الطبيعة أو العالم الخارجي». الثقافة معناها «الفن الذي يكون به الإنسان إنسانًا»، أما الحضارة فتعني «فن العمل والسيطرة وصناعة الأشياء صناعة دقيقة»، الثقافة هي «الخلق المستمر للذات». أما الحضارة، فهي «التغيير المستمر للعالم» (علي عزت بيجوفيتش: الإسلام بين الشرق والغرب ص٩٤، ٩٥).

(٢) ابن منظور: لسان العرب ٤/ ١٩٦.

(٣) Oxford Dictionary «civis».

المنجزات المادية(١)، بينما البعض الآخر -خصوصًا من عارضوا المادية- شاع في تعريفاتهم التركيز على الروح والفكر والثقافة(٢)، وسعى قوم آخرون إلى الجمع بين الأمرين؛ إما كمحاولة للتوفيق أو عن قناعة بأن النشاط المادي لا بد حتما أن يصدر عن منظومة فكرية ويكون ثمرة لنشاط ثقافي(٣)، كما أن مجرد النشاط الفكري الثقافي

---

(١) من أمثلة التعريفات التي مالت إلى النشاط المادي:

تعريف ابن خلدون: «أحوال عادية زائدة على الضروري من أحوال العمران، زيادة تتفاوت بتفاوت الرقة، وتفاوت الأمم في القلة والكثرة تفاوتا غير منحصر» (ابن خلدون: تاريخ ابن خلدون ١/ ٤٦١).

وانظر تعريفا آخر في المتن بعد سطور.

وتعريف تونيز وألفريد فيبر «طائفة من معارف فنية تُتخذ منهجا، وممارسة عملية، أي مجموعة من الوسائل والطرق للتصرف إزاء الطبيعة» (فرناندو بروديل: تاريخ وقواعد الحضارات ص٦).

(٢) من أمثلة التعريفات التي مالت إلى الجوانب الفكرية الثقافية:

يقول كريستوفر داوسون بأن الحضارة «تتأسس من عملية أصيلة خاصة من الإبداع الثقافي لشعب بعينه».

Christopher Dawson : The Dynamics Of World History, p. 402.

ويقول فرناند بروديل: الحضارة هي مساحة ثقافية، بل أول مساحات الثقافة.

Fernand Braudel : On History, p. 202.

ويقول محمود شاكر: «الحضارة ليست هي العرض الظاهر من قوتها وبنيانها وفنونها وكل ما يقوم به نعت الحضارة، بل الحضارة هي السر الذي يعمل في إيجاد ذلك واستنباته، وإخراجه على الأرض واستثماره: هي سر الحبة التي تنبت الدوحة، والذرَّة التي تقوم بها المادة» (مجلة الرسالة، العدد ٣٦٦، بتاريخ ٨/ ٧/ ١٩٤٠م).

(٣) من أمثلة التعريفات الجامعة:

يقول أوسولد شبنجلر بأن «الحضارة هي المصير الحتمي للثقافة»

Oswald Spengler : The Decline of the West, p. 24.

ويقول مالك بن نبي: الحضارة «هي مجموع الشروط الأخلاقية والمادية التي تتيح لمجتمع معين أن يقدم لكل فرد من أفراده المساعدة الضرورية المناسبة» (مالك بن نبي: القضايا الكبرى ص٤٣ بتصرف).

=

الذي لم يصدر عنه نشاط وإنتاج مادي لا يُمكن أن يُطلق عليه «حضارة»، فكم وُجِد بشرٌ من غير حضارة بينما لم يوجد بشر من غير فكر وثقافة أبدًا.

ومما يلفت النظر ويثير التأمل هو المقارنة بين تعريف الحضارة لدى أشهر رجليْن خاضَا هذا الموضوع: ابن خلدون، وول ديورانت.

فابن خلدون عَرَّف الحضارة وهو في ظلال بيئة إسلامية، فكان أميل بها إلى النشاط المادي؛ فالحضارة عنده «هي تفنّن في التّرف وإحكام الصّنائع المستعملة في وجوهه ومذاهبه؛ من المطابخ والملابس والمباني والفرش والأبنية وسائر عوائد المنزل وأحواله؛ فلكلّ واحد منها صنائع في استجادته والتّأنّق فيه»[1].

بينما مال ول ديورانت وهو في ظلال بيئة مادية، فكان أميل بها إلى النشاط الثقافي؛ يقول: «الحضارة هي نظام اجتماعي يعين الإنسان على الزيادة من إنتاجه الثقافي»[2]. فلعل ذلك خير دليل على أن الحضارة تشمل الأمرين معا، والعقلاء إنما يوازنون بها أحوال مجتمعاتهم وتوجهاتها؛ فيسددون ويقاربون ويشحذون النظر إلى موضع النقص والخلل!

وأيا ما كان الاختلاف حول التعريف فلقد درج المؤلفون في الحضارات على تناول الحضارة من خلال دراسة «العلوم والآداب والفنون والصناعات والنظم والمعتقدات»[3].

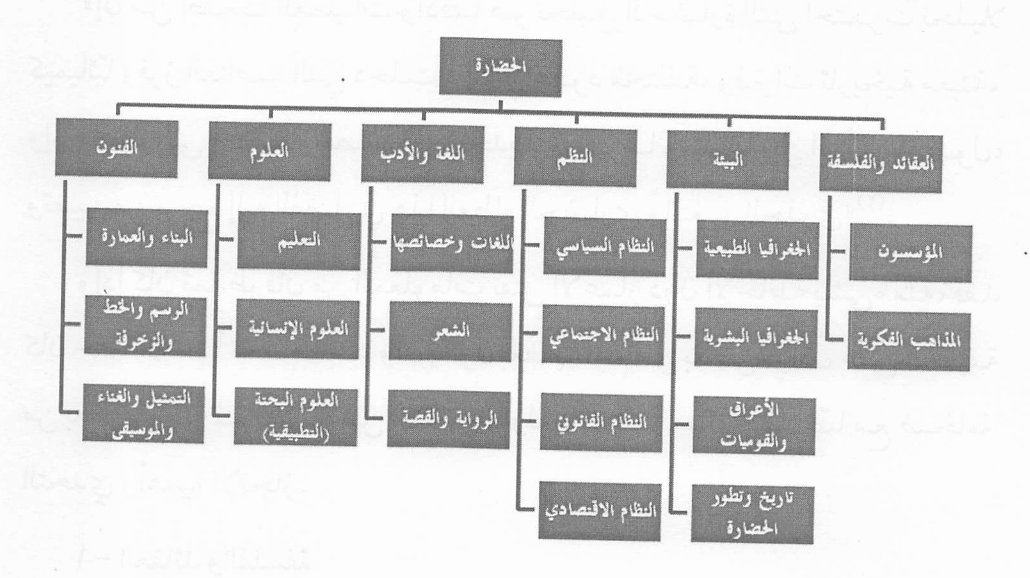
= ويقول د. حسين مؤنس: «هي ثمرة كل جهد يقوم به الإنسان؛ لتحسين ظروف حياته، سواء أكان المجهود المبذول للوصول إلى تلك الثمرة مقصودا أم غير مقصود، وسواء أكانت الثمرة مادية أو معنوية» (د. حسين مؤنس: الحضارة ص١٣).

(١) ابن خلدون: تاريخ ابن خلدون ١/ ٢١٦.

(٢) ول ديورانت: قصة الحضارة ١/ ٣.

(٣) جوستاف لوبون: حضارة العرب ص٣٣.

وقد قسَّم ول ديورانت الحضارة إلى أربعة عناصر «الموارد الاقتصادية، والنظم السياسية، والعقائد الخلقية، ومتابعة العلوم والفنون»[(١)]، وكالعادة ليس ثمة اتفاق كامل على وصف الموضوعات وتقسيمها، ولكن المخطط العام يدور حول هذه المجالات التي وضعناها في هذا المخطط:



وغير خافٍ أن لكل مجال من هذه المجالات تقسيمات فرعية أخرى، وغير خافٍ كذلك ما يكون بين هذه المجالات وبعضها من التشابك والعلاقة والتأثير المتبادل.

فالحضارة هي مزجٌ ومزاج مستخلص من هذا كله بعد عملية تفاعلات غير محدودة عبر زمن زاخر بالتفاصيل والمؤثرات غير المرئية.

يقول الأستاذ أبو الحسن الندوي: «كانت هذه الحضارة (الغربية)، بمعناها الواسع، مجموع عقائد ومناهج فكرية، وفلسفات ونظم سياسية واقتصادية، وعلومًا

(١) ول ديورانت: قصة الحضارة ١/ ٣.

طبيعية وعمرانية واجتماعية، وتجارب خاصة مرت بها الشعوب الأوروبية التي تزعمت هذه الحضارة في رحلتها الطويلة، وكانت مظهر تقدم العلم البشري وعلوم الطبيعة، وعلم الآلات والعلوم الرياضية، ومجموع نتائج جهود علماء وباحثين عبر القرون؛ فكانت مزيجًا غريبًا من أجزاء لا يكون الحكم عليها واحدًا متشابهًا»[1].

«إن من أصعب العمليات وأدقها هو تحليل الحضارة التي اختمرت تحليلًا كيميائيًا وفرز العناصر التي دخلت فيها في عهود مختلفة، وفترات تاريخية معينة، وإرجاعها إلى أصلها ومصدرها، وتحديد مقاديرها ومداها من التأثير والقبول، وتعيين من يرجع إليه الفضل في هذا العطاء الحضاري والتغيير الجذري»[2].

وإذا كان ثمة طوفان من المعلومات تفنى الأعمار دون الإحاطة بشيء منه، فقد كان حتما أن تنشأ تخصصات، وأن يكون بعضها أهم من بعض، وأدلَّ على الحقيقة من بعض، ومِن ثَمَّ فلا بد من أن تكون أولويات للدراسة، خصوصًا مع ضخامة التحدي وأهمية الإنجاز.

١ - العقائد والفلسفة

ومن المنطلق الإسلامي الذي نعتمده أصلا وأساسًا ومعيارًا، فإننا لا نجد صعوبة في أن نبدأ من «العقائد والفلسفة»، فالعقيدة هي أصل الأصول وهي القضية المحورية وهي التي تهيمن على نصوص القرآن الكريم والحديث الشريف، وقد استغرق تأسيس العقيدة والدعوة إليها الوقت الأطول في عمر البعثة النبوية (١٣ عامًا)، وهي التي يُحاسب الله عليها يوم القيامة، فكل الأعمال تبع لها.

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ﴾ [النساء: ١١٦].

---

(١) الندوي: موقف العالم الإسلامي تجاه الحضارة الغربية ص١٠.

(٢) الندوي: الإسلام أثره على الحضارة وفضله على الإنسانية ص١٢، ١٣.

وهذه الحقيقة تبدو من الوضوح والسطوع بحيث أقَرَّ بها من لا يؤمنون بهداية القرآن ولا يعتمدون المنطلق الإسلامي كأصل يُصدر عنه ويُرجع إليه، فالحضارات الكبرى إنما تأسست على الديانات الكبرى كما لاحظ بحق المؤرِّخ البريطاني كريستوفر داوسون(١)، والإنسان بطبيعته «كائن ديني»(٢) كما تقول كارين أرمسترونج -وهي للمفارقة راهبة كاثوليكية سابقًا ولا تنتمي حاليًا لأي دين!- والدين ظاهرة تعم البشر جميعًا وتلك «حقيقة من الحقائق التاريخية والنفسية»(٣).

وبعد دراسات مستفيضة في الحضارات خرج جوستاف لوبون بهذه الخلاصة لتفسير الحوادث التاريخية الكبرى.

يقول: «بعد إنعام النظر في هذه الحوادث (التاريخية الكبرى) يتبين أن وراء أسبابها الظاهرة في الغالب سببًا حقيقيًا، هو التغير الكلي في أفكار تلك الأمم، فليست التقلبات السياسية الحقيقية الكبرى هي التي تدهش الباحثين بعظمها وعنفها، وإنما الانقلاب الصحيح الجدير بالاعتبار الذي يؤدي إلى تغير حال الأمم المدنية يحصل في الأفكار والتصورات والمعتقدات»(٤).

---

(١) Christopher Dawson : The Dynamics Of World History, p. 128

(٢) وهذه هي خلاصة كتابها (The Case Of God) والذي صدر في سبتمبر ٢٠٠٩، وترجم إلى العربية بعنوان «الله لماذا»، ونشرته دار سطور في القاهرة. وبعده بشهرين في (نوفمبر ٢٠٠٩م) نُشِر كتاب الصحفي الإنجليزي نيكولاس واد، الذي جعل له عنوانا موحيا «غريزة الإيمان» (The Faith Instinct)، وفيه يتحدث عن الإنسان مخلوق وداخله «جين» الله. وقبلهما كان دين هامر قد كتب كتابه الشهير الذي أثار زوبعة في وقته (سبتمبر ٢٠٠٤م) «الجين الإلهي» (The God Gene) لأنه قال بوجود جينات في جسم الإنسان هي المسئولة عن تعلقه بالروحانيات، وكان العنوان التوضيحي للكتاب «How Faith is Hardwired into our Genes» أي «كيف أن الإيمان مستقر في جيناتنا».

(٣) ول ديورانت: قصة الحضارة ١/ ٩٨، ٩٩.

(٤) جوستاف لوبون: روح الاجتماع ص٩، ١٠.

ويقول حسن حنفي: «الوعي الحضاري بالنسبة لنا هو الوعي الفلسفي، فالفلسفة أم العلوم.. الوعي الفلسفي هو أساس الوعي السياسي والاقتصادي والاجتماعي»[(١)]

ومن ثَمَّ فإن محاولة دراسة أي موضوع إنساني بعيدًا عن الدين هي نوع من العبث! فكيف إذا كان الموضوع هو الحضارة التي هي مجمع النشاط الإنساني وخلاصته؟!

والدين الذي نعنيه هو «العقيدة» و«الفكرة المهيمنة»، فالدين في حقيقته هو فكرة رسخت وتعمقت حتى انعقد عليها القلب فصارت «عقيدة»، حتى لو كانت هذه العقيدة هي «اللا دين»! ومن المهم أن ندرك أن الانخلاع الغربي من المسيحية لم يكن في حقيقته انخلاعًا بقدر ما كان اعتناقًا لدين جديد وفكرة جديدة، إذ لا يسع الإنسان أن يظل بلا أفكار، وسواء قلنا إن هذا الدين الجديد هو «العلم» أو «المادية» أو حتى «النسبية في العقائد»، فكل ذلك لا يغير من حقيقة أن كل هذه المسميات إنما هي في عمقها «دين» أيضًا!

وخروجًا من الخلاف والتشويش الذي ينتج عن لفظة «دين»، نستعمل لفظ «العقيدة» أو «الفلسفة» أو «الثقافة» أحيانًا، والمقصود في كل الأحوال: أن أي دراسة للحضارة يجب أن تبدأ من هنا.

٢- التاريخ

ونعني به التاريخ الحضاري لا السياسي فحسب، وإن كان التاريخ السياسي هو أقوى المؤثرات في تواريخ الأمم، والتاريخ الحضاري هو تاريخ الأفكار والنظم والعلوم والآداب والفنون، وهو مرتبط بالجغرافيا والبيئة، فهو في النهاية الترجمة الحقيقية والأمينة لهذه الحضارة: هويةً وطموحًا وطبائع.

---

(١) حسن حنفي: مقدمة في علم الاستغراب ص١٠١.

وكما يقول د. جمال حمدان بعبارة بليغة: «من الواضح كذلك إلى حد البديهي أن دراسة الشخصية الإقليمية لا تقتصر على الحاضر وإنما هي تترامى بعيدًا عن عبر الماضي، وخلال التاريخ، لأنه بالدور التاريخي وحده يمكن التعرف على الفاعلية الإيجابية للإقليم وعلى التعبير الحر عن الشخصية الإقليمية. فالبيئة قد تكون في بعض الأحيان خرساء، ولكنها تنطق من خلال الإنسان، ولربما كانت الجغرافيا أحيانا صماء، ولكن ما أكثر ما كان التاريخ لسانها. ولقد قيل بحق إن التاريخ ظل الإنسان على الأرض. بمثل ما أن الجغرافيا ظل الأرض على الزمان، بينما يضيف قولٌ آخر إن معظم التاريخ إن لم يكن جغرافية متحركة، فإن بعضه على الأقل جغرافية متنكرة»[1].

إن العقائد والفلسفة تضطرنا -أول ما تضطرنا- إلى دراسة المؤسِّسين والأبطال الذين كانت أعمالهم منعطفات مؤثرة في مسيرة الأمم.

ولا يسعنا أن نفهم هؤلاء ولا أن نقدر أعمالهم بغير دراسة متعمقة لتاريخهم والظروف التي أحاطت بهم.

ولئن كان الرسل والأنبياء أنفسهم -وهم الذين ارتبطوا بالسماء فكانوا أولى الناس ألا يتأثروا بشيء من الأرض ومن الزمن- قد بُعثوا وهم يحملون بعض خصائص أقوامهم[2]، فكيف بغيرهم؟! إنه لا يسع أحدًا أن يتحرر من الزمان والمكان والبيئة المحيطة!

---

(١) د. جمال حمدان: شخصية مصر ١/ ١٣.

(٢) بعث الله تعالى الأنبياء من صميم أقوامهم ﴿مِّنْ أَنفُسِهِمْ﴾ [آل عمران: ١٦٤] ﴿۞ وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا﴾ ﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا﴾ ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا﴾ [الأعراف: ٦٥، ٧٣، ٨٥] ويتكلم بلغتهم ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ﴾ [إبراهيم: ٤] ويعرف شؤونهم فيدعوهم إلى ترك ما هم عليه من الضلالة.

٣- النظام السياسي

فالسياسة هي أكثر العوامل تأثيرا في الناس، وهي المهيمنة على كافة الأنشطة الأخرى.

وبرغم أنها منبثقة من «العقيدة» إلا أنها الأقدر على تنفيذ تعاليمها وترجمتها إلى أفعال ومؤسسات ونظم وطرائق، كذلك قال عثمان بن عفان رضي الله عنه: (إن الله يزع بالسلطان ما لا يزع بالقرآن)[1]، وهو ما جرى في أمثال العرب قديمًا: (الناس على دين ملوكهم)، (الناس أتباع مَن غلب)، (إذا تغير السلطان تغير الزمان)[2].

كذلك فبرغم أنها منبثقة من «العقيدة» إلا أنها الأقدر على تحريف هذه العقيدة والانحراف عن هذه الفلسفة، وقد جاء في حديث النبي ﷺ: «... **وإنما أخاف على أُمتي الأئمة المُضِلِّين**»[3]، وكذا قال عمر بن الخطاب لزياد بن حدير: (هل تعرف ما يهدم الإسلام؟ قال: قلت: لا، قال: يهدمه زلَّة العَالِم، وجِدال المنافق بالكتاب، وحُكم الأئمة المُضِلِّين)[4].

وفي هذا المعنى قال عبد الله بن المبارك:

وهل أفسدَ الدِّينَ إلا الملوكُ ... وأحبارُ سُوء ورُهبانها؟

وفي خلاصة تاريخية بديعة يقول ابن كثير: «كانت همَّة الوليد في البناء، وكان الناس كذلك يلقى الرجل الرجل فيقول: ماذا بنيتَ؟ ماذا عمَّرت؟ وكانت همَّة أخيه سليمان في النساء، وكان الناس كذلك، يلقى الرَّجل الرَّجل فيقول: كم تزوَّجت؟ ماذا

---

(١) المبرد: الكامل في اللغة والأدب ١/ ٢١٤، ابن تيمية: مجموع الفتاوى ١١/ ٤١٦.

(٢) الثعالبي: التمثيل والمحاضرة ص١٣١، الميداني: مجمع الأمثال ٢/ ٣٥٨.

(٣) أحمد (١٧١٥٦)، وأبو داود (٤٢٥٢)، والترمذي (٢٢٢٩)، وصححه الألباني (السلسلة الصحيحة ٤/ ١١٠) وشعيب الأرناؤوط.

(٤) الدارمي (٢١٤)، وصححه الألباني (مشكاة المصابيح: ٢٦٩).

عندكَ من السراري؟ وكانت همَّة عمر بن عبد العزيز في قراءة القرآن، وفي الصلاة والعِبادة، وكان الناس كذلك، يلقى الرَّجل الرَّجل فيقول: كم وِردَك؟ كم تقرأ كل يوم؟ ماذا صليت البارحة؟ والناس يقولون: الناس على دين مليكهم، إن كان خمَّارًا كثر الخمر، وإن كان لوطيًّا فكذلك وإن كان شحيحًا حريصًا كان الناس كذلك، وإن كان جوادًا كريمًا شجاعًا كان الناس كذلك، وإن كان طماعًا ظلومًا غشومًا فكذلك، وإن كان ذا دين وتقوى وبر وإحسان كان الناس كذلك»[1].

وإذا كان الحاكم في الممالك القديمة يستطيع التأثير بما يصبغ المملكة على نمطه حتى في الممالك القديمة، فكيف يبلغ التأثير الآن بعد أن صارت السلطة -منذ عصر الدولة المركزية- قوة خارقة لم يُؤتها ملك أو سلطان من قبل؟! لقد صارت السلطة تمتلك من وسائل التأثير عبر الإعلام والقوانين ما يمكنها من دخول كل بيت والتحكم في كل نشاط، حتى لتستطيع السلطة صُنع جمهور على نمطها وقالبها، بالرغبة والرهبة، لا سيما إن كانت مستبدة، حتى قال جمال الدين الأفغاني: لا يصلح في الشرق «كما تكونوا يُوَلَّى عليكم»، ولكن: «كما يُولَّى عليكم تكونون».

ثم إن السياسة تتحكم في واقعنا، هنا والآن، أي أن دراستها تمدنا بتوصيات سريعة لمعالجة قضايا اللحظة الراهنة، وتحقيق استجابة لتحديات الواقع.

فهذه الثلاثة: العقائد والفلسفة، التاريخ، السياسة هي -بحسب ما نرى- أولويات الاستغراب التي يجب أن يُبدأ منها، وهي تشتمل من وجوه كثيرة على باقي مجالات الاستغراب كالنظام الاجتماعي والاقتصادي والقانوني والشِّعر والأدب والفنون، فكل هذا إما متأثر بشكل مباشر بواحد من هذه الثلاثة أو أن دراسة هذه الثلاثة تُلزم بجمع مادة أصيلة ووافية عن باقي هذه المجالات.

---

(١) ابن كثير: البداية والنهاية ٩/ ١٨٦.

المبحث الثاني

نقاط القوة والفرص

نحتاج قبل أن نبدأ في تأسيس علم الاستغراب أن ننظر في مواردنا وما نملكه من قدرة على الشروع في علم الاستغراب، وحينئذ سنجد أنفسنا نتمتع بنقاط قوة، كما سنجد أنفسنا إزاء فُرَصٍ سانحة يمكن استثمارها، والفارق بين نقط القوة وبين الفرصة أن الأولى هي ما نملكه والثانية هي ما لا نملكه لكن القدر ساقه إلينا.

١- نقاط القوة

أول نقاط القوة هي ما لدينا من نصوص الوحي، والتي تمثل الحقيقة المطلقة في وصف الإنسان ودوافعه وطموحاته وطرق ضلاله وطريق هدايته، فالتفقه في هذه النصوص يكوّن حاسة البصيرة في أحوال الإنسان والأمم والحضارات وسنن قيامها وسقوطها وعوامل قوتها وانهيارها. ومن طبيعة نصوص الوحي أنها لا تتكشف إلا بالتعمق فيها وفي موضوعها، فلا يغني النظر فيها وحدها شيئا، كذلك لا يغني النظر في الواقع وحده شيئا، بل لا بد من اكتشاف الواقع بنور الوحي، وفهم الوحي عبر معالجة الواقع، وأوضح مثال على هذا هو قضية الإعجاز العلمي في القرآن، إذ لا يُعرف وجه الإعجاز في الآية إلا من خلال ممارسة العلم.

وثاني نقاط القوة هي ما لدينا من تراث تاريخي زاخر أخذ الغرب منه نصيبا لا بأس به، وهو يشمل أقوال الصحابة والتابعين وكل المجهودات المبذولة علميا والتي تناولت الغرب بوجه من الوجوه، فإن فيها نظرات وآراء عميقة وسديدة، كتفسير عمرو بن العاص رضي الله عنه لقول النبي ﷺ: «تقوم الساعة والروم أكثر الناس» بأن ذلك لأن «فيهم لخصالا أربعا: إنهم لأحلم الناس عند فتنة، وأسرعهم إفاقة بعد مصيبة،

وأوشكهم كرة بعد فرة، وخيرهم لمسكين ويتيم وضعيف، وخامسة حسنة وجميلة: وأمنعهم من ظلم الملوك»[1]، كما أن المجهود العلمي الطويل هو مجهود لا يمكن تجاوزه، بل إن بعض الأمور ليس للعالم فيها مصدر غير ما كتبه المسلمون، ولا شك أن حسن النظر وطول التأمل والتعمق قد يفضي إلى نتائج قيمة في تحليل كثير من الظواهر والمسائل ويحل كثيرا من الإشكاليات.

وثالث نقاط القوة التي نملكها هي العدد الكبير من المسلمين في الغرب[2]، خصوصا من وُلِدوا ونشأوا في الغرب، بالإضافة إلى من أسلم من الغربيين، فأولئك يمثلون ثروة كبرى في علم الاستغراب بما لهم من معرفة قوية وطويلة بالغرب وتشربهم لثقافته وعاداته، إذ يُعدُّون صلة الشرق بالغرب من جهة ما لهم من معرفة بالإسلام وبما لبعضهم من معرفة بالعرب بحكم النشأة والأصول، فالمسلمون الذين يعيشون في الغرب أحرى أن يُركَّز عليهم في صناعة مستغربين، وذلك أنهم عبروا حواجز اللغة والثقافة وما إلى ذلك، فكانوا أقرب إلى فهم وهضم الثقافة والحضارة الغربية. كما أن الشعوب المسلمة في الغرب (شعوب البلقان مثلا) تعد وسيطا متميزا لإنشاء الاستغراب وإخراج المستغربين، فإن ما لديهم من الإسلام والتاريخ يجعلهم -رغم كل ما جرى لهم من تشويه وسحق فكري- أقرب إلى تشرب الإسلام من غيرهم، كما أن نصيبهم من الغرب وحضارته يجعلهم أقرب إلى فهمها وهضمها، وقد ضربنا مثالا سابقا بعلي عزت بيجوفيتش الذي نراه نموذجا للمستغرب المنشود. ومما ينبغي التنبه إليه والاستفادة منه أن لكثير من هؤلاء المسلمين في الغرب -سواء من يقيمون دائما، أو أقاموا لفترات- إنتاجا فكريا قيِّما عن الغرب وحضارته وعن

(١) مسلم (٢٨٩٨).

(٢) بحسب موقع «كتاب الحقائق» التابع للمخابرات الأمريكية، يبلغ عدد المسلمين في أمريكا نحو ٢ مليون مسلم، وبحسب إحصائيات عديدة يتراوح عدد المسلمين في أوروبا بين ٤٤ - ٥٣ مليونا (بما في ذلك الأتراك في الجزء الأوروبي من تركيا).

تجاربهم الشخصية أيضا[١]، وهذا الإنتاج متنوع ومتعدد الأغراض؛ منذ الغرض الدعوي المباشر -كما في إنتاج المراكز الإسلامية- وحتى الغرض الشخصي ككتابة المذكرات والرحلات السياحية. إن المراكز الإسلامية ذاتها تعد نقاطا متقدمة لاحتضان علم الاستغراب واحتضان واستضافة المستغربين، وإمدادهم بالخبرة الطويلة التي تكونت عبر نصف قرن على الأقل[٢].

رابع نقاط القوة هي كثرة المبتعثين إلى الغرب من الطلاب والباحثين، فإنه ببعض الإجراءات البسيطة والحوافز المشجعة يمكن الاستفادة من طاقات هؤلاء في أن يكونوا بذورا لمستغربين، فإنهم في أول الشباب وهو ذروة النشاط وقلة الارتباط وقوة الطموح والشوق لتحقيق الإنجاز، كما أنهم مبتعثون بطبيعة الحال، فلا يكلف الأمر إلا قليلا من التفكير والترتيب وربما القليل من المال للتحفيز أو تغطية بعض التكاليف الزائدة.

خامس نقاط القوة هي ما تملكه بعض البلدان وبعض الأثرياء من القدرة المالية على تمويل بحوث وبرامج في مراكز الدراسات والمعاهد البحثية في الغرب، لا لدراستنا نحن أو لمنع تشويه صورتنا كما هو الحال فيما سبق، بل لتقديم دراسات

(١) من ألطف ما يمكن أن يُضرب به المثل هنا هو كتاب د. باسم خفاجي «رهن الاعتقال» والذي سرد فيه تجربته إذ كان معتقلا في السجون الأمريكية لمدة أحد عشر شهرا، فكشف بهذا الكتاب عن بيئة لا يصل إليها الباحثون، ولئن وصلوا بعد عنت فلن يتمكنوا من التعمق في تفاصيلها كالذي عايشها، وليس المقصود بيئة المجرمين فحسب، بل طبقاتهم ومشكلاتهم ووسائل تحايلهم على القانون، وثغرات القانون، وجهاز الشرطة نفسه ونقاط التقاء المتناقضين في التهريب والمصالح المتبادلة ونحو ذلك.

(٢) ليس يخفى على كاتب هذه السطور ما يعانيه المسلمون في الغرب من مشكلات اقتصادية واجتماعية وثقافية، مما يبدو للوهلة الأولى وكأن ما يُقال هنا من قبيل الأحلام، لكن كل هذا لا يعيق الاستفادة من هذا العدد الكبير من المسلمين الذين يعيشون في الغرب، بل قد يكون مشروع الاستفادة منهم هذا هو ذاته بعض الحل لمشكلاتهم تلك.

وبحوث عن الغرب نفسه.. ويمكن اعتبار هذه خطوة أولى في دراسة الاستغراب حتى نبني وننشئ مؤسساتنا وإلى حين نضوجها، بل إن التعاون مع هذه المراكز البحثية يساعد في تدريب وتأهيل كوادرنا ومؤسساتنا البحثية وأقسامنا الجامعية المزمع إنشاؤها لدراسة الغرب.

٢- الفرص:

وأما الفرص المتاحة للشروع في علم الاستغراب فأولها: **ما أنتجه الغرب عن نفسه** وصفا وتشريحا وتحليلا، من بحوث أو مواد صحفية أو برامج تلفازية، وذلك أن الدراسات التي كتبها الغربيون عن أنفسهم توفر لنا وقتا كبيرا في كثير من الأشياء التي ينبغي بحثها، وهي -في أسوأ الأحوال، وعلى أقل تقدير- تقدم لنا خلاصة رأي لا بد سنحتاجه في فهم وتفسير ما يحدث في الغرب وفي تفسير الغرب لنفسه. وقد صدرت في هذا الباب بحوث كثيرة قيمة لا يمكن تجاوزها في رصد ما يحدث وتوقعاتهم لما يترتب على هذا الرصد في المدى القريب والبعيد. وتزيد قيمة هذه البحوث لأن ثمة عادة أو ثقافة ترسخت لديهم في الشفافية والمصارحة البحثية، حتى إن التقارير الإدارية لعدد من الشركات الاقتصادية -والتي تنشر علنا- تكشف عن نقاط الضعف فيها وعن التهديدات المحتملة من المنافسين وعن خططها القريبة، كذلك فإن المؤسسات الدولية التي أنشئت لتوفير المعلومات أو تبادلها أو مراقبة الجودة عملت على زيادة حركة تدفق المعلومات عن الشركات والمؤسسات والمصانع، وهذا بالإضافة إلى زيادة الصحف ووسائل الإعلام وصدور العديد من الصحف والقنوات والشبكات المتخصصة في جانب بعينه. لقد أدى كل هذا إلى حركة تدفق غزيرة من المعلومات، حتى صارت هذه الغزارة من عوامل التشوش والفوضى المعلوماتية، إذ إن خلو حركة الحرية من الأخلاق ووجود مراكز قوى ونفوذ إنما يؤثر على صحة المعلومة ودقتها.

وهذا عائد -فيما أظن- في أصله إلى أمن العاقبة مع الفارق الكبير بين الغرب وبين خصومه، بسبب من هذا التخلف المزري الذي يعيشه العالم الإسلامي، مع حرص الغرب على استمرار وبقاء هذا التخلف.

ولا يعني هذا أنه ليس ثمة أسرار بل إن بحوثا كثيرة علمية تحظى بالمكان السري[١]، خصوصا ما كان منها في أسرار الصناعات أو في الجوانب الأمنية والعسكرية، لكن هذه الجوانب لا تخص البحث في علم الاستغراب، فهذا العلم إنما ينصب على فهم الغرب وحضارته، وكل هذا إنما يدور في الإطار العلني والمعلومات المبذولة المتوفرة.

وثاني هذه الفرص هي ما لدينا من تراث المتغربين أنفسهم، فما كتبه المنبهرون بالغرب -وإن كان من علامات نكبتنا الحضارية- يمكن اعتباره فرصة من حيث إنه أراد أن يعطينا صورة صادقة عن الفكر المطروح، فَنَقله عندنا وروَّجه من يؤمن به ويُجمِّله، لا من يكرهه ويعاديه فيُخشى من تأثير ذلك على طرحه، فهي صورة للفكر الغربي في أحسن صوره.

وبذلك وَفَّر علينا القوم عمليات ترجمة وتتبع وتحليل واستخلاص، وبقي أن ننظر في هذا التراث نظرة الدارس الفاحص المتأمل المنطلق من أصوله الإسلامية.

ولقد زاد في مظاهر النكبة -الذي نعتبره في هذا الموطن من الفرص- أن كان لكل مذهب غربي بعضٌ يمثلونه في بلادنا، فظهر لدينا أتباع الوجودية والوضعية المنطقية والشخصانية والجوانية والماركسية والديكارتية... إلخ.

---

(١) ذكر د. مازن مطبقاني في ورقة بحثية عن «قضايا الدراسات العربية الإسلامية في الغرب» أنه زار باحثا أمريكيا يعمل في مؤسسة راند بكاليفورنيا، وعرف أنه قام ببحث حول الأوضاع الأمنية في السعودية، واعترف له الباحث بأن بحثه سري. انظر ص٨.

وثالث هذه الفرص هي أن التراث الفكري الغربي مجموع ومخدوم، فلسنا سنعاني مجهودا كبيرا في الجمع والفهرسة والتحقيق كالذي عاناه المستشرقون في جمع التراث الإسلامي وتحويله من مُفَرَّقٍ إلى مجموع ومن مخطوط إلى مطبوع، بل إن تطور علم المكتبات وقيام مؤسسات كبرى في جمع التراث الإنساني كله قد سهل من عملية الحصول على المُراد بأيسر الإجراءات.

ورابع هذه الفرص هي الثورة الإعلامية، فالجالس في البلاد الإسلامية باستطاعته متابعة العديد من وسائل الإعلام الغربية، المقروءة والمسموعة والمرئية، وهذه النوافذ التي لم تكن متاحة من قبل إلا بالسفر صارت الآن متاحة بضغطة زر، فهي تمثل أبوابًا واسعة لمتابعة الغرب ومجتمعاته وما يدور فيه.

بل إن العربي الذي لا يجيد لغة غربية واحدة يستطيع أن يشاهد العديد من القنوات الأجنبية المترجمة، لا سيما قنوات الترفيه والأفلام، ونعم فإن هذا من ظواهر التغريب في بلادنا إلا أنها في ذات الوقت فرصة يمكن من خلالها الاطلاع على الغرب واكتناه بعض جوانبه، وسنجد كثيرا من هذه البرامج تعبر أصدق تعبير عن بعض الجوانب العميقة في الشخصية الغربية[1]، وفي الفروق بين الغربيين كذلك.

وخامس هذه الفرص هي ثورة الاتصالات التي وفرت سهولة واسعة في متابعة التفاصيل الصغيرة، حتى المدونات الشخصية وصفحات الفيس بوك وتويتر وأمثالها، ومع ذلك سهولة واسعة في إنشاء العلاقات ومتابعة أنشطة الحياة في الغرب. لقد فتح الانترنت آفاقا لم تكن تخطر على بال في انتقال المعلومات والانفتاح على

(١) يكاد يكون البرنامج الترفيهي الأمريكي «كل شيء مقابل المال» هو أصدق تعبير عن المادية في أقوى صورها، وهو من نوع برامج «الكاميرا الخفية» وتعتمد فكرته على طلب شيء في غاية السخافة أو الإحراج أو الإهانة من أحدهم، فيرفض بلا تردد، ثم يظل المذيع يفاوض ويعرض سعرا أعلى لما يطلب حتى يصل إلى النقطة التي يُستجاب له فيها، وما أقواه من مشهد!

كافة المجالات والتعاون بين ذوي الميول المتشابهة في تطوير وتنمية أنفسهم والتواصل مع أرباب هذه المجالات.

إنه لا يسع علم الاستغراب أن يتجاهل عالم الانترنت، بل إن مواقع التواصل الاجتماعي تحتاج فرقا متخصصة لتحليل المواد المنشورة عليها، تتوفر على دراستها وقراءة اتجاهاتها واستبطان أعماقها.

إن ثورة الاتصالات هذه تصب في صالح الأضعف أكثر مما تصب في صالح الأقوى، وإن كان الأقوى هو الأكثر استفادة منها في الواقع، ويورد الباحثون أن ما حصلته الهند والصين بأثر من «سيولة المعرفة» من شأنه أن يمثل «تحديا للولايات المتحدة نفسها حتى تطور من نفسها بسرعة، وتحافظ على مكانتها في هذا الكوكب»[1]؛ وذلك لأن الانترنت اختصر على الدول والبشر مجهودا رهيبا في الحصول على المعلومات أو التواصل بين الأفراد والجهات لم يكن ممكنا من قبل إلا بإنفاق مالي وإمكانيات طائلة في كل المجالات.

❁ ❁ ❁

(١) تقرير التنمية الإنسانية العربية – ٢٠٠٩، ص١٣.

المبحث الثالث

الإجراءات والوسائل

قال ابن حزم:

مذهبان انتشرا في بدء أمرهما بالرئاسة والسلطان: مذهب أبي حنيفة، ومذهب مالك.

وذلك أن أبا يوسف صاحب أبي حنيفة كان قاضي القضاة في عصر الرشيد فكان يعين القُضاة الأحناف فسارع الناس إلى المذهب، وكذلك كان لما تولَّى سحنون بن سعيد (المالكي) قضاء إفريقية[1].

وقال ابن الجوزي عن انتشار مذهب الأشعري:

«تبع أقوام من السلاطين مذهبه فتعصبوا له، وكثر أتباعه، حتى تركت الشافعية معتقد الشافعي رضي الله عنه، ودانوا بقول الأشعري»[2].

إنه مهما تحمس نفرٌ لعلم من العلوم، ومهما دعت الحاجة إليه، فسيظل الواقع والحقيقة والتاريخ يؤكدون أن العلوم لا تزدهر إلا إذا تبناها الملوك، أو على أقل تقدير وفَّروا لها من إمكانيات الدولة ما يقيمها حتى تستوي على عودها وتتحول إلى واقع ومؤسسات ومدارس، فحينئذ يمكن لها أن تستكمل الطريق بنفسها وإن غفل عنها صاحب السلطان.

---

(١) الضبي: بغية الملتمس ص٥١١، ٥١٢ بتصرف.

(٢) ابن الجوزي: المنتظم ١٤/ ٢٩.

وهذه الحقيقة يشهد لها تاريخ الزمن القديم قبل عصر الدولة المركزية[١]؛ قبل أن تمتلك السلطة كل هذا النفوذ والتأثير والتحكم في موارد الدولة، وقبل أن تتشعب العلوم وتتوسع حتى لم يعد باستطاعة أي فرد مهما بلغ أن يطلب العلم فيجمعه بمجهوده الذاتي.. فكيف بالحال الآن؟!

وتقرير هذه الحقيقة لا يعني الصدَّ عن الموضوع ولا إثارة اليأس والإحباط، بل هو احترام للحقائق، ولكي يُبذل المجهود الصحيح في مكانه المثمر. إنه ما لم تتوافر الإرادة السياسية لدعم العلوم فلن تزدهر، فإذا ما كانت هذه الإرادة تعاند العلوم فإنها لن تقوم. وتجربة الاستشراق تخبرنا بأنه لم يصر علمًا إلا حين تبناه ورعاه البابوات -وهم يومئذ أصحاب النفوذ- فلما ذهب نفوذهم رعاه الملوك لما يحقق لهم من خدمات في مشاريع الاستعمار والتوسع.

وعلى كل حال فإننا سنمضي في وضع رؤية للبداية في علم الاستغراب، كأنما توفرت هذه الإرادة أو تيسر لأحد أن يُقْنِع ذا نفوذ بأهمية الموضوع.

وأول خطوة في بدء العلوم هو:

١- إنشاء مؤسسات

لم تعد العلوم يكفيها أن يقوم بها واحد مهما كان فذًّا، لقد صار كل شيء متشعبًا إلى حد لا يصلح معه إلا التخصص، بل والتخصص الدقيق أيضًا، كما أن العالم

---

(١) دَوْر السلطة -في تاريخنا الحضاري- أشبه بمن يطلق الشرارة أو يبذر البذرة، التي ترعاها الأمة فيما بعد، فيستمر حصادها حتى ولو ضعفت السلطة أو ذهبت بالكلية، ولئن كنا نفخر عن حق بأن أمتنا كانت تمول نهضتها الحضارية بنفسها عبر نظام الوقف، فإن المهم الذي نركز عليه في هذا السياق أن هذا ما كان ليحدث لولا أن بدأت السلطة بإطلاق ما نسميه «الشرارة الحضارية» كقرار تدوين الدواوين وقرار تعريب العملة وقرار جمع الكتب القديمة وقرار ترجمة تراث الأقدمين، ونحو هذا مما لم يكن ليحدث لولا أن بدأه ذو سلطة ونفوذ.

مهما بلغ من المجد لا يبقى علمه إلا إن كان له تلاميذ يحفظون علمه وينشرون مذهبه، ومشهورٌ تأسُّف الشافعي على ضياع مذهب الليث بن سعد وكان يرى أنه أفقه من مالك ولكن أصحابه لم يقوموا به[1].

وأهم المؤسسات التي ينبغي إنشاؤها ليتدشن علم الاستغراب ثلاثة: أقسام في الجامعات، مراكز بحثية، معاهد تعليم اللغات.

أ- فأما معاهد تعليم اللغات فقد نشأت لضرورات التعلم والسفر والهجرة الناشئة عن تخلفنا وتقدمهم، فلا أحسب أننا نحتاج للمزيد منها، ولكن نحتاج لدعمها بحيث لا تقتصر على مهارات تعلم اللغة بغرض التواصل الشخصي أو العمل، بل تعمل على ضرورات إتقان اللغة وآدابها بغرض الاطلاع على الآثار العلمية والأدبية المكتوبة بها.

ومن ثَمَّ فنحن على الحقيقة لا نحتاج إلا إلى خطوتين؛ الأولى: رفع الواقع لنعرف خريطة توزع هذه المعاهد على اللغات الغربية، فلربما اكتشفنا أن بعض اللغات تحتاج مزيدا من المعاهد لتغطية الحاجة. والثانية: تفعيل المعاهد القائمة بحيث تؤدي برامجها إلى إتقان اللغات بغرض التعمق في آدابها.

وقد لا نحتاج إلى أية تكاليف لهذه الأمور، بل لعل سفارات هذه الدول المهتمة بنشر لغتها وبعض جمعياتها ومراكزها تقوم بالأمر كله.

ب- وأما المراكز البحثية فهي المؤسسات التي تحتاج دعما قويا، لأنها بطبيعتها لا تغطي تكاليفها، ولا يكاد يوجد مركز بحثي يمكن أن يكون مشروعا مربحا، فلذلك لا تخرج المراكز البحثية عن إحدى هذه الحالات: إما أن تكون واجهة لدولة، أو لأجهزة أمنية أو استخباراتية، أو قائمة على تبرعات المخلصين لرسالتها.

---

(١) أبو يعلى الخليلي: الإرشاد في معرفة علماء الحديث ١/ ٢٠١.

وهذه الحالة الأخيرة لا تناسب ما نرجوه من الشروع في موضوع ضخم بحجم علم الاستغراب، فلا مناص أن تنفق عليها دولة، أو يخصص لها وقف كبير يمكنه أن يمول مشروعًا بهذا الحجم. ويفضِّل البعض أن تكون المراكز البحثية ملحقة بالجامعات والمعاهد فتكون ضمن ميزانيتها ويكون هذا أدعى وأضمن لاستمرارها.

جـ- ومن هنا يأتي الحديث عن إنشاء أهم المؤسسات قاطبة، وهو إنشاء أقسام بالكليات تختص بعلم الاستغراب، تتطور لاحقا إلى كليات متخصصة ثم إلى جامعات متخصصة في مرحلة لاحقة، وقد رأينا كيف أن الاستشراق لم يأخذ سبيله نحو النضوج إلا حينما أنشئت كراسي للغات الشرقية في الجامعات الغربية. ويعد إنشاء أقسام بالكليات هو أهم وأول خطوة يمكن اتخاذها في هذا السبيل، وذلك أنها تحقق عددا من المزايا ليست لغيرها:

▪ تستثمر طاقة الطلاب وهم في مقتبل أعمارهم وموفور نشاطهم البدني والذهني.

▪ تؤسس لمستغربين متخصصين في عُمْرٍ مبكر، فيكون هذا أدعى لنضوج خبرتهم وعمق معرفتهم.

▪ تحمل على اجتذاب الخبراء والمتخصصين في هذا المجال بكثرة ولمدة طويلة فيُستفاد بذلك ما لا يُستفاد من الزيارات القصيرة.

▪ تعفي من الإرهاق المالي وانقطاع وانخفاض التمويل الذي تعاني منه المؤسسات غير الرسمية أو القائمة على التبرعات، إذ هي قد دخلت في ميزانية الجامعة وصارت حقًّا لا فضلًا ولا منَّة ولا مرتبطة بتغير السلطات.

▪ وإنشاء الأقسام سيضع البذرة لتحول هذه الأقسام إلى كليات متخصصة ثم إلى جامعات متخصصة فيما بعد.

▪ كما أن إنشاءها سيدير عجلة التنسيق والتعاون فيما بينها، وكذلك التنسيق والتعاون مع المؤسسات والأقسام والكليات عبر العالم.

▪ هذا فضلًا عن فائدتها العلمية، فكم من موضوع مهم في الاستشراق والاستغراب حالت ظروف عدم وجود أقسام دون إخراجه، فإما أخرجه البعض دون المستوى إذ لا سلطة علمية ولا إشرافًا علميًا عليه، أو لم يخرج لاحتياجه من الإمكانيات ما فوق طاقة الفرد.

كما أنها ستمثل بديلًا لأبناء العالم الإسلامي بدلًا من نزيف الطاقات والعقول المتواصل بالاضطرار الدائم إلى الدراسة في الغرب لنيل الشهادات العلمية، والتي قد يصحبها أحيانا معوقات فكرية[١] فضلًا عما عاداها من مساوئ.

---

(١) قال الشيخ مصطفى السباعي: حدثَنا الدكتور أمين المصري -وهو خريج كلية أصول الدين في الأزهر وكلية الآداب ومعهد التربية في جامعة القاهرة- عما لقيه من عناء في سبيل موضوع رسالته التي أراد أنْ يتقدم بها لأخذ شهادة الدكتوراه في الفلسفة من جامعات إنجلترا.

لقد ذهب إليها منذ بضع سنوات لدراسة الفلسفة وأخذ شهادة الدكتوراه بها، وما كان يطلع على برامج الدراسة -وخاصة دراسة العلوم الإسلامية فيها- حتى هاله ما رآه من تحامُل ودس في كتب المستشرقين، وخاصة «شاخت»؛ فقرر أن يكون موضوع رسالته هو نقد كتاب شاخت في تاريخ الفقه الإسلامي.

وتقدم إلى البروفسور أندرسون ليكون مشرفًا على تحضير هذه الرسالة وموافقًا على موضوعها، فأبَى عليه هذا المستشرق أن يكون موضوع رسالته نقد كتاب شاخت وعبثًا حاول أن يوافق على ذلك، فلما يئس من جامعة لندن، ذهب إلى جامعة كامبردج وانتسب إليها، وتقدم إلى المشرفين على الدراسات الإسلامية فيها برغبته في أن يكون موضوع رسالته للدكتوراه هو ما ذكرناه، فلم يُبدوا رضاهم عن ذلك، وظن أن من الممكن موافقتهم أخيرًا، ولكنهم قالوا له بصريح العبارة: إذا أردتَ أن تنجح في الدكتوراه فتجنب انتقاد شاخت، فإن الجامعة لن تسمح لك بذلك، وعندئذ حوَّل موضوع رسالته إلى «معايير نقد الحديث عند المحدِّثين» فوافقوه.

مصطفى السباعي: الاستشراق والمستشرقون ص٧٥، ٧٦.

د- ويدخل في باب المؤسسات أمور أخرى أقل تأثيرًا لكن يجب الانتباه إليها كذلك، وهي إقامة المعارض والمتاحف المتخصصة في الحضارة الغربية، وتنشيط الملاحق الثقافية بالسفارات في الدول الغربية.

وأول ما ينبغي أن تقوم به هذه المؤسسات أمران؛ الأول: رفع الواقع، والثاني: ودراسة التجارب خلاصات التجارب السابقة. فيتحقق بذلك أفضل ضبط ممكن لمسيرة المشروع.

٢- رفع الواقع

ونرى أن رفع الواقع يجب أن يتناول ثلاثة أمور رئيسية: المؤسسات العلمية، والموارد البشرية، والبحوث والمؤلفات الصادرة:

أ- إذ لا بد أن يكون واضحًا حجم المؤسسات القائمة (كليات، أقسام، مراكز بحثية، معاهد تعليم لغات، متاحف، معارض، ملاحق ثقافية بالسفارات، جمعيات علمية، مجلات وصحف متخصصة، مراكز ترجمة ... إلخ) والتي يمكن استثمار طاقتها في خدمة علم الاستغراب.

وستتضح من رفع الواقع هذا أمور كثيرة منها:

- تقييم طاقة المؤسسات القائمة وقدرتها على خدمة علم الاستغراب بوضعها الحالي.

- تقييم مدى إمكانية توجيه هذه المؤسسات ناحية علم الاستغراب بإدخال تعديلات على أوضاعها الحالية، كإضافة أقسام لكليات أو برامج للدراسات العليا أو دورات لمعاهد اللغات أو توجيهات للملاحق الثقافية في السفارات... وهكذا، بحيث ندرك الجهد المطلوب في رفع كفاءة المؤسسات القائمة لتكون بذورا لمؤسسات الاستغراب.

▪ تقييم حجم النقص الموجود ومدى الحاجة لإنشاء مؤسسات جديدة، إذا تبين من الواقع أن ثمة ما لا يمكن أداؤه من خلال المؤسسات القائمة.

ب- ولا بد أن يحتوي رفع الواقع على إحصائيات تكشف أيضًا عن الموارد البشرية مثل: عدد الباحثين الموجودين في مراحل الدراسات العُليا والمراكز البحثية، وعدد الطلاب الموجودين في أقسام آداب اللغات الإنجليزية، وعدد الباحثين الأجانب في بلادنا، وعدد المترجمين، والصحف والمجلات المتخصصة في متابعة الشؤون الغربية، وكذلك عدد الباحثين والأساتذة العرب والمسلمين الذين يُدرّسون في الجامعات ومراكز البحوث والدراسات الغربية، وكذلك أيضا عدد من الأساتذة والباحثين الغربيين المعروفين بالاعتدال والنزاهة، فأولئك سنحتاجهم في مرحلة التأسيس كما سيأتي معنا بعد قليل.

وأن تُرفع التوصيات لتجيب عن الصعوبات والمعوقات في إقبال الطلاب على هذه الأقسام أو الباحثين على هذه الموضوعات، وكيف ينبغي أن نزيد من جذب تلك الموارد البشرية إلى هذا المجال، وكيف نرفع كفاءة هذه الطاقات.

جـ- كما ولا بد أن يحتوي رفع الواقع هذا على إحصائيات تكشف عن الدراسات السابقة، كرسائل الماجستير والدكتوراة والكتب المؤلفة والمترجمة في الشؤون الغربية، فترتسم بهذا خريطة التأليف والموضوعات التي قتلت بحثًا، وخريطة الموضوعات التي تعاني نقصًا وتحتاج إلى سد الثغرة فيها. ومن ثَمَّ يتم التوجيه إليها.

ومن الطبيعي أن يتكرر رفع الواقع بين الفينة والأخرى، ففي بريطانيا -مثلًا- «كلفت الحكومة البريطانية لجنة وزارية بدراسة أوضاع الدراسات الشرقية والأفريقية والأوروبية الشرقية والسلافية عام ١٩٤٧ وهي التي عرفت بلجنة سكاربرو، وبعد انتهاء الحرب العالمية الثانية وبالتحديد في عام ١٩٦١ كونت لجنة أخرى لدراسة

الموضوع ذاته برئاسة السير وليام هايتر وأصبح يطلق على اللجنة اسم رئيسها وليام هايتر وحتى الأموال التي خصصتها للجامعات أصبحت تعرف بأموال هايتر»[١].

وفي مرحلة لاحقة «شكلت الحكومة البريطانية لجانا مختلفة للبحث في دراسة احتياج البلاد في هذا المجال، منها على سبيل المثال لجنة السير بيتر باركر الذي قدم للحكومة عم ١٩٨٦م، وكان من نتيجته دعم بعض الأقسام أو دعم أقسام جديدة، وحجب الدعم عن أقسام موجودة»[٢].

٣- دراسة التجارب السابقة

والتجارب السابقة في موضوعنا هذا قسمان:

-تجارب البحوث والدراسات بشكل عام.

-وتجارب الاستغراب السابقة بشكل خاص.

أ- فأما تجارب البحوث والدراسات، فلأننا إذ نبدأ التأسيس لعلم جديد سنواجه عددًا من المشكلات المعروفة مثل: نقص الكوادر، نقص الدراسات، حجم التمويل، التنسيق بين المؤسسات، الرقابة على هذه المؤسسات بحيث تؤدي عملها بأفضل كفاءة، وغيرها.

ولنضرب بعض الأمثلة على مشكلتي نقص الدراسات ونقص الكوادر:

- **مشكلة نقص الدراسات:**

تعاملت الجامعات الأمريكية مع مشكلة نقص دراسات الشرق الأوسط عبر «توزيع الاهتمام بالعالم العربي والإسلامي على مختلف الأقسام، كما في جامعة برنستون مثلًا أو معهد الشرق الأوسط كما في جامعة كولمبيا أو جامعة كاليفورنيا

(١) د. مازن مطبقاني: من قضايا الدراسات العربية الإسلامية في الغرب ص١٤.

(٢) د. مازن مطبقاني: رحلاتي إلى بلاد الإنجليز ص٣٥.

بمدينة بيركلي، وهذا القسم والمعهد يقومان بالتنسيق بين قسم دراسات الشرق الأوسط والأقسام العلمية المختلفة، فهناك طالب متخصص في الاجتماع ويرغب في تطبيق ما تعلمه في هذا العلم على بلاد الشرق الأوسط، وكذلك الأمر في علم الاقتصاد أو علم الإنسان وغيرهما من العلوم»(١).

▪ مشكلة نقص الكوادر:

لقد بدأت دراسة الاستشراق في أمريكا منذ بداية القرن التاسع عشر، «ولكنها بعد الحرب العالمية الثانية وجدت نفسها مضطرة لتحل محل بريطانيا في الشرق الأوسط أو في البلاد العربية الإسلامية، ووجدت نقصًا إن لم يكن عجزًا في الكوادر المؤهلة لفهم العالم العربي الإسلامي، فـ:

- أصدرت الحكومة الأمريكية مرسومًا لتمويل عدد من المراكز؛ لدراسة اللغة العربية والتركية والفارسية والأوردو ودراسات الأقاليم أو دراسة المناطق.

- وبعد البدء في برامج اللغات العربية استعانت الجامعات الأمريكية بعدد من أساتذة الجامعات البريطانيين بخاصة، والأوروبيين بعامة، لتدريس الاستشراق في الجامعات الأمريكية.

- كما بدأت الاستعانة ببعض أبناء المنطقة لإنشاء أقسام دراسات الشرق الأدنى، كما فعلت جامعة برنستون حينما كلّفت فيليب حِتّي لإنشاء القسم في الجامعة»(٢).

وفي الغربيين كثيرٌ يمكن الاستعانة بهم في فهم مجتمعاتهم، وقد قال الشيخ محمد رشيد رضا، منذ وقت مبكر، بأنه ينبغي علينا «أن نستعين على ما نستمده منهم، بأهل

---

(١) د. مازن مطبقاني: أهمية إنشاء أقسام الدراسات الروسية في الجامعات السعودية، صحيفة الجزيرة، بتاريخ ٢٣ محرم ١٤٢٨هـ. (١١/ ٢/ ٢٠٠٧م).

(٢) د. مازن مطبقاني: متى ينشأ علم الاستغراب، مقال منشور بمدونته «من آفاق الكلمة» بتاريخ ٢٥/ ٤/ ٢٠١٢م.

الفضيلة والاستقلال من رجالهم، الذين ليس لهم فينا أهواء دينية، ولا مطامع سياسية استعمارية، وبهذا نكون مهتدين بما أمرنا الله به»(١)، ولكن هذا لا يتم على الوجه المطلوب بغير إحكام رفع الواقع الذي نعرف منه مَن المناسب منهم ومَن غير المناسب.

ب- تجارب الاستغراب

«يجب أن تستفيد من البلاد التي سبقتنا في هذا المجال، ومن ذلك أن عددًا من البلاد الأوروبية قد أنشأت معاهد للدراسات الأمريكية، فهناك معهد الدراسات الأمريكية التابع لكلية الاقتصاد والعلوم السياسية بجامعة لندن، كما أن جامعة مونتريال فيها معهد للدراسات الأمريكية وكذلك في ألمانيا. وقد أنشأت باكستان معهدا للدراسات الأمريكية»(٢).

كذلك فإن لليابان تجربة قوية في الاستغراب، وخصوصًا دراسة أمريكا، فقد «تكونت فيها العديد من البرامج للدراسات العليا والجامعية، كما تأسس فيها عدد من المؤسسات والهيئات التي تعنى بدراسة المناطق والأقاليم ومنها على سبيل المثال: الرابطة اليابانية للدراسات الأمريكية، والرابطة اليابانية لدراسة المناطق، والرابطة اليابانية للدراسات الأوروبية ومركز دراسات المناطق المدمج الذي تأسس في جامعة كيوتو. لقد بدأت مرحلة الانفتاح في اليابان عام (١٨٥٣م) بعد عزلة استمرت ثلاثة قرون، وبدأت معها مرحلة تقليد الغرب غير أن مرحلة التقليد هذه لم تأخذ وقتا طويلا حتى أدركت اليابان أنها في حاجة إلى فهم الأُمم الأخرى ودراستها دراسة علمية أكاديمية فبذلت الكثير من الأموال والميزانيات لتحقيق هذه الدراسات،

---

(١) محمد رشيد رضا: مجلة المنار ١٧/ ١٠. والمقال بتاريخ المحرم ١٣٣٢هـ (= ديسمبر ١٩١٣م).

(٢) د. مازن مطبقاني: متى ينشأ علم الاستغراب، مقال منشور بمدونته «من آفاق الكلمة» بتاريخ ٢٥/ ٤/ ٢٠١٢م.

وهذا ما دفعها لتنشئ العديد من مراكز البحوث والمعاهد والأقسام العلمية بعضها للمرحلة الجامعية وبعضها الآخر للدراسات العليا؛ فقد أنشأت جامعة دوشيشا مركز الدراسات الأمريكية عام ١٩٥٨م، ثم تطور هذا القسم إلى برنامج للدراسات العليا في دراسات الولايات المتحدة عام ١٩٩١م وهو أول برنامج من نوعه في اليابان الذي لا يعتمد على دراسات جامعية.

ويهدفون من هذا أن يحصل الطالب على تخصص في علم من العلوم المعروفة ثم ينطلق إلى دراسة الولايات المتحدة الأمريكية. وقد نشأ القسم بدعم من لجنة العلاقات اليابانية الأمريكية وبدعم سخي منها ومن الحكومة اليابانية التي لديها العديد من المؤسسات لدعم البحث العلمي، وأصبح هذا البرنامج من أهم برامج دراسات الولايات المتحدة في اليابان.

ويفخر هذا البرنامج بقيام العديد من أعضائه بنشر إنتاجهم العلمي في العديد من دور نشر الجامعات المختلفة مثل أكسفورد وستانفورد وكورنيل وغيرها. أمّا جامعة طوكيو فلديها مركز لدراسات دول المحيط الهادي والأمريكية وقد تأسس عام ٢٠٠٠م بعد أن كانت الجامعة قد أنشأت مركز الدراسات الأمريكية عام ١٩٦٧م، وكان الهدف منه جمع المعلومات الأساسية والثانوية حول السياسات والاقتصاد والثقافة في الولايات المتحدة الأمريكية وكذلك المواد المتعلقة بالعلاقات اليابانية الأمريكية.

ولما أعيد تأسيس المركز ليضم دول المحيط الهادي تكونت لجنة مختارة من كليات الدراسات العليا في الآداب والعلوم والقانون والاقتصاد والعلوم الإنسانية والتربية وكذلك من معاهد العلوم الاجتماعية ومعاهد أخرى تهتم بالمعلومات والاتصال. ولدى المركز مكتبة متخصصة تحتوي ألوف الكتب بالإضافة إلى قسم الميكروفيلم الذي تستطيع أن تقرأ فيه الصحافة الأمريكية لعشرات السنين.

وهناك مراكز أخرى في اليابان مثل جامعة كوبيه Kobe التي تضم كلية دراسات التبادل الثقافي التي تهتم بالعلاقات الثقافية بين الشعوب والأمم ولديها عدد من أعضاء هيئة التدريس المتخصصين في دراسة الشعوب والأُمم الأخرى، ولهذه الجامعة علاقة وثيقة بالمؤسسة اليابانية التي تسعى إلى دعم التبادل الثقافي بين اليابان والشعوب الأخرى من خلال برامج الزيارات القصيرة وبرامج زيارات لمدد مختلفة»(١).

❁ ❁ ❁

(١) د. مازن مطبقاني: متى تبدأ دراسة الولايات المتحدة في الجامعات السعودية، مقال منشور بمدونته «من آفاق الكلمة» بتاريخ ٦/ ١/ ٢٠١٣م. باختصار وتصرف.

المبحث الرابع

المحاذير

وهي فيما أدانا إليه اجتهادنا خمسة: الاختلاف الثقافي المانع من الفهم والاستيعاب، الخلط بين العام والخاص المانع من التعلم والاستفادة، والعداء المانع من العدل والإنصاف، والتفوق الغربي المانع من تبَيُّن العمق والخلل، والتنازل المانع من الثبات والرسوخ.

١ - الاختلاف الثقافي

لقد جزم كثيرون منَّا بأن المستشرقين يعجزون عن فهم الحضارة الإسلامية لأن الاختلاف الثقافي لا يمكن لهم تجاوزه مهما فعلوا، فإن نشأتهم على العجمة وتعلمهم العربية بعد العشرين وافتقادهم للثقافة يجعل قدرة المستشرق على الكلام في الحضارة «ممتَنِعٌ كل الامتناع، بل هو أدخل في باب الاستحالة من اجتماع الماء والنار في إناء واحد»[1].

ووافقه على هذا د. عبد العظيم الديب وقال: «وهذا كلام مبين غاية الإبانة، واضح تمام الوضوح ولا تحتاج معه إلى دليل»[2].

وقد خالفهم في هذا الأكثرون، بالقول والفعل:

فأما الفعل فكل من نقل عن المستشرقين قولًا وافقهم فيه خالفهم بفعله. وأما القول فمنه ما قاله د. عمر عبيد حسنة من أن اللغة أمر كسبي، وأن كثيرًا من عظماء علماء اللغة والتفسير والفقه في تاريخنا كانوا من الأعاجم، وأن قصر فهم اللغة على

(١) محمود شاكر: رسالة في الطريق إلى ثقافتنا ص٦٨.

(٢) د. عبد العظيم الديب: المنهج في كتابات الغربيين ص٧٤.

العرب يعارض رسالة القرآن العالمية، ولو صح هذا «لكان الخطاب القرآني تكليفًا بما لا يطاق، وهذا مستحيل شرعًا وعقلًا»[(١)].

ونضيف إلى هذا بأن اعتناق هذا الرأي يُلزم بعجزنا عن دراسة الغرب بأي حال من الأحوال، لهذا الحاجز الثقافي الذي يستحيل تجاوزه.

وبديهي أننا نخالف هذا الرأي، وإلا ما تكلفنا كتابة هذه السطور، إلا أن وجهة النظر هذه لم تنبنِ إلا على أخطاء حقيقية وكارثية وُجِدت في كتابات المستشرقين رغم بذلهم الجهد الضخم في دراسة الموضوع، وأبرز ما يخطر على البال الآن كمثال هو كتاب المستشرق الأمريكي مايكل كوك «الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في الفكر الإسلامي»، فقد ظل يجمع مادة الكتاب لعشرة أعوام ومن مصادر مكتوبة بأربع لغات: العربية والإنجليزية والفارسية والتركية، لكنه تعامل مع النصوص بمنطق حسابي هندسي، هو سليم في ميزان المنطق والمادة، لكنه مزعج في ميزان الثقافة الإسلامية، إذ لا يُفرِّق بين الكلي والجزئي والعام والخاص والمطلق والمقيد، وعامة هذه التفاصيل التي تتكون لدى المسلم عبر مزيج ثقافي طويل وعميق.

لقد عبر د. عماد الدين خليل عن هذا الفارق الثقافي تعبيرًا جميلًا حين قال بأن «المسلم -مهما كانت درجة ثقافته يتعامل مع المعطيات الإسلامية وفق ما يمكن اعتباره شبكة من البداهات والمسلمات، وهي لم تأت إليه مباشرة عن طريق الأخبار والروايات التاريخية، وإنما جاءته بطريقة أكثر حيوية، كانت أشبه بالروافد المتدفقة التي تتشكل لكي تصير نهرًا، من خلال تعامله مع القرآن والحديث ومن خلال تجربته الإيمانية، ومن خلال عرف اجتماعي ثقافي عام يقوم على خطوط عريضة متفق عليها، ومن خلال تقليد زمني تُتَناقل بواسطته الحقائق من جيل إلى آخر... بينما مهما كان المستشرق ملتزمًا بقواعد البحث التاريخي وأصوله فإنه من خلال رؤيته

---

(١) من مقدمة د. عمر عبيد حسنة لكتاب د. عبد العظيم الديب: المنهج في كتابات الغربيين ص٢٤.

الخارجية وتغربه يمارس نوعًا من التكسير والتجريح، فيصدم الحس الديني ويرتطم بالبداهات الثابتة»[1].

لكن الحقيقة التي لا تُنكَر كذلك أن مجهود المستشرقين في البحث والتنقيب والتفتيش في حضارتنا أثمر دراسات قيمة ونظرات تفسيرية جديدة وآراء قوية لها وجاهتها، وهذا ملموس لكل من قرأ في تراثهم وأبحاثهم، بل هو معترف به لدى كل من كتبوا عن الاستشراق ولو كرهوه ورموه عن قوس واحدة؛ إذ هم يعزون إليه ويحملونه مسؤولية تقديم الخبرة الكافية للاستعمار قبل وأثناء دخوله البلاد، وما كان لهم أن يُحمِّلوه هذا الإثم لو لم يكونوا يعترفون أن المستشرقين قد حصَّلوا بأبحاثهم علما كافيا ووافيا يُنتفع به ويُبنى عليه.

وما نراه في هذا الموضوع هو أن ثمة مساحات شديدة الخصوصية يكثر فيها خطأ الباحث إن كان ينتمي لحضارة مختلفة، مثل اللغة والثقافة والآداب، وإن كنا لا نعتقد أنها مغلقة تماما ويستحيل تجاوز حاجزها[2]، وأما المساحات الأوسع لباقي مجالات الحضارة فالتاريخ والواقع يشهدان أن بذل المجهود والتعمق في بحث الموضوع وطول ممارسته يُثمر قدرة على هضمه وفهمه.

وفي كل الأحوال وبغض النظر عن هذا الخلاف، تبقى مشكلة الاختلاف الثقافي مشكلة حقيقة يجب أن ينتبه إليها كل باحث في علم الاستغراب، وموضع التفرد فيها هو ذاته موضع الخطر، فبقدر ما تكون النظرة الحضارية المختلفة جديرة بأن تلقي أضواءً جديدة على الموضوع وتكشف فيه مساحات جديدة، بقدر ما تكون جديرة

---

(١) د. عماد الدين خليل: المستشرقون والسيرة النبوية، ضمن «مناهج المستشرقين في الدراسات العربية الإسلامية» ص١١٥، ١١٦ باختصار وتصرف.

(٢) ومما هو ذو دلالة هنا أن النحاة وإن كانوا يعتبرون كتاب سيبويه «قرآن النحاة» إلا أنهم لا يرون لغته دليلا على لسان العرب، فيما يعتبرون لغة الشافعي دليلا في لسان العرب، وإن لم يؤلف في النحو.

بالخطأ وعدم الفهم والعجز عن الذهاب وراء الظواهر إلى الأعماق والوقوع في فخ الإسقاط، وسائر ما عانينا منه في البحوث الاستشراقية التي شوهت الإسلام والتي رددها مستشرقون منصفون لا نستطيع أن نرميهم بالمؤامرة أو الغرض(١).

إن التعمق في فهم الثقافة والروح المحيطة بالحدث أمر يحظى بالأهمية البالغة ولو في الموضوعات التي ظاهرها الوضوح والبساطة، فحتى مؤسِّسو المذاهب والدول والحركات الذين تبدو دراستهم الأمر الأسهل من بين الدراسات التاريخية لما فيها من الوضوح والظهور والشهرة، حتى أولئك يجب التعمق في دراستهم وتلمس بيئتهم، إذ «لسنا على يقين من أن الأفكار السامية التي يُحْدثها النابغون من فطاحل القوم إنما هي عملهم خاصة، نعم هم الذين أوجدوها، ولكن لا ينبغي أن ننسى أن ذرات التراب التي تراكمت فصارت منبتًا لتلك الأفكار إنما كونتها روح الجماعات التي وُجِد أولئك النابغون فيها»(٢).

إن العبارة نفسها -بل والكلمة الواحدة- قد تعبر عن المعنى وضده بحسب الثقافة، ولذلك يتحدث المترجمون كثيرا عن «المكافئ الدلالي» بدلًا من «المكافئ اللفظي» لا سيما في ترجمة الروايات التي لا تحتمل وضع حواشٍ أو شرح الدلالات الدقيقة للألفاظ، ومن أشهر الأمثلة في حالتنا هذه مصطلحات مثل «العقيدة» و«الإيمان»، فهي بقدر ما تعني الجزم واليقين والاطمئنان في أذهاننا فإنها «حين تستخدم باللغة الإنجليزية بمعناها العام تحمل في طياتها مضامين اللا حقيقة والاحتمالية والشك والاشتباه» للميراث المعروف من الصراع العلماني الكنسي(٣).

(١) محمد إلهامي: كيف نفهم أخطاء المستشرقين المنصفين، مقال على مدونة «المؤرخ» بتاريخ ١/ ٧/ ٢٠٠٩م.

(٢) جوستاف لوبون: روح الاجتماع ص٧.

(٣) د. إسماعيل الفاروقي: التوحيد ص٨٦.

كذلك فإن لفظا مثل «الأصوليين» يستدعي النفور ويعبر عن التعصب في الثقافة الغربية، بينما هو عندنا إن لم يعبر عن علماء أصول الفقه -وهم قوم مُعظَّمون ومُقدَّرون- فإنه يعبر عن المتمسكين بالأصول، وهو أمر مُقدر ومُعظم[(١)].

بل إن كلمة ماركس الشهيرة «كل ما هو صلب يتطاير في الهواء»، قد تعبر عن الحفز لتغيير التاريخ في سياق ثورة أو التنظير لثورة، وقد تعبر عن الحفز للاستسلام في سياق فلسفة العبثية والعدمية لأنه لا شيء يستحق!

فإدراك السياق والروح المهيمنة أصل في فهم الموضوع، ونحن أولى من ندرك هذا، إذ نحن أحفاد من اشترطوا «العلم بأسباب النزول» في الكلام الإلهي الذي هو حق مطلق فوق الزمن والظروف، رغم اتفاقهم على أن «العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب»[(٢)].

ولا نرى حلًّا لهذه المعضلة -معضلة الاختلاف الثقافي- إلا بأمرين لا بد لهما أن يعملا معًا: التعمق في الموضوع دراسة، والالتزام بتقوى الله وأدب الإسلام التي تلزم بالعدل والإنصاف واستفراغ الوسع وتنهى عن القول بغير علم، وهذه الثانية -كما ذكرنا سابقًا ونكرر دائمًا- هي البديل الإسلامي الواقعي لوهم الحيادية العلمية والتي يستحيل أن تتحقق في مجال العلوم الإنسانية.

٢- الخصوصية والعمومية

بقدر ما بين البشر من الاتفاق في الخلق والفِطرة والطباع، بقدر ما بينهم من الاختلاف في أمور كثيرة، ومما هو بديهي أن الحضارات هي صورة للبشر، فما بينها من الاتفاق هو كما بينها من الاختلاف.

---

(١) د. يوسف القرضاوي: الثقافة العربية الإسلامية ص٥٦.

(٢) د. يوسف القرضاوي: الاجتهاد في الشريعة الإسلامية ص٢٠.

وهذا الاختلاف منه ما هو بأصل الخِلقة والبيئة والتكوين تتجلى فيه إرادة الله الشرعية والكونية معًا كما في قوله تعالى: ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَٰنِكُمْ ﴾ [الروم: ٢٢]. .

ومنه ما هو بالضلال والانحراف وفِعْل الشياطين كما في قول نبينا ﷺ: «كل مولود يولد على الفِطرة، فأبواه يهوِّدانه، أو ينصِّرانه، أو يمجِّسانه»[(١)]، وقوله ﷺ فيما ينقله عن ربنا: «وإني خلقتُ عبادي حنفاء كلهم وإنهم أتتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم وحرَّمَت عليهم ما أحللتُ لهم»[(٢)].

وفي موضوعنا هذا، فلا ريب أن الحضارة الغربية مزيج «من السليم والسقيم، ومن الصواب والخطأ في النتائج والأحكام، ومن البديهيات في العلم التي لا تقبل الجدال والشك ومن التخمينات في الآراء والدعاوى التي تقبل المناقشة الطويلة والجدال الكثير، ومما هو خميرة من الاختبارات والبحوث الطويلة ومما هو فجٌّ لا يزال في دور التجربة والاختبار والنشوء والارتقاء، ومما لا يختص بإقليم أو عنصر من علوم تطبيقية، وبالعكس مما تجلت فيه الطبيعة الأوروبية، وأثرت فيه البيئة الغربية، وولدته حوادث تاريخية خاصة اكتوت بنارها هذه الأُمم، ومما له صلة قوية عميقة بالدين والعقائد، ومما لا صلة له بالدين مطلقًا، وذلك الذي زاد في تعقد هذه المشكلة وخطورتها، وأحرج مركز العالم الإسلامي، وكان فيه بلاء ومحنة لذكاء قادته وزعمائه وأصحاب التوجيه فيه»[(٣)].

وليس أجدر أن يقوم بهذا التفريق بين العام والخاص، بين ما يمكن الاستفادة منه وما لا يمكن استنساخه، بين ما يناسبنا وما لا يناسبنا.. ليس أجدر أن يقوم بهذا

---

(١) البخاري (٦٢٢٦)، ومسلم (٢٢).

(٢) مسلم (٢٨٦٥).

(٣) الندوي: موقف العالم الإسلامي تجاه الحضارة الغربية ص١٠، ١١.

التفريق من المستغربين، مثلما أن أسوأ من يقوم بهذا التفريق هم المتغربون، والفارق بينهما هو الفارق بين الدارس الفاحص وبين المنبهر الذاهل، إلا أن هذا التصنيف العام قد يتداخل في التفاصيل والجزئيات.

يرى حسن حنفي أن «الثقافة واحدة إذا ما تشابهت الظروف في مجتمعين مختلفين»[(١)]، وهو ما نخالفه فيه ونرى أن الاستجابات للتحديات المتشابهة لا تكون بالضرورة متشابهة، خصوصًا إذا اختلفت الأصول والمنابع الثقافية، ولكن يمكن أن نتخذ من «تشابه أو اختلاف الاستجابات في الظروف المتشابهة» مقياسًا نحدد به ما هو إنساني عام مشترك بين الحضارات، وما هو خاص تنفرد به حضارة عن أخرى أو مجموعة حضارية عن باقي الحضارات الأخرى.. ونحن نقول هذا مع إدراكنا أنه أمر يدخله التقدير والاجتهاد إذ الحوادث لا تتكرر بحذافيرها، مما يجعل المساحة واسعة أمام الاجتهاد والتقدير.

وكما قال الإمام أحمد: «أكثر ما يخطئ الناس من جهة التأويل والقياس»[(٢)].

٣- الإنصاف في زمن الحرب

قال ستالين: «في الحرب لا مكان للموضوعية».

إن طبيعة الحروب والتدافع تمنع من النظر المنصف، وتلك طبيعة البشر التي يستحيل تغييرها، وقد رأينا في استعراض تاريخ الاستشراق كيف أن نضوج الاستشراق ودخوله في مرحلة البحث العلمي لم يأتِ إلا بعد تركيعنا والاطمئنان من ناحيتنا، في حين أن وقت اشتعال الحرب وتمثيل الخطر كان الاستشراق موغلا في الكذب والفجور، حتى لم يكن يُقبل من الآراء إلا ما يساهم في المعركة.

---

(١) حسن حنفي: مقدمة في علم الاستغراب ص٨٧.

(٢) ابن تيمية: مجموع الفتاوى ٢/ ٦٣.

ولم يكن «الجدل العلمي» حول تعريف القومية بين الفرنسيين والألمان «إلا صراعًا سياسيًا حول الإلزاس»، فيما يُجمله جلال كشك بقوله الوصفي: «في السياسة والاجتماع والفلسفة، لا يوجد ما يسمى بالنظريات العلمية، بل العلم هنا منحاز، والنظريات تعكس المصالح القومية أو الطبقية»[1].

وقد ذكرنا سابقًا أن طبيعة الإسلام العالمية التي هي فوق كل تصنيف قومي، بل وتوسيعه المفهوم القومي ذاته[2]، يجعل غاية المسلم إنسانية لا قومية ولا عرقية ولا طبقية، وهذا المنطلق هو الكفيل بجعل المستغرب لا ينسى العدل والإنصاف حتى وهو في الحرب، وقد كان أجدادنا في فتوحاتهم يلبسون دعاة وهم في ثياب الحرب، واجتمعت في فتوحاتهم الدعوة والرحمة مع القوة والرهبة، وكانوا أفرح باستجابة العدو للدعوة من فرحهم بالنصر.

وبمثل هذه النفسية استطاع الفاتح عمرو بن العاص أن يتحدث عن صفات الروم الخمسة التي تؤهلهم للخلود حتى قيام الساعة.

ونحن في هذه اللحظة نعيش تهديدا وجوديا حقيقيا وخطيرا، ويصعب على المرء أن يكون محايدا في ظل ظرف كهذا، حيث أخبار القتل اليومي والمذابح الشهرية لا تنقطع، ولم يعد الغرب نازلًا في أرضنا بجنوده وجيوشه فحسب، بل هو يسيطر على جنودنا وجيوشنا وأنظمتنا نحن حتى ليجعلها حقيقة وواقعًا جزءًا منه ومن نظامه، ثم زاد على هذا أنه يجعل الأجهزة الأمنية والعسكرية شبكات منفصلة عن النظم السياسية ومرتبطة به مباشرة، وبعد هذا كله فإنه يحتفظ في بلادنا بقوات خاصة للتدخل السريع، وهي القوات التي تعمل بلا أي تنسيق مع الأنظمة القائمة، ثم يستعين -خلافا لكل ما سبق- بشركات أمنية هي على الحقيقة منظمات مرتزقة تعمل

(١) جلال كشك: القومية والغزو الفكري ص٦٠.

(٢) راجع ما كتبناه في «التمهيد»، في «التميز الإسلامي» وكيف أنه يكتسب.

خارج إطار القوانين مثل البلاك ووتر[١].. فهذا الاحتلال المتعدد الطبقات المتشعب الأذرع الذي نرث ثمرته مَقاتِل مستمرة بأيديهم وبأيدينا، يجعل أمر الإنصاف والعدل في دراستهم أمرًا في غاية الصعوبة ينبغي على المستغرب أن ينتبه له ويضبطه.

٤- الهيمنة الثقافية الغربية

قال ابن خلدون: «فصل في أن المغلوب مولع أبدًا بالاقتداء بالغالب»[٢].

ليس من أحد يستطيع تجنب سطوة أفكار المنتصرين، والتي هي السبب الأول في التغرب، ولا ريب في أن الغوص في بطون أفكار مغايرة وطول ممارستها وإلفها يؤدي إلى تلبس بها.

وهذا الإمام الكبير حجة الإسلام الغزالي يقول عنه تلميذه القاضي أبو بكر بن العربي: «شيخنا أبو حامد دخل في بطون الفلاسفة، ثم أراد أن يخرج منهم فما قدر»[٣].

وللإمام الذهبي كلمة بديعة بليغة في وصف سطوة الأفكار وهيمنتها على الناس حتى عقلائهم، يقول: «وخلف معاوية خلقٌ كثير يحبُّونه ويتغالون فيه، ويُفَضِّلونه، إما قد ملكهم بالكرم والحلم والعطاء، وإمَّا قد ولدوا في الشام على حبه، وتربى أولادهم

(١) انظر:

Jeremy Scahill: Blackwater; The Rise of the World's Most Poewrful Mercenary Army (Nation Books, United States, 2007)

Nick Turse: America's Black-Ops Blackout; Unraveling the Secrets of the Military's Secret Military, January 7, 2014. (www.tomdispatch.com, LINK)

فهمي هويدي: ماذا يدبرون للثورة في الخفاء، جريدة الشرق القطرية بتاريخ ٢٢/ ٢/ ٢٠١١م.

حلقة إذاعية على (witf) ضمن برنامج (smart talk) بتاريخ ١٥/ ٧/ ٢٠١٣م.

(٢) ابن خلدون: تاريخ ابن خلدون ١/ ١٨٤.

(٣) ابن تيمية: درء التعارض بين العقل والنقل ١/ ٥.

على ذلك. وفيهم جماعة يسيرة من الصحابة، وعدد كثير من التابعين والفضلاء، وحاربوا معه أهل العراق، ونشئوا على النصب -نعوذ بالله من الهوى-، كما قد نشأ جيش علي رضي الله عنه ورعيته -إلا الخوارج منهم- على حبه، والقيام معه، وبغض مَنْ بغى عليه، والتبرِّي منهم، وغلا خلق منهم في التشيع.

فبالله كيف يكون حال مَن نشأ في إقليم، لا يكاد يُشاهد فيه إلَّا غاليًا في الحب، مفرطًا في البغض، ومَن أين يقع له الإنصاف والاعتدال؟

فنحمد الله على العافية الذي أوجدنا في زمان قد انمحص فيه الحق، واتضح من الطرفين، وعرفنا مآخذ كل واحد من الطائفتين، وتبصرنا، فعذرنا، واستغفرنا، وأحببنا باقتصاد، وترحمنا على البغاة بتأويل سائغ في الجملة، أو بخطأ إن شاء الله مغفور، وقلنا كما علَّمنا الله: ﴿رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَٰنِ وَلَا تَجْعَلْ فِى قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ [الحشر: ١٠]. وترضينا أيضًا عمن اعتزل الفريقين، كسعد بن أبي وقاص، وابن عمر، ومحمد بن مسلمة، وسعيد بن زيد، وخلقٌ، وتبرَّأنا من الخوارج المارقين الذين حاربوا عليا، وكفروا الفريقين»[1].

ونحن نقع منذ عصر الاستعمار تحت هيمنة ثقافية غربية، يزيد من ثقلها تلك النخب التي تغربت ثم استولت على منافذ النشر والتوجيه، ويدعم كل ذلك هذه الفجوة المتزايدة بيننا وبين الغرب.

وقد ترتب على هذا عدد من الآثار، أبرزها هذه الثلاثة:

▪ **قراءة الفكر الغربي كمُطلَق:**

وذلك أنك تجد «الفكر الغربي لا تتم قراءته بمنظور تاريخاني يكشف البعد الذاتي، بل تتم قراءته بنيويا باعتباره مجرد نسق ثقافي نقي متعالٍ، ومعزول عن

---

(١) الذهبي: سير أعلام النبلاء ٣/ ١٢٨.

الخلفيات والدوافع البشرية والسياسية والعنصرية، فيُصَوَّر باعتباره مجرد فلسفة تستهدف الاستنارة والسلام الإنساني وسعادة البشرية»[١].

فمثلا: كم ممن يدرسون فرويد ونظريته حاول التعمق في السياق الذي أنتجها؟! كم منهم يعرف «أن الجماعة اليهودية التي كان فرويد ينتمي إليها كانت تتسم بقدر عال من التحلل الخُلقي والاجتماعي.

فيهود فيينا كانوا أساسًا من يهود اليديشية الذين دخلوا مرحلة الانحلال الاجتماعي والثقافي بعد تَعرُّضهم لعمليات العلمنة الشرسة والجذرية التي قامت بها الحكومات المطلقة (في روسيا وألمانيا والإمبراطورية النمساوية/ المجرية) وبعد دخول اليهودية الحاخامية مرحلة الأزمة، وبعد هيمنة المنظومة القبَّالية الحلولية، فتحولوا من جماعة متماسكة إثنيا ودينيا إلى جماعة مُفكَّكة. فكانت عند يهود المجر واحدة من أعلى نسب الأطفال غير الشرعيين، أما الجماعة اليهودية في جاليشيا (التي أتى منها والدا فرويد) فكانت تُعد من أكبر مصادر البغايا في العالم كما سادت فيها أكبر نسبة تكاثر بين اليهود (ولذا كان يُقال لها باللاتينية «فاجينا جودايوروم» أي «فرج اليهود»)»[٢].

- **ما تكرر تقرر**

وقد كانت الحضارة الغربية صاحبة أعلى نصيب من التكرار الذي رسخ بعدئذ حتى صارت كثير من الأمور وكأنها قد حُسِمت ولا جدال حولها، بل إن هذا التكرار كان أحد الأسباب التي صدرت عنها أخطاء الاستشراق، إذ إن الصورة الذهنية المسبقة كانت هي الحاكمة على الأبحاث الاستشراقية، وهو الموضوع الذي أفاض في تفصيله إدوارد سعيد في كتابه الشهير «الاستشراق»، وصكَّ لهذه العملية تعبيره

(١) إبراهيم السكران: مآلات الخطاب المدني ص٥٨.

(٢) د. عبد الوهاب المسيري: موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية ٣/ ٤٤٢.

الشهير «إضفاء الصفات الشرقية على الشرقي»، وذلك أنه «حين كان المستشرق المتبحر في العلم يتنقل في البلد الذي تخصص فيه، لم تكن تفارق ذهنه مطلقًا تلك الأقوال المأثورة المجردة التي لا تتزعزع عن الحضارة التي درسها، ونادرًا ما كان المستشرقون يهتمون بشيء سوى إثبات صحة تلك »الحقائق« البالية بتطبيقها، دون توفيق كبير، على أبناء البلد الذين لا يفهمونها فيُتَّهمون بالانحطاط»[1].

وإذا صحَّ هذا في حال مستشرقين لم تكن عليهم من الهيمنة إلا آراء أساتذتهم وتخيلاتهم هم للموضوع، فكيف يكون الحال في باحث ينطلق لدراسة الغرب وهو محمل بإرث غربي عمره نحو قرنين من الزمان، وفي ظل تفوق هائل لهذا الغرب، وتحت تأثير آلة إعلامية جبارة تشمل حتى ذلك الإعلام الناطق بلسان العرب؟!.. إنه لإرث ثقيل ثقيل!

▪ مشكلة: الغرب مبدع والإبداع غربي

ولها ثلاث شعب كما صاغها حسن حنفي:

الأول: في حالة حدوث الإبداع فإنه يُحال إلى الثقافة الغربية وكأنه مصدره الأول، ليس فقط في الشكل بل أيضا في المضمون، فالإبداع أيضًا لا يتم إلا في إطار التبعية، وبالتالي يتحول الكل الإبداعي عند جميع الشعوب اللا أوروبية إلى الجزء الإبداعي الأوروبي ويلحق به بدعوى أن الكل الإبداعي قد تم في المركز وأن الأجزاء الإبداعية في الأطراف كلها تنبع من المركز كي تعود إليه وتصب فيه.

والثاني: إذا ما توقف الإبداع كلية فإن ذلك يُعزى إلى فقر الاطلاع على آخر الإبداعات الغربية، فلا إبداع بلا تعرف على مواطن الإبداع، وكأنه لا إبداع في كلتا الحالتين.

---

(١) إدوارد سعيد: الاستشراق ص١١٤.

إذا أبدع المبدع اللا أوروبي شيئًا فإنه يُحال إلى مثيله في الغرب، وإن لم يبدع مثله فإن السبب يكون عدم معرفته بالإبداعات المماثلة في الغرب، وبالتالي ارتبطت الأطراف بالمركز إلى الأبد إيجابًا أمْ سلبًا، وجودًا أو عدمًا، حياةً أو موتًا.

والثالث: وإذا ما أبدع المبدع في بداية نهضته فإن إبداعه يحال باستمرار إلى إبداع مماثل في الغرب المبدع منذ العصور الحديثة وعلى أكثر من خمسمائة عام، وبالتالي يكون الغرب أسبق باستمرار في وضع المناهج العقلانية والتجريبية والتحليلية والبنيوية والوصفية.

أما كيف تكونت هذه الإبداعات في الغرب وما مصادرها من خارج الغرب فذاك يضرب حوله مؤامرات الصمت. فإبداعات الأطراف الآن تحال إلى إبداعات المركز السابقة عليها، أما إبداعات المركز فلا تحال إلى إبداعات مراكز أخرى سابقة خارج الوعي الأوروبي وهو في بداية تكوينه عندما كان يمثل أطرافا لها[1].

هذه الآثار الثلاثة للهيمنة الثقافية الغربية، والتي نحسب أنها جماع الموضوع، تمثل أعباء ثقيلة على عقلية الباحث ونفسيته، ولسنا نرى حلًّا لهذه المعضلة الكبرى إلا ما ذكرناه من ضرورة المنطلق الإسلامي والاعتزاز بالإسلام، فذلك ما يسمح بالوقوف على أرضية صلبة ويعطي الباحث القدرة على الرؤية الفاحصة من خارج الموضوع لا الانغماس المسبب للذهول والغرق فيه انبهارًا أو تيها! وذلك المعنى هو ما يسميه المسيري «الاحتفاظ بمسافة بيني وبين الأحداث»[2].

إنه بسبب من هذا «العبء الثقافي» كان ربنا تبارك وتعالى يرسل الرُّسل إلى الناس، لأن ذلك الاتصال بالسماء يمنع من الوقوع في أسر العبء الثقافي للأقوام الذين ضلوا، وليس بالإمكان الصمود في ظل هذه الهيمنة الثقافية بغير مدد من الله

(١) د. حسن حنفي: مقدمة في علم الاستغراب ص٤٧.

(٢) د. عبد الوهاب المسيري: رحلتي الفكرية ص٧٦. (ط قصور الثقافة).

تعالى، ولهذا -عامةً- يفشل المصلحون وينجح الرسل! ولقد صرح القرآن الكريم بهذا المعنى لخير الناس: ﴿ وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَٰكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْـًٔا قَلِيلًا ﴾ [الإسراء: ٧٤]، وهي آية تجعل الإنسان يشعر بضخامة الموضوع وخطورته، فمن ذا الذي يمتلك من المواهب ما كان لرسول الله ﷺ ؟!

ولمثل هذا حفظ الله تعالى الذِّكر الخاتم للعالمين ليظل معين السماء حاضرًا فيمنع الناس عن الضلال كما قال ﷺ: «**تركتُ فيكم أمرين لن تضلُّوا ما تمسكتم بهما: كتاب الله، وسُنة نبيِّه**»[1].

٥- التنازلات

وهذه من آثار هذا «العبء الثقافي»، فإن أكثر محاولات الدفاع عن الإسلام، وكل محاولات تقريب الإسلام من الحضارة الغربية، هو من ناتج هذا العبء الثقافي، فيما الواجب على المسلم أن يفتش عن مراد الله وأن يدعو الناس إليه، لا أن يقرب مراد الله إلى مراد الناس، فيكون بهذا كمن يدعو الله إلى الناس (أستغفر الله!) لا أن يدعو الناس إلى الله.

وهنا مزلة كبرى وقع فيها كثيرون، فمنهم من كان صريحًا كالطبقة الأولى من المتغربين، ومنهم من كان أقل صراحة وحِدَّة كأصحاب مناهج البنيوية والتاريخانية والتأويل والتفكيك للنص والتراث، ومنهم -وهؤلاء هم موضوعنا الآن- من رفعوا لافتة علم المقاصد فأهدروا به الكم الهائل من النصوص التفصيلية التي مقامها أن تضبط المقصد فتُفهم المقاصد في ضوئها لا أن تسيطر «الرغبة» على المقصد فيُستعمل ذلك ذريعة لإهدار النصوص.

---

(١) مالك في الموطأ (١٥٩٤)، والبيهقي: السنن الكبرى والحاكم (٣١٩)، وصححه الألباني (صحيح الجامع: ٥٢٤٨).

إن التأسيس الشرعي القوي للمستغرب أولى أن يؤهله لفهم وهضم المخالف، إذ الوقوف على الثوابت والمعرفة بالشريعة أدعى لأن تحكم حركة استجابته لطوفان الفكر الغربي الذي سيخوضه، وإن التزام اللوازم واطراد الأصول شيء لا ينجو منه صاحب فكر، فيجب أن يكون من مكانه على بينة! وإن محاولة تطويع الإسلام والتماس الآراء الشاذة والضعيفة إنما تؤول إلى تذويب وتمييع الثوابت.

ومما يدخل في هذا الباب تقديم الحرص وحب الخير حتى يُهدر الولاء والبراء، وكذلك تقديم قيمة التفوق التقني حتى تُهدر قيمة ما يُستعمل فيه من خير أو شر.

ويدخل في هذا الباب أيضًا أن يبدأ البعض -تحت شعار الاستغراب ودراسة الآخر- في التخصص فيما هو محرَّم مثل فنون الرقص أو الإباحيات ونحوها مما هو في الحقيقة غير مفيد، كما أنه من ثمرات ومظاهر الباطل بينما ينبغي على العلم أن يبحث في الأصول الكبرى والجذور وبواطن الأمور، كما أن تجليات هذه الأصول فيما سوى باب المحرم لذاته كثيرة.

ونحن في هذا المبحث نكتفي بما نراه محاذير في هذا العلم بعينه، أما محاذير العلم نفسها وبعمومها فينظر إليها في مظانها كباب العلم من كتاب إحياء علوم الدين ونحوه، ففيها مواعظ بليغة ينبغي ألا يتحرك باحث في موضوعه وهو يغفل عنها.

كما قد اكتفينا بما يغلب على الظن وقوعه، كالوقوع في الانبهار بالغرب، لا بما يبعد وقوعه كالتشدد والرفض، فمن كان هذا حاله فالمظنون به ألا يدخل في دراسة علم كهذا من الأصل!



المبحث الخامس

الصعوبات

ومن معالم طريق الاستغراب تلك الصعوبات التي تواجه السالكين، وجماعها - فيما نرى- أربعة: الضعف الإسلامي بشقيه السياسي والعلمي، السيولة واختفاء المقدس في الفكر الغربي، وغزارة الإنتاج الغربي وانتشاره في كثير من اللغات، وسمة السرعة التي تميز العصر والتي تؤثر على العلوم بما يجعلها أسرع إلى التفرع والانقسام.

١ - الضعف الإسلامي

وهو في الواقع ضعف متعدد الوجوه، لكن أولها وأهمها وجماعها هو الضعف السياسي، وترتب عليه الضعف العلمي[(١)]؛ إذ «العلوم لا تنتشر في عصر إلا بإعانة صاحب الدولة لأهله، وفي الأمثال الحكمية: الناس على دين ملوكهم»[(٢)].

والعلوم لا تنشأ لمجرد الرغبة التي تتحرك في أذهان العلماء أو الفلاسفة، بل لا بد لها من رغبة دافعة، وهذه الرغبة غالبًا ما تكون من جهة الدولة والسلطة، لأنها بما تملك من إمكانيات ونفوذ تستطيع تحويل الرغبات إلى إجراءات وواقع، والاستشراق نفسه نشأ على أيدي البابوات أول الأمر وهم في ذلك الوقت كانوا الملوك والسلاطين على الحقيقة في أوروبا.

---

(١) يقول تقرير التنمية الإنسانية العربية - ٢٠٠٣: «من السمات المميزة لعدد من الجامعات في الوطن العربي قلة استقلالها ووقوعها تحت السيطر المباشرة للنظم الحاكمة... ومن آثار حالة التبعية للنظم الحاكمة أن أصبح بعض الجامعات يدار وفقا لمقتضيات المنطق السياسي الحاكم وليس وفقا لخطة أو سياسة تعليمية حكيمة». ص٥٦.

(٢) الطهطاوي: تلخيص الإبريز، ضمن «الأعمال الكاملة» ٢/ ٢٤.

واستمر بعد ضعف الكنيسة بدعم من الملوك والحكومات لما له من فائدة في مشاريع التوسع والاستعمار.

يقول رودي بارت: «الاستشراق في ألمانيا حاليا وفي العالم الأوروبي الحديث كله مادة علمية معترف بها من الجميع... نعترف شاكرين بأن المجتمع ممثلا في الحكومات والمجالس النيابية يضع تحت تصرفنا الإمكانات اللازمة لإجراء بحوث الاستشراق للحفاظ على نشاطنا التعليمي في هذا المضمار... وما تطلبه الدولة والمجتمع منا -معشر المستشرقين- هو بصفة عامة العمل كمدرسين وباحثين متخصصين... أما التصرف في أمر الموضوعات الخاصة التي ينصب عليها الدرس والبحث فمتروك لنا»[(١)].

إن مجرد وجود الحاجة إلى العلوم فهذا ليس كافيا لنشوئه، خصوصا وقد صارت العلوم -منذ عقود أو حتى قرون- من السعة بحيث لا يمكن تنفيذها بالمجهودات الفردية أو حتى عبر مؤسسات صغيرة.

ومنذ ظهور الدولة المركزية المسيطرة على كل نشاط مجتمعي فقد صار كل شيء رهنا بإرادة السلطة، فكيف إذا كانت هذه السلطة هي في التحليل الأخير وكيلا لعدو الأمة؟!

لقد ضيع الاستبداد اللحظة الأولى في التعرف على الغرب والإفادة منه قبل أن يأتي زمن الاستعمار.

فمنذ البداية «لم يرغب محمد علي في أن يتعرف طلابه إلى الحياة في فرنسا أكثر مما ينبغي»[(٢)].

---

(١) رودي بارت: الدراسات العربية والإسلامية في الجامعات الألمانية ص١٢، ١٣.

(٢) ألبرت حوراني: الفكر العربي في عصر النهضة ص٩٣.

كما لم يرغب باي تونس ولا السلطان عبد الحميد في تقليص سلطتيهما فقُبِرت مجهودات خير الدين التونسي، ثم آل مجهود الطهطاوي ورفاقه في عهد أولاد محمد علي إلى البوار[1].

يقول الشيخ محمد عبده في مقال هو أجمع ما كتب عن محمد علي: «أرسل جماعة من طلاب العلم إلى أوربا ليتعلموا فيها. فهل أطلق لهم الحرية أن يبثوا في البلاد ما استفادوا؟ كلا ولكنه استعملهم آلات تصنع له ما يريد وليس لها إرادة فيما تصنع. وُجد بعض الأطباء الممتازين وهم قليل، ووجد بعض المهندسين الماهرين وليسوا بكثير، والسبب في ذلك أن محمد علي ومَن معه لم يكن فيهم طبيب ولا مهندس فاحتاجوا إلى بعض المصريين ولم يكن أحد من الأعوان مسلطًا على المهندس عند رسم ما يلزم من الأعمال ولا على الطبيب عند تركيب أجزاء العلاج فظهر أثر استقلال الإرادة في الصناعة عند أولئك النفر القليل من النابغين، وكان ذلك مما لا تخشى عاقبته على المستبدين. هل كانت له مدرسة لتعليم الفنون الحربية؟ أين هي؟ وأين الذين نبغوا من طلابها؟ فإن وُجد أحد نابغ، فهل هو من المصريين؟ عدوا إن شئتم أحياءً أو أمواتا.

وجد كثير من الكتب المترجمة في فنون شتى من التاريخ والفلسفة والأدب ولكن هذه الكتب أودعت في المخازن من يوم طبعت وغلقت عليها الأبواب إلى أواخر عهد إسماعيل باشا فأرادت الحكومة تفريغ المخازن منها، وتخفيف ثقلها عنها، فنثرتها بين الناس فتناول منها من تناول.

---

(١) تعجب تقرير التنمية الإنسانية العربية (٢٠٠٣م) من أن «محاولات التحديث العلمي في القرن التاسع عشر بل وفي منتصف القرن العشرين –محمد علي، عبد الناصر- لم يبذل أصحابها جهدا كبيرا للاستفادة من هذا الإرث (العلمي للحضارة الإسلامية) والبناء عليه بالاستفادة من عبره، خاصة فيما يتصل بأسباب النهضة العلمية العربية، بل سعوا رأسا إلى نقل ما كان في الغرب». ص٤٤.

وهذا يدلنا على أنها ترجمت برغبة بعض الرؤساء من الأوربيين الذين أرادوا نشر آدابهم في البلاد لكنهم لم ينجحوا؛ لأن حكومة محمد علي لم توجد في البلاد قراء ولا منتفعين بتلك الكتب والفنون»[١].

فهذا أثر الاستبداد وهو قوي مستقل، فكيف إذا اجتمع الاستبداد مع الضعف؟! وكيف إذا اجتمع الاستبداد مع الضعف مع الهيمنة الأجنبية[٢]؟!!

ثم كيف إذا كانت هذه الهيمنة الأجنبية شاملة: سياسية وعسكرية واقتصادية وعلمية، تحارب بالمال والسلاح والإعلام لئلا ينهض العالم الإسلامي؟!!

لقد أثمر هذا -ضمن ثماره المرة الكثيرة- ضعفا علميا ظاهرا على كافة المستويات: مستوى المتابعة ومستوى الإنتاج، مع ضعف ظاهر في المؤسسات البحثية والجامعات، ومستوى الطلاب والأساتذة والباحثين[٣].

وفي حين يُنفق بسخاء وبذخ على الاستهلاك والترفيه، بل على الحرام الصريح، تشكو مؤسسات البحث العلمي من قلة التمويل!

ومهما تحدثنا عن دور أصحاب الأموال فالواقع أن دور الدولة يبقى جوهريًا في دعم البحث.

---

(١) محمد عبده: آثار محمد علي في مصر، مجلة المنار ٥/ ١٧٥ وما بعدها.

(٢) من واقع دراستي الهندسة الإلكترونية في واحدة من أبرز كليات الهندسة العربية، أستطيع أن أؤكد بأن التخلف الذي يصيب التعليم في بلادنا هو قرار مقصود لا مجرد أثر من آثار الفساد أو سوء الرقابة.

(٣) أثبتت دراسة أجريت على ٩ دول عربية في مجال التحصيل العلمي لطلاب التعليم الأساسي أن متوسط أداء الطلاب العرب أقل بـ ١٥٪ من المتوسط العالمي، كما أثبتت دراسة أخرى أجريت على ١٧ جامعة عربية أن اثنين منها فقط حصلت برامج التدريس فيها على تقدير «جيد»، وواحدة فقط كانت آليات ضمان جودة التعليم فيها «جيدة»، وواحدة فقط كانت «الموارد والتسهيلات المتوافرة للتعلم» جيدة، ولا تصل كفاية التدريس في أي جامعة إلى مستوى «جيد»، مع ضعف غالب في المؤشرات ذات الطبيعة الأكاديمية (تقرير التنمية الإنسانية العربية - ٢٠٠٤، ص٣٥، ٣٦).

ومن الثابت أن مرحلة بناء الدولة أو الأمة -كما في حالة معظم بلادنا الإسلامية- يكون دور السلطة فيها هو الأهم والأقوى[1].

٢- السيولة واختفاء المقدس

وهذه نقطة اختلاف جوهرية بين الإسلام والغرب، ففي حين يظل عند المسلمين أصول ثابتة أولية (القرآن والسنة) يُرَدُّ إليها ويقاس عليها ويرتبط بها كل الإنتاج الإسلامي، يختفي هذا الأصل الذي يمكن القياس إليه في الغرب الذي تتنازعه المذاهب والأصول، لا سيما بعدما جرى من شيوع العلمانية والنسبية والحداثة وما إلى ذلك من تقلبات فكرية جذرية[2].

إن حالة السيولة واختفاء المقدس يجعل كثيرا من الأصول والقيم الجوهرية والنموذج الحاكم المهيمن الخفي -يجعل كل ذلك موضع اجتهاد ومقاربة وتلمس، وهو -من ثَمَّ- موضع اختلاف واسع. ولئن كان بالوسع توقع التطور الفكري الإسلامي استجابة للتحديات فإن هذا يعسر جدا في حالة الفكر الغربي، يقول جوستاف لوبون: «من المتعسر أن نتكهن بما قد يتولد يوما من الأيام من هذا الوقت المشوش، كما أننا لا نعرف حتى الآن على أي الأفكار الأساسية والمبادئ الأولية يقوم بناء الأمم التي تخلفنا... ألا ترى أن معتقداتنا القديمة أخذت تهتز من وهن أساسها، وأن أساطين المجتمعات القديمة تتداعى وتتحطم؟!»[3].

---

(١) تقرير التنمية الإنسانية العربية - ٢٠٠٣، ص٣٩.

(٢) ومما هو مثير للتأمل أن بعض مؤرخي الفلسفة الغربية يرى أن هذه علامة صحة وتفوق كما يقول رونالد سترومبرج: «يمتاز المنهاج العقلاني الأوروبي بديناميكية شديدة، وذلك إذا ما قسناه بمناهج الحضارات الأخرى (التي يقدر عددها أرنولد توينبي بما بين ٢١ و ٢٤ حضارة). إذ إن تلك الحضارات كانت فاترة الهمة بطيئة الخطى مكبلة بأغلال التقاليد والعادات، بينما حضارتنا بالغة القدرة على التبدل والتفكير». رونالد سترومبرج: تاريخ الفكر الأوروبي الحديث ص١٩.

(٣) جوستاف لوبون: روح الاجتماع ص١١.

وقد ذكرنا في فصل سابق[١] كيف يبدو الغربيون -فيما عدا الإنجليز[٢]- مغرمين بالتفريق وذوي حدة في اعتناق المواقف حتى ليصعب عليهم أن يجمعوا بين ما يمكن الجمع بينهما، كالعلم مع الدين وكالولاء للوطن مع الولاء للأسرة وكإرادة الشعب مع إرادة الله!

فمن آثار هذا أن تتطور الفكرة الغربية بسرعة نحو نهايتها، فيحصل التطرف الفكري والانقلاب العنيف على ما سبق.

فمثلا: ما إن يبدأ دارون «في التنظير للصراع والدموية بمقولته عن البقاء للأقوى أو للأصلح» حتى يتساءل فرويد «عن حكمة الدعوة إلى فضائل مستحيلة مثل كبح جماح الرغبات الجنسية والعدوانية، بل إنه يتحدث -في لقطة متوحشة حقيقية- عن «فضل» اليهود على المدنية، فقد انتشروا في أرجاء العالم ومِن ثَمَّ اتجه إليهم عدوان الشعوب التي عاشوا بينها، فأتاحوا لتلك الشعوب فرصة التنفيس عن طاقة العدوان»[٣].

وليس غريبًا على قوم خاضوا هذه الصراعات الفكرية المتقلبة أن تنشأ فيهم مذاهب النسبية والعدمية، حيث لا ثابت ولا مقدس ولا مركز، وحيث تتحول حتى «الجريمة» من ظاهرة مرفوضة إلى ظاهرة طبيعية.

يقول د. عبد الوهاب المسيري: «تتضح المادية (بشكلها العقلاني واللاعقلاني) في ظهور النسبية الأخلاقية واختفاء فكرة الإنسان الحر المسئول أخلاقيًا، القادر على تجاوز ذاته وتجاوز بيئته. فالجريمة أثر سلبي من آثار البيئة، أو مجرد اضطراب نفسي ناجم عن اضطراب عضوي أو قوى نفسية معيَّنة لا يستطيع الإنسان التحكم فيها. وقد عبَّرت هذه

---

(١) راجع مبحث «البحث عن الثوابت والكليات» من الفصل الأول لهذا الباب.

(٢) علي عزت بيجوفيتش: الإسلام بين الشرق والغرب ص٣٧١ وما بعدها.

(٣) عبد الوهاب المسيري: موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية ٣/ ٤٥١.

النسبية الأخلاقية عن نفسها في الأخلاقيات السائدة في مدينة فيينا (المدينة التي وُلدت فيها حركة الحداثة الأدبية والفنية) فساد جو من الإباحية وظهرت عدة دراسات تنطلق من الجنس باعتباره المحرك الأول وعن دور الجنس عند الأطفال وأثر الكبت على الصحة العقلية والجنسية»[١].

كأنها نبوءة قالها الشاعر روبرت براونج (١٨١٢ – ١٨٨٩م) وتحققت، أن الغرب قد انتقل «من عصر إيمان فيه شك إلى عصر شك فيه إيمان»[٢].

٣- غزارة الإنتاج الغربي

صحيحٌ أن الإنتاج الفكري الغربي مجموع ومخدوم، ولن نبذل كجهد المستشرقين في الجمع والتتبع والفهرسة والتحقيق، وهذه فرصة كما أسلفنا، إلا أن الجهد الكبير الذي سنبذله ولم يبذلوه متمثل في استيعاب هذا الكم الغزير من الإنتاج الفكري الغربي، والذي يُضاف إلى غزارته تعدد لغاته أيضًا!

ويعاني العرب ضعفًا في الاطلاع على هذا الفكر، فعدد الكتب المترجمة سنويًا تبلغ ٣٣٠ كتابًا، وهو خُمْس ما تترجمة اليونان وحدها سنويًا (١٦٥٠ كتاب)، ومعدل الترجمة هذا –في العالم العربي– يساوي ٤.٤ كتابًا لكل مليون من السكان، بينما تبلغ النسبة في المجر ٥١٩ كتابًا لكل مليون من السكان، وتبلغ في إسبانيا ٩٢٠ كتابًا لكل مليون من السكان، فإسبانيا وحدها تترجم سنويًا عشرة آلاف كتاب[٣]. رغم أن عدد سكانها لم يبلغ الـ ٤٨ مليونا [٤]!!

---

(١) عبد الوهاب المسيري: موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية ٨/ ٤٤١.

(٢) ريتشارد كوك وكريس سميث: انتحار الغرب ص٨٠.

(٣) تقرير التنمية الإنسانية العربية – ٢٠٠٣، ص٦٧.

(٤) طبقا لإحصائية ٢٠١٤، مستفادة من موقع «كتاب الحقائق» التابع للمخابرات الأمريكية www.cia.gov

على أن لغزارة الإنتاج هذه محاذير لا بد من التنبه إليها؛ يقول حسن حنفي «هناك الآن ظلم واقع على الوعي اللا أوروبي إذا أراد أن يكون مبدعا، نظرًا للحضور المستمر للآخر في الأنا، (منه: هذا) الكم الهائل من المعلومات التي على الأنا معرفتها من الآخر، والتي على الوعي المستهلك أن يعرفه من الوعي المنتج مما يضيق عمر المبدع عن الإحاطة به واستيعابه.

وفي حالة الإحاطة به فإن جانب النقل لديه يكون مثقلا للغاية بحيث يئن تحت المنقول الذي يثقل على وعيه الحر، ويغطي الواقع ذاته بل ويصبح بديلا عنه، فيغترب الباحث، ويتعامل مع الظلال دون التعامل مباشرة مع الأشياء»[1].

وكان من آثار هذا أن «استمرت الترجمة (منذ مائتي عام) حتى الآن مما جعل أقصى مشروع لدينا هو ترجمة «الألف كتاب» وأن الكتاب يترجم لدينا أو يقرأ في نفس العام بعد صدوره في بلده الأصلي! فطالت فترة الترجمة إلى قرنين من الزمان، ولم يحدث إبداع بعد.. في حين أن الترجمة الأولى في نشأة الحضارة الإسلامية لم يمر عليها قرن واحد وهو القرن الثاني حتى بدأ الإبداع بعدها في القرن الثالث وتم الترويج بيننا لنظرية الصدمة الحضارية، ومؤداها أن معدل إنتاج الغرب أسرع بكثير من معدل ترجمتنا له.

وبالتالي فإن الهوة بيننا تزداد اتساعًا على مرّ الأيام. مهما ترجمنا فإننا لن نلحق به حتى نظل نجري وراء الغرب لاهثين ثم نصاب بعدها بالصدمة الحضارية أي باليأس من التقدم والتمدن حتى على مستوى الترجمة والنقل دون أن نصل إلى مستوى الخلق والإبداع»[2].

إنه ذئب هيجل المعلوماتي!

---

(١) د. حسن حنفي: مقدمة في علم الاستغراب ص٤٧.

(٢) د. حسن حنفي: مقدمة في علم الاستغراب ص٦٧، ٦٨.

وهذا اللفظ من إبداعات د. عبد الوهاب المسيري، فهو يرى أن الباحث تقابله في دراسته ثلاثة ذئاب لا بد له أن يتغلب عليها: ذئب المال، ذئب الشهرة، ذئب هيجل المعلوماتي، وهذا الأخير يعني الرغبة في الإحاطة بكل التفاصيل ضمن الموضوع النظري الكبير، وهو حلم كل باحث وكاتب، غير أن التجربة العملية تؤدي إلى أن الذي يجري وراء التفاصيل -وإن حقق علمًا واسعًا وغزيرًا- يعجز عن إنتاج شيء، لأن التفاصيل لا تنتهي، ومن هنا وُجِد من إذا سُئل عن شيء فاض عقله بعلم كثير بينما إذا أريد منه أن يكتب هذا فضلا عن تكوين رؤية عامة واستخلاص قاعدة جامعة لم يستطع(١).

والحال في هذا الموضوع كحال العاشق المتيم، يبصر ما لا يقدر، ولا يصبر على ما يبصر، كما قال الشاعر:

رأيتَ الذي لا كله أنت قادرٌ ... عليه، ولا عن بعضه أنت صابر

وكثير من علمائنا الأجلاء قلَّ إنتاجهم بدافع من هذه الرغبة، التي مع كونها مستحيلة تتمتع بجاذبية قاهرة، يزيد فيها زهد الرجل منهم وورعه وأن يرى في نفسه أنه لم يستكمل آلته بعد(٢).

إن التطور المستمر جعل العلوم البحتة نفسها تتوسع وتتفرع ويغزر الإنتاج فيها، مما جعل التخصص ضرورة لا مفرَّ منها، ومن ثَمَّ جعل مجال تأريخ العلوم نفسه أشد صعوبة وقسوة، فإذا كان هذا في العلوم المادية المنضبطة المحكمة فكيف بالعلوم الإنسانية؟! ثم كيف بها بعد انهيار الثابت والمقدس؟! إننا أمام غابة حقيقية ضخمة من المدارس والمذاهب والتوجهات والآراء في كافة فروع العلم.

---

(١) د. عبد الوهاب المسيري: رحلتي الفكرية ص١٣٣ وما بعدها (ط قصور الثقافة).

(٢) انظر مثلا: مقدمة د. عبد العظيم الديب لكتابه «نحو رؤية جديدة للتاريخ الإسلامي» ومحاولته أن يكون كشيخه محمود شاكر، وسجال بينه وبين الشيخين القرضاوي والغزالي.

وإذا كان «التحدي العلمي هو القدرة على التعميم وعلى إصدار أحكام عامة لا تنقضها الجزئيات»[1]، فلقد صار التحدي عظيما في هذا العصر، وصار حتمًا على الباحث أن يمتلك القدرة على إنتاج تعميم دون أن يأكله ذئب التفاصيل والجزئيات.

ولو فرضنا أن إنسانًا ما يقرأ كتابًا كل يوم لمدة أربعين سنة، وهذا مستحيل عمليًا، لم يبلغ مجموع ما قرأه الخمسة عشر ألف كتاب فقط! وهذا العدد من الكتب تنتجه أمريكا في عشرين يومًا فقط، حسب إحصائيات ٢٠١١م!!

ومن هنا نتيقن من ضرورة السرعة في البدء بالاستغراب ليولد التخصص في أقرب وقت، مع إطلاق الطاقات وفتح الجامعات والمراكز البحثية لعموم الباحثين والتقليل من الشروط المالية والإدارية والتعليمية التي قد تقف حائلًا دون الاستفادة من طاقات جمة لم تستكمل مسار تعليم نظامي أو لم تؤت من المال أو النفوذ ما يُبَلِّغها هذه الوظائف.

كذلك يمكن رصد المكافآت والجوائز العلمية وإطلاق المسابقات البحثية في مجال الاستغراب، فهذه وسيلة تجذب الكوادر والكفاءات البحثية مما يجعلنا نختصر نصف الطريق في البحث عن الباحثين ذوي الاهتمامات ومن لديهم هذا الاستعداد للاستغراب. وهذا الأمر يمكن البدء فيه فورا لمن آتاهم الله من فضله ووسع عليهم أرزاقهم. وأحسن من هذا لو أنهم أوقفوا أوقافًا للإنفاق على الحركة العلمية ريثما ييسر الله تبني الدول لمثل هذه المجالات.

ويسعنا في البداية أن نركز على اللغة الإنجليزية بشكل أساسي، فبها يصدر «قرابة ٨٥٪ من جملة الرصيد المعرفي في العالم»[2].

---

(١) د. حسن حنفي: مقدمة في علم الاستغراب ص١٠٢.

(٢) تقرير التنمية الإنسانية العربية – ٢٠٠٣ ص٦٦.

٤- عصر السرعة

إن كثيرًا من الأشياء التي كان سمتها الثبات والرسوخ تغيرت، صاحب الشهادة العلمية في التقنيات صار بحاجة إلى التحديث المستمر لنفسه، لم يعد يصلح بقاء المهندس بغير دورات علمية لمدة عامين، حتى شهادات الحصول على الدورات المتخصصة صارت لا تصلح بعد عامين لما قد دخل على المجال من جديد يتوجب استيعابه.

لقد ألقى هذا بتأثيراته الواسعة على كل المجالات، حتى إن مجال الإدارة والتخطيط صكَّ مصطلحًا جديدًا يعبر به عن أزمته، وهو «الرشاقة الاستراتيجية»، وذلك أنه تنازعه أمران احتاج الجمع بينهما: التخطيط على المدى البعيد، ومراعاة التغير الهائل في كل المحددات التي بنى عليها تخطيطه.

على أن سمة السرعة هذه تؤرق الجميع، لكنها تؤرقنا بصورة مضاعفة بواقع من تخلفنا القائم، وهو ما يفرض علينا بذل جهد واسع، وإدراك كامل بأن اللحظة التي نتأخرها لا تساوي مجرد اللحظة في ميزان الزمن بل تساوي أزمانًا مضاعفة في ميزان الحضارة. وكم من معارك كبرى حسمتها لحظة سبق أو لحظة صبر، فكيف بالخمول الطويل؟!



خلاصة
الباب الرابع

بداية الاستغراب تنقسم إلى مرحلتين؛

الأولى: تأسيس الأصول.

والثانية: إبصار معالم الطريق.

فأما تأسيس الأصول فنعني بها:

١- الانطلاق من القرآن السنة؛ إذ لا بد للإنسان من وجود أصل ومنطلق ونموذج حاكم، فتلك طبيعته وإن جهل بعضهم وجودها في نفسه وتأثيرها عليه، كذلك فإن الإسلام بالنسبة لنا حق مطلق وهدايته حق لا مجال فيه، والعلم بالإسلام يحسم الإجابات حول أمور كثيرة ويهدي إلى اتخاذ طرائق بعينها توفر الوقت والجهد الكثير.

٢- حضور الفوارق الجوهرية بين الإسلام والغرب في ذهن الباحث كي يكون على بصيرة من مواطن الاتفاق والاختلاف، ومتابعة سياق التطور الحضاري والثقافي بما يعصمه من رد المتشابه في الظواهر إلى اتفاق في الأصول، أو الغفلة عن خصوصيات يمثل إغفالها أخطاء منهجية.

٣- البحث عن الثوابت والكليات في الحضارة الغربية، إذ لا يتحقق فهم الحضارة ولا الاستفادة من الاستغراب إذا لم يقصد الباحث إلى تلمس الأعماق والبحث في الأسرار المختفية وراء الظواهر، ومحاولة فهم هذا النموذج الحاكم الذي يتجلى في سائر التفاصيل التي قد تبدو متشعبة لا رابط بينها ومتناقضة لا جامع لها.

٤- ثم ضربنا مثلا على نموذج يحقق الاستغراب كما نراه وهو نموذج الرئيس المجاهد علي عزت بيجوفيتش، والذي كان مفكرا وقائدا، يتحقق فيه المعرفة بالإسلام والمعرفة بالغرب، مدركا للفوارق، مهتما بالبحث عن الثوابت والكليات.

٥- ثم ضربنا مثلًا على قضية غربية بقضية البيئة، وكيف يتجلى فيها منهج غربي واحد حاكم، رغم اختلاف العصور وتقلب الفلسفات، ما يجعل تحقق الروح الغربية المقصودة بالبحث واضحة.

وأما معالم الطريق فهي:

١- المجالات التي ينبغي دراستها في الحضارة، وما هي أولى تلك المجالات بالبدء فيها، وكانت في رأينا ثلاثة: العقائد والفلسفات، والتاريخ، والسياسة.. فالأولى هي القيم المهيمنة، والثانية هي تجلي هذه القيم عمليًا، والثالثة: هي أوسع الأدوات فعالية وتأثيرا وتحقيقا للقيم في واقع الحياة، وهي كالقاطرة التي يتبعها العدد الكبير من العربات.

٢- نقاط القوة والفرص المتاحة لنا، فما نملكه هو نقطة قوة، وما لا نملكه فهو فرصة، فأما نقاط القوة فأهمها: ما لدينا من نصوص الوحي، ومن تراث تاريخي زاخر، وكثرة المسلمين في الغرب ممن هم أقدر بطبيعة المعايشة على فهم الحضارة الغربية، وكثرة الطلاب المبتعثين إلى الدراسة في الغرب ممن يمكن استثمار طاقتهم، وما لدى بعض بلداننا وأثريائنا من قدرة على تمويل المشاريع العلمية.

وأما الفرص فأهمها: كثرة ما أنتجه الغرب عن نفسه وحضارته تحليلًا وتشريحًا، وما أنتجه المتغربون عن الغرب فهو يوفر مادة مهمة باللغة العربية، وكون هذا التراث الغربي مجموعًا ومخدومًا تحقيقًا وفهرسة فإن هذا يوفر مجهودًا كبيرًا، ثم الثورة الإعلامية التي تقرب كثيرًا من المصادر، ثم ثورة الاتصالات التي جعلت إنشاء العلاقات والتعاون مع العديد من الجهات والشخصيات أمرًا سهلًا.

٣- الإجراءات والوسائل: وأهمها إنشاء مؤسسات، وأهم هذه المؤسسات على الإطلاق إنشاء أقسام في الكليات، فهو أفضل ما يحقق أغراض الاستمرارية واستثمار الطاقات الشابة، ويتيح التطور الطبيعي نحو الكليات المتخصصة أو حتى الجامعات المتخصصة.

ثم يأتي بعدها المراكز البحثية ومعاهد تعليم اللغة وغيرها. وأول مهمات هذه المؤسسات أمران؛ الأول: رفع الواقع من ناحية المؤسسات والدراسات القائمة وما ينبغي أن يضاف إليها أو يُطور فيها، والثاني: دراسة تجارب الاستغراب السابقة واستخلاص حلول المشكلات المعتادة فلا نبدأ من الصفر.

٤- المحاذير التي ينغي أن ينتبه لها الباحث ويحرص على ألا يقع فيها، وهي: الاختلاف الثقافي المانع من الفهم والاستيعاب، الخلط بين العام والخاص المانع من التعلم والاستفادة، والعداء المانع من العدل والإنصاف، والتفوق الغربي المانع من تبيُّن العمق والخلل، والتنازل المانع من الثبات والرسوخ.

٥- الصعوبات التي تعترض الطريق وهي: الضعف الإسلامي بشقيه السياسي والعلمي، السيولة واختفاء المقدس في الفكر الغربي، وغزارة الإنتاج الغربي وانتشاره في كثير من اللغات، وسمة السرعة التي تميز العصر والتي تؤثر على العلوم بما يجعلها أسرع إلى التفرع والانقسام.

۞ ۞ ۞

خاتمة

لقد استبعد إدوارد سعيد إمكانية وجود علم «الاستغراب»، وذلك لأنه رأى أن الموقف العلمي يجب ألا ينبني على مقياس جغرافي، وأن هذا البناء بعينه إنما يعبر عن موقف شاذ، لأنه محاولة لجمع تنويعات هائلة من أشياء عديدة لِيُتَّخَذ منها موقف واحد، وهو ما يجعل المساحة المدروسة من الاتساع والاختلاف بحيث يستحيل ضمها تحت عنوان واحد، وليس في الأمر ما يستدعي هذا الضمّ إلا تلك الرغبة في أن نتخذ منها موقفا واحدا! فبهذا كان «الاستشراق» عنده شيء غريب وشاذ[1].

ولكنه رغم ذلك بحث الظاهرة وكتب عنها كتابه الشهير! ذلك أن الحقائق على الأرض أقوى من رغباتنا «المريحة»! والظاهرة الإنسانية في الفهم والتحليل والتصنيف والتعامل أغلب وأنفذ من المحاولة العلمية لضبطها وإحكامها.. وهذه واحدة من تجليات الحقيقة الخالدة: الإنسان ليس عقلًا فقط، وعلم الإنسان أضعف من أن يستطيع الإحاطة بالإنسان!

ومن هنا كتبنا هذه الصفحات في التأسيس لعلم «الاستغراب» رغم اليقين بأن الأمر ليس بهذه البساطة! ولكن لا مناص من التعميم والتبسيط والاختزال في كل ما يسمى «علوم»، حتى في العلوم البحتة التطبيقية المادية التي تعترف صاغرة بهامش الخطأ ولو كان الموضوع ظاهرا مُحْكَمًا مُقاسًا وصغيرًا محدودًا مثل تجربة معملية بسيطة!

نسأل الله تبارك وتعالى أن ينفعنا بما علّمنا وأن يعلّمنا ما ينفعنا وأن يزيدنا علمًا

وأن يرزقنا الإخلاص في القول والعمل.

---

(١) إدوارد سعيد: الاستشراق ص١١٠، ١١١.

المصادر والمراجع

١- القرآن الكريم.

٢- الكتاب «المقدس».

٣- إبراهيم السكران: مآلات الخطاب المدني (نسخة إلكترونية).

٤- إبراهيم العلي: صحيح السيرة النبوية، دار النفائس، الأردن، الطبعة الأولى، ١٤٢٥هـ = ١٩٩٥م.

٥- ابن أبي أصيبعة: عيون الأنباء في طبقات الأطباء، تحقيق عامر النجار، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠٠١م.

٦- ابن أبي شيبة: الكتاب المصنف في الأحاديث والآثار (مصنف ابن أبي شيبة)، تحقيق: كمال يوسف الحوت، مكتبة الرشد، الرياض، الطبعة الأولى، ١٤٠٩هـ.

٧- ابن الأثير، عز الدين: الكامل في التاريخ، تحقيق: عبد الله القاضي، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الثانية ١٤١٥هـ.

٨- ابن الجوزي: المنتظم في تاريخ الملوك والأمم، تحقيق: محمد عبد القادر عطا، مصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٢هـ = ١٩٩٢م.

٩- ابن العبري: تاريخ مختصر الدول، تصحيح وفهرسة: الأب أنطون صالحاني اليسوعي، دار الرائد اللبناني، الحازمية، لبنان، الطبعة الثالثة، ١٤٠٣هـ = ١٩٨٣م.

١٠-ابن الفقيه: البلدان، تحقيق: يوسف الهادي، عالم الكتب، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٦هـ = ١٩٩٦م.

١١-ابن النديم: الفهرست، تحقيق: إبراهيم رمضان، دار المعرفة، بيروت، الطبعة الثانية، ١٤١٧هـ = ١٩٩٧م.

١٢-ابن إياس: بدائع الزهور في وقائع الدهور، باعتناء: باول كاله ومحمد مصطفى ومورتس سوبرنهايم، نشريات جمعية المستشرقين الألمانية، استانبول، مطبعة الدولة، ١٩٣١م.

١٣-ابن تيمية: اقتضاء الصراط المستقيم، تحقيق: ناصر عبد الكريم العقل، عالم الكتب، بيروت، الطبعة السابعة، ١٤١٩هـ = ١٩٩٩م.

١٤-ابن تيمية: الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح، تحقيق علي حسن ناصر، وعبد العزيز إبراهيم العسكر، وحمدان محمد، دار العاصمة - الرياض، الطبعة الأولى، ١٤١٤هـ.

١٥-ابن تيمية: درء التعارض بين العقل والنقل، تحقيق: د. محمد رشاد سالم، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، السعودية، الطبعة الثانية، ١٤١١هـ = ١٩٩١م.

١٦-ابن تيمية: مجموع الفتاوى، تحقيق: عبد الرحمن بن محمد بن قاسم، مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف، المدينة المنورة، ١٤١٦هـ = ١٩٩٥م.

١٧-ابن تيمية: منهاج السنة النبوية في نقض كلام الشيعة القدرية، تحقيق محمد رشاد سالم، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية - السعودية، الطبعة الأولى ١٩٨٦م.

١٨-ابن جبير: رحلة ابن جبير، دار بيروت للطباعة والنشر، بيروت، الطبعة الأولى.

١٩-ابن حبان: صحيح ابن حبان بترتيب ابن بلبان، تحقيق شعيب الأرناءوط، مؤسسة الرسالة - بيروت، الطبعة الثانية، ١٤١٤هـ= ١٩٩٣م.

٢٠-ابن حجر: فتح الباري، ترقيم: محمد فؤاد عبد الباقي، دار المعرفة، بيروت، ١٣٧٩ه.

٢١-ابن حزم: الفصل في الملل والأهواء والنحل، مكتبة الخانجي، القاهرة.

٢٢-ابن حوقل: صورة الأرض، طبعة ليدن، ١٩٣٨م.

٢٣-ابن خرداذبه، عبيد الله بن أحمد: المسالك والممالك، دار صادر - بيروت، ١٩٨٩م.

٢٤-ابن خزيمة، محمد بن إسحاق بن خزيمة: صحيح ابن خزيمة، تحقيق: د. محمد مصطفى الأعظمي، المكتب الإسلامي، بيروت، ١٣٩٠هـ= ١٩٧٠م.

٢٥-ابن خلدون: تاريخ ابن خلدون، دار احياء التراث العربي، بيروت.

٢٦-ابن دحية الكلبي: المطرب من أشعار أهل المغرب، تقديم: صلاح الدين الهواري، المكتبة العصرية - صيدا، لبنان، الطبعة الأولى، ٢٠٠٨م.

٢٧-ابن رجب الحنبلي: بيان فضل علم السلف على الخلف، تحقيق: محمد بن ناصر العجمي، دار البشائر الإسلامية، الطبعة الثانية، ١٤٢٤هـ= ٢٠٠٣م.

٢٨-ابن رستة: الأعلاق النفيسة، طبعة ليدن، ١٨٩١م.

٢٩-ابن عبد الحكم: : فتوح مصر وأخبارها، تحقيق محمد الحجيري، دار الفكر، الطبعة الأولى - بيروت، ١٤١٦هـ= ١٩٩٦م.

٣٠-ابن عبد الحكم، عبد الله: سيرة عمر بن عبد العزيز، تحقيق أحمد عبيد، عالم الكتب، بيروت، ١٤٠٤هـ = ١٩٨٤م.

٣١-ابن عساكر: تاريخ مدينة دمشق، تحقيق: عمر بن غرامة العمروي، دار الفكر، بيروت، ١٤١٦هـ = ١٩٩٦م.

٣٢-ابن فضلان: رحلة ابن فضلان، دار السويدي، أبو ظبي، الطبعة الأولى، ٢٠٠٣م. ص١٠٣.

٣٣-ابن قتيب: غريب الحديث، تحقيق عبد الله الجبوري، مطبعة العاني، بغداد، الطبعة الأولى، ١٣٩٧هـ.

٣٤-ابن قتيبة: عيون الأخبار، تحقيق: د. يوسف علي طويل، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤١٨هـ.

٣٥-ابن كثير: البداية والنهاية، تحقيق: علي شيري، دار إحياء التراث العربي، الطبعة الأولى ١٤٠٨هـ = ١٩٨٨م.

٣٦-ابن ماجه: سنن ابن ماجه، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي، دار الفكر، بيروت.

٣٧-ابن منظور: لسان العرب، دار صادر، الطبعة الأولى، بيروت، ١٩٩٧م.

٣٨-ابن نظيف الحموي: التاريخ المنصوري (تلخيص الكشف والبيان في حوادث الزمان)، تحقيق أبو العبد دودو، مطبعة الحجاز (مطبوعات مجمع اللغة العربية) - دمشق.

٣٩-ابن هشام: السيرة النبوية، تحقيق: مصطفى السقا وآخرين، مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي، مصر، الطبعة الثانية، ١٣٧٥هـ = ١٩٥٥م.

٤٠-أبو الأعلى المودودي: الحجاب، تعريب: محمد كاظم السباق، دار الفكر، دمشق، الطبعة الثانية ١٣٨٤هـ = ١٩٦٤م.

٤١-أبو الحسن الندوي: الإسلام وأثره في الحضارة وفضله على الإنسانية، دار ابن كثير - دمشق، ١٩٩٩م.

٤٢-أبو داود: سنن أبي داود، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، دار الفكر - بيروت، ١٩٨٦م.

٤٣-أبو شامة: عيون الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية، تحقيق إبراهيم الزيبق، مؤسسة الرسالة - القاهرة، الطبعة الأولى ١٩٩٧م.

٤٤-أبو يعلى الخليلي: الإرشاد في معرفة علماء الحديث، تحقيق: د. محمد سعيد عمر إدريس، مكتبة الرشد، الرياض، الطبعة: الأولى، ١٤٠٩هـ.

٤٥-أبو يعلى الفراء: رسل الملوك ومن يصلح للرسالة والسفارة، د. صلاح الدين المنجد، دار الكتاب الجديد، بيروت، الطبعة الثانية، ١٣٩٢هـ= ١٩٧٢م.

٤٦-أحمد بن حنبل: المسند، مؤسسة قرطبة، القاهرة.

٤٧-أحمد زكي: السفر إلى المؤتمر، المطبعة الكبرى الأميرية، القاهرة، الطبعة الثانية، ١٣١١هـ= ١٨٩٤م.

٤٨-أحمد سمايلوفيتش: فلسفة الاستشراق وأثرها في الأدب العربي المعاصر، طبعة بدون بيانات.

٤٩-أحمد عبد الرحيم السايح: الاستشراق في ميزان نقد الفكر الإسلامي، الدار المصرية اللبنانية، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٤١٧هـ= ١٩٩٦م.

٥٠-أحمد فارس الشدياق: الساق على الساق فيما هو الفارياق، المكتبة التجارية، القاهرة.

٥١-أحمد فارس الشدياق: الواسطة إلى معرفة مالطة وكشف المخبا عن فنون أوربا، مطبعة الدولة التونسية، الطبعة الأولى، تونس ١٢٨٣هـ.

٥٢-أحمد فارس الشدياق: الواسطة إلى معرفة مالطة وكشف المخبا عن فنون أوربا، مطبعة الجوائب، القسطنطينية، الطبعة الثانية، ١٢٩٩هـ.

٥٣-الإدريسي: نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، عالم الكتب، بيروت، ١٩٨٩م.

٥٤-إدوارد سعيد: الاستشراق.. المفاهيم الغربية للشرق، ترجمة: د. محمد عناني، دار رؤية، القاهرة، ٢٠٠٨م.

٥٥-إدوارد سعيد: تغطية الإسلام، ترجمة: د. محمد عناني، دار رؤية، القاهرة، ٢٠٠٦م.

٥٦-أرنولد توينبي: مختصر دراسة التاريخ، ترجمة: فؤاد محمد شبل، المركز القومي للترجمة، ٢٠١١م.

٥٧-إريك فون دانكين: عربات الآلهة، ترجمة وتحقيق عدنان حسن، دار المدى للطباعة والنشر، دمشق، ١٩٩٥م.

٥٨-أسامة بن منقذ: الاعتبار، تحقيق: فيليب حتي، جامعة برنستون، أمريكا، ١٩٣٠م.

٥٩-إسحاق السعدي: تميز الأمة الإسلامية وموقف المستشرقين منه، وزارة الأوقاف، قطر، الطبعة الأولى ١٤٣٤هـ = ٢٠١٣م.

٦٠-إسماعيل الفاروقي: التوحيد (نسخة إليكترونية).

٦١-أشيلي مونتاجيو وآخرون: البدائية، ترجمة محمد عصفور، سلسلة عالم المعرفة - الكويت، العدد ٥٣.

٦٢-أفوقاي الأندلسي: رحلة أفوقاي الأندلسي، تحرير: د. محمد رزوق، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، الطبعة الأولى، ٢٠٠٤م.

٦٣-أكرم ضياء العمري: السيرة النبوية الصحيحة، مكتبة العلوم والحكم، المدينة المنورة، الطبعة السادسة، ١٤١٥هـ= ١٩٩٤م.

٦٤-أكمل الدين إحسان أوغلي وآخرون: الدولة العثمانية تاريخ وحضارة، ترجمة صالح سعداوي - اسطنبول، ١٩٩٩م.

٦٥-الألباني: السلسلة الصحيحة، مكتبة المعارف، الرياض، الطبعة الأولى، ٢٠٠٢م.

٦٦-الألباني: السلسلة الضعيفة، مكتبة المعارف، الرياض

٦٧-الألباني: صحيح السيرة النبوية، الطبعة الأولى، المكتبة الإسلامية، عمان، الأردن.

٦٨-الألباني، محمد ناصر الدين: صحيح وضعيف الجامع الصغير وزيادته، المكتب الإسلامي.

٦٩-ألبرت حوراني: الفكر العربي في عصر النهضة، ترجمة: كريم عزقول، دار النهار، بيروت.

٧٠-أليسكي جورافسكي: الإسلام والمسيحية، ترجمة: د. خلف محمد الجراد، سلسلة عالم المعرفة، الكويت، العدد ٢١٥.

٧١-أنتوني بلاك: الغرب والإسلام، ترجمة: د. فؤاد عبد المطلب، سلسلة عالم المعرفة، الكويت، العدد ٣٩٤.

٧٢-أنور الجندي: معلمة الإسلام، دار الصحوة، القاهرة، الطبعة الثانية، ١٤١٠هـ= ١٩٨٩م.

٧٣-أنور الجندي: من اليقظة إلى الصحوة (نسخة إلكترونية، فهرسها ونشرها: علي بن نايف الشحود).

٧٤-إيان بوروما ومرجليت أفيشاي: الاستغراب.. موجز تاريخ النزعة المعادية للغرب، ترجمة: ثائر ديب، مكتبة العبيكان، السعودية، ٢٠٠٨م.

٧٥-إيان ج. سيموز: البيئة والإنسان عبر العصور، ترجمة السيد محمد عثمان، سلسلة عالم المعرفة، الكويت، العدد ٢٢٢.

٧٦-باتريك بوكانان: موت الغرب، ترجمة: محمد محمود التوبة، مكتبة العبيكان، الرياض، ١٤٢٦هـ.

٧٧-البخاري: الجامع الصحيح المختصر، تحقيق مصطفى ديب البغا، دار ابن كثير، اليمامة، بيروت، الطبعة الثالثة، ١٤٠٧هـ = ١٩٨٧م.

٧٨-برتراند رسل: تاريخ الفلسفة الغربية، ترجمة: د. زكي نجيب محمود، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠١٠م.

٧٩-برتراند رسل: حكمة الغرب (ج١)، ترجمة: د. فؤاد زكريا، سلسلة عالم المعرفة، الكويت، العدد ٣٦٤.

٨٠-برتراند رسل: حكمة الغرب (ج٢)، ترجمة: د. فؤاد زكريا، سلسلة عالم المعرفة، الكويت، العدد ٣٦٥.

٨١-برنارد لويس: اكتشاف المسلمين لأوروبا، ترجمة ماهر عبد القادر، المكتبة الأكاديمية، القاهرة، مصر، الطبعة الأولى ١٩٩٦م

٨٢-البلاذري: أنساب الأشراف، تحقيق: د. عبد العزيز الدوري، بيروت، جمعية المستشرقين الألمانية، ١٣٩٨هـ = ١٩٧٨م.

٨٣-البلاذري: فتوح البلدان، تحقيق: صلاح الدين المنجر، لجنة البيان العربي، القاهرة.

٨٤-البيهقي: السنن الكبرى، تحقيق: محمد عبد القادر عطا، مكتبة دار الباز، مكة المكرمة، ١٤١٤هـ= ١٩٩٤م.

٨٥-البيهقي: دلائل النبوة، تحقيق عبد المعطي قلعجي، دار الكتب العلمية - بيروت، ١٤٠٥هـ= ١٩٨٥م.

٨٦-الترمذي: الجامع الصحيح (سنن الترمذي)، تحقيق: أحمد محمد شاكر وآخرين، دار إحياء التراث العربي، بيروت.

٨٧-تقرير التنمية الإنسانية العربية - ٢٠٠٣ «نحو إقامة مجتمع المعرفة»، برنامج الأمم المتحدة الإنمائي، المكتب الإقليمي للدول العربية، ٢٠٠٣م.

٨٨-تقرير التنمية الإنسانية العربية - ٢٠٠٤ «نحو الحرية في الوطن العربي»، برنامج الأمم المتحدة الإنمائي، المكتب الإقليمي للدول العربية، ٢٠٠٥م.

٨٩-تقرير التنمية الإنسانية العربية - ٢٠٠٩ «مجتمع المعرفة، المفهوم والإشكاليات»، برنامج الأمم المتحدة الإنمائي، المكتب الإقليمي للدول العربية، ٢٠١٠م.

٩٠-توماس أرنولد وآخرون: تراث الإسلام، تعريب جرجيس فتح الله، دار الطليعة، بيروت، الطبعة الثانية، ١٩٧٢م.

٩١-توماس أرنولد: الدعوة إلى الإسلام، ترجمة حسن إبراهيم حسن وآخرون، مكتبة النهضة المصرية، ١٩٨٠م.

٩٢-تيموثي ميتشل: استعمار مصر، ترجمة: بشير السباعي وأحمد حسان، مركز مدارات، القاهرة، ١٤٣٤هـ= ٢٠١٣م.

٩٣-ثابت عيد (مترجم): صورة الإسلام في التراث الغربي - دراسات ألمانية، نهضة مصر، ١٩٩٩م.

٩٤-الثعالبي: التمثيل والمحاضرة، عبد الفتاح محمد الحلو، الدار العربية للكتاب، الطبعة الثانية، ١٤٠١ هـ = ١٩٨١م.

٩٥-الجاحظ: التبصرة بالتجارة في وصف ما يستظرف في البلدان من الأمتعة الرفيعة والأعلاق النفيسة والجواهر الثمينة، تحقيق: حسن حسني عبد الوهاب التونسي، مكتبة الخانجي، القاهرة، الطبعة الثالثة، ١٤١٤هـ = ١٩٩٤م.

٩٦-جان ماري بيلت: عودة الوفاق بين الإنسان والطبيعة، ترجمة: السيد محمد عثمان، سلسلة عالم المعرفة، الكويت، سبتمبر ١٩٩٤م.

٩٧-الجبرتي: عجائب الآثار في التراجم والأخبار، دار الجيل، بيروت.

٩٨-جريج بالاست: أفضل ديمقراطية يستطيع المال شراءها، ترجمة: مركز التعريب والبرمجة، الدار العربية للعلوم، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٢٤هـ = ٢٠٠٤م.

٩٩-جلال كشك: القومية والغزو الفكري، بدون بيانات.

١٠٠- جلال كشك: خواطر مسلم حول الجهاد والأقليات والأناجيل، الطبعة الأولى، القاهرة، ١٤٠٥هـ = ١٩٨٥م.

١٠١- جلال كشك: ودخلت الخيل الأزهر، الزهراء للإعلام العربي - القاهرة، الطبعة الثالثة، ١٤١٠هـ = ١٩٩٠م.

١٠٢- جمال الدين الأفغاني: الآثار الكاملة، جمع وتحقيق: سيد هادي خسروشاهي، مكتبة الشروق الدولية، الطبعة الأولى، القاهرة، ١٤٢٣هـ = ٢٠٠٢م.

١٠٣- جمال حمدان: شخصية مصر، دار الهلال، القاهرة.

١٠٤- جوزيف براودي: العراق الجديد، ترجمة نمير عباس مظفر، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، الطبعة الأولى، ٢٠٠٤م.

١٠٥- جوستاف لوبون: حضارة العرب، ترجمة عادل زعيتر، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠٠٠م.

١٠٦- جوستاف لوبون: روح الاجتماع، ترجمة: أحمد فتحي زغلول باشا، مطبعة الشعب، القاهرة، ١٣٢٧هـ = ١٩٠٩م.

١٠٧- الحاكم: المستدرك على الصحيحين، تحقيق: مصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية - بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١١هـ=١٩٩٠م.

١٠٨- حسن حنفي: التراث والتجديد، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت، الطبعة الرابعة، ١٤١٢هـ = ١٩٩٢م.

١٠٩- حسن حنفي: مقدمة في علم الاستغراب، الدار الفنية، الطبعة الأولى، القاهرة، ١٤١١هـ = ١٩٩١م.

١١٠- حسين مؤنس: ابن بطوطة ورحلاته، دار المعارف، القاهرة.

١١١- حسين مؤنس: الحضارة، سلسلة عالم المعرفة، الكويت، العدد ١.

١١٢- حسين مؤنس: تاريخ الجغرافية والجغرافيين في الأندلس، مكتبة مدبولي، القاهرة، الطبعة الثانية، ١٩٨٦م.

١١٣- خضر أحمد عطا الله: بيت الحكمة في عصر العباسيين، دار الفكر العربي، القاهرة، الطبعة الأولى.

١١٤- الخطيب البغدادي: الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع، تحقيق: د. محمود الطحان، مكتبة المعارف، الرياض.

١١٥- الخطيب البغدادي: تاريخ بغداد، دار الكتب العلمية، بيروت.

١١٦- خير الدين التونسي: أقوم المسالك في معرفة الممالك، المطبعة التونسية، تونس، الطبعة الأولى، ١٢٨٤هـ.

١١٧- خير الدين التونسي: أقوم المسالك في معرفة الممالك، تقديم د. محمد الحداد، دار الكتاب المصري - دار الكتاب اللبناني، القاهرة - بيروت، ٢٠١٢م.

١١٨- الذهبي: تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام، تحقيق: د. عمر عبد السلام تدمري، دار الكتاب العربي، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٠٧هـ = ١٩٨٧م.

١١٩- الذهبي: سير أعلام النبلاء تحقيق: مجموعة بإشراف شعيب الأرناءوط، مؤسسة الرسالة، الطبعة الثالثة، ١٤٠٥ هـ = ١٩٨٥ م.

١٢٠- ر. ف. بودلي: الرسول حياة محمد، ترجمة محمد محمد فرج وعبد الحميد جودة السحار، مكتبة مصر، القاهرة.

١٢١- رجاء جارودي: وعود الإسلام، ترجمة: د. طوقان قرقوط، دار الرقي، بيروت، الطبعة الثانية، ١٩٨٥م.

١٢٢- رشيد الحمد ومحمد سعيد صباريني: البيئة ومشكلاتها، سلسلة عالم المعرفة، الكويت، العدد ٢٢.

١٢٣- رفاعة الطهطاوي: الأعمال الكاملة، تحقيق د. محمد عبده، مكتبة الأسرة، القاهرة، ٢٠١٠م.

١٢٤- رودي بارت: الدراسات العربية والإسلامية في الجامعات الألمانية، ترجمة د. مصطفى ماهر، دار الكاتب العربي للطباعة والنشر، القاهرة.

١٢٥- رونالد سترومبرج: تاريخ الفكر الأوربي الحديث، دار القارئ العربي، مصر، الطبعة الثالثة، ٢٠٠٤م.

١٢٦- ريتشارد كوك وكريس سميث: انتحار الغرب، ترجمة: محمد محمود التوبة، الطبعة الأولى، ٢٠٠٩م.

١٢٧- الزبيدي، أبو الفيض محمد عبد الرزاق الحسيني الملقب بمرتضى: تاج العروس من جواهر القاموس، دار ابن حزم - بيروت.

١٢٨- الزركلي: موسوعة الأعلام، دار العلم للملايين - بيروت، الطبعة الخامسة، ١٩٨٠م.

١٢٩- زكريا إبراهيم: مشكلة الفلسفة، مكتبة مصر، القاهرة، ١٩٧١م.

١٣٠- زيجريد هونكه: شمس الله تسطع على الغرب، ترجمة فاروق بيضون، كمال دسوقي، دار صادر، الطبعة العاشرة، بيروت، ٢٠٠٢م.

١٣١- سهيل زكار: الموسوعة الشاملة في الحروب الصليبية، دار الفكر، بيروت.

١٣٢- سيد قطب: في ظلال القرآن، دار الشروق - القاهرة، الطبعة الشرعية الحادية عشرة، ١٤٠٥هـ = ١٩٨٥م.

١٣٣- السيد محمد بدوي: الأخلاق بين الفلسفة وعلم الاجتماع، دار المعرفة الجامعية - القاهرة، ٢٠٠٠م.

١٣٤- الشافعي: تفسير الإمام الشافعي، جمع وتحقيق ودراسة: د. أحمد بن مصطفى الفرَّان، دار التدمرية، السعودية، الطبعة الأولى: ١٤٢٧هـ = ٢٠٠٦م.

١٣٥- الشنقيطي، محمد الأمين بن محمد المختار الجكني: أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن، دار الفكر، بيروت، ١٤١٥ هـ = ١٩٩٥م.

١٣٦- شيخو، رزق الله بن يوسف: تاريخ الآداب العربية في القرن التاسع عشر والربع الأول من القرن العشرين، دار المشرق، بيروت، الطبعة الثالثة.

١٣٧- صاعد الأندلسي: طبقات الأمم، تحقيق الأب: لويس شيخو اليسوعي، المطبعة الكاثوليكية للآباء اليسوعين، بيروت، ١٩١٢م.

١٣٨- صحيفة «المصرى اليوم» بتاريخ ١٢/ ١٢/ ٢٠٠٥.

١٣٩- صحيفة الجزيرة، بتاريخ ٢٣ محرم ١٤٢٨هـ.

١٤٠- صحيفة الشرق الأوسط بتاريخ ٣٠/ ١١/ ٢٠٠١م.

١٤١- صفي الرحمن المباركفوري وآخرون: وإنك لعلى خلق عظيم، كندة للإعلام والنشر، الطبعة الأولى - القاهرة، ١٤٢٧هـ.

١٤٢- صفي الرحمن المباركفوري: الرحيق المختوم، دار العصماء، دمشق، الطبعة الأولى، ١٤٢٧هـ.

١٤٣- صلاح الدين المنجد: المستشرقون الألمان، تراجمهم وما أسهموا به في الدراسات العربية، دار الكتاب الجديد، بيروت، الطبعة الأولى، ١٩٧٨م.

١٤٤- صمويل هنتنجتون: صدام الحضارات.. إعادة صنع النظام العالمي، دار سطور للنشر، الطبعة الثانية، ١٩٩٩م.

١٤٥- الضبي: بغية الملتمس في تاريخ رجال أهل الأندلس، دار الكتاب العربي، القاهرة، ١٩٦٧م.

١٤٦- الطاهر بن عاشور: التحرير والتنوير، الدار التونسية للنشر، تونس، ١٩٨٤م.

١٤٧- الطبراني: المعجم الأوسط، تحقيق طارق بن عوض الله وعبد المحسن بن إبراهيم الحسيني، دار الحرمين، القاهرة، ١٤١٥هـ.

١٤٨- الطبري: تاريخ الطبري، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤١٥هـ = ١٩٩٥م.

١٤٩- الطبري: جامع البيان عن تأويل آي القرآن، تحقيق أحمد محمد شاكر، مؤسسة الرسالة، الطبعة الأولى، ١٤٢٠هـ = ٢٠٠٠م.

١٥٠- الطحاوي: شرح مشكل الآثار، دار الكتب العلمية، بيروت.

١٥١- طنوس الشدياق: أخبار الأعيان في جبل لبنان، تحقيق: د. فؤاد إفرام البستاني، منشورات الجامعة اللبنانية، بيروت.

١٥٢- طه حسين: مستقبل الثقافة في مصر، دار المعارف، القاهرة، الطبعة الثانية.

١٥٣- عاصم حمدان: الأعمال الكاملة للأديب الدكتور عاصم حمدان، الناشر: عبد المقصود خوجه، جدة، السعودية، الطبعة الأولى ١٤٢٦هـ= ٢٠٠٥م.

١٥٤- عباس العقاد: ما يقال عن الإسلام، ضمن «موسوعة العقاد الإسلامية»، دار الكتاب العربي، بيروت، الطبعة الأولى، ١٣٩١هـ= ١٩٧١م.

١٥٥- عبد الرحمن بدوي: دفاع عن القرآن، ترجمة: كمال جاد الله، الدار العالمية للكتب والنشر.

١٥٦- عبد الرحمن بدوي: موسوعة المستشرقين، دار العلم للملايين، بيروت، الطبعة الثالثة، ١٩٩٣م.

١٥٧- عبد الرحمن بدوي: سيرة حياتي، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، ٢٠٠٠م.

١٥٨- عبد الرحمن حبنكة الميداني: أجنحة المكر الثلاثة، دار القلم، دمشق، الطبعة الثامنة، ١٤٢٠هـ= ٢٠٠٠م.

١٥٩- عبد الرزاق السنهوري: إسلاميات السنهوري باشا، تحقيق د. محمد عمارة، دار الوفاء، المنصورة، مصر، ٢٠٠٦.

١٦٠- عبد السلام البسيوني: دعاة ومشاهير عرفتهم (نسخة إليكترونية).

١٦١- عبد العزيز الدوري: العصر العباسي الأول، دار الطليعة، بيروت، الطبعة الثالثة، ١٩٩٧م.

١٦٢- عبد العزيز الكحلوت: التنصير والاستعمار في إفريقيا، منشورات كلية الدعوة الإسلامية، طرابلس، ليبيا، الطبعة الثانية، ١٤٠٢هـ = ١٩٩٢م.

١٦٣- عبد العظيم الديب: المستشرقون والتراث، دار الوفاء، المنصورة، مصر، الطبعة الثانية، ١٤١٣هـ = ١٩٩٢م.

١٦٤- عبد العظيم الديب: المنهج في كتابات الغربيين عن التاريخ الإسلامي، كتاب الأمة، قطر، الطبعة الأولى، ١٤١١هـ، العدد ٢٧.

١٦٥- عبد اللطيف عامر: أحكام الأسرى والسبايا في الحروب الإسلامية، دار الكتاب المصري، دار الكتاب اللبناني، القاهرة، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٠٦هـ = ١٩٨٦م.

١٦٦- عبد الله الشارف: أثر الاستغراب في التربية والتعليم بالمغرب، منشورات كلية الآداب بتطوان، ٢٠٠٠م.

١٦٧- عبد الله الشارف: الاستغراب في الفكر المغربي المعاصر، منشورات نادي الكتاب، تطوان، المغرب، الطبعة الأولى، ٢٠٠٣م.

١٦٨- عبد الوهاب المسيري: الأيديولوجية الصهيونية، سلسلة عالم المعرفة، الكويت، العدد ٦٠.

١٦٩- عبد الوهاب المسيري: العلمانية الجزئية والعلمانية الشاملة، دار الشروق - القاهرة، الطبعة الأولى، ١٤٢٣هـ = ٢٠٠٢م.

١٧٠- عبد الوهاب المسيري: رحلتي الفكرية، الهيئة العامة لقصور الثقافة، القاهرة، ٢٠٠٠م.

١٧١- عبد الوهاب المسيري: رحلتي الفكرية، دار الشروق، القاهرة، الطبعة الرابعة، فبراير ٢٠٠٩م.

١٧٢- عبد الوهاب المسيري: موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية، دار الشروق، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٩٩٩م.

١٧٣- عبد الوهاب المسيري، ورفيق العظمة: العلمانية تحت المجهر، دار الفكر المعاصر، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٢١هـ= ٢٠٠٠م.

١٧٤- عثمان بن جمعة ضميرية: السفارة والسفراء في الإسلام، رابطة العالم الإسلامي، سلسلة دعوة الحق، العدد ١٩١، ١٤٢١هـ.

١٧٥- علي الصلابي: الدولة الأموية، مؤسسة اقرأ، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٤٢٦هـ= ٢٠٠٥م.

١٧٦- علي بن إبراهيم الحمد النملة: الاستشراق والدراسات الإسلامية، مكتبة التوبة، الرياض، الطبعة الأولى، ١٤١٨هـ= ١٩٩٨م.

١٧٧- علي عزت بيجوفيتش: الإسلام بين الشرق والغرب، ترجمة: د. محمد يوسف عدس، دار الجامعات، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٩٩٧م.

١٧٨- علي عزت بيجوفيتش: الإعلان الإسلامي، ترجمة: د. محمد يوسف عدس، مكتبة الإمام البخاري، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٤٣٠هـ= ٢٠٠٩م.

١٧٩- علي عزت بيجوفيتش: هروبي إلى الحرية، دار الفكر، دمشق، ٢٠٠٢م.

١٨٠- عماد الدين خليل: حول تشكيل العقل المسلم، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، أمريكا، الطبعة الرابعة، ١٤١٢هـ= ١٩٩١م.

١٨١- عماد الدين خليل: مدخل إلى إسلامية المعرفة، دار ابن كثير، دمشق، ١٤٢٧هـ، ٢٠٠٦م.

١٨٢- عمر رضا كحالة: معجم المؤلفين، مكتبة المثنى ودار إحياء التراث العربي، بيروت.

١٨٣- ف بارتولد: تاريخ الحضارة الإسلامية، ترجمة حمزة طاهر، دار المعارف، القاهرة، ١٩٦٦م.

١٨٤- فاروق عمر فوزي: الاستشراق والتاريخ الإسلامي، دار الأهلية، الأردن، الطبعة الأولى، ١٩٩٨م.

١٨٥- فاروق عمر فوزي: الخلافة العباسية، دار الشروق، الأردن، ٢٠٠٩.

١٨٦- فاضل سليمان: أقباط مسلمون قبل محمد، النور للإنتاج الإعلامي، الجيزة، مصر، الطبعة الأولى، ٢٠١٠م.

١٨٧- فانديك، إدوارد كرنيليوس: اكتفاء القنوع بما هو مطبوع، أشهر التآليف العربية في المطابع الشرقية والغربية، صححه وزاد عليه: السيد محمد علي الببلاوي، مطبعة التأليف (الهلال)، مصر، ١٣١٣هـ = ١٨٩٦م.

١٨٨- فتحي عثمان: الحدود الإسلامية البيزنطية بين الاحتكاك الحربي والاتصال الحضاري، دار الكتاب العربي، القاهرة.

١٨٩- فرانسيس فوكوياما: نهاية التاريخ وخاتم البشر، ترجمة حسين أحمد أمين، مركز الأهرام للترجمة والنشر، ١٤١٣هـ = ١٩٩٣م.

١٩٠- فرناند بروديل: تاريخ وقواعد الحضارات، ترجمة وتعليق سفير. د. حسين شريف، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٩م.

١٩١- الفيروزآبادي، محمد بن يعقوب: القاموس المحيط، مطبعة دار المأمون، الطبعة الرابعة، ١٣٥٧هـ.

١٩٢- فيليب حتي: العرب تاريخ موجز، دار العلم للملايين - بيروت، لبنان، ١٩٩١م.

١٩٣- القاضي عبد الجبار: تثبيت دلائل النبوة، دار المصطفى، القاهرة.

١٩٤- القاضي عياض اليحصبي: الشفا بتعريف حقوق المصطفى، دار الفكر الطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، ١٤٠٩هـ = ١٩٨٨م.

١٩٥- قدامة بن جعفر: الخراج وصناعة الكتابة، دار الرشيد، بغداد، الطبعة الأولى، ١٩٨١م.

١٩٦- القرطبي: الجامع لأحكام القرآن، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ١٤٠٥هـ = ١٩٨٥م.

١٩٧- القفطي: إخبار العلماء بأخيار الحكماء، تحقيق: إبراهيم شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة: الأولى ١٤٢٦هـ = ٢٠٠٥م.

١٩٨- القلقشندي: صبح الأعشى في صناعة الإنشا، دار الكتب العلمية، بيروت.

١٩٩- القنوجي، محمد صديق خان: أبجد العلوم الوشي المرقوم في بيان أحوال العلوم، تحقيق: عبد الجبار زكار، دار الكتب العلمية - بيروت، ١٩٧٨م.

٢٠٠- كارل بروكلمان: تاريخ الأدب العربي، ترجمة: د. عبد الحبيم النجار، دار المعارف، القاهرة، الطبعة الخامسة.

٢٠١- كارين أرمسترونج: سيرة النبي محمد، ترجمة د. فاطمة نصر، د. محمد عناني، دار سطور، الطبعة الثانية - القاهرة، مصر، ١٩٩٧م.

٢٠٢- كراتشوفسكي: مع المخطوطات العربية، تعريب: د. محمد منير موسى، دار النهضة العربية، القاهرة، ١٩٦٩م.

٢٠٣- كريستوفر هيرولد: بونابرت في مصر، ترجمة: فؤاد أندراوس، مكتبة الأسرة، القاهرة، ١٩٩٨م.

٢٠٤- لويس سيديو: تاريخ العرب العام، ترجمة عادل زعيتر، دار إحياء الكتب

العربية، الطبعة الثانية - القاهرة، مصر، ١٩٦٩م.

٢٠٥- ماريا لويزا برنيري: المدينة الفاضلة عبر التاريخ، ترجمة: عطيات أبو السعود، سلسلة عالم المعرفة، الكويت، العدد ٢٢٥.

٢٠٦- مازن مطبقاني: الاستغراب (نسخة إلكترونية من المؤلف، وهي مقالات مجموعة على موقعه: مركز المدينة لبحوث ودراسات الاستشراق).

٢٠٧- مازن مطبقاني: الغرب من الداخل، (نسخة إلكترونية من المؤلف).

٢٠٨- مازن مطبقاني: المدونة «من آفاق الكلمة»

(http://mazinmotabagani.blogspot.com)

٢٠٩- مازن مطبقاني: بحوث في الاستشراق الأمريكي المعاصر، الطبعة الأولى، ١٤٢٠هـ = ١٩٩٩م.

٢١٠- مازن مطبقاني: رحلاتي إلى بلاد الإنجليز، مكتبة العبيكان، الطبعة الأولى، ١٤٣٢هـ = ٢٠١١م.

٢١١- مازن مطبقاني: من قضايا الدراسات العربية الإسلامية في الغرب. (نسخة إلكترونية من المؤلف).

٢١٢- مالك بن نبي: القضايا الكبرى، دار الفكر المعاصر - بيروت، دار الفكر - سوريا، الطبعة الأولى، ١٤١٢هـ = ١٩٩١م.

٢١٣- مايكل أوترمان وريتشارد هيل وبول ويلسون: محو العراق؛ خطة متكاملة لاقتلاع عراق وزرع آخر، شركة المطبوعات للتوزيع والنشر، بيروت، الطبعة الأولى، ٢٠١١م.

٢١٤- مايكل زيمر مان: الفلسفة البيئية، ترجمة: معين شفيق رومية، سلسلة عالم المعرفة، الكويت، نوفمبر ٢٠٠٦م.

٢١٥- المبرد: الكامل في اللغة والأدب، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار الفكر العربي - القاهرة، الطبعة الثالثة ١٤١٧هـ = ١٩٩٧م.

٢١٦- مجلة آفاق الثقافة والتراث، دبي، العدد ٧٠، رجب ١٤٣١هـ يونيو ٢٠١٠.

٢١٧- مجلة الحوار المتمدن، ٣/ ١١/ ٢٠٠٧م

٢١٨- مجلة الرسالة، العدد ٢٤٠، بتاريخ ٧/ ٢/ ١٩٣٨م.

٢١٩- مجلة الرسالة، العدد ٢٤١، بتاريخ ١٤/ ٢/ ١٩٣٨م.

٢٢٠- مجلة الرسالة، العدد ٨٣١، بتاريخ ٦/ ٦/ ١٩٤٩م.

٢٢١- مجلة الشريعة والدراسات الإسلامية، جامعة الكويت، الكويت، العدد ٤٣، ٢٠٠٠م.

٢٢٢- مجلة المنار

٢٢٣- مجموعة: الموسوعة الفقهية الكويتية، وزارة الأوقاف والشئون الإسلامية - الكويت، الطبعة الأولى، مطابع دار الصفوة - مصر.

٢٢٤- مجموعة: تراث الإسلام، بإشراف جوزيف شاخت، وكليفورد بوزوروث، سلسلة عالم المعرفة، الكويت، العدد ١٢.

٢٢٥- مجموعة: حصاد القرن، تحرير: محمد شاهين، إشراف: فهمي جدعان، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت - لبنان، الطبعة الأولى، ٢٠٠٨م.

٢٢٦- مجموعة: مناهج المستشرقين في الدراسات العربية الإسلامية، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، تونس، ١٩٨٥م.

٢٢٧- محمد إبراهيم الفيومي: الاستشراق في ميزان الفكر الإسلامي، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، القاهرة، ١٤١٤هـ = ١٩٩٤م.

٢٢٨- محمد أبو زهرة: زهرة التفاسير، دار الفكر العربي، القاهرة.

٢٢٩- محمد أسد (ليوبولد فايس): الطريق إلى الإسلام، ترجمة عفيف البعلبكي، دار العلم للملايين، بيروت، الطبعة التاسعة ١٤١٨ هـ = ١٩٩٩م.

٢٣٠- محمد البشير الإبراهيمي: آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي، جمع وتقديم: د. أحمد طالب الإبراهيمي، دار الغرب الإسلامي، الطبعة الأولى، ١٩٩٧م.

٢٣١- محمد الغزالي: ظلام من الغرب، دار نهضة مصر، القاهرة، الطبعة الأولى، ٢٠٠٥م.

٢٣٢- محمد إلهامي ومحمد شعبان أيوب: بيري ريس.. أمير الحرب والبحر، دار القمري، القاهرة، الطبعة الأولى، ٢٠١٤م.

٢٣٣- محمد إلهامي ومحمد شعبان أيوب: رحلة الخلافة العباسية، مؤسسة اقرأ، القاهرة، الطبعة الأولى، ٢٠١٣م.

٢٣٤- محمد إلهامي: المدونة «المؤرخ» (http://melhamy.blogspot.com).

٢٣٥- محمد حميد الله: مجموعة الوثائق السياسية للعهد النبوي والخلافة الراشدة، دار النفائس، الطبعة السابعة، ٢٠٠١م.

٢٣٦- محمد عبد العزيز الخضيري: المناظرة العجيبة، دار الوطن، السعودية.

٢٣٧- محمد عبد الله عنان: دولة الإسلام في الأندلس، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ٢٠٠١م.

٢٣٨- محمد عبده: الأعمال الكاملة للإمام الشيخ محمد عبده، تحقيق: د. محمد عمارة، دار الشروق، الطبعة الأولى، ١٤١٣هـ، ١٩٩٣م.

٢٣٩- محمد عمارة: إسلامية المعرفة ماذا تعني، دار نهضة مصر، القاهرة، الطبعة الأولى، يناير ٢٠٠٧م.

٢٤٠- محمد عمارة: طه حسين من الانبهار بالغرب إلى الانتصار للإسلام، كتاب ملحق بمجلة الأزهر، القاهرة، ذو القعدة ١٤٣٥هـ = أغسطس ٢٠١٤م.

٢٤١- محمد عمارة: في فقه المواجهة بين الغرب والإسلام، مكتبة الشروق الدولية، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٤٢٣هـ = ٢٠٠٣م.

٢٤٢- محمد قطب: كيف نكتب التاريخ الإسلامي، دار الشروق، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٤١٢هـ = ١٩٩٢م.

٢٤٣- محمد قطب: مذاهب فكرية معاصرة، دار الشروق، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٩٨٣.

٢٤٤- محمد قطب: واقعنا المعاصر، دار الشروق، القاهرة، الطبعة الأولى ١٤١٨ هـ = ١٩٩٧م.

٢٤٥- محمد كرد علي: خطط الشام، مكتبة النوري، دمشق، الطبعة الثالثة، ١٤٠٣هـ = ١٩٨٣م.

٢٤٦- محمد محمد أمزيان: منهج البحث الاجتماعي بين الوضعية والمعيارية، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، فرجينيا، أمريكا، الطبعة الرابعة، ١٤٢٩هـ = ٢٠٠٨م.

٢٤٧- محمد محمد حسين: أزمة العصر، دار عكاظ، جدة، السعودية.

٢٤٨- محمد محمد حسين: الإسلام والحضارة الغربية، دار الفرقان.

٢٤٩- محمود خليف حضير الحياني: الاستشراق والاستغراب، دار غيداء للنشر، عمان، الطبعة الأولى، ١٤٣٤هـ = ٢٠١٣م.

٢٥٠- محمود شاكر: أباطيل وأسمار، مكتبة الخانجي، القاهرة، الطبعة الثالثة، ٢٠٠٥م.

٢٥١- محمود شاكر: المتنبي، مكتبة الخانجي، القاهرة، ١٤٠٧هـ = ١٩٨٧م.

٢٥٢- محمود شاكر: رسالة في الطريق إلى ثقافتنا، مكتبة الأسرة، القاهرة، ١٩٩٧م.

٢٥٣- المسعودي: التنبيه والإشراف، تحقيق: عبد الله إسماعيل الصاوي، دار الصاوي، القاهرة.

٢٥٤- المسعودي: مروج الذهب ومعادن الجوهر، الشركة العالمية للكتاب، بيروت، الطبعة الثانية، ١٩٩٠م.

٢٥٥- المسعودي: مروج الذهب، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، دار الفكر، بيروت، الطبعة الخامسة، ١٣٩٣هـ = ١٩٧٣م.

٢٥٦- مصطفى السباعي: الاستشراق والمستشرقون، دار الوراق والمكتب الإسلامي.

٢٥٧- مصطفى السباعي: السنة ومكانتها في التشريع الإسلامي، المكتب الإسلامي ودار الوراق، الطبعة الثانية.

٢٥٨- مصطفى حلمي: الأخلاق بين الفلاسفة وعلماء الإسلام، دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان، الطبعة الأولى، ١٤٢٤هـ = ٢٠٠٤م.

٢٥٩- مصطفى صادق الرافعي: تاريخ آداب العرب، دار الإيمان، المنصورة، مصر، الطبعة الأولى، ١٩٩٧م.

٢٦٠- مصطفى كامل باشا: مصطفى كامل باشا في ٣٤ ربيعا، جمعها: علي بك فهمي كامل، مطبعة اللواء، القاهرة، الطبعة الأولى ١٣٢٦هـ = ١٩٠٨م.

٢٦١- المقدسي: أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، مكتبة مدبولي، القاهرة، الطبعة الثالثة، ١٤١١ه =١٩٩١ م.

٢٦٢- المقري: نفح الطيب في غصن الأندلس الرطيب، تحقيق د. إحسان عباس، دار صادر، بيروت.

٢٦٣- المقريزي: السلوك لمعرفة دول الملوك، تحقيق: محمد عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٨هـ - ١٩٩٧م.

٢٦٤- مناع القطان: تاريخ التشريع الإسلامي، مكتبة وهبة، الطبعة: الخامسة ١٤٢٢هـ=٢٠٠١م.

٢٦٥- موقع «إسلام ديلي» بتاريخ ٣٠/ ١/ ٢٠٠٥م.

٢٦٦- موقع «الجزيرة. نت» بتاريخ ١/ ١١/ ٢٠٠٢م.

٢٦٧- موقع «العربية. نت» بتاريخ ٢/ ٥/ ٢٠١٢م.

٢٦٨- مونتجمري وات: فضل الإسلام على الحضارة الغربية، ترجمة حسين أحمد أمين، مكتبة مدبولي، الطبعة الأولى، القاهرة، ١٤٠٣هـ= ١٩٨٣م.

٢٦٩- مونتجمري وات: محمد في مكة، ترجمة د. عبد الرحمن الشيخ، حسين عيسى، مراجعة د. أحمد شلبي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠٠٢م.

٢٧٠- مونتسكيو: روح الشرائع، ترجمة عادل زعيتر، الهيئة العامة لقصور الثقافة، القاهرة، ٢٠١١م.

٢٧١- الميداني، أحمد بن محمد النيسابوري: مجمع الأمثال، تحقيق محمد محيى الدين عبد الحميد، دار المعرفة، بيروت.

٢٧٢- نازك سابا يارد: الرحالون العرب وحضارة الغرب في النهضة العربية الحديثة، دار نوفل، لبنان، الطبعة الثانية، ١٩٩٢م.

٢٧٣- النباهي: تاريخ قضاة الأندلس، تحقيق: لجنة إحياء التراث العربي في دار الآفاق الجديدة، دار الآفاق الجديدة، بيروت، الطبعة الخامسة، ١٤٠٣هـ.

٢٧٤- الندوي: السيرة النبوية، دار الشروق، جدة، السعودية، الطبعة الثامنة، ١٤٠٩/ ١٤١٠هـ= ١٩٨٩م.

٢٧٥- الندوي: ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين، مكتبة الإيمان، المنصورة، مصر.

٢٧٦- الندوي: موقف العالم الإسلامي تجاه الحضارة الغربية، المجمع الإسلامي العلمي، ندوة العلماء لكهنؤ، الهند، ١٣٨٢هـ= ١٩٦٣م.

٢٧٧- نشوان بن سعيد: الحور العين، تحقيق: كمال مصطفى، مكتبة الخانجي، القاهرة، ١٩٤٨م.

٢٧٨- النووي: المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج، دار إحياء التراث العربي – بيروت، الطبعة الثانية، ١٣٩٢هـ.

٢٧٩- النويري: نهاية الأرب، دار الكتب والوثائق القومية، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٤٢٣ه.

٢٨٠- نيتشه: هكذا تكلم زرادشت، ترجمة: فليكس فارس، مطبعة جريدة البصير، الإسكندرية، ١٩٣٨م.

٢٨١- هاملتون أ. ر. جب وآخران: وجهة العالم الإسلامي، ترجمة: محمد عبد الهادي أبو ريدة.

٢٨٢- هربرت جورج ولز: معالم تاريخ الإنسانية، ترجمة عبد العزيز توفيق جاويد، الهيئة المصرية العامة، القاهرة، ١٩٦٧م.

٢٨٣- الهروي، علي بن أبي بكر بن علي: الإشارات إلى معرفة الزيارات، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٤٢٣هـ.

٢٨٤- ول ديورانت: قصة الحضارة، ترجمة مجموعة، الهيئة المصرية العامة

للكتاب، القاهرة، ٢٠٠١م.

٢٨٥- ياقوت الحموي: معجم البلدان، طبعة دار الفكر، بيروت.

٢٨٦- يوسف القرضاوي: الاجتهاد في الشريعة الإسلامية، دار القلم، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٤١٧هـ = ١٩٩٦م.

٢٨٧- يوسف القرضاوي: الثقافة العربية الإسلامية بين الأصالة والمعاصرة، مكتبة وهبة، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٤١٤هـ = ١٩٩٤م.

٢٨٨- يوسف القرضاوي: مدخل لدراسة الشريعة الإسلامية، مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٤هـ = ١٩٩٣م.

٢٨٩- يوهان فوك: تاريخ حركة الاستشراق، ترجمة: عمر لطفي العالم، دار المدار الإسلامي، بيروت، الطبعة الثانية، ٢٠٠١م.

٢٩٠- Avishai Margalit, Ian Buruma: Occidentalism, (Penguin Books, New York, 2004).

٢٩١- Bulletin of the British Association of Orientalists 1979–80, vol 11.

٢٩٢- Charles Edwin Butterworth, Blake Andrée Kessel: The Introduction of Arabic Philosophy Into Europe (BRILL, 1994).

٢٩٣- Christine Kinealy: Charity and the Great Hunger in Ireland, The Kindness of Strangers (Bloomsbury Academic, 10 oct 2013).

٢٩٤- Christopher Dawson: The Dynamics Of World History (Sheed And Ward, 1965).

٢٩٥- Ernst Bloch: Natural Law and Human Dignity, translated by: Dennis J. Schmidt (MIT press, ١٩٨٧).

٢٩٦- Fernand Braudel: On History (University of Chicago Press, 1982).

٢٩٧- GF: Le Tuhfat al-Albab de Abu Hamid al-Andalusi Al-Gharnati, etided d'apres

les mss. 2167, 2138, 2170 de la Bibliotheque National et le Ms. D'alger, par Gabriel Ferrand. Jornal Asiatique, Juillet Septembre 1925 .

٢٩٨- Gustave E. Grunebaum: Modern Islam: The Search for Cultural Identity (University of California Press, 1962).

٢٩٩- Oswald Spengler: The Decline of the West (Oxford University Press, 1991).

٣٠٠- Oxford Dictionary

٣٠١- Stefan Goebel: The Great War and Medieval Memory: War, Remembrance and Medievalism in Britain and Germany, 1914–1940 (CambridgeUniversityPress, 2007) .

٣٠٢- www.cia.gov (The World Fact Book)

٣٠٣- www.pennlive.com

٣٠٤- www.tomdispatch.com

٣٠٥- www.westernstudiesinstitute.org

٣٠٦- www.witf.org